

المملوك المفقود

وهى رواية تاريخية تتمشى حوادثها مع كتاب (فتح مصر الحديث)

تأليف

دافيد . م بدو

عربها عن الانكليزية

احمد فهمى ابو الخير

ليسانسيه فى العلوم

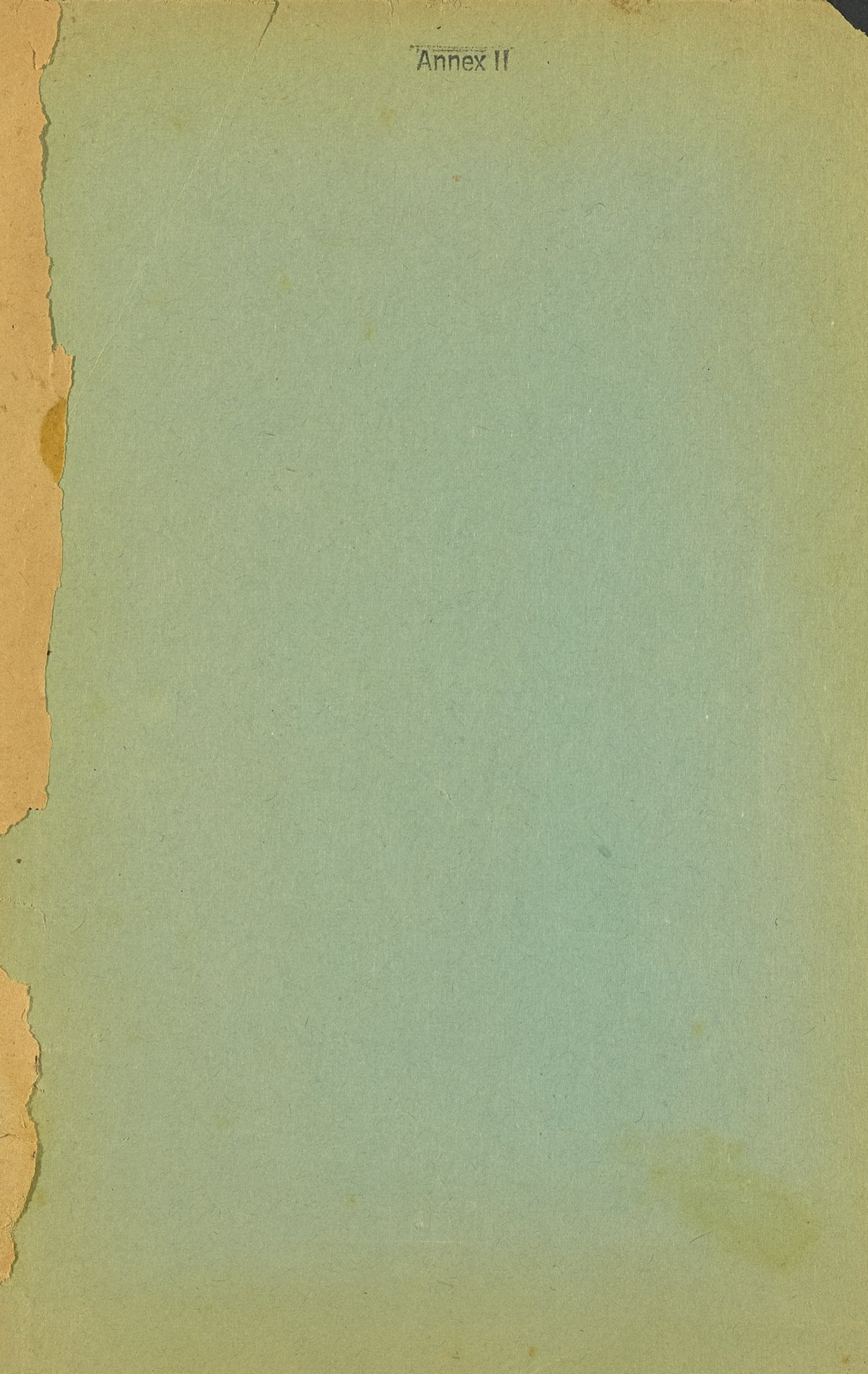
ومدرس بمدرسة الامير فاروق الثانوية

وطبعت على نفقة ادارة جريدة كوكب الشرق

الطبعة الاولى

سنة ١٣٤٤ هـ - سنة ١٩٢٦ م .

مطبعة الشمس


Annex II

Beddoe, David M.

احمد زكي ابو شادي
A.Z. Abushady

المملوك المفقود

محمود شميس حفار بمصر

وهي رواية تاريخية تتمشى حوادثها مع كتاب (فتح مصر الحديث)

تأليف

دافيد . م . بدو

عربها عن الانكليزية

أحمد فهمي ابو الخير

ليسانسيه فى العلوم

ومدرس بمدرسة الأمير فاروق الثانوية

وطبعت على نفقة ادارة جريدة كوكب الشرق

الطبعه الأولى

سنة ١٣٤٤ هـ - سنة ١٩٢٦ م .

مطبعة الشباب لصاحبها محمد عبد العزيز الصدر

مقدمة الرواية

بقلم صاحب كوكب الشرق

لما كنت اكتب تاريخ (فتح مصر الحديث) وقعت فى يدى ، بين الكتب التى كنت ابحث فيها عن المصادر التاريخية لهذه الفترة، رواية باللغة الانكليزية اسمها The lost Mameluke أى المملوك المفقود تأليف (دافيد بدو) David Beddoe (وهو ليس من الروائيين المعروفين) فدهشت مما ورد فيها من المعلومات والانباء التى تدل على أن المؤلف درس تاريخ هذه الفترة دراسة طيبة واطلع على كتاب الجبرتى أو على ترجمته الفرنسية .

وكتبت عن هذه الرواية فى صحيفة ٣٢٥ من كتاب (فتح مصر الحديث) فقلت : —

« واتخذ كاتب انجليزى من كتاب الروايات الخيالية الممزوجة بالحوادث التاريخية حادثة ابنة البكرى جزءاً من موضوع رواية اسمها « المملوك المفقود » تتداولها الايدى فى كل مكان وزمان . »

وقد عز على أن لا تعرب هذه الرواية فى الوقت الذى يظهر فيه كتابي (فتح مصر الحديث) فكلفت الاستاذ الفاضل احمد افندي فهمى ابو الخير بتعريبها ونشرت بعض فصولها الاولى في جريدة المحروسة يوم كنت أصدرها وأحررها . ثم قصدت أن تتم مطبوعة لتقرأ مع كتاب التاريخ فى وقت واحد .

والرواية في نظري درة فاخرة من درر الادب وقد وضعها مؤلفها عن مصر واحوالها وفى أواخر القرن الثامن عشر — اى قبل الحملة الفرنسية بزمن قليل ، حين كان يتنازع الحكم فى مصر من المماليك مراد بك وابراهيم بك، وقد أدمج فى هذه القصة تاريخ مصر في ذلك

العهد ، فالحملة الفرنسية ، فنابوليون وقواده ، وعلماء وعلماء مصر فى زمن الحملة ، ثم خروج نابليون من مصر وتولية كليبر وقتله ، ومنو واسلامه ، الى قدوم الانجليز مع الاتراك ، وجلاء الجنود الفرنسية عن وادى النيل ، وتنازع الملك من بين الاتراك والمماليك — يتخلل ذلك وصف صادق لعادات المصريين ومواسمهم فى تلك الفترة من الزمن. ومصادر المؤلف فيما كتبه عن التاريخ والاشخاص والعادات راجعة الى أسناد موثوق بصحتها وروايتها، واعتقد اننى أهدى لقراء العربية فى مصر رواية من ابلغ الروايات واصدقها فى وصف حالة مصر فى تلك الايام، واشهد لمعربها الاديب بأنه اجاد في تعريبها كل الاجادة

احمد حافظ عوض

صاحب جريدة كوكب الشرق



مقدمة المؤلف الانجليزي

لم يتغير الحكم في بلد فى العالم غير مرة تغيره فى مصر. ولم يتعاقب الحكام عليه اكثر من تعاقبهم على وادى النيل الخصيب - فلقد كرت على حقول هـذا الوادى ومزارعه الغنية ، ذات القنوات الجاريات ، جيوش البابليين ، ففيالق الاشوريين فجحافل الاغريق ، فجموع الرومان ، ولقد تفرق الكل أيدى سبا ، وبادوا كل فى دوره

ذهب الجميع فلا القصور تري ولا أهل القصور

وأفسحوا المكان للخلفاء العرب البغداديين ، وللسلطان سليم التركى وقومه الأشداء الكوامر . ولكن لم يمتز عصر من عصور تلك الامم التى وطئت سنابك خيلها أرض الفراعنة ، بمثل ما امتاز به عهد أولئك المماليك الذين قبضوا على ناصية الحكم فى مصر من القرن الثالث الى نهاية القرن الثامن عشر من خلابة خاصة، وأثر ساحر. على ان امتلاك مصر بواسطة أولئك الافاقيين ،الذين أغاروا عليها ، ليس فى الحقيقة بأقل الاعاجيب العديدة التي تمخضت مصر عنها وهو الوحيد من نوعه في تاريخ الامم .

لما ابتاع السلطان الصالح في القرن الثالث عشر من جنكيز خان أسرى جيوشه الفاتحة ، لم يكن يدرك قط انه وضع على عاتق بلاده نيرا ثقيل الحمل ، وذلك لانه لما عادت جموع التتار الى الجانب المظلم الذى منه ظهروا فى العالم - ولم تكن بغداد وخلفاؤها وقتئذا لا مجرد ذكرى قد تمر بالبال - تولى هؤلاء الخدم المماليك الحكم فى مصر ، وبلغوا فيه من المظاهر والابهة ما لم يبلغه أحد ، حتى هارون الرشيد

فى عصره الذهبي ـ ولما كان أولئك الفتيان رغم نضارة بشرتهم وطراءة اديمهم قوما حربيين بالفطرة (ولا ننسى انهم نزحوا الى مصر من الشمال) فانهم لم يتأخروا عن انتهاز الفرصة الماثلة امامهم ، فاستوطنوا اكثر بلاد العالم خصبا ، وأرخاها عيشا . سكنوا مصر وأهلوها أهل سلم ووداعة ، لا يعنيهم من دنياهم الا أن يعيشوا هادئين ، يفلحون أرضهم ويجنون ثمارها ، ويجمعون حاصلاتها ، فلا عجب اذا قبض هؤلاء القساة بأيديهم على ناصية الديار المصرية ، وأصبحوا ملوكا لها وسلاطين فيها .

ومضى على مصر خمسمائة عام ، ظل يتدفق خلالها تيار مستديم من الغلمان المختطفين من جبال جورجيا وجبال الشركس ، ليسدوا الثغرة التى تحدث في صفوف المماليك وكثيرا ما كان الموت يتخطف ابناءهم فكانوا كالذباب تسقطهم المنية الواحد بعد الآخر ، وبقى قليل منهم على قيد الحياة الا انهم فقدوا صفات آبائهم الحربية . ومن المعلوم طبيعة أن جو مصر الهادى الدافيء لا يخرج الا قوما يفلحون الارض جنوحين الى السلم ، لا قوما حربيين من اهل الطعن والضرب .

ومع أن اولئك المماليك لم تقيدهم اية دعوة وطنية ، ولم يكن لهم أن يفخروا بجنسية أو قومية الا أنهم مع ذلك كله ، أجمعوا أمرهم ، وأحكموا الصلة بينهم ، ولصق بعضهم ببعض حتى استطاعوا الاحتفاظ بالحكم خمسة قرون متوالية وحكموا اكثر من خمسة ملايين من البشر . بل ان حكمهم دام حتى بعد الفتح العثمانى ولو ان سلطانهم نقص قليلا عن ذى قبل .

وعدا ذلك فان شيع الممالك الواطئة (هولاندا وبلجيكا) وفرسان الصليبيين لم يكونوا أكثر تشبثا واستمساكا بحقوقهم وامتيازاتهم من أولئك الآفاقيين الدخيلين على مصر ، والذين تعاقبوا على تولى الحكم عليها . ذلك لان الشرط الجوهرى فى الدخول فى عصبتهم ، والانتماء

الى عشيرتهم ، أن يكون الطالب قد قضى من حياته فترة من الزمن فى الرق والعبودية — اى أن يكون مملوكا .

تمسكوا بتلك القاعدة تمسكا شديدا، حتى انه فى أيام سطوتهم وشدة بأسهم ، لم يكن حتى لابن شيخ البلد ان يتسنم من الوظائف وظيفة أكبر من وظيفة (كاشف) الا اذا كان في يوم من ايام حياته مملوكا رقيقا.

ولقد كان النظام عجيبا ، فان الولد الشركسى او الكرجى كان يختطف من بلده أو يشتريه نخاس يفد به على مصر ، حيث يبيعه الي أحد بكوات المماليك ، فيأخذه هذا الى داره وهناك يربيه ويثقفه ويدرب به على الفروسية وضرب السيف ويعلمه تقاليد المماليك وأساليبهم ، الى ان يصير متضلعا فيها وعارفا بها (كما كان الحال في انجلترا فى ايامها الغابرة ، حيث كان يربى الصبي في بيت أحد البارونات أو اللوردات أصحاب المقاطعات) ثم يهبه البيك بعدئذ حريته . بل انه قد يستخدم ماله من نفوذ وجاه، فيجعله بيكا أو سنجقا مثله ، وذلك اذا كان الفتى عزيزا لديه محبوبا منه . ولئن صح أن جنديا بسيطا تحت امرة ذلك الكورسيكى العظيم (نابوليون) جمل عصا المارشالية فى مزوده ، لصح من باب أولى ان يحمل المملوك منهم حظه ومستقبله فى شخصه وبين يديه .

ولقد كان ملك مصر وخيراتها مطمح آمال كل فرد من اولئك المماليك ، وتلك امنية ما كان يتوانى المملوك عن التطلع اليها ، وكان ادراك ذلك فى نظر المملوك ميسورا اذا وفق فى استخدام القوة البدنية التى منحها الله اياها . ولقد كان طريق الوصول الى ذلك الامل مترعا بالدماء يدلك علي ذلك ان متوسط زمن الحكم لاى واحد من سلاطينهم لم يتجاوز ثلاث سنين خلال قرون خمسة متوالية بسطوا فيها رواق ملكهم على مصر .

فالخنجر هو الذى كان يمهد السبيل الى الحكم كما انه هو الذى كان يضع حدا لهذا الحكم وينهيه الى الابد !! وقام على كل مديرية من المديريات الاربعة والعسرين التى قسموا مصر اليها ، احد البكوات واليا عليها وله من النفوذ والسلطان فيها مالم يكن لاحد اللوردات النورماندين في مقاطعته وكان هؤلاء البكوات ينصبون عليهم منهم رئيسا او شيخ بلد ينتخبونه هم انفسهم فيبقى في منصبه هذا المحفوف بالخطر حتى يحين وقت يظهر فيه تفوق غيره عليه وينازعه الحكم ، فيسمع فجأة استصراخا ، واستنجادا ، ودعوة الى السلاح ، تتلوها قرقعة السيوف ، فطعنة سريعة من خنجر ، فينتهى عندها الامر ؛ ثم يحتل القاتل ذلك المنصب زمناما وهكذا الامر دواليك ويظل هذا المنصب قبلة انظار الكثيرين ؛ ومطمح آمالهم ، ولا يمكن لغير واحد ان يحل فيه ويستأثر به .

وظهرت حوالى آخر القرن الثامن عشر ظواهر تدل على أن حكم المماليك الذى ظل قائما سنين طويلة آذن بالزوال وانه كما نشأ في الدماء سيبيد في الدماء وان يكون ذلك في وقت كان المماليك كعادتهم يتنازع السيادة عليهم اثنان يتكافحان كفاح الموت احتفاظا بالملك والسلطان .

ولا اريد أن اسهب في القول في هذه المقدمة غير انى سآتى في سياق الحديث على ذكر تلك الحرب الشعواء والكفاح الطويل اللذين نشبا بين مراد بك صاحب السيف وابراهيم بك استاذ الدهاء والمكر . كما انى سآتى على ذكر قوم آخرين من شعوب اجنبية القت بهم المقادير في مصر خلال هذه الازمنة الثائرة .

دافيد . م . برو

الفصل الاول

فى حارة النصاري

« حى على الصلاة ! حى على الصلاة ! »

ذاك هو الاذان المرتفع الواضح ، قرع الاسماع خارجا من مأدنة مسجد الحسين . وقد وقف عليها شبح نحيل ، هو شبح المؤذن ، لا تتبينه العين وقد غشاه ظلام الليل الزاحف وبقي ضوء ضئيل فى الافق منتشرا من الغرب فوق سطوح المنازل ، كأنه أثر من آثار عظمة النهار الراحل . لان وهج الشمس الا زلى كان قد ذاب بلطف واستحالت اشعته القرمزية الارجوانية ، وانحلت حمرته القانية ، وبساطه السندسى الخزامى الذي يحاكى الطيف الضوئى وأنقلب الكل الى سواد وظلمة هما حنادس الليل الهادىء العجيب ، الذي سرى فيه ذلك الصوت الرزين الرنان وانتشر ، يدعو الناس للصلاة فكان ذا وقع عجيب على السمع وأثر مدهش في النفس .

« حي على الصلاة ! حى على الصلاة ! »

وكان الناس قد هجروا النوم في تلك الليلة ، وكانت صلاتهم فيها أقل من المعتاد ، ذلك لانها كانت الليلة التي تلت ليلة قطع الخليج ، وهو اليوم الذى به يعرف الناس ان نهر النيل الميمون الغدوات والروحات قد بلغ منسوب الماء فيه الحد المرجو ، مبشرا بالنماء الكبير ، والخير الوفير ، وأحتفل الناس داخل المدينة ليلا بالعيد الذي أقاموا معالمه نهارا على ضفة النهر وفوق مياهه .

وظل جمهور كبير يروح ويغدو حول البحيرة الكبيرة فى الازبكية

في حين ان القوارب الغاصة براكبيها كانت تسير هنا وهناك ، حاملة مشاعل ملتهبة متوهجة ، تسبح فوق سطح الماء الراكد، وفي جو سكنت حركة الهواء فيه . وبالاختصار قد امتلأت المدينة فى تلك الليلة بالجلبة والأعلام والحركة .

وهناك فى الحارة التي في جامع الحاكم ، والتى تؤدي الي حارة النصارى حيث يقطن الاجانب اسرع رجل وامرأة السير ، لا يلويان على شيء ، كأن تلك الافراح وهاتيك الزينات لم تستوقف نظرهما ، ولم تتأثر بها حاسة من حواسهما .

وكان الرجل يلبس قفطانا مسترسلا من الحرير المشطب المعضد ، وعلى وسطه حزام من الحرير الاحمر ، وكان ينتعل في قدميه العاريتين حذاء اصفر (بلغة) يلتطم اذا مشى بكعبه فيسمع له خفق أشبه بالتصفيق . وقد يحسبه الرائى انه من صميم أبناء البلاد لان وجهه - أو ما كان يظهر من وجهه لدى مروره بمصباح مضيء - كان شديد السمرة ، أما عن طبيعة واما عن تعرض للشمس على أن حقيقة أمره لم تكن تخفى على اى قاهرى (نسبة الى القاهرة) فقد كان على رأسه القلبق ، وهو طربوش طويل مصنوع من الصوف الاسمر ، اتخذ رمزا للفرنجى ، وشارة احتقار وازدراء لحامله ، اذا مر به مسلم تقى ورع جمع ثوبه بسرعة ، وقال متمتما . « نصرانى - مسيحى - (ملحة) فى عين الكافر »

أما المرأة التى كانت تسير بجانبه غير مستطيعة اللحاق به لسرعة سيره ، فقد يخطىء الناظر اليها حتى ليحسبها قاهرية مثله ، اذ لم تكن تلبس ما يشعر أنها غير مصرية ولم يكن عليها ما عليه من شارات وعلامات . كانت تغطيها (حبرة) حريرية واسعة ، تنسدل على جسمها ، من رأسها الى قدميها ، وعلى وجهها برقع من الحرير الابيض لم ينكشف

ألا عن عينيها . وكانت ترتب ثوبها الغير المهندم وتنظم طياته بسهولة اكتسبتها من طول المران . أما الثوب في حد ذاته فلم يصنع خائط ثوبا أقل منه هنداما ، ولا أردأ منه زيا ، يراد به اخفاء جمال المرأة ورشاقتها عن أعين الناظرين ، وأبعاده عن أعين المحدقين ، مخافة ان يكون به نقص يذهب بروائه ، أو عيب يضيع بهجته وزينته . ان تينك العينين اللتين كانتا تبصران من فوق ذلك النقاب ، كانتا وحدهما فى الحقيقة تنبئان عن أن تلك المرأة ليست من نساء القاهرة ، وتدلان على أنها ليست من بنات وادى النيل .

اقترب الاثنان ، الرجل والمرأة ، من الجامع ، واذ ذاك التفت اليها الرجل وخاطبها بلهجة جافة عنيفة قال « اتعبت ؟ »

قالت ـ وهي صبور علي مابها « قليلا ولكن جد فى السير . جد فى السير »

قال ـ « أظن انه لدينا وقت كاف . لم يمض علي غروب الشمس أكثر من نصف ساعة ، بيد انهم ، على غير العادة ، يغلقون الابواب عند حلول الميعاد بالضبط . لعنة الله على ذلك الملازم الانكشاري الجديد . »

وصلا عند لفتة الحارة الى عطفة واسعة تؤدى الي الطريق العمومى فوافاها في نفس الوقت الذى كان فيه الانكشاريون يوصدون الابواب الخشبية الكبيرة . وماكادا يلجانها حتى أغلق الباب وراءهما . وكان لاغلاقه صوت مزعج ، وصرصرة مقلقة بل وكان للمزلاج صوت كالصلصلة .

وكانت تلك الحارة الطويلة التى سار فيها تتفرع من الجانبين الى اخري ثم أخرى وهكذا فكان الحي اشبه شيء بجحر الارنب .

ولم يكن ضيق تلك الحارة قاصرا على ارضها فقط ، بل أن الضيق كان يتناول ما بين الطبقات العليا من المنازل ، لان تلك الطبقات كانت

ترتكز علي قوائم خشبية ناتئة من الجدران يقابل بعضها بعضاً وبها المشربيات المصنوعة من الخشب المخـروط المشبك بعضه ببعض فكان لايرى من السماء الا فرجة يسيرة .

سارا نحو عشرين ياردة في الحارة ، ثم وقفا أمام باب خشبي متين ثقيل الوزن مثبت في الحائط ، فأخرج الرجـل من جيبه مفتاحا كبير الجرم وأدخله فى القفل ودفع الباب برجله دفعة قويه فانفتح وتسلل منه الى الممر المظلم الذى يليه ، وهناك انتحى جانبا لكى تمـر المرأة . ثم قدح زناده واشعل ثقابا وأغلق الباب اغلاقا محكما وبعد ذلك صعد علي السلم ودخل حجرة وأضاء مصباحا كان معلقا في سقفها تنبعث منه رائحة كريهة .

ولم تكن تلك الحجرة واسعة ولم تكن مؤثثة . لم يكن بها من الرياش سوى موقد (منقد) كبير من النحاس في الوسط واريكه (كنبيه) ممتدة على طول الحائط ، ومائدة بسيطة من الخشب ، وبضع كراسى ، وقليل من الادوات المنزلية الصغيرة .

حلت المرأة حبرتها وفكت رباط برقعها (يشمكها) ووضعتها علي المـائدة وهي ضجرة متعبة ثم ذهبت الى الموقـد النحاسى فأوقـدته ووضعت فوق ناره ابريق القهوة وكان من النحاس ايضا .

وكنت ترى على مدى البصر نورا يترجرج كأنه بريق الحباحب اذا ما سار فى هذا الطريق الغير الممهد ، سائر ادرع ليله وامتطاه . وكانت قوانين هذا الحي شديدة صارمة ، فالويل لمن يعثر عليه العسس ماشيا في الظلام غير حامل مصباحا يضىء له الطريق . ولقد كان جزاء المخالف لتلك الأوامر أن يقضى بقية ليله فى (القره قول) ، فاذا جاء الصبح الزم بدفع غرامة عقابا له على سيره فى الظلام دون أن يكون معه ذلك المصباح .

مال الرجل نحو المقعد ورمى بنفسه عليه واشعل لفافة «سيجارة»

وجعل يرقب المرأة وعلى وجهه علامات الضيق والضجر وكانت المرأة في الخامسة والعشرين من عمرها صفراء الوجه غير متناسبة الخلق الا انها ليست قبيحة الوجه وكان شعرها الأسود الكث الضارب في السمرة البراقة اذا وقع عليه ضوء المصباح ، وشفتاها الكثيرتا الحركة، وعيناها الواسعتان العسلمتان المنبثقتان تحت اهداب طويله سوداء - كل ذلك كان يكفي ليسدل ستارا على ما ليس بجميل في وجهها ، وجعله غير واضح الشناعة .

لقد كان هذا الوجه ، على ما كان به في هذه الساعة من علامات الحزن والتعب اللذين بلغا غايتهما ، عجيبا ، يبعث على الدهشة ،لالشيء سوى ما كان يخفى بين طياته من أشياء كامنة ودلائل خفية .

اما الرجل فكان من بعض الوجوه اكثر قبولا . كان طويل الأعضاء واضح الملامح، نحاسي لون الوجه الا عند الجبهة فقد كان يغطيها القلبق ، ولم يكن غير حذاب غير ان عينه السريعة الحائرة ، ونظرته الشافنة المتبرمة ، كانتا تنبئان عن طيش وجرأة .

ففي المرأة كانت السحنة بين بين ، لاحسنة ولا قبيحة ، اما الرجل فقد كان على العكس من ذلك ، غير انه كان يعوزه انبساط الاسارير . واذ جلس على المقعد مادا ساقيه أمامه جعلت اصابعه تعبث بشعره بحالة عصبية عنيفة .

لم يجر حديث بينهما ، فلم يكن يسمع الا اصوات القوم في المدينة يمرحون في عيدهم ، وكانت اصواتا غير متناسقة ولا متوافقة .

ووضعت المرأة الابريق الصغير على نار الموقد كي يغلى ماؤه ، وجلست تخيط بعض ثيابها وجرت انامله علي الثوب جادة في العمل . ولكن سرعان ماأهاج صوت القوم بعض افكار سيئة وبعض ذكريات مؤلمات ، فوقفت اصابعها عن العمل دفعة واحدة وجعلت الدموع

الغزيرة تساقط من عينيها واحدة تلو الاخرى على الخوان وصار زميلها يرقبها خلسة فاهتز قلبه عطفا عليها، كأن منظر الدموع قد أثر فيه ثم التفت اليها وقال، ولم يكن فى صوته ولهجته شيء من الخشونة «وى يا مرغريت وى ماشاء الله عليك انها ارادة الله وذاك قضاؤه وقدره»

التفتت اليه وقد نفد صبرها كأن لكلماته معنى آخر لم يجيء به منطوقها وقالت.

«اني لأعرف مثلك يااستيفن ان كل الدموع، التى تستطيع العين ذرفها، لن تفيدني شيئا. أما ارادة الله هذه فذلك مالا استطيع فهمه وتصديقه. انني صرت اكره ذلك التعبير فلطالما رن فى اذني واني لاسمعه كل يوم الف مرة او يزيد، فان اقبلت الدنيا قلت ماشاء الله، وان ادبرت قلت ماشاء الله، قل لى متى استريح من تلك الكلمات؟»

قال الرجل «وما الذى ستنالين من وراء حزنك؟ اني اشعر نفس شعورك، وان قلبي ليحتوي اجتواء قلبك. هذا العيد يجيء كل سنة ببؤسه وشقاوته على وعليك. يذكرني دق هاتيك الطبول المشؤومة وانغام تلك الموسيقى اللعينة بتلك الليلة التى قضيناها منذ سنتين، حين عاد احمد من الخليج وحده، يحمل الينا اخبار السوء والشؤم والآلام، حين رجع ينبئنا بان وحيدنا قد سقط فى الماء، وراح مع الامواج الا تذكرين يامرغريت تلك المأساة لاارانا الله مثلها. ولكن قولى بربك أى فائدة نرجوها من وراء الحزن؟»

فاجابت بصوت الحزون «لو انه عاش لبلغ السابعة من عمره. والآن ماشأننا بهذا البلد اللعين ولماذا نحن فيه الى اليوم مقيمان؟»

قال «العيش يامرغريت والحياة.»

قالت متهكمة «العيش والحياة!!» ثم بعدئذ علا صوتها فجأة وقالت بعنف وشدة «أو تسمي وجودنا هذا حياة وعيشا؟ اليك نسق ماتسميه

حياة . اننا هنا محبوسون في حارة كهذه تغلق علينا الابواب عند الغروب كأننا صبية صغار ولقد سمح لنا بالمكث هنا في هذه البلاد لنقاسي ما نقاسي ولنكون عرضة للسب والايذاء والتحقير ، يبصق علينا القوم الذين نعيش بينهم ، ويدوسوننا باقدامهم . ولماذا كل ذلك ؟ لست أدرى وماذا جنينا من ورائه ؟ لا استطيع ان افهم هل حصلت على الثروة التي كنت تبتغيها ؟ وتلك مشروعاتك ماهي واين هي ؟ انها خيال واضغاث احلام . لم لم نعد ادراجنا الى بلادنا من ثماني سنوات عند ما تزوجتك في الاسكندرية ؟ لقد رجوتك ساعتئذ ان تعمل ذلك ولكنك لم تفعل »

احتقن وجه الرجل غيظا الا أنه مع ذلك قال « نعود ادراجنا الى بلادنا ! ترى أي مطمح فى انجلترا ترنو اليه عين الابن الاصغر طرد من داره دون ان يثقف او يدرب على شيء ، وابعد من مسكنه لان الوالد لم يترك من ثروته الا مايكفى الابن الاكبر فقط ومالا يفى بحاجة من عداه ؟ لا اكتمك اننا لم ننجح البتة هنا » وهنا ادار نظره في حجرته العارية الخالية من الاثاث وقال متابعا الحديث « بيد ان هناك فرصا قد تسنح . من يدري ؟ من يدرى ؟ ربما صرت اكبر تاجر في الشرق » ثم علا صوته عن ذى قبل وقال « انظرى ماذا فعل البعض فى الهند وماذا تم لهم فيها ، فلم لا يكون لنا فى مصر ما كان لهم في الهند ؟ »

عندئذ تنهدت المرأة وكانت تفضل الامر الواقع على الامر المحتمل الوقوع .

قال – مواصلا الحديث « هذا مكسيم ليجران الم يتيسر له الامر ؟ لقد كان أفقر منى وأشد بؤسا . الم يصبح الآن رئيس دار السلاح (الترسانة) يتقاضى شهريا عشرة اكياس من الذهب عدا ما يسنح له من الفرص التى تكسبه أضعاف ذلك ؟ ولا تنسى انه لم يضرب في العلم بسهم ولم ينل قسطا من التربية . »

ظهر الجد على وجه المرأة ولكنها لم تنبس ببنت شفه .

استمر الرجل في حديثه معتذرا قال « أعرف ان حياتنا هذه وعيشنا لا يطيبان لامرأه فلماذا لم اعمل ما اقترحته عليك من السفر الى بلادنا والمكث فيها اثنى عشر شهرا كاملة ؟ انى استطيع ان أحصل على المال ففى وسع المسيو ليفيبر أن يقرضنيه اليس كذلك ؟ »

هزت المرأة يدها ضجرة واشاحت بوجهها هازئة فقال « لا توافقين؟ اذن ليت الاحمقين مرادا وابراهيم يصطلحان أوليتهما يقتل أحدهما الآخر . اذن لانفرج الكرب وتيسر الامر ، فالحرب بينهما عطلت المصالح وعاقت حركة التجارة فعم الكساد واشتدت الازمة .. »

لم تجب المرأة بشيء اذ طالما سمعت منه هذا الحديث خلال السنوات الثماني التى قضتها متزوجة من استيفن هيلز .

لقد مر زمن كانت تصغى اليه بشغف حين كان يحدثها عن أحلامه البعيدة الحصول معتقدة فيها اعتقاده فيها ، ومصدقة اياها تصديقه لها . ولكن هذ الحدس لم يتحقق ، ولم يكن نصيب تلك الآمال الا الاخفاق ، وجاءت وفاة ابنها ضغثا على اباله .

اما استيفن نفسه فلم توهن عزيمته هذه السنون الثماني التي قضاها في سعى غير مثمر وجهد غير منتج . كان يقول فى نفسه لئن لم اوفق اليوم فقد اوفق فى غدى - ذلك الغد الابدى ، غد القوم الذين بينهم يعيش ، وفى بلادهم يقيم . على أن مشروعاته لم تكن هى التى يلتوى عليه امرها ، وانما الظروف هى التى لم تكن تتلاءم مع هذه المشروعات فكان نصيبها الفشل والبوار .

ولقد كان تاريخ حياته من بعض الوجوه غريبا . كان الابن الاصغر لسيد من الانجليز غير مفرط الاثراء ، وربى تربية عرضية ثم ارغم على ترك دار أبيه كي يعول نفسه بنفسه ، فحاول الكثير من الامور ورغب

عن هذا الى ذاك ولكنه كان قلقا جزوعا قليل التجربة صعب المراس ، فكانت طبيعته حجر عثرة فى سبيل نجاحه ، ولم يكن يستطيع للصوق طويلا بأمر بل كان بين كر وفر، الى أن اندمج اخيرا فى سلك بناة القلاع والحصون ، ومكث فى العمل ست سنين ارتقى فى خلالها الي رتبة ضابط غير مفوض . على أن وظيفته هذه لم ترق فى عينه فسئم العمل وغرض به، ومجته نفسه ، فراح يطلب الخلاص منه، وساعده صديق على بلوغ أمنيته.

ترك الجندية عائدا الي الحياة المدنية واستطاع أن يشغل وظيفة أخرى ملكية ولكنه لم يعمر فيها طويلا أيضا . امتلكت عليه مشاعره آراء غريبة وافكار عقيمة عن نجاح الاعمال والمشروعات فى الهند فقيد اسمه فى جدول المشتغلين في شركة جون .

وتوفى حيدر على الهندي وقتئذ ولكن ابنه تيبو صاحب لم يكن ليأبه له الانجليز كثيرا ، واحتاجت الحامية فى الهند الى مدد سريع فارسلت فصيله من الجند عن طريق مصر وذهب معها صاحبنا استيفن هيلز

وفى مدينة السويس أصيب بالطاعون فتخلف عن الحملة وبقى في السويس زمنا طويلا بعد مغادرة الحملة لها وكانت العلة قد ادنفته وأضنته ، ووقذته وانهكته .

لم يحفل بأمره أحد، ولم يذكره والد وليس له ولد، فقصد الاسكندريه وهناك وجد له عملا فى مكتب شركة من شركات الملاحه .

وهنا لاقى مرغريت هوب . تيتمت بعد موت أبيها ، وكان طبيبا انجليزيا جاء مصر مع زوج القنصل البريطاني لمعالجتها .

اصغت مرغريت لأقواله المبالغ فيها واصاخت تسمع ذكر مشروعاته، التى كان بها من خيلائه الشيء الكثير . وما هي الا عشية أو ضحاها حتى رضيت به ، في ساعة لهو وهوى ، زوجا لها وتزوجت منه .

ثم رزقت منه ولدا عاجلته المنية غرقا ولم يبلغ أشده ، وكان ذلك من سنتين مضتا في موسم قطع الخليج . ومضت سبع سنوات حصل في نهايتها على أن يكون شريكا في الربع في اعمال للمسيو جول ليفيبر الذي يتجر في بضائع فرنسية من ليون ، وكان يسكن في الدار الملاصقة لداره في حارة النصارى ، غير ان هذه الاعمال لم تكن ناجحة النجاح المرجو .

سمع قرع خفيف على الباب فوجم الرجل وانبسطت أسارير المرأة وألقت مابيديها وقالت ... « هذا هو المسيو ليفيبر »

قال الرجـل « تفضل » ثم انتصب واقفا قائما وما كاد يقوم حتى فتح الباب وولج منه شيخ قصير القامة يلبس قفطانا وعلي رأسه عمامة كبيرة ثم وقف عند المدخل وقد سدرت عيناه المبصرتان خلال منظار صنع اطاره من القرن ، كأن نور المصباح على ضآلته ، كان شديد الوقع على حدقتيه فبهرهما .

وقامت المرأة تحيي ضيفها قالت « تفضل يامسيو ليفيبر . لقد تأخرت اليوم علي غير عادتك »

فكان جوابه « لقد كنت مترددا أأحضر أم لا أحضر . ولكنى رأيت أن أمر عليكم لأقول لكم انى لم أنس واجبى أترانى أخطأت ياسيدتى ؟ »

قالت « كلا . لقد حللت أهلا ، ونزلت سهلا . واني لأرى تفضلك علينا بالزيارة كرما وبرا . »

صافح الفرنسى اليد التي مدت نحوه وانحنى الي الامام كثيرا فسقطت العمامة من فوق رأسه الصلعاء ، فصاح به استيفن مازحا « ان العادات الفرنسية ياليفيبر لا تتفق والعمامة المصرية » ثم قدم له السجائر ليدخن ـ قال الضيف « ان في القاهرة كثيرين يفقدون الليلة أكثر من عمائمهم » واذ قال ذلك نفض الغبار عن عمامته ووضعها ثانيه

على جمجمته المصقولة الملساء .

قال استيفن « أكذا ؟ »

قال « ان مراد بك ومماليكه هبطوا من الجيزة على القاهرة عابرين النهر على جسر من القوارب ، وقد انقسم الجسر حين مرورهم قسمين ، وينسب البعض ذلك لشدة الفيضان ، ويقول آخرون انه خطة مدبرة أريد بها اقتناصهم حيث لامدد يمكن أن يصل اليهم من الجيزة . »

قالت المرأة « ولكن الباشا سيفرد لهم بلا نزاع مكانا خاصا فى القلعة أليس كذلك ؟ »

قال الفرنسى « الباشا ! لا ليس الباشا ياسيدتى . انه العوبة فى أيدى المماليك وانه سينضم ، كما هي العادة ، الي الجانب الأقوى ، وانه سيوصد الابواب في وجه القادمين الهاربين . لقد كنت من أمد قصير فى خان الخليلى أزور حافظ التاجر العجمى من أجل تلك السجاجيد التى فكرنا في ارسالها الى مرسيليا ، وعند ماخرجت من عنده ، كان مراد وأربعون من مماليكه معسكرين فى الميدان القريب من خان الخليلى ، وقد أقام الجند على ابواب المدينة لخفارتها »

قال استيفن « عجيب ماتقول اننا لم نعلم شيئا البتة عن ذلك ، ولقد كنا عصر اليوم فى بولاق نعود باغوص افندي الوكيل المريض بالحمي »

وقالت زوجه « أربعون مملوكا فقط ؟ ان ابراهيم بك يستطيع فى لحظة أن يجمع أربعمائة جندي ، اذ أن هذا العدد يدرب صبح كل يوم فى الرميلة على الحركات العسكرية . »

قال استفن « ولكن لاتنسى أن علي رأس الأربعين جنديا قائدا محنكا وبطلا مغوارا . أقسم بالله انى أود أن أقف بجانب مراد فى الميدان انه رجل ونعم الرجل . »

قال الفرنسى وهو يبسم « أن المسيو هيلز جندي شجاع وهذا بلا شك يعلل ميوله وأذواقه . أما عنى فانى أفضل أن أشاهد الحرب من فوق المأذنة . ليكونن موقفى اذ ذاك من الوجهة الصحية من خير المواقف وأكثرها ملاءمة للصحة ، وبخاصة اذا كنت أرى المماليك تتعارض أغراضهم وتتباين ميولهم ، وعدا كل هذا فان بيع سلع ليون خير عندي من شق الجماجم وقطع الحناجر . »

قال الآخر بلهجة التأكيد « وددت لو اننى كنت مملوكا »

نظر الفرنسى لصاحبه عاجباً مستغرباً ، ولكنه لم يكن غير معتاد سماع هذه الآراء العجيبة والتخيلات الغريبة من زميله ، ولو أنه فى الحقيقة ابتسم متغاضيا ، فان جول ليفيبر نفسه كانت له أحلامه هو أيضا عن أرض مصر الخلابة حيث هو الآن ، بعد هذه السنين العديدة تاجر صغير ، أثقلت كاهله الديون ، بعيد عن الاثراء الآن بعده عنه حين وفد على مصر قال « لست أستطيع تفهم ميولك واستيعاب أذواقك ياسيدي . فحسن أن أكون تاجرا كبيرا ، تجيئنى القوافل محملة من الهند ومن الشرق ، فأبعث بها الى الأسواق الأوربية ولدى من السفين تمخر البحر الأحمر ، أسطول كبير ، ولي من السلع والمتاجر الكثير فى أحواض كل بلد على شواطئ البحر الأبيض المتوسط . هذا مطمع ياعزيزي يصح ان يشغل بالي ، ويستنفد وسعى ، وتتصرف فيه عنايتى . حسن كل هذا أما أن أكون مملوكا ، عبدا رقيقا ، لصا أبيحت له اللصوصية ، فهذا مالا أرضاه لنفسى ، وما لا أرمى اليه بطرفى ولا أفغر نحوه فمي ، تلك ضعة وصغار .

« فت ماعلى من مات حرا نقيصة ألا انما النقصان أن تتهضما »

قال استيفن بحماسة « ضعة وصغار ؟ ان كل واحد من بكوات

المماليك فى نظري أليق بالملك من نصف ملوك أوربا ، الذين هم لعب لا ملوك . بل انه أليق من ملك فرنسا لويس السادس عشر ، الذي يتراوح التاج على رأسه ويهتز اهتزاز عمامتك على رأسك . اللهم الا اذا كان مايشاع عنه كذبا وزورا . ألا أمعن الفكر . ان لكل واحد من الأربعة والعشرين مملوكا مديرية ، يتصرف في أمورها ماشاء فله أن يفرض ماشاء من الضرائب ، ومن ذا الذي يستطيع أن يفتح فمه تبرما واستنكارا ؟ ألفلاحون انما وجدوا لمحض لهوه وسروره وفائدته ، ومشيخة البلد قريبة المنال ميسورة لدى أي واحد منهم ، وتركيا بعيدة عن مصر وسلطانها على مصر مشلول اليد مفكك العرى فانظر كيف يكون المجال الواسع المدى ، الذي ينبسط أمام رجل قادر كفء . انه قد يجمع السناجق تحت حكم واحد ويرفع عن كاهله نير الأتراك ، ثم ينادي بمصر دولة مستقلة ، ولكن ما الفائدة من المضى معك في الحديث ؟ يخال لي أنك ستسمى ذلك ضعة وصغارا »

قال « لقد حاول علي بك أن يجرب ذلك وانك لتعلم ماذا كانت نهايته »

قال أجل أعلمها ولكن علي بك لم يكن متعلما ، ولو أنه كان متوقد الذهن حاضر البديهة . وقد كاد ينجح لولا خيانة ذلك الغادر الدنىء ، محمد أبو الذهب . بلى انى أعيدها مرة أخرى انى افضل أن أكون من البكوات المماليك عن أن أكون أكبر تاجر فى الشرق »

عندئذ ضحكت المرأة وقالت « يجب أن لاتصدق كل مايقوله زوجى يامسيو ليفيبر انه يحب أن يعرف أحيانا بمثل ماسمعت منه الآن ، حتى ليخيل اليك انه استحال مملوكا صحيحا ، بل ومسلما راسخ الاسلام . » فابتسم الفرنسي غير أن الضجر بدا على عينيه . انه

عاش طويلا في مصر ورأى ماهوأغرب مماهوحادث اذ ذاك . خشى أن تدرك مرغريت مافي مخيلتـه من الوساوس والهواجس فغـير مجري الحديث حيث سأل بغتة قال «أتدريان من رأيت اليوم ؟ لقد قابلت ذلك الرجل الغريب الاطوار المسمى يعقوب القبطى ، الذي سرق منا رزمة (بالة) حرير منذ سنتين والذى ضربته أنت يا استيفن ضرباعنيفا حتى كاد يفقد الحياة» .

أجاب استيفن وعلى فمه ابتسامـة الرضاء «أجل انى أذكره تمام الذكرى»

قال« لست أرانى في حاجة أن أذكرك بتلك النظرة التى رماك بها فى ذلك اليوم . لطالمـا أرجفتنى اياما طوالا . »

قال «بئس الوغد ذلك الرجل»

« حقا انه وغد زنـيم ولكن أصغ ، أصغ ، هـل سمعت ؟ ترى ماهذا ؟ »

نهض الرجلان مدفوعين بدافع واحد وأفلت من أثرالخوف ماكان بيد المرأة لانهم سمعوا هيقعة السيوف يتبعها لجب ووغى خافتا الصوت الا أنهما بينان ظاهران .

قال استيفن « انهم أثاروها علم الله حربا ضروسا » ثم أسرع الى النافذة وفتح أحد مصراعيها وأطل منه وكانت الدار فى الركن القريب من مدخل الحارة فاذا تدلى المطل منهانهارا استطاع أن يبصرالأبواب الـكبيرة ويرى الشارع العمومى البعيد .

صاح متحمسا وقد عاد من النافذة « لقد أثارالمماليك حربا ضروسا وهاقد غادرالحراس الانكشاريون أماكنهم »واذقال ذلك انتعل حذاء .

أمسكت زوجه بذراعه تمنعه من الخروج وقالت :

« انك لست خارجا يااستيفن ، أليس كذلك ؟ »

فكان جوابه أن قبض على قفطانه وصاح بليفيبر « هل أنت قادم معى ياليفيبر ؟ » ثم أسرع يعدو نحو الباب دون أن ينتظر جوابا .

توانى الفرنسى وتلكأ ونظر الى مرغريت نظرة المستفهم ثم ثبت منظاره على أنفه وأسرع يجري خلف شريكه بسرعة لاتنتظر من قصير ، سيمن مثله ، واسع الثياب فسيحها .

وخرج الرجلان معا الى الحارة . وجريا فى الظلام فوق الارض الغير الممهدة ، الى الشارع الكبير الذى صدرت منه هيقعة السيوف وسمع منه وقع سنابك الخيل .

وكان الباب الكبير غير مخفور بل ونصف مفتوح . وخرج استيفن منه دون مبالاة ولكنه انتحى جانبا وفى نفس الوقت أقبل مملوك راكبا جوادا ، ممسكا بعنانه ، أخذا بزمامه ، يتلهد به ، وهو يدافع عن نفسه دفاع المستميت ، وقد هجم عليه اثنان يريدان قتله والفتك به .

ولم يكن القمر قد بزغ بعد فوق المقطم . ولكن نور السماء ذات النجوم الثواقب ، والشهب السواطع ، والبدور الطوالع ، كان كافيا في ليلة صافية من ليالى مصر ، لان هواؤها ، وصفا جوها ، فاستطاع استيفن أن يمد بصره مسافة مافى الطريق العام .

فلم ير وطنيا . لم يبصر مصريا . انكمش الكل فى دورهم فكانوا كالأرانب ، أسرعت الى مخابئها عند سماع أول صوت للمناوشة . وسقط على الارض ، هنا وهناك ، عدة أشخاص ، وقد غطى الثرى سيوفهم البراقة ولباسهم الفخم .

ألقى نظرة واحدة على ماحوله فوعى كل شىء . ثم التفت الى المعركة بجواره ولم يستطع تحويل ناظريه عنها .

رأى رجلا ذا لحية سوداء ، ممتطيا جوادا أسمر مدمى ، يهاجمه ثنان يريدان قتله والفتك به ، وقد ضيقا عليه الخناق .

وكان قد أصيب بضربة سيف فى خده ، فشقته شقا كبيرا ، من العين الى الذقن . غير أنه كان يبد وعليه أنه غير شاعر بهـذا الجرح العميق ، غير متأثر به ، اذ كان يواجه خصميه والسيف مصلت فى يده يصيح بهما بصـوت أجش « تقـدما . هيا . هيا . » ثم تسمع قرقعة السيوف .

ويظهر أن الجواد استمد من روح سيده الحدة والشجاعة فقد كانت حركاته تنبيء عن حنكة ودراية . فأنا هنا ، وطورا هناك . وألصق شا كلتيه بالباب . وكان يرفع مقدمتيه ويضرب بهما كل من يقـترب منه ، بل وكان يقضمه بأسنانه قضما . ومع كل ذلك فقد كان فى ثورته هذه يجيب كل لمسة للعنان ، مطيعا لمولاه .

فـكان الرجل والجواد كأنهما ماردان متجسدان من الجن تسيرهما ارداة واحدة .

لم يأبه استيفن بما سيتعرض له من الخطر ، وخرج الى الشارع فى حين أن ليفيبر وقف وراء الباب فاغرا فاه محملقا عينيه ، موطدا العزم على الجرى لو ان الحاجز الخشبي لان أمامه وارتخى .

سال من دم المملوك شيء كثير أثر فيه ، الا أنه ظل محتفظا بتفوقه ولو أنه كان مدينا الي حصانه أكثر من مرة . في حين أن سيفى خصميه المرهفين لم ينالا منه مقتلا .

ولما رأى المهاجمان أنهما على الرغم مما بذلاه من الجهد ، لم يستطيعا أن يصيبا منه مقتلا وهو فى المركز الذى احتمى به وفيه ، بدأ يهاجمانه من الجانبين كل من جهة ، وضربه الفارس القريب من استيفن فى الجهة المكشوفة من وجهه . ولـكن المملوك زاغ منها بان لفت رأسه فجأة والتقى صفق سيف خصمه بقلنسوته الحديدية ، ثم عاجله ، قبـل أن يعيد هذا سيفه الى توازنه ، بضربة شطرت وجهه من الذقن الى الجمجمة

وألقته على الأرض صريعا ، دون تأوه أو أنين ، ساقطا من فوق قربوسه العالي وكانت تلك الضربة أقوى ضربات المملوك .

على أنه قبل أن يطلق سيفه من رأس خصمه عاجله الآخر بضربة في ذراعه المكشوفة.

خرج من بين شفتي الرجل ذي اللحية السوداء ، المتدفقتان بالدم ، لعنة تتقرقر ، وأفلت عنان جواده لحظة من يده ، فتردد الجواد وتلكأ وأدار خاصرته .

فصاح المملوك الآخر صياح الفوز ، وشهر سيفه يريد أن يضرب به الضربة الأخيرة . ولكن استيفن هيلز هجم عليه من الخلف قبل أن يهوى بسيفه وأحاطه بذراعيه .

ثبت المملوك في مكانه على الرغم من هذا الهجوم غير المنتظر ، وضم ساقيه على السرج فكأنهما ساقان من الصلب . ولكن ذراعي استيفن الطويلتين العضلتين ، ما كانتا بالهينتين ، فبهما جذبه وسقط وأياه على الأرض واذذاك جمح الجواد فزعا ، ورفس صاحبه فى جانب رأسه رفسة قوية هائلة . وفى لحظة ترجل الرجل ذو اللحية السوداء وجعل يزحف ملتمسا خنجره ، غير أن استيفن كان قد نهض فأمسك به وحال بينه و بين طلبته قائلا « دعه وشأنه فقد كفاه ما أصابه »

استشاط المملوك غيظا ووقفت كلماته في حلقه وسقط يتخبط في دمه ، وقد اختفى وجهه الملطخ بالدماء في التراب

وعندئذ خرج ليفيبر من خلف الباب وصاح به متأثرا « أقبل أقبل. لج الباب انك لمجنون طائش اذ تدخلت فى مثل هذه الأمور . مالك ولهذا ايها الغر الأبله ؟ »

وسمع على بعد وقع حوافر خيل قادمة .

صاح ليفيبر مرة أخري فزعا وقد أمسك بذراع شريكه « لج الباب

ياستيفن ان المماليك قادمون »

فلم يكن من استيفن الا أن انحنى فوق الجريح وقال مشيرا الى الشارة التى يلبسها « انظر ياليفيبر انه أحد رجال مراد ساعدنى على حمله فلا يصح ان نتركه هنا فيقتله المماليك »

أطاع الفرنسى صاحبه على مضض منه وساعده على حمله ، وحملاه الى داخل الحارة ، ولكم تعثرت في حمله قدماهما .

اقتربت دقدقة الخيل وخشخشة السروج مختلطة بصيحات عاليات

فقال استيفن « أوصد الباب ياليفيبر »

وعندئذ ظهر ضوء مصباح . واذا مرغريت تقول «أدخلاه في المنزل . أسرعا ، أسرعا . واتركا لى أمر الباب» وكانت مرغريت عارية الرأس خرجت الى الحارة وبذلت كل جهدها فأوصدت غلقي الباب الغليظتين ، وأرتجت مزلاجة .

اقترب الصياح والخشخشة بسرعة وسمع الثلاثة مناديا ينادى «مراد بك • مراد بك •»

سمعها المملوك أيضا ، وخرجت قرقرة من بين شفتيه ، كأنه يريد أن يرد على النداء • وحاول محاولة اليائس أن ينهض واقفا على قدميه

وظهر كأن كوكبة الفرسان القادمين تمر بالقرب منهم • ومنها ظهر صوت فتي يصحبه أصوات وقع حوافر خيل كثيرة العدد تسير براكبيها بأقصى سرعة ممكنة • وسمعت للمرة الثانية صيحة عالية من أفواه عديدة تنادى « مراد بك • مراد بك » « فكانوا ككلاب الصيد تلمست بخياشيمها مكان الفريسة من رائحتها فأدركت مكانها وفطنت اليه •

قال ليفيبر فزعا مذعورا « انهم جادون وراءنا ، ولسنا ، علم الله ، من رجالها . ادخلى البيت ياسيدتى » سار المملوك يتهدج ويترنح نحو الباب وقد انقض عليه الجمع يقرعونه قرعا متواصلا ويدفعونه دفعا

شديدا اهتز الباب له . وكان القوم على وشك ان يقتلعوه لولا أن المرأة كانت سريعة البديهة ، ففهمت قصد المملوك وأسرعت نحو الباب ورفعت عنه المزلاج فاندفع مفتوحا . وما كان أشد فزع ليفيبر وأكثر هلعه .

وقع ضوء المصباح على ماجهز القادمون الجدد به أنفسهم من سلاح فاخر متين ، وعلى وجوههم وقد ظهرت عليها علامات الشدة والجزع على رفيقهم . ولمعت خوذاتهم الفولاذية لمعانا وأبرقت ابراقا . وفى الوقت ذاته ظهر فى الضوء جسم المملوك الجريح مضرجا بالدم وقد وقف الجريح وقفة شمم وشجاعة غريبتين فانبسطت أسارير ليفيبر وسكن روعه . وجاء الامر على ما يوافق هوى استيفن وظنه ، وطربت مرغريت لذلك أيما طرب .

ثم اقبل فجأة صبى يصيح صيحة الفرح وارتمى على قدمى المملوك يقبلهما قال .

« الشكر لله ياأبت أن رأيتك سالما . لقد رأيت سليما واقفا أمام الباب فأيقنت أنك لابد أن تكون قريبا منه ثم تناول يد المملوك وانهال عليها لثما وتقبيلا بشغف شديد .

ثم نهض وأجال ناظريه الى أصحابنا الثلاثة شاكا مرتابا وقال « من هؤلاء ياأبت ؟ »

فكان جوابه المقتضب « هم صحبى يابنى »

وبعدئذ تقدم اليه مملوك آخر أكبر سنا وقال .

« لقد كان أولى بنا ياسيدى البك أن نعود أدراجنا ، فقد كنا خمسين ، ولئن آنس ابراهيم منا قلة عديدنا فقد يرجع فى قوله وفى وعده . وها اننا ما كدنا نعبر النهر ، حتي سمعنا أن الجسر قد قطع وخفنا أن يكون فى الامر دسيسة ومماذقة ، وأن نكون قد فزعنا الى

غير مفزع ، وحللنا بواد غير ذى زرع . ولكن عثمان أرادنا على ان نعبر اليك النيل سابحين ، والله وحده يعلم مارمانا به عثمان من قارص الكلام وشديده حين انتظرنا القوارب لتنقلنا الى الضفة الاخري »

قال « حتى مع هذا فانك كنت ستصل متأخرا وكان سيقضى على لولا هؤلاء السادة الفرنجة الأجانب » ثم أدار وجهه الى استيفن وقال « سأذكر صنيعك وانى لست من الناسين »

ورفعه بعدئذ مماليكه وأركبوه جواده وتجمعوا حوله محيطين به ثم بدأوا فى السير متباطئين .

قال الفرنسى « ياالهى . انه مراد نفسه » وما كاد ينتهى حتى خفت صوت وقع حوافر الخيل وعاد الليل الى هدوئه وسكونه .

الفصل الثانى

آمال جديدة

كانت الأيام التى تلت مباشرة تلك المناوشة ، التى حدثت بين مماليك ابراهيم بك وبين مماليك مراد بك ، مفعمة بالجزع والقلق ، لدي كل من استيفن هيلز وجول ليفيبر .

وكانت حياة الفرنجة في القاهرة أذل من النقد ، وكانوا هم أصبر على الهوان من الوتد . لم يسمح لهم بالاتجار الا بشروط قاسية شديدة . وكانوا عرضة لكل أنواع السباب والشتائم ، مطالبين مابين آن وآن بدفع ضرائب كانت فى الحقيقة نوعا من أنواع الارهاب يقصد بها سلب الدراهم . كانت حياتهم بالاختصار متوقفة على احترام مايفرضه عليهم القوم الذين يعيشون بينهم ، ففى الانزواء وحده كانت سلامتهم وكان تحرشهم بمسلم مجلبة للمخاطر ، ولكن تدخلهم فى شؤون السناجق

كان مدحاة المعاطب والمهالك. عرف جول ليفيبر كل ذلك ولكم مضى عليه من ساعات كانت كلها بؤسا وشقاء. وخيل له غير مرة انه سيدفع عن نفسه الضر بشيء من سلامه، بل وسيخسر كل مايملك للخلاص بنفسه، وان رأس استيفن هيلز سيسقط عليه يوما مامن فوق أسوار القلعة مكشره عن نابها فاغرة فاها.

ولقد كان قلقه متزايدا، لم يخفف من أثره فيه شيء. خلبت لبه طبيعة مراد بك وسحرته سحرا خاصا. على أنه لم يعلق على الخدمة التى أداها لمراد أية اهمية قط.

ولم تكن تمر على جول ليفيبر ليلة يذهب فيها كعادته ليدخن سيجارة فى منزل استيفن، الا ويذكر هذا المعركة التى نشبت بجوار الباب، وينقد كل طعنة وكل حركة بغيرة شديدة جدا لم تستطع رزانة زوجه، ولا استخفاف ليفيبر، أن يخففا من حدتها، أو أن يلطفا من شدتها.

مضى زمن ولم يبد من جانب ابراهيم بك ومماليكه شيء، بل وقلت أنباء هؤلاء، وأخبارهم السوداء. وعاد استيفن هيلز الى حاله الأولى، يبيع سلع ليون الفرنسية كعادته. وخابت آماله وراح يضرب أصدريه وأزدريه.

وشفى مراد بك من جروحه، وأمضى هو وابراهيم هدنة. ففى ذات يوم وقد جلس الشريكان — استيفن وليفيبر — فى حانوتهما بعد أن جهزا بعض السلع لارسالها الى الاسكندريه مع قافلة كانت سائرة اليها، واذا بهما يسمعان عند الباب خشخشة سرج تبعها ظهور مملوك صغير دخل يتهادى فى مشيته عجبا وتيها.

أخفت العمامة الكبيرة التى كانت على وجهه رأسه الصغير، وجاء يتخطر فى سيره، يكاد رأس مشمله (السيف القصير) يلمس الأرض، وانتفخ سرواله فكان لها مظهر مضحك. لم يلتفت لغير الرجل الفرنسى

فقصده تواغير ناظر الى من كان حوله من زبائنه المصريين .

أسرع الفرنسى نحوه وقد قامت فى رأسه الهواجس والوساوس وسقط فى يده خوفا من ابراهيم . وانحنى امام المملوك متأدبا ، وسأله عن السبب الذى من أجله شرف مكانه ، وأظهر له استعداده لأداء مايريد واجابته الى كل مايطلب .

قال القادم الجديد وفى صوته نعومة صوت الأطفال «سمعت أيها الفرنجى أن عندك من الحرير مالا يوجد عند غيرك فى القطر المصرى ولذا قصدتك بنفسى . »

أمر الفرنسى أحد الخدم أن يحضر مثلا . غير أن المملوك قال بلهجة تحدوها العظمة الخاصة بالطبقة التى ينتمى اليها ولكنها لاتلائم سن القائل انه لايريد خدما يستعين بهم على رؤية بضاعته وانما يريده هو نفسه .

لم يستطب ماكان يعرضه عليه ليفيبر ، وكان جول يريه القطعة تلو الأخرى دون أن يظهر علامة استحسان حتى بلغ جول فى بحثه نهاية الحانوت. واذ ذاك التفت المملوك حذرا وقال همسا «أين الفرنجى الآخر الضخم الجثة؟»

قال جول دهشا « هل تعنى شريكى ؟ »

قال لست أدرى من هو وانما أريد الرجل الذي كان يرافقك ليلة قطع الخليج . »

قال الفرنسى لاهثا وقد اهتزت ركبتاه « لم أفهمك بعد فمن تعني؟»

ظهرت على وجه المملوك علامات الضجر والاحتقار وقال وقد فرغ صبره «أننى اسأل عن الرجل الضخم الجسم الذى كان معك فى تلك الليلة . ذلك الرجل الذى ساعد أبى مراد بك حين هاجمه مماليك براهيم اهلكهم الله وأبادهم . »

قال جول ضجرا « ألآن ذكرتك اني مناديه لك . »

ثم ذهب الى الشقة الخلفية من الحانوت حيث كان استيفن مشغولا في فك رزم الملابس وقد غرق في أردان قميصه الواسعة .

تبعه الفتي ولم يدعه للدخول أحد . وظهرت على وجهه علامات الاستياء والاحتقار والاستخفاف حين رأى نوع العمل الذى انكب عليه الرجل الآخر . وقبل ان يهمس جول بكلمة تحذير وانذار لزميله . اقبل الفتي مسرعا نحو استيفن وامسك بيده . وما كان اشد اندهاش صاحبينا الفرنجيين حين رأياه يصافح أحدهما وهو استيفن بملء الاحترام واضعا يده على صدره ورافعا لها على عمامته وقال

« أنا خادم لك أيها الفرنجى فلقد انقذت أبى من موت محتم »

قال جول دهشا « ماذا هل أنت ابن مراد بك ؟ »

قال « انى مملوكه وهو أقرب الى من أبى وأحب الي منه . انني جئت منه بهذا » ثم أدخل يده في جيب ردائه الواسع المنتفخ وأخرج منه خطابا وسلمه لاستيفن وقال .

«فض غلافه أيها الفرنجى فى ساعة من ساعات فراغك ، واستمع الى" فقد أمرنى أبى أن أطلب اليك أن تقرأه وأنت في كن دارك لا رقيب يراك ولا متسمع يتسمعك . واحذر ان تفلت من شفتيك كلمة بخصوص هذه الليلة وما صنعت فيها ، لأن ابراهيم بك على الرغم من الهدنة الجارية بيننا وبينه ، قد ينتقم منك »

أخذ استيفن الغلاف ووضعه بعناية في جيب قفطانه

وأدى الولد رسالة مولاه بهمة الرجل الكبير ثم وقف يدير بصره ويجيله ، وقد ظهرت عليه رعونة الصغر وفضوله . جعل ينظر الى رزم البضائع التى منها تتكون تجارة جول ليفيبر وشركاه ، ثم استقرت عينه السوداء الفاحصة على وجه الرجل الانجليزى النحاسى اللون وجعلت

تصعد فيه وتصوب

قال جادا « لقد تصلح أن تكون مملوكا ومع ذلك فانك تمضى زمنك في مثل هذا العمل الذى هو عمل النسوة والخاملين من المستشرقين »

أجفل استيفن لدى سماعه هـذا الكلام فقد لمس الصبى بنظره السديد وفكره الثاقب مبتغاه ، وما كان يتجه اليه بفكره ونجواه .

ومع ان الحرير كان أهم السلع التى تتجر فيها الشركة ، الا أن جول ليفيبر كان يتجر في أشياء أخرى . رأى لها رواجا فى الأسواق وتوقع منها كسبا .

وجعل الصبى ينقل عينيه ويجول بهما بين هذه السلع المختلفة جولة التائق لها الطامع فيها .

أشار بأصبعه الى الديباج ، والبضائع الجلدية المصقولة ، مطريا اياها . ولكنه صرف الجزء الأكبر من وقته في مشاهـدة بعض القربينات القديمة ذات الأزندة المصنوعة من الحجر الصوان وكان قد انصرف اليها كل الانصراف . ثم صار ينتقل من مكان الى آخر حتى وقعت عينه على سيفين مستقيمين كاد الصدأ يأكلهما ، فرغب عن الطبنجات اليهما ، وهرع اليهما تدفعه رغبة صبيانية وتناولهما بدهش تشوبه شائبة من الاحتقار . قال « ما هذه الشفار . القضمة الكليلة أيها الفرنجى ؟ انها لتعجز حتى عن المضى فى قطـعة من الخشب نخرها السوس . حقا انها لضئيلة القدر اذا قيست بشمل (سيف قصير) من مشاملنا » واذ قال ذلك أمسك معجبا بشمله الماضى المعلق فى منطقته .

قال استيفن هيلز « هذه سيوف فرنجية ، وهى للطعن لا للقطع » ثم أمسك واحدا من مقبضه وثناه نصفين تقريبا مثبتا رأسه في الأرض .

قال الآخر مستفهما « وانك لتستطيع استعمال سيف طويل ؟ »

قال « لقد استطعته مرة وانى لأستطيعه اليوم وبعد اليوم »

قال « والمشمل ؟ »

قال « لاسيافة بمشمل »

قال الفتى متحمسا « انه لخير سلاحا من سفود قصاب . وان المشمل في يد المملوك ليمور بسرعة في جسم الفرنجي ، أمسك بيده سيفا طويلا كهذا السيف »

هز الانجليزى رأسه وقال « ان المشمل لن يضارع السيف أبدا ، ولن يستطع الواحد أن يدفع به عن نفسه عادية »

قال الفتى محتدا « ولكنه يستطيع البتر والقطع »

قال « انه لا يجدى نفعا »

قال « انما أنت تفخر أيها الفرنجي هيا فلنجرب »

قال استيفن ضاحكا غير مهتم « حسن فلنجرب »

قال شريكه « لا . لا . دع عنك الجنون يا استيفن »

قال استيفن « صه » ثم أمسك بالسيف ووقف وقفة المستعد للدفاع والصراع .

شهر الفتى مشمله من قرابه الجلدى ، وهجم على استيفن كالقط المتوحش النافر قبل أن يأخذ هذا عدته وانهال عليه بالضربات يمينا ويسارا ، هنا وهناك ، ممسكا سلاحه بقوة وخفة ورشاقة ، لم تكن تنتظر من صبي له جسم ضئيل كجسمه ، وملابس غير محكمة كملابسه .

وما كاد يبرق المشمل من غمده الا وقابله السيف ، يتلقى الضربات على نصله ومقبضه ، حتى كل الفتى وفترت همته ، ورجع القهقرى حاجبا دهشا قال « والله لقد قلت صدقا ، ونطقت حقا ، ولكن هيا فلنجرب مرة أخرى »

هز عندئذ استيفن رأسه ورمي سلاحه وقد خجل من انصياعه للعاطفة التى دفعته الى منازلة الفتى ووقف ليفيبر يرقب ما يجرى أمامه ، دون

أن يعتوره جزع ، وسرعان ما رمي استيفن السلاح من يده حتى التقطه وضمه الى السيف الآخر ، وأبعدهما عن متناول الأيدى . وكانت عينى الفتى خلال ذلك تتبعهما بتحسر وأسف .

قال المملوك « انها لمهارة منك أيها الفرنجى ، أعترف لك بهـا ، غير أني ان أنا أدليت الى صاحبي حسن الـكبير بمـا جرى ، هزأ بي وسخر منى وقال ان الفرنجه أجمعين بله مجانين ، لا يستطيعون أن يفيدونا بشيء أو يعلمونا شيئا . على أن ذلك ليس حقا لأنه كان يوجد فيما مضي فرنجي ، وكان مملوكا أيضا ، كما أخبرني رضوان الخصى منذ كنت طفلا أعيش مع الحريم ، وقد خدم هـذا المملوك فى معية على بك ، وكان يستطيع اذا احتمى من الخلف بحائط ، أن ينـازل ثلاثة من المماليك ، بسيف من هـذه السيوف الفرنجية ، بل ويقابل فارسا أمسك بيده حربة من الحراب . ووالله لم أكن أصدق ذلك ، لولا أن رضوان ، وكان صادق القول ، أخبرنى أنه رآه هو بنفسه . »

قال ليفيبر « لقد سمعت أنا أيضا بهذا الفرنجي ، غير أني لم أسمع شيئا عما حدث له ، فهل أخبرك الخصى بما كان من أمره بعدئذ ؟ . »

احدق الفتي فى وجه سائله كأنما ارتـكب أمرا ادا أو خرج عن حـد الأدب ، ثم التفت نحو الانجليزى كأن قدرته على الضرب بالسيف ، وحذقه في الطعن والضرب ، قـد رفعا من قدره ، وأحلاه من نفسه مكانة أسمي من مكانة المتاجرة في الحرير ، وقال بسلامة طوية « خبرنى . أتستطيع أن تستغنى عن هذين السيفين ، لأنى أريد أن أريهما صاحبي حسن الـكبير ؟ أو الأحسن من هذا وذاك ، هل لك أن تعلمنى المبارزة بهمـا ، حتى لا يضحك منى اذا نازلته دورا بالمشمل ؟ لست أكتمك انه دائما يغلبنى فيمـا نسميه اللعب بالحطب وكذلك يغلبنى فى اللعب بالمشمل ، وذلك لأنه أكبر منى سنا وأضخم

مني جثة .»

واذ قال ذلك أدار عينيه السوداوين الى استيفن ينظر نظرة التائق الى اجابة طلبه .

قال استيفن وقد مال قلبه الى الفتى ميلا غريبا واجتذبته حدته وصفاء وجهه « عن طيب خاطر ياسيدى ولكن هل من ضير عليك اذا ما جئت الى هنا مرارا ؟ »

أطرق الفتى لحظة ثم قال « كل الضير . ليس من العقل أن أجيء لك كل يوم فان ابراهيم بك ،وعيونه فى كل مكان ، قد يبلغه أنى أجيئك يوما ، فيدرك خبيئة الأمر ، ثم بعدئذ ينتقم لنفسه منك ان كنت سببا فى فشله . ماشاء الله ، لن أكون مدعاة ايذائك . لا . لن أكون سببا فى تجريعك الغصة وتذويقك الكروب . »

ثم سلم على استيفن هيلز ، وخرج من الحانوت يتهادي فى مشيته ، دون أن ينظر الى جول ليفيبر . ووقف الاثنان معا يرقبانه ، حتى غاب عن ناظريهما،ذلك الفتي المليء زهوا وغرورا،بجسمه النحيف ، وسرواله المنتفخ ، فى الحارة ، حيث كان ينتظره جواده . واذ وصله وضع يده على قربوسه العالى وامتطى جواده ثم أطلق له العنان .

قال ليفيبر وهو ينظر خلال منظاره « ماأرشقه فتي ! هل رأيت له مثيلا ؟ انه يضع نفسه موضع شيخ البلد ولم يتعد بعد الثالثة عشر من عمره. »

قال استيفن « ومن يدرى ربما صار شيخ بلد ؟ »

قال صاحبه مبتسما «يالاطماعك يا أخى ! ولكن لا تنس الخطاب ، فمن يدرى ربما يكون مراد بك قد استقال مخليا لك مكانه ياعزيزي.»

ثم ابتسم فرحا فى حين اضطربت برأسه حاسة ملأتها بالهواجس والتنبؤات ولم يكن هناك شيء أبعد عن أن يجري في ظنه ، أو يعلق بوهمه ،

أو يسنح بفكره، من الاتصال مع السناجق في أمر. وكل ما كان يتحرك به خاطره هو أن يبيعهم سلعه. على أن همه بذلك كان ضئيلا، لأن ماكانوا يدفعونه لايعادل قيمة مايشترون، ولم يكن يروعه شيء بعد عداوتهم الا أن يكون لهم صديقا، وحبيبا مقربا.

وعاودته، بزيارة هذا المملوك لمتجره، كل مخاوفه، فتنهدواجما حزينا. ثم طلب الى رفيقه أن يحتفظ بالخطاب أيما احتفاظ، وأن يأخذ حذره، حتى لا يطلع أحد على نجواه، ويقف علي مكنون دخيلته، ومصون طويته.

ضحك استيفن وقال «أنت تعلم ياجول، أنى أكاد لا أعرف قراءة العربية ولو أنى أستطيع الكلام بها كأنى مصرى من عامة المصريين. وعلى ذلك وجب عليك أن تقرأه لى، فهيا نخرج فقد قرب وقت تناول طعام الغذاء.»

قال «وددت أن لايقرب هذا الوقت منا ويدهمنا، فاني أتطير منه، واني لأشعر فى قلبى، بالمشائم تملأ عرصاته، وبالمناحس تنساب فى نواحيه.»

قال شريكه ضاحكا« وقد يكون فى الخطاب طلب لقدر كبير من سلعنا ياجول.»

هز الفرنسى رأسه شاكا مرتابا، ثم وضع قلبقه على رأسه، وبسط ثنيات قفطانه.

وبعد ساعة كانا جالسين حول مائدة، يدخنان وبجانبهما جلست مرغريت، تحضر لهما القهوة. واذ ذاك أخرج استيفن من جيبه الخطاب. وبعد أن قطع الخيط الحريرى الذي كان مربوطا به، انكب عليه زمنا مايطالعه فيه. سألته زوجه، وكانت قد سمعت منه ما كان من أمره، قالت:

« ماالذى احتواه هذا الخطاب يااستيفن ؟»

فكان جوابه على هذا السؤال ، أن أعطي الخطاب للفرنسى وقال له « الا فلتقرأه ياجول ، فاني لم أستطع فك رموزه تماما . »

وضع الفرنسى منظاره على أنفه ، ثم بدأ يقرأه لنفسه على مهل ، لأنه كان مكتوبا بخط ردىء ، وكان كلما توغل فى القراءة كلما بدأ على وجهه الكرب ، وتشعبته الهموم وتقسمته الغموم .

قال استيفن وقد عيل صبره « ماذا بالخطاب ياجول ؟ ماذا به ؟ أدل بمكنونه الينا . أفصح ، افصح . »

قال وفى لهجته المهابة والرزانة «انه يريد أن تذهب اليه وتقابله.»

قال ضاحكا «ليس فى ذلك من ضيم تكتئب له،وترتمض له ارتماضا. اقرأنيه ، اقرأنيه . » سعل الفرنسى ، وابتدأ بقراءته قال:

« باسم الله أكرم الأكرمين ـ سلام من مرادبك، وتحية للفرنجى الذى يقطن فى حارة النصارى بالقرب من الباب الكبير .

« وبعد فاعلم أن مرادبك لم ينس الخدمة التى أديتها له ليلة قطع الخليج، وأنه ليس ممن يجحدون الفضل ، وينكرون الجميل . ولم يمنعه من المجىء اليك، الا الجروح التى أصيب بها فى تلك الليلة . وهو يريد أن يرد لايه ، بكل مالديه من حول وطول ، اليد التى طوقت جيده بها ، والمعروف الذى ازدرعته عنده . والآن وقد من الله عليه بالشفاء ، وأبرأه من كل داء ، فهو ينتهز أول فرصة ليقوم بحرمة الصنيعة ، ويؤدي مفترض الآلاء .

« واعلم ،أيها الفرنجى ،أن مرادا لن ينسى أبداجميلاولن يجحدمنة ، ولن يني في رد العارية ، ويهن فى اجزال العطية . ولكن ما الذي أنا صانعه لك وقد أنقذت حياتى ؟ وهل أحسن صنعا ان أنا قدمت المال لمن عرض حياته للعطب بسببي ، وركب الغرر لاجلى ؟ فلا والله ما أنا

حالم بالذي علي لك ، ولا بما أستطيعه من الخدم قبلك. ولذا فانى أدعوك بل وأستعجلك الحضور الى . فاذا ماعرفت طلبتك أطلبتكها ، واذا ما وقفت منك على سألتك أسألتكها . وأقسم بالله لاقضين حاجتك ما دام فى وسعى قضاؤها ، وأبلغنك أمنيتك مادام فى ميسوري ادراكها .

« من الفقير اليه تعالى ـ شيخ البلد ،

« مراد ـ عفى عنه. »

مرت بعد ذلك فترة سكون ، أردفتها مرغريت بأن اقتربت من زوجها . ووضعت يدها على كتفه وقالت « لست ذاهبا يا استيفن ؟ أليس كذلك ؟ »

لم ينطق الرجل بكلمة . ومضت لحظة جعل يقلب نظره فيها بين زوجه وصديقه . غير أنه بدت على وجهه سيماء الجد ، وقال أخيرا بلهجة قاطعة « أري أنه لابد من أن أذهب اليه. »

قال شريكه « حسن . واذا كان لابد من ذهابك ، فسله هبة ، أو اطلب اليه ابرام عقد يخصنا فيه بتوريد سلعنا ، من حرير وغيره ، الى السناجق . » وذهب عن نفسه الروع عند ما أمل أنه سيبيع جزءا كبيرا من سلعه ، ورجا يسر الحال من هذا الطريق .

قال استيفن « انى ليسرني أن أري مراد بك مرة أخرى . قل هل رأيت حياتك فارسا أشجع وأظرف منه ؟ »

هز الفرنسى كتفيه . انه عرف أيضا منه طبيعته غير العملية ، ووقف على خشنة طباعه ، وصلف غريزته. ورأي هو أيضا أن يسأل مرادا أن يهبه جوابا ، أو علامة منه تنفعه ، أو ماشا كل ذلك من تافهات الأمور وحقيراتها. وأيقن أن تلك فرصة نادرة لا يصح له أن يمر بها دون أن يستفيد منها.

أما زوجه فقد اهتمت للامر ، وعادت تحاول اقناعه بالعدول عما

افتواه، وتحمله على الرجوع عما اعتزمه ورآه ، ولكنها عبثا حاولت . لقد دعاه مراد اليه ، وهاهو ذاهب لتلبية الدعوة . ثم خرج من داره يصفر صفير المرح الفرح الطروب، لأول مرة، بعد سنين طوال عديدة . ومضى الى السوق قاصدا حانوته .

الفصل الثالث

فى معسكر المماليك

وفى صباح اليوم التالى امتطى استيفن هيلز بغلا . وكان ركوب الخيل قاصرا على المماليك وحدهم ، وخاصا بهم دون غيرهم . وجد فى السير قاصدا مراد بك فى الجيزة .

وركب جول ليفيبر حمارا ، وسار بجانب رفيقه خببا . ولم يكن على وجهه الجامد الرزين أي أثر من آثار التذمر والضجر . وكان يشك كثيرا فى نتيجة المخاطرة التى زج شريكه بنفسه فيها .

واذ خرجا من باب زويلة الى العراء جذب جول اللجام . وقال وقد ألقى على زميله نظرة ذات معان :

« يجب علي الآن أن أرجع يا سيدى ، فقد وردت السلع الجديدة ، ولا بد من اخراجها وترتيبها ، وفضلا عن هذا ، فانه يحسن أن نعدها فربما طلب صديقك الحميم شيئا منها ، أو ربما أمضى معك عقدا على ان تمد مماليكه بشىء من سلعك . »

لم يبد على استيفن أنه سمع قوله ووعاه . لقد أطلق ناظريه فى العراء الذى كان ممتدا أمامه ، وسرح عينيه فى الحقول الخضراء والمروج النضرة . وكانت الصحراء على يساره يتاخمها جبل المقطم ، ويظل سطحها سحب متقطعة ، ظهر السطح بسببها كانه قطع متفرقة . وكان نهر

النيل على يمينه يجرى هادئا ، بين ضفتيه الخضراوين الخصبتين، يروى أخصب أرض مصر ، الممتدة الى حيث وقفت أهرام الجيزة باهتة اللون ، تكاد ترجف في ضباب الصبح . وجلس على ظهر بغله ينظر الي ما أمامه نظرة الجائع المحل .

وأخيرا قال « يا للعجب يا جول ! نحن بله مأفونون ، اذ نقضى حياتنا فى حانوت غص بالسلع فى قلب مدينة قذرة مذرة ، بينما توجد خارجها ، ارض الله الواسعة . انه ليخيل الي أن ثروة مصر كلها ، لاتضاهى جولة على ظهر سابح في صبح يوم صاف كيومنا هذا . »

هز جول كتفه ، ولم ترق في عينه ميول شريكه وأذواقه . قال: « يحسن أن تعبر النهر من هذه الناحية فمن الكياسة أن لا تقترب من الروضة ، فربما وقف بعض مماليك ابراهيم بك على الغرض من رحلتك هذه . »

هز استيفن رأسه وقال « لك ذلك وسأعبر النهر من هذه الجهة ، فالى الملتقى . »

أجاب الفرنسى « الى الملتقى يا استيفن. » ووقف في ضوء الشمس يرقب شريكه وهو ذاهب . ثم قال في نفسه « يا عجبا ! انه يذهب الى معسكر اللصوص ، ومغارة قطاع الطرق ، بوجه باش مسرور ، وما رأيته قط يذهب الي السوق وعلى وجهه تلك البشاشة. »ثم أدار رأس حماره مكروبا محزونا ، وعاد أدراجه الى المدينة .

عبر استيفن النيل ، هو وبغله،على ظهر قارب . وسار على شاطىء الجيزة ثم امتطى بغله ثانية ، وسار فى طريق ضيق ، وسط المزارع نحو ثلاثة أميال ، حتى وصل الى قصر مراد بك .

شعر بنفسه حرا ، لأول مرة ، بعد سنين طوال ، طليقا من كل واجب ، وليس أمامه الا غموض وابهام ومخاطر ومهالك . فنسى كل

شيء حتى التعاقد المرجو ، بشأن تقديم السلع للمماليك . وراح يحلم مرة ثانية بالعظمة والترف ، والعز والسؤدد ، ورجا حياة تسود فيها القوة والحركة والعمل ، حياة طالما تطلع اليها وتاق ، واهتاج اليها واشتاق ، شأن من عاش طويلا عيشة الشح والتقتير . ومضى يجرى ببغله ، بين حقول الذرة ، يثور التراب وراءه أينما سار .

نظر الفلاحون اليه ، وهم بين حقولهم يروونها ، وبين أرضهم يحرثونها ، ثم عادوا الى أعمالهم يتمونها بصبر وجلد عجيبين . وكان كلما تقدم خطوة قابل في طريقه مملوكا ممتطيا ظهر جواده ، حتى وصل أخيرا الى باب شق فى جدار حائط قصير ، مبنى من الغرين . وهناك أوقفه صوت خشن عال ، واذا بمملوك قد خرج من الباب وسد في وجهه الطريق .

أخرج استيفن من جيبه الخطاب الذى أرسله له مراد . وبعد أن رأى المملوك الختم الطويل ذا الثمانية أضلاع ، قال باحترام « تكرم بمرافقتى . »

ترجل استيفن ، وترك البغل لولد صغير وكل اليه أمره ، وتبع دليله سيرا فوق ممر عريض ، انتهي الى الحديقة ، وكانت نحوا من خمسين فدانا ، ممتدة أمام قصر مراد ، الذى يرى من مسافة بعيدة . وتنتهي بترعة عريضة ، تفصل ما بين القصر من الجهة الغربية وبين غرف المماليك .

وكانت الحديقة غضة بضة ، مورقة مثمرة ، مشبكة معقدة . فكأنها من جبلة صاحبها ، تمت اليه من أوجه شبه عديدة . وكانت أشجار البرتقال تنوء بما حملته من الثمار ، مشتبكة أوراقها بأوراق الموز العريضة ، تنيخ بها على التين الشوكي وعلى عود الند ، وعلى أشجار الهيبسكوس القرمزية المورقة ، تتيه بطولها عجبا بجانب (الست المستحية) وكانت هناك كرمة تزحف على قوائم خشبية مسقفة ، وتظل تحتها ممشى

طويلا . وكنت ترى على الثغرات ، التى لم تغطها أوراق الكروم ، عشبا غزيراً قد شب . ملأ فراغها ، وغطى مكشوفها ، ان لم يكن بالثمر فبالاوراق الخضراء النضرة .

لم يكن لدي استيفن من الفرصة مايسمح له بملاحظة كل ذلك ، لأن دليله كان ، على رغم ملابسه الثقيلة ، سريع العدو واسع الخطى ، ولم يكن مراد بك من النوع الذى يحتمل من خدمه الأناة والتأخير .

ولكنهما لما اقتربا من بناء كبير ، كان يبعد قليلا عن القصر ، وقف المملوك وسأله ان ينتظر ، ثم ذهب وحده .

وعاد اليه سريعا ومعه مملوك آخر استوقف نظر استيفن وجذبه اليه .

كان هذا المملوك رجلا غير عادى الطول يلبس عباءة (برنسا) من الحرير الأحمر ، تتدلى من فوق كتفيه قطع كثيفة من القطيفة ، تكاد تلمس الارض . وعلى رأسه عمامة كبيرة ذات بصلات منتفخة ، محلاة برقعة من الحرير القرمزى اللون .

وكان وجهه ظريفا ، نبيلا ، ناعماً كوجه المرأة . وكان في صوته رنة صبيانية أوقل انها كانت نسائية .

كان يظهر عليه أنه خصى ، وكان لباسه ومشيته وحركاته تدل على أنه ليس خامل الذكر بين قومه .

قال مسلما وقد وضع يده على صدره ثم على جبهته « السلام عليك . ان شيخ البلد مشغول الآن فى أمور هامة مستعجلة ، لايمكنه اهمالها . وقد أرسلني اليك ، وأنا اقل عبيده شأنا ، وأصغرهم مقاما ، لأحييك باسمه ، وأرحب بك عنه ، وأقول لك انه عن قريب موافينا الى هنا . وهو يرجو منك أن تشرفه بتناول طعام الغذاء معه . »

قال استيفن بهدوء وقد رد على نظرة الرجل الفاحصه بنظرة

صريحة « أشكر لك ياسيدى الأفنـدى كرمك وتأدبك ، ولمولاى شيخ البلد الشرف الذى غمرني به . »

قال الخصى بصوته الناعم « قد تجـد بعون الله ، شيئا تلهو به وتسر، حتى يفرغ شيخ البلد من عمله . قل أتعنى بالزهور والنباتات ، أو أنت كمراد بك لا تعنى منها الا بالتى تصلح للاكل ، اللذيذة المذاق السائغة الطعم ؟ »

ضحك استيفن وقال « أخشى ياسيدى الأفنـدى ، أن تصل الى أني قليل المعرفة بأمثال هذه الاشياء. »

قال الخصى وقدحدجه بنظره « اذن فالخيل والسلاح أنت أدرى وأعرف ؟ »

قال « بـلى اني اليها ، على ما أحس من نفسى ، لأميل ، وفيها لأرغب ، ولو أني لم أر منها في مصر الا اليسير القليل . »

قال « اذن لست تحب التجارة وبيع السلع ؟ »

قال « لا . لست أحبها ؛ ولـكن العيش يرغمنى عليها . »

قال «لك الحق.» ثم سار الخصى، الى مكان فسيح حار ، سمع منه وقع حوافر خيل ، ولجب قوم ، ووقف على حافتـه ينظر الى ما كان يجرى فوق تربته ، وقد فرشت بالرمال . واذ ذاك أبرقت أسارير استيفن ، واستبشر ، وتحركت فيه عاطفة الجد والرغبـة ؛ مع أن جمال حـديقة مراد بك لم يستثر همه ، ولم يحرك فيه نبضا .

كان فى ذلك الفضاء عشرون من المماليـك ، يدربون خيولهـم ، منهمكين فى عمل مناورة حربيـة . فطورا يتـدافعون ويتراجعون ، ويشتجرون ويتناشبون ، حتى ليخيل أن الصدام بينهـم واقع ، وأن الـكفاح ليس له دافع ، واذا بالشدة تنفرج ، ويأتى بعد الضيق الفرج ويمسك القوم بأعنـة خيلهم بمهارة عجيبة . وطورا يلتقطون اليقطين

من الأرض ، والخيل بهم تعدو مسرعة ، ويسددون به الرماية نحو هدف ، اذا ما اقتربوا منه ، في حين كان آخرون ، تسلحوا بهراوات من الجريد المتين الثقيل ، طول الواحدة منها خمس أقدام ، قدشغلوا أنفسهم بالمحاطبة ، وقل أن تجد منهم من لم تصبه ضربة في رأسه.

لمعت عينا استيفن لدى رؤيته هذا المنظر ، وجرى مسرعا نحو مكان وقف فيه جماعة من الخيل معقولة ، ووضع يده على ساق أحدها متمدحاً مثنياً .

قال الخصى مبتسما « هل كنت في الجندية فارسا أيها السيد قبل أن تطأ قدماك أرض مصر ؟ »

قال« كلا بل كنت مهندسا فيها ، على أني أحب الخيل من زمن بعيد ، وكان لي معها شأن كبير في أيامي الاولى . »

قال «هيه ! لقد كنت مهندسا ! حسن ! اذن لست تعرف اللعب بالجريد، أليس كذلك ؟ » ثم أشار الى فارسين كانا قريبين منهما وكانا يدوران أحدهما حول الآخر ، وقد أمسك كل منهما بعصا ، طولها ذراع ، واستعد للرماية . »

وكان أحدهما متوسط السن ، قوى الشكيمة . وكان الآخر فتى يافعا ، قوى العضل ، ظاهر ضخامة الجسم ، على الرغم من جثوه على غارب جواده .

قال استيفن مجيبا على سؤال الخصى « كلا ، وانما الشيء الذى من هذا الشكل وكانت تصل يدى اليه ، هو المقياس الذى كنت أقيس به القماش . »

ابتسم الخصى وقال « ولكن الله في الحقيقة لم يخلقك لمثل هذا المران . انه أوجدك لأشياء أخرى . على أن هذا النوع من اللعب صعب خشن . ألا فانظر، انظر. » ولم يكد يتم كلامه حتى رمى الرجل الأسن،

بيده الثابتة السديدة الرماية ، عصاه على خصمه الضخم الجثة ، فأصابته في رأسه من الجانب، فجعلته يترنح على سرجه . قال استيفن «لقد أسقطته هذه الضربة ، وربي ، من فوق جواده . »

قال الخصى « يخيل اليك ذلك فقط ، هذا هو حسن الكبير ، وهو أثبت من ركب الخيل وليس يسقطه ، من ظهر جواده ، الاجبار عنيد . » واعتدل الفتى الضخم الجثة ، ووازن نفسه فوق سرجه ، خلال هذا الحديث ، وهز رأسه المجروحة المصابة كما يهز الكلب رأسه، وصاح بصوت عال :

«انك ، وربى ، يا محمود افندى قد أخذتني على مهل وغرة . تعال ثم صراعنا مترجلين .»

هز الآخر رأسه وأجاب بخشونة « لم أكره الحياة بعد ياسيدى حسن . والحقيقة أنى انتهزت منك فرصة وجودك على ظهر الجواد ، فالجواد الذى تركبه قصير بالنسبة اليك ، وانك لتجد في الجمل الجواد الذى ينفعك . أما وأنت مترجل فهذا مالا أقدم عليه . كلا . لا . لا أقدم عليه ، ولو أعطيت خمسة آلاف من الدنانير الذهب . » ثم ضحك مسرورا .

قال الخصى « هيا بنا . مراد بك ينتظرنا الآن ، وسترى فيما بعد كثيرا من هذه الالعاب ، اذ رغبت في رؤيتها ، فقد جاء اليوم بكوات عدة من الريف وهم لا يسرهم أن يرجعوا دون أن يتنازلوا ويصارعوا بعضا من مماليك مراد بك . »

قال استيفن دهشا « وهل مماليك ابراهيم بك يأتون الى هنا عادة من الروضه ؟ »

ابتسم الخصي وقال « كلا ، ومع ذلك فانه ؟ رغما من الهدنة المبرمة فقد جرى بينهم وبين مماليك مراد، قبل متوع النهار، مناوشة ومصاولة،

وقعت فيها السيوف على الكواثب ، وتصلصلت الدروع من وقع البيض المهندة . وددت لو عاذ القوم بالأمان وفزعوا الي السلم ، فمن يدرينا ماالذى يدهمنا به الدهر أيها الفرنجى ، من صروف طوارق ، وخطوب قوارع . » ثم رمى استيفن بنظرة السائل المستفهم وقال « ألم يبلغك شيء عن تطلع الفرنجة الي مصر ، وتوقهم اليها ؟ »

هز استيفن رأسه وقال « لم أسمع عن ذلك شيئا البتة . »

قال « من يدري ماالذي هو مكتوب لوادى النيل في لوح القدر؟ ان الفرنجة قد أشعلوها في الهند حربا لاخة. واذكوا ضرامها ، ورفعوا أعلامها ، فلماذا اذن لايوقدونها هنا؟ ولا يفتك أن من يحارب وهو في نهاية الطريق ، قد يحارب في الطريق نفسه . ولكن خبرنى أيها الفرنجى كيف يكون حال جيش الفرنجة ازاء جيش المماليك ؟ هل يتوافر لهم من الجند أن يبرز لكل فارس منا فارس منهم ؟ »

قال « أظن أنه لايتوافر لهم الجند كما تقول ، وانما أقول لك ان المماليك لن يستطيعوا الوقوف أمام مدفعية الفرنجة. »

قال « ولكنا مثلهم لاتعوزنا المدافع والبنادق ، فعندنا منها الكثير ، وعلى دار سلاحنا (ترسانة) رئيس افرنجى ،هو فرج افندى، وربما تصادفه اليوم هنا . »

ثم قاده المملوك الي دار الضيافة (السلاملك) وهو عبارة عن بناء واطىء الجدران ، يستخدم لاستقبال الضيفان . ومر بالحجاب واستأذن لاستيفن بالدخول .

جلس على المقعد (الكنبة) الممتد حول الجدران ، اثنتا عشر بيكا ، يستمعون لواحد منهم ، كان يروح ويجيء فى الغرفة وعليه علامات التعب . ، وكان يتكلم بصوت عال خشن ، ولم يجتذب نظر استيفن منهم الا هو .

وكان أسمر الوجه ، أسود شعر الذقن ، راجح العقل ، مدربا على الفروسية ، بطلا بين البطولة ، وخلا من خول الحروب وقرومها .

وكان يلبس معطفا قصيرا حيك من الحرير الأسمر ، وسروالا قرمزى اللون . وعلى وسطه حزام من الحرير الأخضر يتدلى منه مشمل رصع مقبضه باللآلىء والجواهر . وكان ينتعل حذاء أصفر لا كعب له . وكان يلبس فوق رأسه عمامة ضخمة ، لف عليها شال من الحرير القرمزى ، كثير الطيات والتنيات .

لم يكن ذلك الجرح الطويل ، الأدكن اللون ، الممتد على طول خده الأيمن ، الذي لم يبرأ بعد تماما فى حاجة لأن يعرف استيفن بشخصية صاحبه ، مراد بك ، الذى تعرف به منذ زمن غير بعيد .

لقد كان فى كل حركة من حركات جسمه أمارات العظمة، وعلامات القوة والسلطان . واذ أدار وجهه لاخوانه ، ابتسم ثغره ، وضحك ضحكة عالية ، دلت على فرحه وسروره .

ولما سمع وقع خطي صاحبينا لفت وجهه ، وظهر عليه أنه قد عرف استيفن ، فأسرع اليه ، مادا ذراعه باسطا يده . قال « لقد جئت أخيرا الىّ ، أيها الفرنجي ، وشرفت دارى ، فأهلا وسهلا . » ثم التفت الى البكوات ، وقد دهشوا ، وقال « هذا السيدهو الفرنجى الذى حدثتكم بأمره معى . له ، وربى ، قبضة من الفولاذ . وقد كنت أظن أنه مامن رجل يستطيع أن يجذب لطفى بك من سرجه ومع ذلك فقد جذبه . »

ثم جعل يصعد ويصوب فى جسم استيفن الطويل العضل وقال « وددت ، وحق النبى ، أن أجول معك جولة في المصارعة ، ولكنك الآن لابد أن تكون جوعان ساغب البطن ، خالى المعدة ، بعد سفرك الطويل . تعال ، هذه ساعة الغذاء ، وسنتكلم بعد ذلك . »

مد السماط ، وأعدت الموائد فى السلاملك ، لأن القصر كان خاصا

بمراد ونسائه . وتبع البكوات مراد بك ، وجلس كل أربعة منهم حول مائدة (صينية) وضع الخدم عليها الصحاف تحوى مختلف الأطعمة .

وجلس مراد ومعه استيفن والخصى والمملوك الضخم الجثة حول مائدة واحدة . ولم يكن استيفن معتادا على التربع في جلسته رغم مكثه الطويل فى مصر . وهو وان كانت شهيته للطعام قد أثارها ركوبه صبحا ، الا أنه لم يقدم على الأكل مباشرة ، بل تريث وجعل ينظر لرفاقه نظر تفحص وتدقيق

فتبين أن مراد بك عابس الوجه شرسه ، غليظ الخدين ، منفوش شعر اللحية . وعلم أنه ليس مهذب الطبائع يمد كلتا يديه ، يقبض بهما على كل مايروق فى نظره من أنواع الطعام الموجودة أمامه ، ثم يلتهم مايعثر عليه دون ان تغثى نفسه او تجيش .

سحر استيفن بالرجل وبما وقف عليه من أمره ، من تسنمه السلطة بعد خوض بحار من الدماء ، ومجازفاته الطائشة ، وما كان يروى عن شدته وقسوته من الحكايات الغريبة . وعدا هذا وذاك ما كان يشاع عنه من الكرم والأريحية . الا أن استيفن قد جعل ينظر الى الخصى الذى جلس قبالته .

وكان الخصى أطول من استيفن ، ترى فى وجهه تلك الملامح الجامدة التي اختص بها جنسه — علامات عدم التأثر وجمود الاحساس . وكان بوجهه مع ذلك شيء يستوقف الأنظار . لقد كان مرتفع الحاجب ، وتظهر فيه علامات الغطرسة والشموخ ، وكان ينبعث من عينيه الدعجاوين بريق يدل على أنه لازال بين جنبات هذا المخلوق الذى فقد كل صفات الرجولة ، شمخة الرجال وشجاعة الفرسان البواسل .

فكان كأنه الجزء من عمل غير تام ، بدأ فيه صاحبه وتركه قبل التمام. ولكنه لازال يظهر فيه علامات علو الهمة ونبل المقصد .

وجلس المملوك الفتى متربعا بجوار استيفن ، وجعل يأكل متباطئا متبالدا ، فكأنه كان يرى في أكله وجلسته لذة وعملا كافيين . وكان بارز العضل ، أخرق فى حركاته ، كأنه نما نموا كبيرا ، وأينع جسمه ايناعا فوق المألوف المتعارف . نظر استيفن الى أعضائه الكبيرة ، والى عرض صدره وكتفيه ، وفكر فى الفخامة والوجاهة ومظهر الرجولة التى سيتحلى بها ذلك المملوك حين يبلغ أشده .

واتضح له أنه من المقربين الى مراد المحبوبين منه . ذلك لأن وجهه كان لايزال غير حليق مما يدل على أنه لم يصر بعد طليقا معتقا. وكان من غير الشائع المعتاد ، أن يجلس مثل هذا الفتى مع شيخ البلد حول مائدة واحدة ، ولكن مراد بك لم يكن بالرجل الذي يحفل بالطقوس والعادات ، مادام يجد فى مخالفتها لذة ، وارضاء شهوة. وأنه ماكان يتوانى أن يدعو أحد المتسولة الصعاليك ، للأكل معه على خوان واحد ، مادام يرى في ذلك لذة ، ويجد فيه متعة ، وارضاء لهواه . والويل كل الويل لمن كان يحول بينه وبين طلبته .

رأى استيفن ، وكان واقفا على عادات المصريين وطقوسهم ، أن الغذاء سينتهى هادئا دون جلبة ، ولكنه لم يكن يعرف الا القليل عن المماليك . ان هؤلاء المماليك ، الذين هم سادة مصر وحكامها ، لم يكونوا متقيدين بعادة ، أوقانون ، أوبآراء وملاحظات القوم الذين يعيشون بينهم . التفت مراد الى استيفن وقال « كم مضى لك من الزمن فى مصر أيها الفرنجي ؟ »

قال « ثمانى سنين ياسيدى البك . »

قال وقد حدجه بنظرة فاحصة « وهل كنت فى بلادك تتجر بالحرير

كما هو الحال معك الآن ؟ »

قال « كلا بل كنت جنديا ؟ »

قال مراد للخصى « ألم أقل ذلك يارضوان ؟ ليس يوجد من أصحاب المتاجر من هو كهذا الفرنجى ، في السرعة التي رأيته بها يهجم على خصمي . وأن بيع الحرير لايكسبه ذلك العضل الذي استطاع به أن يقتلع لطفى بك ، من فوق سرجه . وانى لأحمد الله على ذلك ، لانه لو لم تكن أنت بالصدفة صاحب حانوت ، لكنت وربى الآن فى عداد الموتى . وانى ، علم الله ، لست أدرى ما الذى أستطيع قبلك جزاء ما أسديت الى من صنيع وما قدمت من معروف . »

ثم حل رباط مشمله ، المرصعة قبضته باللآلىء ، وقال « اليك هذا ، فاقبله منى ، وما أنا بمعطيه لك أجرا ، اذ فى ذلك مسبة . وانما اقبله منى مصحوبا بشكرى واعترافي بالجميل الذى طوقت به جيدى ، وتذكرة لما صنعت معى ، وعربونا لصداقتى . »

بهت استفن وظل كالمنزول به المكسور فى ذرعه . وتمتم بكلمات شكر ، اذ هدية مراد ، فضلا عن قيمتها الثمينة التي لاتقدر ، فانها كانت شارة شرف ، قلّ أن ينالها مصرى .

انتهى الأكل ، وقد استغرقوا فيه زمنا طويلا . ثم قام مراد بك وغسل يديه . ثم أدار وجهه الى ضيفه وقال « انى آسف على اضطراري لمغادرتك الآن ، فان أمورا هامة تضطرني لذلك . ولكننا سنتقابل عصر اليوم لأني أريد أن أتحدث معك فى شؤون أخرى . وانك لتجد هنا رضوان افندى وحسن المملوك ، تحت امرك ، يريانك كل ماترغب فى رؤيته ، وهما خير من يعرف كيف يعامل الضيف . »

مضى زمن طويل على استيفن ، لم ير فيه عصرا كعصر ذلك اليوم الذى قضاه فى معسكر مراد ، وبرفقته الخصى وحسن الكبير ، وكانا

له نعم . الدليل

ويظهر أنهما تنبأ بما كان يريد رؤيته ، لأنهما قاداه ، دون كلمة أو أشارة منه ، الي ميدان فسيح مكشوف أعد للرياضة البدنية.

وهناك فى ذلك الميدان اجتمع عشر بكوات بمماليكهم ، وارتدوا أرديتهم الفاخرة البراقة بما عليها . وكان ثمن بعض هذه الاردية يزيد عن الدخل السنوى لاستيفن ، عدا برانسهم المطرزة بالذهب ومشاملهم المرصعه بالدر والجوهر . فكان من الصعب على استيفن أن يصدق أن هؤلاء الرجال كانوا فيما مضى خدما وعبيداً . واذ رأى خيولهم ابرقت عيناه بريق التائق لها المتطلع اليها .

لم يكد يقبل العصر حتى كان مائة من المماليك ممتطين صهوات خيلهم ، ومعهم الجريد والدرق ، والبنادق والحراب . وكم من ضربه صائبة كانت تنطلق وتتلقى .

فكنت ترى هنا مسابقة ومباراة بين زوج من الطبنجات . وكنت ترى هناك مملوكا من الغربية يصارع آخر من مماليك الصعيد . ووقف استيفن دهشا مسحوراً أمام هـذا اللون الزهي ، واللجب الشجي ، والحركات العجيبة . راى وهو الأجنبي الغريب عن البلاد ، خير أنواع الفروسية فى العالم ، تعرض أمام ناظريه .

فهم استيفن من تلقاء نفسه كثيراً مما كان يجرى أمامه وكان الخصى يوضح له ما استعصى عليه فهمه ويفسر له ماغاب عن ادراكه . اشار الخصى الي البكوات واحداً واحداً ، ذاكرا اسمه وتاريخه باختصار .

وكان استيفن يصغى اليه دهشا من تلك المعلومات الفياضة ، التى كان يذكرها له عن الرجال وعما أتوه من الأعمال ، جليلها وحقيرها ، وما كانت وظيفة هذا الخصى فى الحياة الأ ان يهتم بأمر نساء مراد ، وأن يعنى بهن قال الخصى أخيراً « أنظر ياسيدي . ها قد جاء حسن الكبير . لقد

غلب فى الصراع ، يدلك على ذلك ماترى على ملابسه من التراب . وهو بطىء الفهم والحركة ، لأنه مفرط النمو ، الا أنه مع ذلك يحب دائماً أن ينازل الذين يتفوقون عليه. لقد رأيته غير مرة يعض الأرض، متمرغا فوق الثرى . وما هي الا لحظة ثم يستعد بعدها للنزال مرة أخري . لم يأن الوقت بعد ليتم مرانه ، على أني اؤكد لك أنه سيأتى زمن لن يتمكن فيه مملوك من رميه والتغلب عليه ، حتي ولو كان منازله مراد بك أو أيوب بك أو عمر بك والي الدقهلية الذى له رقبة تشبه رقبة الثور . »

قال استيفن ، أهؤلاء اذن هم مقاتلة المماليك وأبطالهم المبرزون ؟ »

قال « ويوجد غيرهم ، لا يقلون عنهم بطولة وفروسية ، الا أنهم لا يبذونهم . لقد رأينا مراد بك يقطع بضربة واحدة من مشمله رأس جاموسة . أما أيوب بك ، فانه ، على الرغم من وداعته ورقته، وصداقته للشيوخ ، وميله للشعر والشعراء ، فارس مقدام ، وبطل مغوار . اذا ركب في الهيجاء كان كشعلة نار بين جمهور المماليك . ولكم جندل فى الوغى من فرسان وهو في الحروب ، ليث غابة وابن كريهة وأخو غمرات. »

قال « وعمر بك والى الدقهلية ؟ »

نظر الخصى اليه لحظة وهو صامت ثم قال « لقد منح الله عمر بك قوة الأسد الهصور وعقل اللبيب الحاذق الأريب . له عقل الوحش ومكر الصل . رأيته مرة يصارع رجلا شجاعا شد عليه ولج ، ولكن عمر بك كانت له الغلبة فى النهاية . ولما رأى أن خصمه قد فترت همته وخارت قواه ، ولم يستطع المجالدة بعد ، ثنى ظهره ، وكسره في حدته لأن عمر بك كان له من القوة ما يساوى قوة عشرة رجال . ثم رفعه بذراعه ورماه من فوق ظهر جواده . فوقع من الجهة الأخرى وهو منطبق على بعضه كالعصا المكسورة . »

قال استيفن « ياللوحش وياللوحشية ! ولكن ألم يتدخل بينهما

أحد ؟ »

هز الخصى رأسه وقال « لم يكن مراد بك موجوداً ، وكان أيوب بك فى المسجد يؤدي الصلاة. » ولم يشأ أن يقول انه هو وحده واجه حمر بك وأغلظ له في القول حتى اكمد لون وجه المملوك . ثم ثبت فى مكانه فأشهر المملوك مشمله يريد به قتله . ولكن صحبه حالوا بينه وبين طلبته ، فمضى تاركا الخصى هادئاً ، ساكتا فى مكانه محتفظا بموقفه .

قال الخصى اذ رأى هو واستيفن المملوك الفتي الضخم الجثة قادماً « لست أدري ما الذي يريده حسن الكبير فى هذه الساعة . انظر تجد وراءه الفرنجي فرج أفندي مدير الترسانة ، الذي حدثتك عنه ، فكأنهما ناموسة تعلق بنخلة . »

عرفه استيفن عن طريق السمعة والشهرة كان رجلا فرنسيا جاء مصر قبل ذلك ببضع سنين ، والتحق بخدمة مراد بك ، ثم أعتنق الاسلام ، وتعمق فى العادات المصرية أكثر من المصريين أنفسهم ، وأصبح رئيس دار السلاح (الترسانة).

لم يقابله استيفن قط ، وانما سمع عنه الكثير من جول ليفيبر . ولذلك لم تبد عليه رغبة فى الاستزادة من المعرفة بشؤون الرجل .

وكان فرج افندى سمين الجسم ، يرى نفسه أنه رجل غير قليل الأهمية . وكان له شارب ضخم يزين شفتة العليا ، فى حين كان يظهر من تحت حروف عمامته جلد رأسه الحليقة .

وكان يلبس معطفا قصيراحيك من القماش الأسمر الأشهب ، وسروالا واسعا قرمزي اللون . لا يتلاءم مع نعله الأصفر الخفيف . ويتدلى من وسطه مشمل كان ينزلق بين ساقيه فيجعله يتعثر اذاما سار.

ولما رأي قلبق استيفن ازدهى بنفسه وزاد عجبابها. ولكن الخصى اقترب منه ، وهمس له بعض كلمات ، فخفف من خيلائه بعض الشيء

وأقبل باسما وفى مشيته معنى التنازل من مكانته العالية . ثم سلم واضعا يده على صدره ثم على جبهته كما يعمل المسلم الصميم وقال بلسان العامة « ازيك . سلامات . » ثم خاطبه بعدئذ بالفرنسية قال « اننى مسرور لرؤياك ياسيدي ، فان صحب مراد بك هم صحبي . وان من يؤدي خدمة للبك ، وقد علمت أنك أديت له خدمة عظيمة ، فكأنما أداها لى أنا فرج أفندي مدير دار السلاح . »

استأذن الخصي فى الانصراف ، وتركهما معا ، وابتعد عنهما هو وحسن الكبير .

قال الفرنسى وهو ينظر اليهما متكلما بالفرنسية وهما ذاهبان « واها لهم أضاعوه وأى فتى أضاعوا . ان الرجل على مابه من نقص فى الخلقة أحدثته يد الانسان ، وتشويه رماه به الزمان ، لازال به من النخوة والرجولة ماليس فى كثير من هؤلاء المماليك . فهذا مراد بك ، لايأبه برأي غير رأيه ، ولا يستأنس بغير ثاقب فكره . ومرادهو الوحيد الذى فى وسعه أن يكون شيخ البلد ، اذا مارغب فى الأمر وأهتم له . وانى وحق النبى ، لأفضل ان أمسك بالثور الهائج عن أن أرى مراد بك وقد تملكه الغيظ والغضب . وهو ان مضى فى عمل فالي النهايه لايحب الشطر والتنصيف ، شأن شيخ البلد ، وهذا ما يجب عليّ أن لا أنساه لو أني كنتك ، فهو في سروره ونعيمه ، جواد كريم ، سمح سخى . رحب اليدين ، ندى الكفين . ولئن كنت قد اديت له خدمة ، فلا تكن معتدلا في مطلبك ، تقنع بالقليل . ذلك لأنه اليوم قد يعطيك عجلة محملة بالذهب ، وغدا قد يهبك جوادا مريضا ، وبعد غد قد يرميك بلعنة من لعناته. اننى أعرفه حق المعرفة ولا تنس أن القائل لك ذلك هو فرج أفندي مدير الترسانة . »

ثم نظر الى استيفن نظرة السائل وقال « ولكن ماهى تلك اليد

التي أديتها له ؟ »

قال « أنها خدمة حقيرة ، فقد حدث صدفة أنى ساعدته فى المدينة وقد هوجم وضيق عليه الخناق . » أضاء وجه الفرنسى واستنار وقال « اذن أنت ذلك الفرنجى الذى ساعده فى المعركة التى قامت بينه وبين مماليك ابراهيم بك ؟ والله لقد جد جدك وعلا سعدك . لا أنكر أن الله ، له الحمد والشكر ، قد سهل لى الامور فى مصر ، ولكنى مع ذلك لم أصادف من حسن الحظ ما صادفته أنت . ولو أنى كنتك لما كان فى وسعى أن أقدر المدى الذى أبلغه من المجد والرفعة . أعيدها عليك ياسيدى ، انك ان أحسنت اللعب بالورق وأجدته ، بلغت مناك وكتبت لك السعادة فى هذه الدار ، وانى معلمك ومدل اليك بما تفعله ، فانى أشعر بميل لك لست أدرى له سببا . »

ظهر السرور على وجه استيفن النحاسى اللون ، وأبرقت أساريره لهذا التحمس وتلك الغيرة اللتين أظهرهما صاحبه . على أن ذلك لم يدم الا فترة ، قال « غدا سأعود أدراجى الى الحانوت حيث يوجد شريكى جول ليفيبر » ثم أدار بصره حوله ، وتنهد على الرغم منه .

قال « ماذ تقول ؟ هل أنت شريك العم جول ؟ اننى أعرفه تمام المعرفة ، وكان ذلك من سنين مضت ، ولكنى الآن واياه على طرفي نقيض . على أنه طيب القلب ، طاهر السيرة والسريرة على الرغم من آرائه الغريبة وأفكاره التى يدلى بها قبل الفحص والتمحيص . هل تصدق أنه وبخنى ذات يوم لاعتناقى الاسلام ، وأنحى على باللائمة ، وشدد على النكير ؟ وأحلامه عن الأعمال الكبيرة ، ماهى الآن ؟ وهل هى تحققت أو اقتربت من النجاح ؟ »

قال استيفن « رأيت من علامات نجاحها القليل التافه . »

قال « حسن ولماذا لا تتركها وتدخل فى خدمة المماليك ؟ انك لم

تخلق لكى تقبع فى حانوت .» ثم نظر الى جسم رفيقه الطويل نظرة الاعجاب .

وقال « انك بصداقتك لمرادبك ، يتسع المجال لأطماعك ومآربك وتبلغ منها ماتريد .»

هز استيفن رأسه ولكن اشارة الفرنسى كانت قد أثرت فيه تماما، وأخذت من همه كل مأخذ . حركت أوتار قلبه وشدتها، تلك الخيول الكريمة ، وأصوات السيوف ، وتلك الحياة الحرة الطليقة التي مر عليها بنظره . وأثارت في عقله أفكارا وآراء ، لايمكن أن تحد أو أن توقف ... أليوم هنا وهذا أمره ، وغدا فى السوق ، فما الفائدة اذن من التطلع الى مالا يمكن أن يكون ؟ان ذلك لم يكن سوى حدث يدعو الى التفاؤل ، لمع فى حياة معتمة مظلمة كئيبة حقيرة . انه تارك بعد ساعات قليلة كل شىء وعائد الى حارة النصارى ، الى النتن والفقر ، الي الوخامة والخمول ، الى متاعبه اليومية .

ولكن لم يمض من الزمن ساعة ، الا وقد أصبح الحلم حقيقة ، وصار الخيال جسدا . وعاد الي بيته مسرعا راكبا بغله ، يسير به على ضفة النيل .

لقد اقترح مراد بك عليه اقتراحا

وسأله استيفن أن يمهله الزمن الكافي ليزن الأمر ، ويفكر فيه ، قبل أن يعطى جوابه . وقال له الخصى وقد رآه راكبا بغله ، سائرا فى طريقه الى داره ، « فكر فى الأمر مليا ياسيدى واذكر أن الانسان لن يستطيع أن يحيد عما هو مكتوب له فى لوح القدر . فما قدر على المرء قد قدر، وما كتب له سوف يراه ، واننا ملتقون بك عن قريب.»

سار استيفن فى طريقه لايلوى على شىء ، وقد غشاه ظلام الليل. وعرف أن الخصى أدرك بثاقب فكره ، أنه رغم تردده وتلكئه ، قد

أعمل فكره وأجمع أمره ، علي الاقتراح بالايجاب . وسواء الى الخير مصيره أوالى الشر رحيله ، فقد اعتزم ترك السوق وما يحويه ، والمتجر الذى عاش فيه .

الفصل الرابع

الافتراق

جاء ليفيبر كعادته متأخرا ليل ذلك اليوم الى بيت صديقه ، يكاد يذوب شوقا الى تعرف ماتم لشريكه . وجلس على كرسي بجانب الخوان الذى جلست اليه مرغريت تشغل نفسها بالخياطة بعد العشاء . والتفتت الي استيفن ، وقد أشعل سيجارة ، وقال « أى صديقى ، لقد طال سكوتك على ، ولم تحدثنى بعد بما كان من أمرك فى معسكر اللصوص ، خبرنى بالذى رأيت هناك . »

أجاب استيفن ، وكان مشغولا في اعداد قصبة تدخينه (شبق) قال وقد رفع رأسه « ليس من كثير أحدثك به ياليفيبر . »

قال الفرنسى طربا مسرورا « اذن لقد عدت خالى اليدين ورضيت من الغنيمة بالاياب . توقعت لك ذلك فهؤلاء المماليك كثيرو الوعود قليلو العطايا والمنح . »

قالت مرغريت « لم يعد خالى اليدين تماما يا مسيو ليفيبر ، انظر . » ثم نهضت وأحضرت من أحد أركان الحجرة ، المشمل الذى أهداه مراد لاستيفن .

أمسك الفرنسى بالمشمل معجبا قال « حقا انه لمشمل لطيف الصنع ، لاتكفى عشرة آلاف قرش لشراء مثله . انى أسحب كلامى وأرجع فيما قلت . لست أنكر قدره ولو أنه ربما لايلائم رجلا يتجر فى الحرير

وأنواعه ، ولا يغنيه فتيلا . تعال خبرني بكل أمره . »

لم يجد استيفن مفرا من الكلام ، ورأي أن يؤجل اخبارهم عن زيارته وعن نتائجها يريد أن يثير شوقهم فتكلم عن استقبال القوم له ، وعن تلطف مراد بك معه ، ثم عطف على أعمال الخيل والفروسية . وكان قد عرف بزيارته هذه الكثير منها ، ومضى في حديثه عن الخيل بحماسة وغيرة ، لم يرهما ليفيبر منه مرة في السوق حيث البيع والشراء. وجعل جول يرقبه ، ملاحظا عليه تحمسه المتزايد ، فاعتوره قلق لم يدر له سببا .

تكلم عن الخصى وعن حسن الكبير ، وأخيرا عن فرج افندي الذى كان يسمى مكسيم ليجراند قبل أن يعتنق الاسلام.

قال جول وقد ظهر الغيظ على وجهه « اذن لقد رأيت ذلك الخائن الجحود . »

قال استيفن ماكرا بالرجل « لقد رأيته وحدثت معه ، ولقد ذكرك بالخير. »

قال جول « لم يكن فرنسيا طيبا ، ولا مسيحيا صميما. »

قال « انه رئيس دار السلاح ويتقاضى شهريا عشرة أكياس من الذهب . »

قال « اذن يستطيع أن يرد الي الخمسة التي أقرضته اياها منذ عشر سنوات . ولكن مالنا ولهذا ، ماذا صنعت بالتعاقد الذى طلبته اليك؟ لعلك تكون قد حصلت على عقد طيب ؟ »

قال استيفن « التعاقد ! لم أجئك بعقد ما . »

قال الفرنسى وقد خاب أمله « لم تبرم عقدا ! اذن ما الذى كسبته غير هذا المشمل وتلك الأكلة ذات العشرين صنفا ؟ »

قال استيفن وقد نظر الى زوجته قلقا « انى سألتحق بخدمته

ياجول . »

قال الرجل « تلتحق بخدمته ؟ تكون مملوكا ؟ انت ؟ »

قال « بلى أكاد أندمج فى عشيرتهم . انه يريدنى أن أشرف على بناء الاسطول الذى ينشئه فى بولاق . وأن يوكل الى هناك أمر العمال والمهندسين الأجانب . »

قال « ياالهى ! وهذا كل ماحصلت عليه ؟ »

قال « سأضبط الآلات ، وأنظم الأدوات ، وأجهز الذخائر . »

قال « وانك لست ذلك المجنون الذى يقدم على ذلك ياسيدى. »

وهنا قالت مرغريت « انك سترفض الوظيفة يااستيفن اني أضرع اليك أن ترفضها . » ونظرت اليه بوجهها متوسلة ضارعة .

قال استيفن دهشا « ولم أرفض ؟ ان هذا المنصب يوافقنى أكثر من بيع السلع فى الأسواق. لقد ضقت ذرعا بها . انى سئمتها ، وبرمت بها ، واجتويتها . »

قالت « لا ! اني أرجو وأضرع . ألا فابتعد عن مراد بك ومماليكه. انى أتوسل اليك أن تبعد هذا الخاطر عنك . أرى خطراً يتهددنا ، أرى فيه مخاوف مردية ، ومهالك موبقة ، ومعاطب لاقبل لنا بها . أخشى أشياء أرانى لاأستطيع التعبير عنها والاشارة اليها . »

قال استيفن غاضباً « واهالك يامرغريت ، أى خطر من ذلك ، ترينه يدهمنا ؟ »

قالت « الله وحده يعلم ذلك الخطر . »

نسى جول عند ئذ ، اتساع أعماله التجارية التى قد تنجم عن التحاق استيفن بهذا العمل ، ونسى أيضاما أراد من عقود واحتكار ، ورجاه هو بدوره أن يرفض التقدمة قال .

« لا أنكر أن العمل مسترخ كاسد يا عزيزى فى الوقت الحاضر ،

ولكن فلنثابر فسيجيء وقت الكسب . أقلع عما ارتأيت وأرفض للمشروع المقدم لك ، فليس من ورائه خير يرجى أو ربح يكتسب . واعلم انه مامن فرنجي التحق بخدمة المماليك وكان نصيبه النجاح . أتذكر حكاية الفتى عن الفرنجي الذى كان مملوكا ؟ انه لم يتمها للنهاية . اليكها فانى أعرف القليل عنها . أراد مراد أن يعتدى على شرفه ، وجرى بينه وبين زوجه حديث طويل ، فهجم الرجل ذات يوم على مراد يريد الفتك به . فقبض عليه وحكم عليه بالجلد علنا . وجلد بالفعل فى ميدان الرميلة وكل ماوصلنا عنه أنه أعدم فيما بعد . وأعطيت زوجه الى سنجق آخر ، ولكنها طعنت نفسها بخنجر وذهبت الى ربها تشكو ما أصابها من عار وذل وهوان . وبيع بنوها بيع الرقيق فى الأسواق . تلك حكاية ذلك الفرنجي فماذا أنت صانع ؟ »

ضحك استيفن من قوله ، ولم يكن يدور بخلده أن يسمع أمثال هذه الانباء . لقد كاد يتحقق الحلم الذى طالما تمناه ، ورغب فيه وارتضاه . وجرى به الخيال كل مجرى فخيل اليه أنه يرى نفسه يمرح في العز والنعيم ، غارقا فى الترف الذى كثيرا مارجاه . لقد قاربت سنين البؤس الطويلة ان تنتهي ، وأصبح على وشك ان يندمج في عمل يوافق ميله وهواه . ارتسم في ذهنه أنه حصل على مالم يحصل عليه انجليزى من قبل على ضفاف النيل ، وليس يعلم ، الا الله وحده ، ما كان يجول في خاطره من الاماني والآمال .

أعار كل حججهما ورجواتهما أذنا صماء ، ولم يمر عليه أسبوع الا وكان متقلدا منصبه الجديد ، بغيرة وحمية ، دهشت لها زوجه ، وجعلت جول ليفيبر حائرا عجبا .

قالت زوجه ذات يوم لليفيبر خلال احدى زياراته العديدة لدارهما الجديدة فى بولاق .

«لست أدرى ما الذى اعتراه . انه الآن في عمله مجد مكدود ، الأمر الذى لم أره فيه من قبل . انه لن تفوته صغيرة ولا كبيرة فى عمله ، وهو يدفع المصريين للعمل ويرغمهم عليه حتى أصبحوا يطلقون عليه اسم (أبى الشغل) . »

قال ليفيبر « لكل جديد فرحة ياسيدتى » . ولم يكن ليفيبر بالذى يثق كثيرا في همة استيفن هيلز ونشاطه . فقد كان يظن فى نفسه ، أنه قد بلا أمره واستوعبه ، وعرفه كل المعرفة .

ولكن مرت شهور على ذلك ، لم يتبدل فيها منهاج استيفن . اتضح لهما أنه قد عثر أخيرا على العمل المناسب له ، الملائم لطبعه ، الموافق لخلقه ، فأفرغ نفسه وجسمه لعمله ، بتلك الهمة القعساء ، التي لايمكن حتى لجو مصر الموهن المضعف ، أن يؤثر فيها أو ينال منها .

وكانت الدار التي خصصت له صغيرة . كانت عبارة عن كوخ ذى أربع حجرات ، بنى من الغرين ، بالقرب من محل عمله .

كانت دارا غاية في الحقارة والوضاعه ، ولكنها أقيمت وسط حديقة غناء ، حسنها وجمالها لا يتفقان مع حقارة الدار . وكانت لمرغريت مصدر فرح وسرور ، وذلك لأنها كانت تسكن في حارة النصارى ، منزلا ضيقا ، محبوس الهواء .

وكانت ممتدة على شاطيء النيل ، تبلغ من المساحة ثلاثة أفدنة ، وتنتهي بسور منزل فخم ، هو منزل المسيو مكسيم ليجراند — فرج افندى الآن — رئيس دار الاسلحة (الترسانة) .

فكانت مرغريت ترى فى ايراق هذه الحديقة ونضارتها ضيقا وفرجا أو يأسا وفرحا . حيث تعانق الورد مع التين الشوكي ، وشارك الياسمين الاصفر الغض ، أشجار الكروم فى اكمال الشبكة الخضراء . فالى هنا كان يجيء الشيخ جول مرارا ، لزيارة صديقيه ، ويبحث معهما فى

أخبار البلد ، ويستنشق هواء أنقى من هواء المدينة .

والى هنا أيضـا كان يحضر مراد بك راكبا جواده ، ليرى حال أسطوله ، ومبلغ تقدم العمل فيه . وكان يجيء في ركب من المماليك ، هم جنده وحراسه . وكانوا أقل من مولاهم تبصرة بالأمور ، لا يعنيهم من الأسطول شيء فكانوا اذا وصلوا اليه ، أولوه ظهورهم وولوا وجوههم شطر بولاق . يغازلون نساءها ويداعبون حسانها .

وفي ذات يوم ، وقـد شغل استيفن في عمله ، جاءه فتى مملوك يتخطر في مشيته ، وأشار اليه وقال:

« يا سيدى الأفندي ! لقد تشرفت بمقابلتك قبل اليوم » فالتفت الى جسم مخاطبه الأهيف ، فاذا به يري الفتى المملوك الذى أوصل اليه خطاب مراد بك.

قال مرحبا به « أهذا أنت ؟ لقد ، والله ، سرني مرآك الآن ، فمرحبا مرحبا . »

قال الفتى هامسا « انك ستعلمني بلا شك اللعب بالسيف ؟ »

فضحك استيفن وقال « بكل تأكيـد لو أنك لا تزال ترغب في التعليم . »

قال اذن اني آت اليك في أي يوم تحدده ، وانما أتوسل اليك أن لا تطلع أبي على الأمر ، فانى أخشى أن يسخر منى ، ويقول لي أني نصف افرنجى . ولست أكتمك أنه يعتقد أن الفرنجة كلهم قوم بله ، ما عداك أنت وحدك ، فقد أقسم لك بالوفاء في الود واصطفاك له خلا وفيا . ألم أسمعه بأذنى يقولها ؟ »

قال استيفن « سأبعث في طلب السيفين من القاهرة ، وسأعلمك ما شئت أن تتعلم . »

وواظب الفتى على الحضور ، مظهرا قابليـة للتعليم ، ورشاقة في

الحركات ، جعلتنا استيفن الماهر فى صنعة السيف ، وفنون الضرب والطعن ، يجهد ذهنه ، ويشحذ فكره ، وراح ينقب فى ماضى خزانته ويبحث فى أسرار اللعب بالسيف ، وما وصل اليه علمه فيه ، ليكمل مران الفتى في السيافة . وكان الفتي في مقابل ذلك يدلى اليه بما يجرى بين مراد بك وابراهيم بك ، ويصرح اليه بأسماء من تردد من البكوات وسخط وانتفض . ويخبره بتفاصيل كثيرة ودقائق مستفيضة ، عن الدسائس والمكائد التى كانت تجرى في معسكر شيخ البلد ، وبين جنده واللائذين به .

على أن استيفن لم يشجع الفتى على المجيء ، متخذا في تشجيعه هذا الطريق ، بالرغم من أنه كان يقدر قيمة ما يجيء به الفتى له من الأخبار حق تقديره . ذلك لأنه مال الى الفتى وأحبه الحب الذى كان يمنحه لابنه لو انه رزق ولدا .

وفى ذات يوم جاء الفتى مبكرا عن المعتاد . واذ هو يمشى فى الحديقة قابل مرغريت وجها لوجه . وكانت عارية الرأس ، خرجت الى الحديقة تجمع بعض البرتقال ، فلما أن رآها تفرس في وجهها شاخص العينين مسجدهما .

وكان قد مضى على المملوك ، بضع سنين ، بعد مغادرته الحريم ، لم تقع عينه بعدها على وجه امرأة . وكان يعتقد أنه ما من امرأة محترمة تخرج سافرة الوجه ، لا تضع عليه نقابها (يشمكها) . فنظر دهشا الى المرأة ذات الوجه الحلو المنظر وقد ظهرت سافرة الوجه ولم تبد عليها علامات الخجل والحياء .

حملق الفتى بعينيه باهتا دهشا . انه يرى امرأة سافرة الوجه ، بل ويراها تخاطبه بلهجة الجد والوقار . حقا ان للفرنجة عادات غريبة .

قال الفتى « أسأل السيدة الصفح عنى لدخولى الدار دون انذار ،

فلم أكن أدرى أن بالحديقة أحدا وأني راجع من حيث أتيت. »
ابتسمت مرغريت للفتى. وما كان الا صبيا صغيرا، قالت « لست تعرف عادات الفرنج وطرائقهم. اعلم أن النساء عندهم سافرات الوجوه دائما، لا يعرفن للنقاب المصرى شكلا ولا لونا. »

قال « هكذا سمعت، وقد أخبرنى رضوان أغا بذلك، فهو يعرف الكثير من الأمور، ولكن خبرينى يا سيدتي هل لنساء الفرنجة كلهن، وجوه كوجهك البسام الجذاب؟ »

ضحكت مرغريت، ودفعتها غريزتها النسائية الى أن تسأله عن السبب قالت « لماذا؟ »

قال جادا « انه وجه صريح لا يستطيع الكذب ولا يقدم عليه. »

وعندئذ جاء استيفن فقالت للفتى « ها قد حضر زوجى » ثم التفتت الى استيفن ونادته قالت « الى هنا يا استيفن الى هنا. انى أرحب بضيفك وأجاذبه أطراف الحديث. »

فكان جوابه العنيف الحاد « يجب عليك أن تكونى أكثر من ذلك حرصا. انك هنا فى مصر، وعليك أن تفقهي البلد الذى فيه تعيشين، وتتعرفى بعادات أهليه، فلا تظهرى بعد الآن للناس سافرة الوجه من غير حجاب. »

صار الفتى خلال ذلك ينقل عينيه بسرعة بين الاثنين، ومع أن الحديث كان بالانجليزية الا أن الفتى شعر بلهجة العتب والتقريع فى كلام الرجل، وكذلك رأي حمرة الخجل تعلو وجه المرأة.

قالت « انه لم يتعد بعد سن الصبى الصغير يا استيفن وكان يستفزنى من زمن شوق الى رؤيته والتحدث معه. »

قال استيفن « حسن ولكن اذكرى أن الصبى يستطيع التحدث بما يري. »

عادت مرغريت الى الدار تهز باقة الزهور التى بيدها ، وكانت عين الفتى الدعجاء تتبعها وهو آسف متحسر . وانتهى درس اليوم ، وشكر الفتى أستاذه ، واستعد للذهاب فقال استيفن ضاحكا :

« انك تتقدم يوما عن يوم ، ولن يمضى زمن طويل حتى تكون قادرا على منازلة حسن الكبير أو أى مملوك آخر ، صديقا كان أوعدوا . »

قال الفتى « أرجو أن يتحقق ذلك . »

قال استيفن مستفهما بلباقه ومهارة « ألم يقفوا على الغرض من مجيئك يوما الى بولاق ؟ »

قال « انهم بالطبع ظنوا ورجوا ، ولكنهم لم يصلوا الي شىء . غير أني أخذت عن رضوان شيئا درسته على يديه ، هو : ان ماتبصره عيناى لا ينطق به فمي . »

نظر استيفن اليه وقد ركب عائدا وقال « سيكون لهذا الفتى شأن كبير . لم أجد فى حياتي أبدع تلميحا من تلميحه ، ولا أدق أشارة من اشارته فى حديثه . »

بعد ذلك اليوم تقابل الفتى مع مرغريت غير مرة فى الحديقة ، وكان يحضر قبل الميعاد المحدد ، يتخطر ويتهادى فى مشيته حول الحديقة وقد اعتم بعمامة كبيرة ، وتسرول بسروال واسع من الحرير . فكأنه مخلوق غريب فى صورة خيالية . فاذا ما رأى مرغريت مقبلة تقصده ظهرت على وجهه علامات البشر والفرح . وكان يجلس متربعا فوق أرض الحديقة ، عند قدميها ، وهى تجمع باقات الزهور . ويمطرها بأسئلة لا عداد لها ، بلهجة جد غريبة .

سألها ذات يوم بعد أن جعل ينظر اليها زمنا ما قال بعد صمت طويل « يا سيدتى ألم تلدى ولدا ؟ »

اكمد عندئذ وجه مرغريت ، وتناثرت من عينيها الدموع على

الرغم منها ، لدى هذا السؤال الفجائي .

وقالت بليونة وطراءة « نعم كان لى ابن فيا مضى ، ولكنه غرق منذ بضع سنين ، يوم قطع الخليج . »

اظلم وجه الفتى وقال « ما احمقنى يا سيدتى اذ ألقيت عليك هذا السؤال . »

قالت « ولكنك لم تقصد به ايذائي . »

قال « وهل كان يشبهنى ؟ »

حققت النظر الى الفتى ، والى بشرته السمراء الزيتونيـة اللون ، والى تقاطيم وجهه الحادة وعينيه العسليتين وهزت رأسها وقالت « لا . انك لا تشبهه . لقد كان رقيق البشرة ، سنجابى العينين ، له شعر يشبه شعر زوجى . »

قال ولكنى لست من أبناء البلد . انى أسمر البشرة ولكنى لست مصريا . لست أدرى ياسيدتى من أين جئت ، ولا من صلب من ، ومن بين ترائبه انحدرت . لست جورجيا ولا أنا بشركسى ، فهؤلاء لهم شعور جميلة ، كشعر صديقي حسن الكبير . »

سألت وقد تركت عملها فترة قالت « وما الذى تعرفه من تاريخ حياتك ؟ »

هز الفتى رأسه وقال « لست أعرف من أمرى الا قليلا ، أخبرنى به رضوان أغا . لقد اشترانى مراد من نخاس ، ونقده خمسين درهما فضة . ولم أك اذ ذاك أبلغ من العمر الا بضع سنين . وكان على وشك أن يرفض شرائي ، قائلا انى صغير السن جدا ، وانه لايحب شراء الأطفال . ولكنى علقت بساقيه ، وأمسكت بشمله رافضا أن أذهب ، سائلا اياه شرائي ، صارخا باكيا . فاشترانى على رغم حداثة سنى قائلا عنى ، انى ولدت لكى أكون مملوكا . هذا ما أعرفه . أما من أنا ، ومن

أبواى ، ومن أين جئت ، فهذا مالا أدرى عنه شيئا . كم أشتاق ، علم الله ، أن أعرف لى أما . »

قالت « كان الله فى عونها ، وخفف من مصابها . فخير للأم أن تعرف أن ابنها قد قضى الى رحمة ربه ، من أن يكون قد بيع بيع العبد فى أسواق الرقيق . »

حملق الفتى بعينيه ، فقد كان يعرف أن حياة المملوك هي خير مافى هذا الوجود . ولكنه تابع حديثه ، قال :

« قد أقف يوما ماعلى ماخفى من أمرى . فهذا على بك الذى كان شيخ بلد ، ألم يبع في الاسواق وهو طفل ؟ فلما صار شيخ البلد أرسل رسله الى بلاد الشركس، يبحثون عن أهله ،حتى عثر على أبيه وأحضره الى مصر ، تحفه المهابة والوقار . »

قالت « ما أشبه هذه القصة بقصة سيدنا يوسف . »

قال الفتى « اذن لقد كان يوسف يهوديا أوقبطيا . ألا ماخبرتنى بحديثه ، ياسيدتي ، فانى لم أسمع به قط ؟ »

وهنا في تلك الحديقة القديمة الواقعة على النيل، المزروعة بأشجار البرتقال ، الشذية برائحة الست المستحية وأزهار اللبخ (ذقن الباشا) جلست مرغريت هيلز تقص عليه تلك القصة القديمة ، التي تكاد لاتحوى مثلها التواريخ والأخبار، حتى تواريخ مصر الملأى بالقصص والنوادر. وجلس الصبي متربعا على الارض، يصغى اليها ومشمله بجواره، دهشا مسحورا، قال في النهاية « الله الله ما أحلى هذه القصة وأشجاها! لقد كان يوسف يهوديا أيضا . ما كنت لأصدق ذلك لولم تحدثينى به، لأن اليهود خنازير أدنياء، لايحبون شيئا غير الذهب والمال . »

***

وترك استيفن عمله القديم ، شاكرا الله أعظم شكر على انقاذه منه ، الا أنه لم يجد في عمله الجديد فراشا من الورد .

لقد كان لمراد ملل المستبد ، وفيه جزعه . وان الانسان ليحتاج الى مصباح علاء الدين ، كي ينجز له رغباته ، ويجيبه بسرعة الى مطالبه. لقد أراد ان يكون له أسطول ، وأن تكون له أحواض . وتوقع ان يرى كل ذلك معدا مجهزا ، قبل أن يفاد الأمر بعمل ذلك .

وأجهد استيفن نفسه في عمله فكان يشتغل من بزوغ النهار الى الغروب ، يشرف على العمال ويقودهم ويدفعهم الى مواصلة العمل دون كلل او ملل ، حتي تذمر العمال من شدته ، وبدأت تظهر عليهم بوادر الضجر ، وعلامات التململ .

بثوا شكواهم الي مشايخ المساجد ، فشجعهم هؤلاء على المضى في شكاواهم ضد ذلك النصراني الماكر الخبيث ، مدفوعين لذلك بما اكنته صدورهم من تعصب شديد لدينهم . وسرعان مازادت عاطفة الدين بؤسا على بأسائهم ، وشقوة على شقاوتهم .

ولأن يتحكم نصراني فى مسلم ، ويترأس عليه ، في مدينة كالقاهرة التي هي مهد للتعصب والنعرة الدينية ، فيه من الشذوذ مافيه . ولم يتحقق انسان أكثر من استيفن ، أن ذلك سيكون مصدر قلق وخطر مستمرين دائمين.

لقد وعى الأمر تماما ، وكان يختلج صدره . وكثيرا ماجلس الى نفسه خلسة ، يفكر فى الأمر ، ويقتله بحثا وتمحيصا . وكان الطريق خاليا ، وتسنم الوظائف ميسورا فى مصر ، أمام كل شخص ، اعتنق الاسلام واتخذه دينا ، حتي ان كان فرنجيا من صميم الفرنجة . فان الدين لدى المسلم ، ليس عقيدة فقط ، بل وقومية وطنية . فى حين أنه اذا ظل نصرانيا ، فانه يكون دائما موضع احتقار وازدراء ، مهما كان مساعدوه

ومعضدوه .

فلماذا اذن هو لا يرتد عن دينه ؟ انه لن يكون أول المرتدين، وعدا هذا فليس ثمت من فرق كبير بين الحالين ، وانما المسألة مسألة شروط ومصالح .

لقد كان مسيحيا ، لأنه ولد وشب فى بلد مسيحية . ولو أنه ولد وترعرع في مصر ، لكان الآن مسلما صميما . كان يلبس في انجلترا نوعا من الأردية ، أما في مصر فيلبس نوعا آخر . كان يقول وهو فى انجلترا « لا اله الا الله » وليس عليه بعدئذ الا ان يضيف لها « محمد رسول الله » وفضلا عن هذا وذاك فكان يختلجه شك في الأمر كله .

ولقد كان غريبا فى الرجل أنه اذا سئل أن يغير جنسيته ، آن يكون جوابه الضحك والسخرية . اما اذا سئل أن يغير دينه فتلك مسألة أخرى.

أدرك النتيجة واضحة جلية . توقفت كل آماله ومطامعه وآرائه عن العظمة والقوة ، على هذا العمل وحده . وكان تواقا الي الثروة ، يحب أن يكون نصيبه من دنياه الغنى والترف ، مفضلا ذلك عن السعادة في الدار الباقية .

على أنه ما كان يفكر فى هذا الأمر، الا ويظهر أمام عينيه وجه زوجه ، فتخور عزيمته ويعتوره الضعف . لقد خبرها وبلا أمرها ، وعلم أن كل مايقدم من حجج وما يأتى به من براهين ، لا يؤثر فيها أى أثر. ذلك لأن الدين عندها كان أكثر من عهد . كان قبل كل شيء، وهو كل شيء، وهو شيء دفين فى القلوب وفي الصدور ، وليس يظهر إلا على الشفاه والألسنة . لم تكن قط تجهد نفسها في البحث فيه . وكل مايقال عنها هو أنه ماولى مسلم، على ضفاف النيل ، وجهه شطر المسجد الحرام ، وسجد لله بخشوع وحق ، وخضوع صادق ، وثقة بالله ، الا وكانت مرغريت تركع صبحا ومساء ، في أرض مصر الغريبة

أمام الهها في الثالوث .

ولم يفته أنه لم يسمعها تنطق بأى كلمة ، ضد دين القوم الذين تعيش بينهم. على أن ذلك لم يغنه فتيلا. لأنه تأكد وتحقق أن ذلك ليس الا حال امرأة لم تر مهاجما لها فى مركزها . وكان ذلك المركز لايحتاج الى استنقاذ أو توسل للغير ، لكى يحفظ توازنه . تبين ان هشاشتها وبشاشتها انما نشأتا من تلقاء نفسها وربما من صبرها الناجم عن شعورها بالأمان والاطمئنان .

ولقد حاول مرة وأخري أن يفتح الموضوع أمامها ، ولكنها كانت بدلا من ان تنظر اليه نظرة جد واعتبار ، ممكنة اياه من مناقشة الموضوع مناقشة تامة ، كانت تقتصر على الضحك منه فقط ، معتبرة المسألة فرط مزاح منه ، لاتستحق أن ينظر اليها بعين الجد والاعتبار . فأخفق فى محاولته ، ولم يستطع الا أن يضحك هو بدوره أيضا ، كاتما في صدره ، على مضض منه ، التذمر والضجر ، وفى قلبه ، الملالة والغصة :

تشبع فكره بالأمر ، وصار عبد ميله وهواه . يملأ ذهنه اذا قام أو قعد ، أو نام أو صحا . ولم يكن يشغل مخه غير ذلك ، سواء كان فى عمله أو فى داره ، وساءه أن يرى طلبته منه ، على قاب قوسين أو أدنى ثم يترك الفرصة تضيع من يديه ، فلم يعد يطيق احتمالا .

وكان يعتوره ، مرات عديده فى اليوم ، مصاعب ومتاعب ، ومقاومات ومعاكسات . بل وكان يشعر في نفسه ، وفي سويداء قلبه ، باللعنات تنصب عليه . على أنه عرف أن كل ذلك لابد زائل ، وأنه ليس من تحته طائل ، ولابد أن يختفى ، كما يختفى كل شيء أمام عصا الساحر . هذا اذا أدار وجهه ناحية الجنوت الشرقى ، وتمتم بهذه الكلمات السحرية ! « الله أكبر ، الله أكبر ، لااله الا الله ، محمد رسول الله . » فما أقل هذا الشيء وأحقره فى نظره ، وما أعظمه في ابلاغه كل آماله ومشروعاته .

واعتزم غير مرة ، وهو عائد من عمله الى داره ، في المساء ، أن يخاطب زوجه في الأمر ، جاداً غير هازل .

غير أن الصبح كان يطلع عليه ، فلا ينبس بكلمة ، ويخرج من داره قاصدا عمله ، دون أن يحقق ما اعتزمه ، ويعمل ما انتواه .

وكانت الأمور تقترب بسرعة من أزمة شديدة ، لم يكن يتوقع حدوثها بهذه السرعة . وعلى ذلك اضطر ، سواء أراد أولم يرد ، أن يصل الى قرار معين ، ينتهي عنده قلقه وتعبه .

وزادت مسألة الدين فى متاعب العمال الذين تحت امرته، وأثارت شجونهم . كيف لا ، وقد أخذوا من بين أعمالهم ، ومن وسط حقولهم ومزارعهم ليعملوا ، دون أن ينقدوا أجرا ، فى السخرة التى فرضها مراد بك عليهم ؟ ففى ذات يوم ، شبت ثورة ولم يستطع استيفن الهرب من غضب العمال الهائجين الا بصعوبة شديدة . وكان العمال يهاجمون النصرانى اللعين ، ووصلوا فى هجومهم حتى باب المنزل الذى يقطنه .

ولكن مراد بك كان سريعا في انتقامه . فعند ما علم بالأمر ، أسرع في البداية ، بارسال خمسين مملوكا ، فعبروا النيل ، ووصلوا راكبين خيلهم ، سائرين بأقصى سرعة . ولم تمض ساعة بعد وصولهم حتى كان عشرون من المتمردين الثائرين معلقين من رقابهم ، على أشجار اللبخ ، فكانوا كالعناقيد المدلاة من الكرمة ، فى حين كان عشرون آخرون ، غارقين فى دمائهم ، من الجلد على أقدامهم وظهورهم .

انتهي الهياج ، ولم يكن أحد متحققاً أكثر من استيفن نفسه ، أن الأزمة لازالت أمامه لم تنفرج بعد .

وفي اليوم الثانى أرسل مراد في طلبه ، فذهب الى قصره في الجيزة ، وهناك استقبله مراد بذلك الاخلاص الجاف ، الذى طالما كان يظهره

للرجل الذى أنقذ حياته .

أجلسه بجانبه علي المقعد (الكنبه) وتكلم عن أشياء كثيرة ، بتلك اللهجة الشرقية الغريبة المداورة ، قبل أن يعرج على الموضوع الرئيسى ، الذى بسببه استدعاه للزيارة .

ولم يكن استيفن بالذى يؤخذ على غرة ، بل كان فطنا لبيبا ، على علم بما سيجيء بعد هذه الأحاديث الطوال .

وأخيرا عرج مراد على موضوع العمل ، ثم انتقل الى الثورة والثوار الذين وصفهم بأنهم كلاب من كلاب ، وبعدئذ عن مركزه فى مصر ، وعن المشايخ والعلماء والأزهريين ،وعن الدعوة الدينية الشديدة التعصب التى يبثونها في صدور العامة ، والتى لم يستطع هو نفسه أن يواجهها ويوقفها ، وأشار الى صعوبة الحصول على عمال يشتغلون تحت رياسة نصرانى ، ثم انتقل بلباقة الى سؤال ضيفه عما اذا كان فى استطاعته أن يعتنق الاسلام ، وأضاف على ذلك أنه هو نفسه لا يعتبر ذلك منه ، الا معروفا ينظم به ماضى معروفه ، ويضيفه الى سائر مننه ، وأن في ذلك الصنيع ما لا يصح أن يمر به الانسان ، دون اجزال الأجر وتقديم العوض .

أصغي استيفن ،وكان قد عمل فكره في الأمر قبل ذلك ،الا أنه طلب ان يعطى مهلة ليدرس الموضوع ويبحثه . يريد بذلك التظاهر والمواربة .

واذ نهض استيفن عائدا قال له مراد « لئن انصعت ووافقت ، ورضيت بالذي عليك عرضت ،لأعطينك ترخيصا ببناء ساحل ترسو عليه السفن فى بولاق ، ولأضربن لك علي كل مركب ترسو فيه قادمة من الصعيد ، ضريبة تعادل خمسة فضة . »

لئن كان استيفن فى حاجة الى أي اغراء جديد ، أو باعث على

المضي فى أطماعه ، يتغلب به على ماقد يكون ارتسم بعقله من الفروض والأحكام، فلقد سنحت الفرصة أمامه ، وها هو قد وجد ضالتـه .
وعاد الى بيته متأخرا عصر ذلك اليوم ، يسير را كبا من الروضة الى بولاق، بجوار شاطىء النيل وقد ملأ ته اشعة الشمس وهجا وضياء .
وجعل يحسب في نفسـه ، كم سيكون عدد القوارب التى سترسو على ساحله،وكم خمسة فضة سيأخذ عن كل واحدة . وبعد أن أتم حسبته ، ابتسم اذ ذكر تلك الأيام الخالية،التى كان اذا كسب فيها شيئا من رزمة (بالة) بضائع ، اختلج صدره بالفرح .

ولكنه لما رأى في النهاية سطح منزله المنبسط ، الكائن فى بولاق، قد ظهر للعيان بين طائفة من النخيل وأشجار البرتقال ، خطر بباله على الفور ، ذلك الواجب الكريه ، الذى كان عليه أن يؤديه قبل ذلك مع زوجه ، فغص وبهت .

انتهى العشاء ، وجلست مرغريت الى خوانها ، تشتغل كعادتها ، بالقرب من نافذتها المفتوحة ، وكان النسيم العليل ، نسيم الشمال ، يدخل منها فيهب نديا طريا ، هو أحوج مايحتاج اليه المرء ، بعد حر النهار .
ولكن زوجها ، وقد جلس على المقعد فى آخر الغرفة ، جعل ينظر اليها خلسة ، وقد ضايقه طوق (ياقة) صدرته ، وجعل يدخن بكثرة
قال أخيرا « لقد قابلت مراد بك اليوم . »

نظرت اليه مستفهمة فقال متابعا الحديث « وهل تعرفين ماذا طلب الى؟ »
قالت « ومن ذا الذى يستطيع ان يحدس مايريده مراد . انه كبير المطامع كثير المشروعات مثلك ياستيفن . »

قال « انه يريدنى على أن أعتنق الاسلام . »

وكان بلهجته شيء من الجد والوقار ، جعل مرغريت تلتفت اليه بسرعة على غير المعتاد منها . وظهر فى عينيها بريق المظنة والاتهام .

ولم تكن مرغريت قبل الآن قد اشتبهت بزوجها ، واستغلق أمره عليها واستبهم •

قال بعد صمت طال « لقد وجمت لاتنطقين بشيء • »

قالت متمتمة وقد علت ثغرها ابتسامة متصنعة « وماذا عندي لأقوله لك ؟ »

قال « أرى أن لابد لي من طاعته ، واجابته الى طلبته • »

قالت « سألتك ياستيفن ان تخلي عنك المزاح في مثل هذه الامور . »

قال « ماانا بمازح أو هازل ، وانما أريدها من صميم الفؤاد . انك لاتدرين مقدار ما أقاسيه في محل عملي لأني نصراني . انك لاتعرفين مبلغ توقف مشروعاتي وآمالي على ذلك الطلب . اقسم بالله لست أسمح لمثل تلك الوساوس الصغيرة ، والشبهات التافهة ، أن تعترضني في سبيلي أو تحول بيني وبين ماأريد . »

قالت بشجاعة وان كان في صوتها رجفة غير عادية « انك تقول ذلك نكاية فيّ فقط ، تريد اغاظتي ومضايقتي ، سعد ليلك ، سعد ليلك . » ثم نهضت وسارت الي غرفتها •

رآها استيفن ذاهبة ، فسره أن يخرج من ذلك المأزق على هذه الصورة • لقد كان يكره التصنع والتمثيل وها زوجه قد أراحته من ذلك • سره أيضا ، أن تكون له تلك الشجاعة وتلك القوة ، لأنه كان يخشى المقابلة أكثر مما كان يخشى الاعتراف والاقرار • وأخيرا اختلجت رأسه بالشكوك وملأتها الظنون • ربما لاتكون بعد ذلك كله قد أدركت أنه كان جادا غير هازل ، وأنها لاتزال تظن ، كما قالت له ، أنه انما أراد اغاظتها فقط ، وأنه لذلك لابد معيد الكرة في الغد •

احتسى بعضا من النبيذ كي تهدأ أعصابه . وانتهى به الأمر الي أن شرب الزجاجة كلها . ولكن الخمر أعطته قوة جديدة ، وأثارت فيه

روح العناد والخصام . أراد أن ينهي الامر فى الحال ، ورغب فى أن يخبرها هذه المرة أنه لم يكن مازحا فيما قال ، فذهب الى حجرتها وأزاح الكلة الحريرية من فوق سريرها .

خطر فى باله أنه قد يراها نائمة ، لأنه مر على خروجها من عنده ساعتان ، ولشد ماكان يرغب منها أن تكون نائمة . ونظر حذرا الى داخل الكلة فرآها مستيقظة وسمع صوت تنهد عميق ونحيب وبكاء .

أسدل الكلة عليها ثانية ، ولم يفتها من عمله شى ، بل شعرت به وأدركته .

الفصل الخامس

صانع النحاس

في سوق النحاسين الكبير ، بين شارع الموسكى وسور المدينة البحرى ، كان العمل يجرى على نمط به بعض الفتور والتهامل . فكان صوت المطارق يدل على ضعف حركة العمال ، وحاجتهم الى القوة والنشاط ، وكان هواء السوق الضيق محبوسا ، لايتجدد ، وكانت أشعة الشمس تنفذ خلال فتحات فى الحصيرة التى سقفت بها أماكن العمل ثم تقع على الأرض المتربة ، فتظهر منها بقع مضيئة ، فى حين جلس أصحاب الدكاكين هادئين ، يدخنون كأنهم لايعنيهم شىء ، سواء أقصدهم مشتر يبتاع أم لم يقصدهم .

وساد على الجميع الهجوع الذى يعتريهم ظهرا . فكنت لا تسمع صوتا يعكر سكونهم ، حتى ولا الصوت الخارج من فم ذلك المتسول ، المهزول المنهوك ، الجالس بجانب الحائط فى نهاية السوق يقول «حسنة يامحسنين ! حسنة يامحسنين !» بلهجة تظهر عليها علامات الصنعة ،

لانخائل الابرام واللجاجة أو التعنت والحاجة .

جلس طفلان للحراسة ، على باب أحد الدكاكين، فوقه لوحة مكتوب عليها « دكان على فرج تاجر نحاس .»

وكان أحد الطفلين نضير البشرة ، طري الأديم ، فى الثانية عشر من عمره تقريبا . تنبثق من تحت عمامته خصلة شعر يضرب لونها فى الحمرة . وأمسك بيديه (صينية) من النحاس وجعل ينظر اليها نظرة الريبة والشك يظهر أثرهما على وجهه الصبوح المستهتر .

وكانت الأخرى بنتا ، جهمة ، كبيرة الرأس ، سوداء العينين ، تلبس (جلابية) صفراء . جلست متربعة تنظر الى رفيقها ، غير منشرحة الخاطر ، وهو يقلب بأصابعه الخشنة ما صنعت يداه .

قالت البنت «حسن ياأخي عبدالله . ان العمل فى (الصينية) يتقدم يوما عن يوم ، ولكن ببطء . انك لم تولد صانعا ماهرا ، على الرغم من علمك ومعرفتك . ان أحمد التاجر لن ينقدك فيها قرشين اثنين .»

نظر الصبي بحزن الي عمله الذى لابالردىء ولا بالجيد وقال «أصارحك القول يانفيسة ، انه عمل غير دقيق ، ولو أنى لاأعترف بذلك لعلى فرج. بالله خبريني ، لماذا قدر علىّ وأنا الذى يستطيع قراءة الفاتحة ، ويحفظ أسماء الله الحسنى وعددها تسعة وتسعون ، ويثمن الاشياء كأنه قبانى، أن أجلس الى الصنعة ، فلا أصنع بعد شهور ستة ، الامثل ذلك الوعاء، الذي يثير غضب على فرج ، وضحك غيره مني وسخطهم علىّ. »

قالت « لست ادري ياأخى ، اللهم الا اذا كان ذكاؤك فى القراءة قد افقدك المهارة فى الصنعة اليدوية . وربما كان ذلك ، كما يقول على فرج ، لأنهم لم يهمسوا لك فى أذنك عند ولادتك بالآذان ، ولذلك كان بك في الحقيقة مس من الجن .»

قال « أخال ذلك ياأخية، وعلى ذلك كان يجب علىّ أن أشتغل مع

القبانية — أزن البضائع والسلع فى الأسواق. »

قالت « ألم أقل لك أنك كنت أبله في الغلطات التى كنت ترتكبها فى الوزن ، نكاية في القبانى ، واغاظة له ، لضربه اياك على قدميك . »

انكمش وجه الفتى ، ولكن عينيه كانتا تبرقان سرورا وقال « أتذكرين يانفيسة كيف كان ينتف شعر لحيته ، حينما ألزمه التجار بالفرق الناجم عن خطئه فى الوزن ؟ لقد كان ، والله ، أمره مضحكا عجيبا. »

قالت « وهل تذكر أنت أيضا كيف أعادك الى عمك ، ساحبا اماك من أذنك ، فضربك عمك ، وحجزك عنده لتتعلم صنعة النحاس والنحاسين ؟ يظهر لى أنك لم تكن حصيفا فى ذلك ياأخى. »

قال « أجل لقد كنت مجنونا ، وانى لأعترف بذلك. لأنى لو مكثت لصرت بعد زمن قبانيا وكنت كسبت من وراء ذلك يوميا بضعة قروش ، لا كما أنا الآن ، لست أكسب شيئا اذ من ذا يجيء لشراء نحاس من صنع عبد الله ؟ ولكن له الحمد على كل حال ، فاني اذا كنت أخفقت في صناعة النحاس ، فاني لازلت أجد قوتي . » ثم ضحك وتناول رغيفا وبدأ يلوكه ويمضغه بشهية عظيمة .

وعندئذ كان قد اقترب منهما رجل بدين لم يشعرا بقدومه ثم صاح بالفتى قائلا « يا وليد الكسل ، يا فاتر الهمة ، يا قليل الدراية يامتلف النحاس . لقد سمعتك تعترف بها ، سمعتك تقول ، انك انما تسرح وتمرح ، وتأكل وأنت مرتاح ، لا تجد ولا تكد . وهذا مبلغ ما وصل اليه وسعك ، ونهاية ما تستطيعه. أكل وراحة. أنظر. » ثم خطف الصينية منه باحتقار وقال « أتلك صنعة يمكننى أن أخرجها من دكانى ؟ أيرضيك أن تعرض هذه للبيع وعليها اسمى ؟ ان فيها من النحاس ما ثمنه على قرشان. ولو كان الصانع يجيد صنعته ، لاستطعت أن أربح منها عشرة قروش . أما الآن ولا قوام لك بهذا الامر ، ولا يدان لك

به ، فان عملك كالعدم بل أقل منه .» ثم عـلا صوته الضعيف وقال مغتاظا مهتاجا « ليكونن جزاؤك الضرب على رجليك.» ثم أمسك بالصبي وطرحه على الأرض، وأمسك باحدي قدميه جاعـلا بطنها الى أعلى ، وانهال عليه يضربه بالمقرعة ضربا شديدا.

صار الولد يتلوى ويتبرم وهو صامت ، فى حين جلست البنت وقد انقبضت يداها ، وتورد خداها . واذ انتهى الرجل من ضرب الصبى رمى المقرعة وقال « والآن يا وليد الكسل ، فقد تعلمك هذه (العلقة) ، الرزانة ، وترد اليـك صوابك ! انى ذاهب الى المسجد لأداء فريضة الظهر ، وسأتوسل بالنبى عليه الصلاة والسلام أن يشفع لك ، فيفتح الله عينيك ، وينبو بك عن مواضع الزلل ، ويبعدك عن الشرور والآثام. »

دلك الولد قدميه ، وراقب عمه وهو ذاهب،ثم مال نحو الأرض ، والتقط حجرا من الحجارة ، وجعل يقلبه بين يديه .

ولسوء حظه التفت عمه اليه فى تلك اللحظة،فرأى صنيعه. فارتجف وجه الرجل غيظا ، وتلظى تلظيا . وأستثاره عمل الولد فصاح به قائلا. « يا ابن الاثم ووليد الشر والاجرام ، تريد ان تلقي علىّ عوذة أو طلسما تسحرني به ؟ أنك تقلب الأحجار خلف ظهرى ، أنظر انى لابد مقتلع من بين جنبيك ذلك الشر ، مزيل منك الخبث والقبح والقبائح . »

أطلق الولد ساقيه للريح ، وأمسك الرجل المدين أول شىء وقع نظره عليه ، وكان هذا الشيء بالصدفة الصينية التى هى أصل الشجار ، واندفع يجري وراءه فى السوق .

وكان التجار جلوسا في حوانيتهم كأنهم نيام ، ولم يكن سوى على فرج النحاس وصبيه ، اللذين أحدثا هذه الجلبة في السوق ، وعكرا صفوه وسكونه . كافأهما الله على ذلك ، وهدى الولد الطريق السوى.

أدار المتسول القابع فى السوق بصره ، وسكت لا يطلب من المارة الصدقة ولا يستدر أيديهم بالاحسان . وسار على فرج رغم سمن جسمه، وتعثره في قفطانه ، بسرعة كبيرة حتي كاد يدرك الولد . ورفع بيده الصينية ، ولم تكن بالشيء الخفيف الوزن ، الذى تضرب به رأس ولد صغير . ولكن الرجل قد أفقده الغيظ صوابه،وأستثار صدره ووغره .

فسحب المتسول ساقيه بسرعة عند مامر به الصبى ، فلماأن اقترب منه على فرج مجدا فى أثر الصبى ، رمى المتسول بعصاه معترضا بها طريق الرجل ، فسقط على الأرض بقفطانه وعمامته ، منبطحا فوق الثرى . وسقطت من يده الصينية على الأرض ، فكان لسقوطها صوت عال . وجعلت تتدرج على الأرض منبعجة حتى اصطدمت بالحائط المقابل ، وكان للصدمة صوت رنان .

نهض على فرح ، قائما على قدميه ، متألما مهتاجا . والتفت الى المتسول ، ينظر اليه شذرا . ثم بدأ يعنفه على فعلته ، ويلومه على خرقه وسماجته .

لم يكن من المتسول الاأن تنهد وقال «ما أنكد حظي ياسيدى ! ما أتحسنى وأبأسنى ! أسأل الله الرحمن الرحيم ، أن يبرئ جروحك ، ويعوضك ماتصلح به ماتمزق من ملابسك ، وما تزيل به التراب عن عمامتك . »قال الآخر « صه ياربيب الفقر والاملاق . »

ما كان من المتسول الا أن استمر يقول «حسنه يامحسنين ! حسنه يامحسنين ! سألت الله ان يبرىء وجهك المخدوش ، ويعيد لك كرامتك التى أضعتها فى التراب . وليقتص الله من كل ضاحك منك ، هازىء بك ، مهما كثر الضحاك المستهزئون . »

كاد الغيظ يخنق على فرج ، ولم يرد ان يتنزل فيحاور المتسول والمتسول يحاوره ، بل أسرع الى حانوته ، وهناك جلس ، ومكث زمنا

ما يستنزل اللعنات على رأس عبد الله ، مبتهلا الى الله أن ينزل عليه كل أنواع المرض والاوبئة الشائمة في مصر ، وفى خلال ذلك جعل ينفض التراب الذى فوق عمامته ، ويرتق ما انفتق من قفطانه .

وانتظر الولد في آخر السوق ، يرقب متلصصا مطلا برأسه من ركن حائط الجامع ، حتى تسللت البنت وسارت فى الشارع ثم وصلت اليه .
قالت « لقد فعلت فعلتك يا أخى ، وها اخمصا قدميك يعانيان ما يعانيان الآن من جرائها » .

ضحك الصبى وقال « لست أهتم يا نفيسة ، حتى اذا سلخ عنهما الجلد . على أن ماعانيته من الضرب ليضاهى ما أصابه من الانبطاح فوق الثرى والتدحرج عليه . بارك الله في المتسول الذى سبب له هذا التعثر والسقوط . ان الله ، فى الحقيقة ، قد ألهمه كيف يسدد عصاه . »

قالت « هذا جائز . ولكنى أظن أن المتسول هو الذى أدار عصاه بيده ، ورماها هذه الرمية . »

قال « أهو الذى صوبها من تلقاء نفسه ؟ اذن لابد لى أن أشكره على ذلك . انه صديق صدوق لى ، لقد أنقذته مرة من تحت سنابك جواد أحد المماليك ، وأنت تعرفين يا نفيسة أنه يمشى بصعوبة شديدة ، فهو مصاب فى قدميه . »

وجاء المتسول من مكانه ، مهزولا مكدودا ، يسير في جانب السوق ، وهو يصيح صيحته طالبا الاحسان ، من المارة والجالسين .
قال الصبى « السلام عليك ياشيخ . »

قال المتسول « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . » ثم تابع سيره وهو يمشى مشية الأعرج ، حتي كاد يترك الصبى . وعندئذ أسرع الفتى نحوه وأمسك بيده وقال « انظر يا أبت ان معى قرشا واحدا ، فهل لك أن تأخذه مقابل انقاذك رأسى من ضربة الصينية ؟ »

أبرقت أسارير وجهه الملوث بالتراب وأجاب « لقد أشفق المحسنون اليوم عليّ ، ورقوا لحالي ، فمنحوني ما فيه الكفاية ، ولست أراني في حاجة اليه يابني . ومع هذا فان العصا التي ولجت بين ساقي (معلمك) هي وحدها التي تستحق المكافأة . »

قالت البنت « ولكنك أنت الذي دفعتها . لقد رأيتك بعيني تدفعها بين ساقي الرجل كما يدفع المملوك حربته في صدر خصمه . »

قال الرجل « لقد خانتك عينك يا بنية . »

قال الصبي ناظرا بسرعة الي أخته « حذار أن تخبري على فرج بذلك والا فانه يجعل حياة صاحبنا حملا ثقيلا عليه . »

قالت عاتبة « كأني قلت له شيئا ، اطمئن لست بقائلة شيئا . »

صار المتسول ينقل عينيه بينهما ، ينظر اليهما نظرة الدهش السائل ثم قال « لستما ولدي على فرج اذن أليس كذلك ؟ »

قال الولد « كلا ، وانما نحن ولدا أخيه ، الذي مات بالطاعون في مدينة طنطا . فنحن من ذلك العهد نعيش معه هو وزوجه خديجة . »

قال « وهل هما بكما شفيقان ؟ »

قال الصبي « لسنا نشكو من شيء ، سوى أن عمنا سريع الغضب ، وزوجه خديجة تشكو من أننا نأكل كثيرا ، وهي غيرى منا ، لأنها كالكرمة الغير المثمرة ، ليس لهما بنون ، وأنا من جهة أخرى عديم الفائدة في صناعة النحاس ، غبي فيها ، ولا أجد من يديّ قابلية لها . »

قالت الفتاة « ولكنه غير غبي ياشيخ في القراءة والحفظ . ان عبد الله يحفظ أسماء الله الحسنى ، التسعة والتسعين ، ويحفظ كثيرا من سور القرآن . وفضلا عن هذا وذاك ، فانه يجيد العد والحساب . »

قال المتسول « ألم تكن مساعدا للقباني ، يوما من الأيام ؟ »

قال « بلى لقد أرسلني عمي الى الكتاب ، فتعلمت فيه القراءة والحساب

وكنت قد تعلمت قبل ذلك ، فى طنطا ، القليل منهما . وكان يظن أننى فى الكتابة والقراءة ، أنفع منى فى الاشتغال بصنعة النحاس . ليتنى لم أخطىء العد ، تعمدا ، لاغاظة القبانى ، والنكاية فيه . اذن لكنت ربحت الكثير من القروش ، وكنت الآن أحد طلبة الأزهر المنتسبين اليه . »

قال « وهل تعني بذلك ، ولك رغبة فيه ؟ »

قال الفتى دهشا «أعنى بذلك ؟ وهل من شىء أحسن منه ؟ من يدرى ربما صرت عالما من العلماء الأجلاء وشيخا من الشيوخ الكبار أخطب الناس فى المساجد ، وأصلى بهم . »

قالت البنت « وتمتطى حمارا ، ويقف لك الناس اجلالا ، فى الشوارع حين تمر بهم ، ذاهبا الي القصاب تشترى اللحم فلا تنقده شيئا ، لأنك شيخ من المشايخ . »

ابتسم المتسول وقال « انك فتاة عملية . » ثم التفت الى الولد وقال « أتعرف الشيخ فضل الأزهرى ؟ »

هز الفتى رأسه .

قال المتسول « انه يكاد يكون كفيف البصر . أعرف عنه القليل ، وذلك لمواساته الفقراء المعدمين ، واحسانه عليهم . ولقد سمعت أنه بحاجة الى شخص يقرأ له ، يخدمه في داره ، ويصحبه فى مجيئه وذهابه . فهل ترغب في خدمته لو أن على فرج سمح لك بالذهاب اليه ؟ »

قال الصبي « كيف لا أخدمه ؟ انه أحد المشايخ . اننى أقبل كل شىء الا الاشتغال في النحاس ، والاندماج فى زمرة النحاسين ، ولا يفتك أنه ربما علمنى . »

قال المتسول « من يدرى ؟ سأرى الأمر وأبحث فيه . والآن السلام عليكم . » ثم جمع رداءه الرث البالى واندفع يحجل فى مشيته .

وعند العصر جلس عبد الله ، يصغى لعمه وهو يحدث صديقا له صانع جلود ، جاء يمضى معه جزءا من الوقت وسمع الفتى عمه يشكو سوء حاله . وكانت قدما الفتى موجعتين من أثر الضرب ، فلم ينس على فرج وعيده وقال « انظر ياصاحبى الى هذا الفتي الذى ابتلانى به الله انه ابن أخى . والذى أعيانى فهمه أن أخى محمدا كان فطنا لبيبا ، بخلاف ابنه هذا ، الذى يحب النوم والكسل والبطاله . »

قال « واها له ما أبلده وأغباه . »

هز على فرج رأسه وقال « كلا ما هو ببليد وانما به فى الحقيقه مس من الجن . أنظر اليه انظر . » والتفت الاثنان اليه ، فاذا بهما يريان الولد ساكتا لا يشتغل . ينظر في الفضاء الذى أمامه ، غارقا فى أفكاره وتأملاته غير عابىء لا بعمه ولا بضيفه ، متجاهلا اياهما ، أو ناسيا وجودهما .

وجاء يمشى فى السوق رجل مسن ، ممتط حمارا ، أنتشر قفطانه المسترسل عليه فغطى نصفه ، وعلى رأسه عمامة كبيرة خضراء . له ذقن طويلة بيضاء ، معتنى بقصها وتمشيطها ، تظهر عليه سيماء حب الخير والميل للاحسان . وكان يخب فى مشيته ، يتطلع هنا وهناك بعينيه الكليلتين كأنما يبحث عن شيء ما .

وكان اذا حيا أحد المارة وقف هذا الاخير وتمتم قائلا « السلام عليكم ياسيدنا الشيخ — متعك الله بالصحة والعافية . » فكان يرد على ذلك قائلا « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . » وأمسك أحد المارة بعنان حماره حتى وصل الى دكان على فرج . وهناك ترجل ببطء ووقار .

دهش النحاس لهذا الشرف العظيم الذى ناله وأسرع نحو الشيخ وقبل يده . وسلم صانع الجلود وبارح المكان ، فى حين أمسك عبد الله يد الشيخ ، ولثمها بكل احترام . ثم جلس بجانبه وارتسمت على وجهه علامات الاندهاش ، لأن الشيخ الذى حدثه المتسول بأمره قد حضر .

لقد صدق المتسول فى كلامه وكان عبد الله قدأساء الظن فيه . سامحه الله أن قال عنه لنفيسة انه كذاب مخادع .

قال الشيخ « لقد سمعت عنك يا على فرج ، وعن صبي يعيش معك ، هو ابن أخيك . وعلمت أنه يعرف القراءة والكتابة ، وليس له ميل لصناعة النحاس . تقف أصابعه جامدة كالعصى اذا ما طلب اليه العمل ، فلا بد أن يكون عبئا ثقيلا عليك . »

قال على فرج « هذا حقيقى ياسيدي الشيخ ، الا أنه يجب علينا أن نحتمل بصدر رحب ما تجيئنا به الاقدار . »

قال « لقد جاء فى الكتاب العزيز :(لا يكلف الله نفسا الا وسعها.) وربما يتعلم مع مضي الزمن . »

قال « انه لن يتعلم شيئا نافعا ، وان مضى عليه عشرة آلاف سنة. على أنى دفعت للفقيه (الفقى) خمسين قرشا ، كى يعلمه الحساب ، فلم يكن من وراء ذلك الا التعب والنصب . لأن القبانى الذى كان ينقدنى كل أسبوع خمسة قروش ، نظير أجره ، رده الىّ ، وتكلم عنه بما لا يجعل مجالا ، لأى واحد أن يقبله عنده لعمل أى شيء . ولذا جئت به الى هنا ، وهو لا يصلح لأى شيء ، حتي حراسة الدكان ، حين أذهب للصلاة . »

قال الشيخ « لا تقل ذلك ان الله لم يخلق الناس من جبلة واحدة ، بل خلقهم متناسبين مع العمل الذى يريده منهم . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . فجعلهم متباينين فى الميول والاهواء تباين ابر صانعي الجلود عن أزاميل النحاسين . »

قال « كأني بك تريد أن أعلمه صناعة الجلود والسروجية ، أتشير بذلك ؟ »

ابتسم الشيخ وقال « كلا وانما هذا مجرد حديث استلزمه سياق الحوار . والآن فلأفصح اليك بالذى قصدتك من أجله . اننى فى حاجة الى صبي يقرأ لى ، ويساعدنى فى رواحي وغدوى . ولقد سمعت الكثير عن ابن أخيك مما يرغبنى في اختياره . ولذا جئتك حتى اذا سمحت لي به أخذته معى الى دارى . واذا وجدت أنه يوافقنى ، نقدتك الخمسين قرشا التي صرفتها على تعليمه ، وقمت عنك بطعامه وكسائه ، فلا يصبح بعد الآن عيالا عليك . »

حملق الولد بعينيه ، وكان مصغيا الى الحديث كله ثم نظر الى عمه نظرة السائل المستعطف .

قال على فرج « انه صبي قوى البنية ، وسيكون لي سنه فيما بعد ، كسب كثير ، لو أنه اشتغل حمالا . »

قال الشيخ « ولكنه يحتاج لكثرة التغذية قبل أن يكون حمالا . »

وقال الصبي « وان حمالى القاهرة يدخنون الحشيش ، ويضيعون بالليل ما يكسبونه نهارا . »

قال على فرج « صه . انك دائما فرط اللسان . »

قال الشيخ « لقد نطق الصبى صدقا ، وقال حقا . وهو ان شاء الله فيما بعد ، سيكسب في اليوم الواحد ، بقراءة القرآن فى بيوت العظماء ، أكثر مما يكسبه أى حمال قاهرى في أسبوع . »

قال « ولكن خمسة القروش التى كنت آخذها من القبانى كل أسبوع ، ما أمرى بها وهل سأخسرها الي الأبد ؟ »

قال « سأعطيكها لو أن فتاك يوافقنى . »

قال « فليكن ما تريد ياسيدنا الشيخ ، سأعطيكه ، لست أبغى من وراء ذلك الا صالحه . وهو ابن أخى ، وان بينه وبين أبيه من الشبه ، ما بين الحمار والجمل . »

وعندئذ أدار الشيخ وجهه نحو الصبي وقال «هل تجيء معى وتخلص الخدمة الىّ ؟ »

فلم يكن من الفتى الا أن أمسك يده مؤكدا له أنه سيكون عند ظنه به ، وقبلها باحترام .

وقال « سأنصح في خدمتك يا أبت ، وسأكون مخلصا أمينا ، وليعاقبني الله ان أنا ونيت وتقهقرت ، وفى عهدى هذا رجعت وأخلفت . »

قال الشيخ « حسن اذن ، انى حاضر غدا في طلبك . »

وفي الغد سلم الصبي على أخته ، فعلقت هذه به تبكى بكاء مرا ، قالت « ستتركنى هنا وحدى ، فمن ذا الذى يدفع عنى ، من ذا الذى اذا استجرت يجيرنى بعد ذهابك ؟ »

اكتأب الفتى ، وأظلم جبينه ، وذهب من عينه ذلك البريق ، الذى كان يعتريها عندما يفكر بالحياة القادمة . قال « ان شئت يا نفيسة أن لا أذهب فانى ماكث معك ، باق بجوارك ، مقبل على تعلم صنعة النحاسين لأجلك ، سائل الله أن ينفخ فىّ روح العمل . »

قالت « كلا ، كلا ، ما أنا الا غبية بلهاء ؛ ما كنت لأجعلك تمكث معى ، غير أن للفراق ألما وحرقة . له لدغة الصل ، ولسعة العقرب . »

قال « سآتى دائما لأراك ، فلا تخافى أبدا ، وسأجتهد وأجد فى عملى ، لأنى أعلم حق العلم ، أننى اذا صرت شيخا ، أو اماما لمسجد فمن يدرى ماذا سيكون ، وماذا سيكتبه الله لنا ؛ سآخذك من دار عمك وزوجه خديجة . »

قالت « أسأل الله أن يقرب ذلك اليوم ، والآن فأذهب يا أخى حتى لا يطول انتظار الشيخ فضل . »

وبعد ذلك سار عبدالله مع الشيخ ، يحمل فى يده ملابسه ، قاصدا

داره الجديدة ، ونسى وهو سائر ، اخته نفيسة ، سارحا في خيالات وأوهام . ولم ير ، وهو يقود حماره بعصاه ، رجلا رث المنظر ، يلبس جلابية صفراء ، يسترق النظر اليه ، من خلف جدار المسجد القريب من السوق ، بل ولم يسمع وراءه ، بكاء أخته وعويلها ، اذ ما كاد يغادر المكان ، حتى رمت بنفسها على الأرض ، وجعلت تحثو التراب فوق رأسها ، لأن ألمها الحالى من فراق أخيها عبدالله ، وعيشها وحدها دونه ، كان لا يعدله ما قد يجيء به المستقبل الزاهر ، بشيوخه وعلمائه وأزهرييه واوليائه ، من عزة وهناء ، وسعادة ورخاء .

الفصل السادس

عثمان المملوك

لم يكن اقبال عبدالله على عمله الجديد قليلا ، بل انه استقبل حياته الجديدة ، بالبشر والترحاب ، وأصبح خادم الشيخ فضل الأزهرى .

وكان يري السعادة كل السعادة فى أن يجرى وراء حمار سيده ، أو يجانبه ، يقود لجامه ، ويصرخ فى المارة ، من أعماق قلبه قائلا « اوعى ! اوعى ! أفسحوا الطريق للشيخ . اوعي ! اوعى ! »

وكثيرا ما كان ينتحى بالحمار وراكبه ، جانبا في الطريق ، اذا ما رأى فرنجيا قادما عليه ، راكبا دابة . يريد بذلك أن يلذ برؤية الفرنجى يترجل ، ويقف خافض العينين ، واضعا يديه على صدره ، اجلالا واحتراما ، حتى يمر الشيخ وركبه . لقد كان عبدالله يجد فى ذلك نوعا من الزهو والخيلاء ، ومدعاة للظهور بمظهر الأبهة والعظمة .

وكان ككل أبناء المسلمين ، يحتقر من سويداء قلبه ، منذ الصغر ، كل من دان بغير الاسلام ، وينعت كل يهودى أو كل نصرانى مثلا ، بأقبح

النعوت ، ويرميهم بأشنع التهم . فما بالك وقد أخذ الآن عن مولاه الدين الحق ، وتشبع بالتعاليم الاسلامية ، وأقبل عليها بعزم ومثابرة شديدين ، لو أن سيده الرزين الهادىء لاحظهما ، لدهش لهما ، وأبدع بهما . لقد كان عبدالله شديد التعصب لدينه ، بحيث اذا رأى قبطيا أو مر به فرنجي ، تمتم قائلا « كافر ملعون » وبصق على الأرض ، كأن في ذلك لذة واستمتاعا .

ففى ذات يوم ، وكانا سائرين بجوار جامع قلاووق ، وهو لايبعد كثيرا عن خان الخليلى ، قابلا فى زقاق ضيق ، فرنجيا حسنا ، ، يلبس قفطانا واسعا مسترسلا ، وعلى عينيه منظار كبير ، صنع اطاره من القرن .

كان هذا الفرنجى صاحبنا جول ليفيبر ، يمشى الهوينا ، عائدا من الخان قاصدا داره . وكان اليوم شديد القيظ ، فمشى خافض الرأس ، عليه مظهر النائم الوسنان . تملأ عقله مشروعات واسعة عن تقدم محل جول ليفيبر وشركاه . وقدمضت خمس سنين ، على ترك استيفن هيلز تجارة الحرير ، والدخول فى خدمة مراد بك .

قطع عليه ، أفكاره وأحلامه ، صوت صبى ، يصيح به حانقا مغتاظا يقول « أيها الكلب الفرنجى ألست ترى من القادم ؟ هذا هو مولانا الشيخ فضل ، شيخ الاسلام ، فاليك عنا أيها الحمار البليد . حقا ان وقاحة هؤلاء الفرنجة ، قد تعدت كل حد . »

قال الشيخ « صه يابنى صه ، فلعل الفرنجى مريض . »

قال « ليس من مرض به سوى الكبرياء والعجرفة . »

ولعل جول ليفيبر فيما مضى ، كان لايملك زمام نفسه اذا حدث له مثل ذلك ، الا أن مكثه في القاهرة عشرين سنة ، كان قد علمه العقل والروية ، فترجل تاركا حماره . لم تثره هذه المماحكة الصبيانية للاحتفاظ بحقوقه الشخصية ، ونظر بهدوء نحو الفتى خلال منظاره ، وقال متهكما

«ظننت أنه ليس هناك الاشيخ واحد ، ولكني أرى شخصين أحدهما راكب والآخر راجل . السلام عليك ياابت .»

ظهر السرور على وجه الغلام ، وأبرقت أسنانه البيضاء وهو يجيب قال «لا ، لم أصر بعد شيخا أيها الفرنجي ، ولكني سأكونه فيما بعد ان شاء الله .»

نظر جول ليفيبر الى وجه الغلام الضاحك ، ورأي خصلة الشعر الحمراء ، المنبثقة من تحت العمامة ، ورأى عينيه الزرقاوين ، فانكمش وجهه كأنما يكافح ويجاهد فى تذكر شيء غاب عن ذاكرته ، ووقف كالمذهول حتى مر الشيخ والولد به واختفيا في منعطف الحارة والولد يصيح «اوعي ! اوعي !»

وكان الشيخ فضل شافعي المذهب ، وهو مذهب شيخ الجامع الأزهر ، ولقد كان شيخا حصل من علوم الازهر الشيء الكثير ، متعمقا فى الدين ، واقفا على دقائقه وأسراره ، فقيها مسلما متبحرا فى الفقه والتوحيد وكل ما استن عن القرآن من سنن ونظم ، وبالاختصار قلّ أن يوجد مثله بين شيوخ القاهرة ، وعلماء الأزهر .

غير أنه مع ذلك العلم الفياض كان خملا فاتر الهمة ، سبقه غيره من رجال الأزهر في تسنم الوظائف الأزهرية ، مع أنهم أقل منه علما ، وأصغر شأنا ، وكان هو أولى بها منهم ، يقصده زملاؤه العلماء يستفتونه فيما استعصى عليهم فهمه ، وعز عليهم وعيه وشرحه . وكان لا يصيبه من مرتبه الا نصفه ، في حين كان الباعة يأخذون منه النصف الآخر نظير ما كان يأخذه منهم من سلعهم ، وكثيرا ما كانوا يخدعونه فيتقاضون منه الأثمان مضاعفة .

وكان له عدا ذلك ، قليل من المال ، يصيبه من بعض منازل كان أبوه تركها له وكان شيخا قبله فيها . فكان يذهب الى بيوت العظماء ،

بين آن وآن ، يقرأ القرآن ، ولم يكن يضايقه من ذلك ، الا التفسير والشرح ، وذكر التقاليد وقصص الأولين . ولكم قضى من السنين يبحث ويقرأ وينتقل من مكتبة لأخرى ، في القاهرة كلها ، منقبا وراء المراجع والمؤلفات الكبيرة .

مضى عليه في ذلك سنون عديدة ، فكل من جراء ذلك نظره ، وضعف من انكبابه ساعات طويلة ، كل يوم ، على المطالعة في ضوء بين بين ، لاهو بالكافي ولا هو بالردىء . وجد أنه اذا استمر على هذا الحال من المطالعة والبحث ، وجب عليه أن يبحث له عن شخص ، يقرأ له فيوفر عليه تلك المطالعة الشاقة ، ويستطيع أن يدربه هو ويمرنه على طرائقه . ولذا قابل بالسرور المقترح الخاص بعبد الله ، ووجد فيه الطلبة التي طالما تمناها .

نظر الى الفتى ، لأول وهلة ، نظرة الاستخفاف ، ولكن قوة ارادة الفتي ، وطبيعته المرحة على رغم تهاونها وتغافلها ، وشغفه بالعلم وحبه للتعلم ، كل هذا قد تغلب على الشيخ ، ولمس وترا في قلبه كان لم ينبض بعد . لقد كان يحب الناس في الجملة ، والآن أصبح يحب واحدا من هؤلاء حبا لم يمنحه للمجموعة ، ووده ودا لم يهبه أحدا من الناس .

أما عبد الله ، فقد كان حبه لشيخه لا يقل عن احترامه اياه . فكان لا يشوب احترامه أية شائبة يشتم منها رائحة الاحتقار ، وكانت سعة اطلاعه ، وغزارة علمه ، مدعاة بلا مراء لاعجاب عبد الله ، ولا ثارة دهشه . أما معلوماته عن الأحوال العامة ، فقد كان عبد الله يضحك منها استهزاء واستخفافا . ذلك لان مكثه في السوق جعله يعرف الكثير منها .

وكان ينتهز فرصة دخول الشيخ الى مكتبة الجامع ، فيهرع الى دار عمه مسلما عليه وعلى زوجه خديجة ، وبعدها يستصحب نفيسة

فتسير معه نحو ساعة فى الطرقات ، يدلى اليها فيهـا بكل مايعرفه عن شيخه . وكان يشعر فى حديثـه هـذا بمتعة ولذة ، هما نتيجة زهوه وخيلائه ، وسروره بمعرفة أشياء لايعرفها شيخه .

فكان يجد في شيخه وفى حياته ، مبحثاً لاينتهي . ولكن نفيسة لم تكن لتعنى كثيرا بالشيخ . بل ربما كانت تنقم عليه أخذه عبدالله ، واقصاءه عنها . وكثيرا ما كان يعبس وجهها ويتجهم ، حين كانت تسأله « أين كنت ؟ فلقد انتظرتك أسبوعا ، ماكان أطـوله علىّ ، وما كان أبطأ سيره . » فيجيبهـا « لم يحجبنى عنـك ياأخية الا الشيخ . كنت سأجيئك قبـل ذلك ، وانك لتعرفين منى حق المعرفه تلك الرغبة فى سرعة المجىء ، ولكنى لم أستطع مغادرته . »

فتقول « وهل هو مريض اذن ؟ »

فيقول « كلا . ولـكنه حينما يغرق في أشغاله الـكثيرة ، ينسى حتي طعامه وشرابه ، ويكاد لايدرى هل دجا الليل واعتكر ، أم انجلى وتمزق . لايشعر أبالليل هو أم بالنهار . »

فتجيبه « هو اذن أحد اثنين : اما طفل واما مجنون . والآن أين هو ، وكيف استطعت أن تتركه ، وأنت حارسه ودليله ؟ »

فيرد عليها « تركته في جامع قلاوون ، يقرأ كتبا قديمة . وقد أخبرته أنى أريد أن أراك اليوم . »

فتقول له « وماذا كان جوابه على ذلك ؟ انه تذمر بلا شك ؟ »

فيقول « لا ، انه ليس من هـؤلاء . انك لم تعرفى بعـد الشيخ يانفيسة . انه لم يزد على أن قال لى (اذهب يابني ، واغفر لشيخ عجوز أنه لم يفكر فى أن يبعثك قبل الآن لترى أختك) بل انه أمرنى يانفيسة أن أجيء بك ، يوما من الأيام الى داره . »

فتقول « أهو كذلك ؟ أرانى اذن مستطيعة أن أشعر بحب نحو

شيخك هذا .»

وفى احدى هذه المرات ، جاء عبد الله ، بعد أن مضى عليه فى خدمة الشيخ فضل بضعة شهور ، قبل موعده ، الى منزل عمه فى حارة النحاسين. وأحضر معه قطعة من الحرير ، وقدمها لزوج عمه ، راجيا اياها ، أن تسمح لنفيسة بالذهاب معه .

وكان ذلك يوم الاحتفال بمولد النبى ، حيث كان أهل القاهرة قد أخلوا انفسهم من العمل ، احتفالا بالمولد . وقد كانت خديجة تتردد فى اجابة الطلب ، لولا أن رشوة عبدالله ، الحريرية قد نجحت فى كسب رضاها . وقد كان يخفق لو أنه الحف عليها بالقول . فسمحت لنفيسة بالخروج معه ، ولم يكن يظهر عليها لذلك تذمر شديد . غير أنها تمتمت قائلة «انه قد قرب الزمن الذي يجب فيه عليها أن تضع على وجهها برقعا ، وذلك لأنها كبرت ، ولأنه لايصح لها أن تخرج من الدار سافرة الوجه ، غير منقبة .»

خرجا من الباب الى الحارة ، يمشيان يدا في يد . فكان منظر نفيسة في (جلابيتها) الصفراء وشعرها المنبوش المربوط بمنديل حريري قرمزي اللون ، منظرا خلابا فاتنا . وكان عبد الله كذلك ، لايقل منظره خلابة عن منظرها ، وقد لبس قفطانا جديدا رمادى اللون ، أعطاه الشيخ له ، فيما ناحية جامع طولون ، متجهين نحو الغرب ، مخترقين في الطريق أزقة وأسواقا . وكانت نفيسة تعلق على كل ما تقع عيناها عليه ، بكلمة بسيطة . ولكن عبد الله كان يكاد لايلتفت يمنة ولا يسرة. ولقد وقف مرة واحدة ينظر الى رجل سمين ، صلب على عمود في مفترق طرق أربعة ، كان يلوى بوجهه ، يحاول عبثا أن يبتعد به عن رؤيه كتلة كبيرة ، ربطت فوق صدره .

وكانت ترى على وجهه أبشع علامات التقزز والضجر ، وكانت

تنساب اللعنات من فمه ، صارخا صاخبا . وكان بين اونة وأخرى يبصق من فم جف لعابه .

ولم تكن تلك الكتلة المعلقة تحت أنفه ، سوى قطعة من لحم منتن عفن ، حط عليه الذباب .

قال عبد الله « انظرى يانفيسة ، هذا بائع لحم فاسد عفن ، عاقبه رئيس الشرطة العقاب الذى نص عليه القانون . أظن أنه بعد الآن لن يدخل فى حانوته مثل هذا اللحم مرة أخرى . لقد مضى عليه يومان وهو كما ترين الآن ، وباق له يوم ثالث . أخال أن سيكون له بعد الآن منخر حدأة ، يشم به فضلات اللحم في المستقبل ، فلا يخطىء أبدا . »

ولقد كان الرجل قبطيا ، كما كان يظهر من الصليب الصغير الأزرق الذى كان مدقوقا على قبضته اليمنى .

لقد صخب ولعن حينما رآهما ، فقد ظن أنهما يسخران منه ويستهزئان به ، وهو فى هذه الحال من البؤس والضنك . ولكن نفيسة ، ذهبت الى نافورة ماء للسقاية العامة ، كانت قريبه منها ، وملأت كوبا من الماء ، وذهبت به اليه ، فطردت بذلك الذباب ، ووضعت الكوب بين شفتيه اليابستين .

قال أخوها محتجا « ما الذى تصنعين يانفيسة ؟ انك تجلبين لنفسك التعب والنصب ، وتدخلين في لجاج مع رجال الشرطة . »

قالت « وما أمرى برجال الشرطة وما أمرهم بى ؟ نراهم يحبون لأنفسهم أن يقفوا موقفه ، وهم من أكبر اللصوص فى القاهرة ، اللهم الا اذا كانت الاشاعة غير صحيحة ؟ »

قال الغلام محذرا « صه ، انك فرطة اللسان يا أخية ، ثم ألا تعلمين أن هذا الرجل قبطى ، من أولئك النصارى الملاعين . »

قالت « أليس يعانى من الألم الآن ما يعانيه مسلم لو وقف مكانه ؟ »

هز عبد الله كتفيه ، وكان يكفى ، أن يكون الشخص نصرانيا ، فيستحق فى نظره كل أنواع المقت والسخط . على أن الرجل تمتم شاكرا لنفيسة صنيعها ، مذرفا الدمع ، فكان يجرى على وجهه المحترق الذى غطته الأقذار والأدران ، ثم قال « اليك شكر ميخائيل القبطي يابنية يعترف لك بحق النعمة التي منحته اياها ، وحرمة الصنيعة التى أثقلت بها كاهله . »

فرغ صبر عبدالله ، وعيل بعملها ، فجذبها اليه ، واندفعا يواصلان سيرهما .

قالت أخيرا « ما الذى يتعبك ويضنيك ، ولماذا هذه السرعة ؟ انك لاتريد أن تقف ، لترى الحوانيت ومافيها ، وعلى الأخص فى مثل هذا اليوم ، بل انك لاتريد مني ان أقف لأشاهد المشاعل تمر بجوارى وأرى العازفين على المزمار ، وأسمع أنغامهم ؟ . »

قال « سترين ماهو خير من هذا ، سترين ماهو أحسن حتي من ذلك القصاب المصلوب على العمود ، ولو أن هذا الصلب ، علم الله ، فى محله . أسرعي أسرعى والا تأخرنا ، وحذار أن تقولى لخديجة كلمة واحدة . عدينى بذلك . »

قالت الفتاة مؤنبة « ومتى بحت لها بشىء ياعبدالله ؟ واسمح لى أن أسألك الى أين نحن ذاهبان ؟ ألرؤية ذكر ؟ »

قال « لرؤية ذكر ؟ أتظنين أننى لم أشبع من هذه الاذكار التي يقيمها الشيخ فى كل وقت ، والتى لا أحرك حيالها ساكنا ؟ » ثم همس فى أذنها قال « لالذكر أريد قودك ، وانما لنري الدوسة . »

قالت وقد اتسعت حدقتاها « الدوسة ؟ ! هذا مستحيل ياعبدالله ، هذا مستحيل . »

قال « اتركي هذا الامر لى . أما اذا كنت خائفة فقولى انى خائفة . »

قالت « خائفة ؟ »

قال « ربما لا تجد البنات من أنفسهن ميلا لمشاهدة هذه الامور الخاصة بالرجال . »

قالت « وهل تظن أنك من الرجال ولما تتعد بعد الثالثة عشرة من عمرك ؟ »

قال بعنف « صه . »

لقد كان لنفيسة لسان حاد فى بعض الأحيان ، توجه به اليه ، متى شاءت ، قارص الكلام وشديده .

ولم يعد هناك مجال للرجوع ، وكانت نفيسة لا تقل رغبة فى العودة الى الأزبكية عن أخيها . فلما أن وقف فى الشارع ليشترى قطعة من الملبن ، سألته وهى التى تحب الحلوى عن كل ماعداها ، أن يرجىء الشراء الي مابعد.

وقابلهما في حارة ضيقة جماعة من الفرسان ، فمالا مبتعدين عنهم وكان فى المقدمة ستة من حملة المشاعل ، يخلون الطريق بعصيهم الطويلة ووراءهم رجل مهندم ممتطيا جواده يلبس لباسا فاخراً وكانت عمامته من أحسن أنواع الحرير ، وعباءته مطرزة بالذهب . وانبثق من زناره بريق قبضة مشمله المرصعة بالآلىء . جمع بالاختصار بين العظمة والأبهة وبدت عليه علامات الاغتباط بما هو فيه .

لصق عبد الله ونفيسه بالحائط حتى مر الركب . وما كاد يمر بهما حتى همست بأذنه قائله « من الرجل ؟ » وكان من صفاتها الفضول ، كانت تحب ان تعرف كل شىء.

قال الغلام دون اكتراث « انه فرنجى . لعنة الله علي هؤلاء الفرنجة . »

قالت الفتاة وجلة خائفة « صه . » ولكن الرجل الذى على ظهر

الجواد سمع قوله . فاستدار في سرجه والتفت اليهما وقد وقفا على عتبة باب .وعلت وجهه ابتسامة تدل علي سروره من رؤيتهما ، وتنبىء عن حسن سريرته .

رفع الغلام بصره فوقعت عينه على عين الرجل لحظة ، قبل أن يترك الركب الحارة.

قالت « أظن أنه سمعك يا عبد الله . ولقد خفت أن يأمر الرجل خدمه بضربك . »

قال « انه مسلم صادق الاسلام مع أنه فرنجى . لقد رأيته مرة فى بولاق ، حيث هو مفتش على العمال الذين يشتغلون فى أسطول مراد بك . ويقولون ان العمال يحبونه ويحترمونه كثيرا .ولقد سمعت المشايخ ذات يوم يتناقشون ويتجادلون بسببه ، فقال بعضهم انه انما أسلم لكى ينال بغيته ، ويصل الي طلبته.ولكن الشيخ فضل صاح بهم ،كما هى عادته دائما ، قائلا (أن اسكتوا فانه اذا قال انه مسلم فليكن ولنقبل كلامه . ان الله الرحمن الرحيم وحده يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .) على أن الشيخ فى الحقيقه غبى ومن حسن حظه أنه عثر على لأعنى به ، وأنظر فى أمره ، فهو واسع الاطلاع متبحر في العلوم ، ولكنه طفل في الحصافة والحذق . والآن أسرعى والا تأخرنا . »

ولم يلاحظ أحدهما ، امرأة تلبس حبرة ونقابا (يشمكا) كانت ترى الحادثة وهي صامتة ساكتة ، وظلت واقفة فى العطفة الضيقة ، تتبع بعينيها، شبح ذلك المارق من دينه ، الكافر بدين أبيه وأمه ، يتألق بما عليه من ذهب وجوهر .

لقد جمعت المقادير هذه الفئة لحظة من الزمن ، ولم يخطر ببال أى واحد منهم ، أن له بمن يرى صلة متينة، وأواصر وثيقة العرى.

وصلا أخيرا حديقة الأزبكية الواسعة الفسيحة ، وهناك وجدا جمعا زاخرا من الناس ، تخفق قلوبهم شوقا ، وترجف صدورهم من التوقان والشغف .

قال عبد الله « الصقى بى يانفيسة ، لا تتركى يدي ، وهيا بنا نيمم ناحية منزل الشيخ البكرى . » وسارا في طريقهما بين دفع وزحف وصدام ، وسط ضغط تلك الجموع الكثيفة ، حتي وصلا ، وقد بللهما العرق ، الي فضاء واسع ، يؤدى الي منزل الشيخ .

وهنا اشتد زحام الناس وزاد تدافعهم ، يرفعون أعناقهم لرؤية موكب من الدراويش ، آتيا فى الطريق ، يتبعه شيخ على ظهر جواده .

وكان هذا الشيخ متقدما في السن ، ذا لحية طويلة متجلببا بالبياض ، وعلى رأسه عمامة خضراء سندسية ، ربط فوقها قطعة من الشاش الأبيض .

وكان الدراويش يدقون على دفوفهم دقا شديدا ، يتمايلون بانتظام ذات اليمين وذات الشمال ، وهم يصيحون قائلين « الله ! الله ! الله ! »

قال عبد الله وقد تهدج صوته من التأثر « انظرى يانفيسة ، هؤلاء هم دراويش السعدية ، وهذا شيخهم . انظرى تريهم يكادون ينبطحون علي الأرض . » وما كاد يتم كلامه حتي انفصل من الدراويش خمسون ، وناموا على الأرض وظهورهم نحو السماء ، وتلاصقوا بعضهم ببعض ، حتي لم يكن بين اثنين منهم فرجة ما .

قال عبد الله « انظرى يانفيسة الى الرجل البدين . انه لن يصيبه أذي اذا ما مر الحصان فوق ظهره . والله ان في ذلك العجب العجاب . »

سكن القوم كأن علي رؤسهم الطير ، ولم يكن يقطع عليهم هذا السكون ، الا أصوات تصيح « الله ! الله ! » يصحبها دقات شديدة على الطبول ، عند ما قاد السايس جواد الشيخ براكبه ، ومر به فوق ظهور النائمين .

وجيء بالجواد ليطأ بقدميه هذا البساط الآدمي ثلاث مرات. وكان في كل مرة منها يرفض أن يدوس على ظهور النائمين، فيحجم وينحرف، ويزوغ ويميل. ولكن كانت تجذب اللجام أيد قوية. فوضع قدمه الأمامي، بعد اللتيا والتي، علي أقرب النائمين، ثم مؤخريه، وهكذا سار الجواد على افريز من الآدميين.

قال عبد الله « انظري يانفيسة الى الرجل السمين، لقد تألم وأنّ من الألم. أقسم لك أن هؤلاء الناس ضخام الجثث، أجبن من خلق الله علي وجه البسيطة. »

أشاحت الفتاة بوجهها حتى لا ترى المنظر المؤلم وقالت « ذلك مؤلم شديد، لقد سحقوا تحت أقدام الجواد، انهم سيموتون، انهم سيموتون. »

قال « يموتون؟ لا، ليس هؤلاء الذين يموتون. ألم يقرأوا الأوراد؟ ألم يتعوذوا بالكلمة السحرية؟ انظري، لقد انتهى الأمر، وها هم ينهضون وقوفا، ماعدا الرجل السمين. لقد ضرط الرجل بلا نزاع، وذلك لأنه نسى الكلمات التي يتعوذ بها. انظري، انظري، لقد انتهي كل شيء، والله لقد سرني أن جئت الى هنا. »

قالت « ولكن انظر ان الرجل البدين لم ينهض بعد. »

قال « معلهش، لا بأس، فالخطأ خطؤه. »

لقد كان يجب عليه أن يعد نفسه بقراءة الأدعية والأوراد، وبالصلوات الطيبات . . . انظري هاهو الشيخ يسير نحو الدار، وقد حان الوقت لنا أن نرجع فقد طال بنا الزمن. يا الله أن يومنا يوم متعب حار. اليك عمامتي وقفطاني، لقد مزقا، على أن ذلك ليس بذى بال عندى. لقد رأيت الدوسة وكفى. ما كان أبهاه منظرا وأعجبه؛ ولو أن الشيخ لا يعتقد في الدوسة ولا فيما يتعلق بها. من يدرى فقد

أنام أنا أيضا ، ان شاء الله ، على الأرض ، لكي يسير الجواد فوق ظهري . »

قالت « واها لك ياعبدالله ، انك لاتري شيئا الا وطلبت أن يكون لك منه وفيه نصيب . »

قال الفتي ضاحكا « صدقت ماعدا النحاس . والآن هيا بنا فقد تأخرنا ، وستغضب خديجة منا ، وهي ستعد لك كلاما كثيرا لتستقبلك به ، فاستعدى . »

قالت « وكذلك شيخك سيتساءل أين كنت ، وينتظرك بعصاه . »

قال « لاتخافي عليّ شيئا . سأقول له ، كنت سأحضر اليك قبل الآن ، لولا أنى خفت أن أقطع عليك عملك . فيقول لى : أشكر الله أن منحنى غلاما مفكرا لبقا أريبا مثلك . »

قالت الفتاة ضاحكة « ما أغباه وأبلهه ! »

واندفعا ناحية الشرق يسيران في الحارات والأزقة الضيقة ، وقد خلت من المارة لأن معظم السكان كانوا قد ذهبوا الى الأزبكية ليشاهدوا حفلة الدوسة ، وما يتبعها ، حتى اقتربا من الحى الذى يقطنه الشيخ . فلما أن وصلا الى الشارع الذى يبدأ بالقلعة ، سمعا صوت حوافر خيل ورأيا فى الحارة فارسين ممتطيين جوادين ، ويسيران بأقصى سرعة .

وكان أولهما شابا غير ملتح ، يبلغ من العمر ثمانى عشرة سنة ، وبشرة وجهه سمراء زيتونية ، من أثر الشمس . وكان على رأسه خوذة من الصلب ، وكانت صدرته من الحرير المزركش بالذهب . أما البرنس الواسع الذى كان ملتفا حول جسمه الأهيف ، متدليا على جوانب الجواد ، فقد كان من القطيفة الزرقاء . ومن حزامه ظهرت قبضتا قربينتين مرصعتين . أما مشمله فقد كان يرى تقوسه من تحت البرنس .

لقد كان هذا الفتي بلا نزاع ، في خدمة أحد البيكين المتنافسين .

وقد كان رفيقه من الوجهة الاخرى ، يجذب اليه نظر كل من رآه لا لما كان عليه من هندام وملبس ، بل لما منحه الله من جسم عضل ، وبنية قوية .

لقد كان جورجيا ، ناعم البشرة ، طرى الأديم ، ذهبي شعر الرأس والذقن ، تنقصه يقظة زميله ، وخفة حركته . الا أنه ما كان احد ينظر اليه ، الا ويمعن النظر معجبا بذلك الشكل الضخم والجسم الماردى .

تبع هذا زميله الآخر ، وكان يمتطي جوادا ، له حجم غير عادى فكان كأنه ملأ الزقاق الضيق تقريبا ، وسده على عابريه .

كان الزقاق ضيقا ، كما أسلفنا ، فانكمش كل من الفتي والفتاة ، ولصقا بالحائط . ولكن ما كاد يصل الفارسان بالقرب منهما ، حتى اندفعت نفيسة الى الأمام ، تريد أن تصل الى عتبة باب ، تلجأ اليها ، وتحتمي فيها . غير أن الجواد الأول ، كان قد لحقها ، وكاد يصدمها لولا أنها وقفت فى مكانها حائرة لاتدرى ماذا تصنع . ولئن هي تقدمت خطوة أخرى لكانت ديست تحت أرجل الجواد . واذ ذاك جذب راكبه عنانه ، فوقف الجواد على شاكلتيه ، وأمسك الفارس بذراع نفيسة ، ورفعها اليه وأركبها على قربوس سرجه ؛ وراحت هذه ، حيث هى ، تضرب بيديها ورجليها ، وتكافح وتقاوم كالقط المحرج .

قال الفتى « هدية جميلة . »

قال زميله « دعها وشأنها ، انك أحمق . لسنا نريد أن يتبعنا أهل هذا الحي وساكنوه ، لاننا نضايق نساءه ونزعج حسانه . »

قال « انظر اليها . أتظن أنى أتركها دون أن أقبلها ؟ ان مثل هذا الجمال الفاتن ، لايصح ان يخفيه عن أعين الناظرين برقع أو (يشمك). »

واذذاك سمع صوت يتهدج من الغيظ يقول « دعها وشأنها . »
التفت المملوك دهشا ، ذلك لأنه رأى عبد الله قد عبر الطريق الي منتصفه ، ووقف أمامه وجها لوجه وقد تصاعد الدم في وجهه وقال « دعها وشأنها ، ياابن الجريمة والاثم . »

ضحك الآخر لدى سماعه ذلك وقال «أصغ اليه ، لقد استنسر البغاث ، وجاء الغراب يناصب النسر العداء .

قال الغلام « ترجل واترك جوادك ، تران كنت بغاثا ، أوغرابا . » ثم قفز الي الأمام وأمسك بعنان الجواد .

ضحك الآخر وقال « لقد طغى أبناء هذه المدينة ، وتكبروا وبغوا . » ثم ضرب بمهمازه الجواد ضربة شديدة ، جعلته يقفز الى الأمام بعنف وشدة ، وكان لايزال عبد الله ممسكا باللجام ، فاندفع الى الأمام . وضربه بعدئذ الجواد بحافره فى رأسه ، فأوقعه طريحا على الأرض .

قال الرجل الضخم « يا الله ! ماذا صنعت ياعثمان ؟ » ظهر الأسى والتحسر على وجه الآخر فأنزل نفيسة ثم ترجل مسرعا .

قالت نفيسة « اتركه واذهب . » وقد وقفت هى تتميز غيظا بجوار جسم أخيها الصريع .

قال وقد رأى في جبهة الغلام جرحا طويلا « اننى ماقصدت ، ولا أقصد ، به سوءا . قنى بجواره ان جرحه وربى لجرح عميق . خبرينى أيتها الفتاة ، أين تسكنين . »

قالت « ان أخى يعيش مع الشيخ فضل ، وهو ليس بعيدا من هنا . »
فرفع عبد الله عن الأرض وقال « اذن انني آخذه اليه . » ورجاها أن تسير أمامه .

أسرعت تمشى من حارة الي حارة ، تنظر وراءها كلما سارت ، الى

حيث المملوك يسير مهرولا ، في أرديته الواسعة ، وهو يحمل عبد الله علي ذراعيه ، ويتبعه المملوك الآخر ، وقد أمسك بعنان جواد زميله حتى وصلا فى النهاية الى الشارع الذى يقطنه الشيخ .

وهنا تنبه عبد الله من غيبوبته ، وصاح بهم أن يضعوه على الأرض. قال « اين نفيسة ؟ » جاءت اليه مسرعة وقالت «شكرا لله ، ظننت أنك قتلت. »

قال « امسحى الدم من فوق عينى ، فلا ينبغى أن يرانى الشيخ علي هذه الصورة . لقد صنع الجواد بى ما ترين ، ولولاه لكنت جذبت راكبه الى الأرض . »

قال الرجل الضخم ملاطفا « لابد أن أدخلك زمرة المماليك . أما الآن فلتوجه جهودنا الى أن نذهب بك الى الدار حيث نراك سليما معافى. »

رآه الشيخ على هذه الحال ، فألم للأمر وتضجر . وأراد أن يرسل على الفور في طلب أحسن طبيب في القاهرة ، لولا أن الفتي سأله بعض الماء ، وأدخل الولد في الدار ، وبعد أن غسل وجهه ، ونظفه مما كان عليه من الدماء ، قطع من زناره قطعة . وربط له جرحه برشاقة ومهارة وقال « نحن معشر المماليك مدربون على الجروح وتضميدها ، وجرح صاحبنا غير بليغ ، وانه بعد أسبوع سيكون سليما معافى من كل شيء بإذن الله . »

قال الشيخ فضل متأثرا « بإذن الله . »

لم يبق من شيء للمملوكين يعملانه ، الا أنهما مكثا فى الحجرة يجيلان البصر فيها دهشين من رؤية أكوام من الورق ، بين مكتوب وغير مكتوب ، مبعثرة هنا وهناك ، تدل على حياة وميول ، تختلف عن حياتهما وميولهما ، اختلافا عظيما . وأخيرا نظر المملوك الاصغر الي من حوله ، نظرة الخجل والحياء وقال

« اننا نحن الاثنين من مماليك مراد بك ، وأنا عثمان السليكتار ، وهذا صاحبي حسن الكبير ، وأعترف أن ماأصاب الفتى كان بسببي فهل من شيء ترون ياسادة تلزموني به ، لأصلح به مافرط ، واعوضه عما لحقه من ضرر ؟ » ثم لمس بأصابعه السلسلة الطويلة الذهبيـة التي كانت معلقة حول رقبته .

أجاب الشيخ بوقار وهدوء « لقداعترفت بالخطأ ، وأظهرت التوجع والتحسر ، وأبديت الأسف والندم على مافات ، وليس يطلب الله الى المخطيء ، الاالتوبة والندم فهل لي ، وأناعبده ، أن أطلب أكثرمن ذلك ؟ »

سقطت عندئذ السلسلة الذهبية ، التي كان يلمسها الفتى بأصابعه ، على صدره .

قال الشيخ « يؤسفني أن خادمي قد خرج الآن لقضاء أمر ، والا ما كنت أسمح لكما بمغادرتي دون أن أضيفكما عندي ، ولو لشرب القهوة . »

قال المملوك الصغير « انا قادمان مع السرور ومرة أخري لزيارتك . »

قال « على الرحب والسعة ، واني ليسرني ذلك ، بل ويسرني أن أرى مثلك يعترف بخطأ ارتكبه ، مع أن المتعارف أن الشيمة التى أنت منها لاتعرف ذلك ، ولا تقدم على فعل مافعلت اليوم ، من تضميد جرح الفتى . ولذلك يوجد فى النفوس شيء بين المماليك وسكان القاهرة . »

فكان جواب الفتى « اسأل الله أن يوفق مابين المماليك وسكان القاهرة ، وان يكثر التعارف بينهم . »

ثم التفت الي عبد الله وقال « آمل أن تبل سريعا ، واني ملاقيك ثانيا ، فالي الملتقى . » ثم التفت الي نفيسة ، وهي أصل هذا الشر كله ، وسلم ، وغادر المكان هو وزميله الجامد العابس الذى قد أعياه الانتظار فظهر عليه الضجر والملل .

فلما أن مر فوق أكوام التراب في الفسطاط ، حيث كان القارب

بانتظارهما ، قال الفتى لزميله ، بعد صمت طويل ، غير مألوف منه ، لأنه كان ثرثارة كثير الكلام « لم يكن يخطر ببالى قط أن سكان القاهرة ، كما رأينا اليوم . »

قال الآخر بعنف « انك انما تفكر بالفتاة أيها الغبى الأبله . »

قال ولم تعل وجهه حمرة الخجل « الحق ماتقول ، لست أكتمك اياه — قل أرأيت عينيها النجلاوين ، وخديها الحمراوين ؟ ولست أنس الفتى ، لقد أظهر فى هجومه علىّ ، شجاعة البازي لاجبن الغراب. ولقد أظهر قلة اكتراث بجرحه ، فى حين أن كثيرا من المماليك ، لو أصيبوا بمثله ، لملأوا الدنيا عويلا وصراخا . ثم أرأيت الشيخ العجوز ؟ أرأيت ذلك الوقار . وتلك الأنفة التى رفض بها السلسلة ، وتلك الرقة وذلك الظرف ، اللذين عاملنا بهما ؟ يا الهي ! لقد شعرت من نفسي بميل لتقبيل يده ، اجلالا له ، واعظاما واحتراما ، مع أنى كنت أنظر للقاهريين حتى اليوم ، نظرة احتقار وازدراء . كنت أعتبرهم نوعا من الخنازير . »

قال الآخر وقد خط بيده لحيته الذهبية « لقد سحرتك الفتاة وخلبت لبك ، ولست أعجب ، لذلك . » لم يدر بخلدهما وهما راجعان أدراجهما الى بلدهما ، ماسيكون من وراء هذه الحادثة الفجائية .

وبقيت نفيسة فى دار الشيخ بعد خروجهما ، . عابسة الوجه ، مخيبة الآمال . قالت هامسة فى أذن أخيها . « لقد كان يريد أن يعطيك السلسلة الذهبية ، لولا ماقاله الشيخ ياعبدالله . »

قال الفتى « فليذهب هو وسلسلته الى الشيطان . »

قالت « لقد جذبنى اليه ، أرأيت لباسه ؟ وهذا الرجل الضخم الجثة ، أرأيته ؟ أن مراد بك نفسه ليس أجمل منه منظرا ، ولا أكثر هيبة . لقد كان كالسلطان عظمة ووقارا . »

قال « قد يجوز ذلك ، وانما أرى الآن أن خالتنا خديجة ، كانت مصيبة ، في قولها ان الوقت حان لكى تضعى نقابا على وجهك. اليشمك، اليشمك . »

وسارت نفيسة وهى متجهمة الوجه ، مقطبة الجبين ، طول الطريق ، يرافقها خادم الشيخ ، حتي أوصلها الى دارها :

الفصل السابع

المرتد

غلت الشمس جبل المقطم ، واذ ذاك تعرضت القاهرة لوهجها اللافح ، فتضايقت وتضجرت من شدته. والصحراء على جنبيها تختنق من شدة الحر ، فكأنها مدفئة كبيرة الجرم . يمر عليها النسيم العليل البارد ، فتمتص منه برودته ، وتنفثه حرا لافحا ، كأنه زفير أتون متقد ، فيزيد المدينة بؤساعلى بأسائها ، وألما على مافيها من الآلام. ويكافح سكانها وقذات القيظ ، وحمارات المصايف .

وتعرضت جدران المنازل لتلك الحرارة فصخدتها وخبزتها ، فاستحال الهواء الذى فى داخلها الى سموم محرقة ، وكان قبل ذلك رطبا نديا .

ولم يسر دولاب العمل منذ البكور الا قليلا ، حيث أغلقت الدكاكين ساعة كاملة قبل الظهر ، وذهب أصحابها الى منازلهم ليناموا الى مابعد العصر ، حتى يهب ريح من الشمال ويعيد المدينة حياتها ، ويستطيع سكانها مزاولة أعمالهم . على أن العصر قد جاء وانصرم ، ولم يكن ثمت تغيير فى الجو . وأعد سكان القاهرة أنفسهم ، لمقابلة ليلة حر عصيبة ، متنهدين متحسرين ، الى أن يشاء الله فيبعث لهم نسيما عليلا ، طريا نديا ، يزيل عنهم غمة الحر ، ويبعد عنهم الكروب .

أما في بولاق ، وهو الحي الواقع على شاطىء النيـل ، فان الحال كان أحسن منه قليـلا في القاهرة . ذلك لأ نه كان يسرى فوق حوض النهر ، نسيم لطيف ، اشترك فى تبريده ، اتساع سطح الماء ، ونضرة مزروعات الدلتا .

ولم يكن النسيم في الحقيقة كثيرا . غـير أنه كان مابين آن وآن يهب على جسم رجل اتـكأ على السلم الرخامى لجبيل صـغير (جبـلاية صغيرة) كـان بارزا في النهر . ولبس قفطانا رفيع النسيج ، وبجواره كانت توجد نافورة ، يرتفع الماء منها ويساقط ، فيسمع له خرير . ووراءه كانت ترى حديقة واسعة المدى ، تملؤها أشجار البرتقال ، وشجيرات (الست المستحية) وفى وسطها قامت جـدران منزل ، كثير الحجرات ان صح أن لانسميه قصرا .

خلع الرجل عمامته ، فظهر شعره القصـير المتجمع ، الضارب لونه في الحمـرة . وكان على يمينـه جرة ماء ، وفي يده مبسم تدخـين تركى (شبق) ، كان بين آن وآن ، يضعه بين شفته ، بشكل ينبىء عن عادة ، لاعن رغبة . وكان ينظر وهـو فى جلسته ، الى سطح الماء الأملس الناعم ، وكأنه وسنان .

لم يكن الرجل مصريا . على أنه لم يكن أحد أبناء هـذه البـلاد ، وهم على ماتعلم من خمول ووداعة ، بأ كثر منه كسلا ، وأمهر منه فى صناعة البطالة . لم يبد عليه أية مسحة ظاهرية من مسحات حب العمل . ولـكنه كان اذا ماضلت بعوضة طريقها ، وحطت رجلها على وجهـه ، طردها ببطء وتأن ، دون أن يظهر على وجهه أى علامة من علامات الضجر .

كان يلتفت يمنة ويسرة ، مابين آن وآخر . كأنه يتوقع أمرا ما أو ينتظر أحدا . ولـكنه لايرى أحدا قادما ، فيتوجه بنظره ناحيـة النهر مرة أخرى ، كأن لم يجد بنفسه شىء ، وكـأن لم يدخل شىء على

قلبه القنوط والخور . لقد سري فيه سر تلك الكلمة (معلهش) واستقر في جوفه ، وغلبه الاعتقاد فيها على أمره .

واختفت الشمس في كرة من النار ، خلف الأهرام البعيدة، فظهرت ظلال طويلة على الأرض ، هي ظلال النخيل ، وأضاءت سطح النهر ، فقسمته الى ألواح عريضة ، ذات ألوان طيفية ، جمعت بين الأرجوانى والأصفر ، والأحمر والبنفسجي . وجعل صاحبنا يراقبها ببلادة لايدرى ماهى . يستقبلها كما يستقبل الانسان أية منحة أو هبة ، مرجوة مرغوبة ، وان تكن ليست بالجديد ، كأنها شيء لا يستقبله الانسان بالاكتراث ، ولا بالتحمس والغيرة .

وجاءت طائفة من السحب ، غير مرتفعة فى السموات ، تكاد تلمس الجبال الليبية ، فكان يظهر لها من الصور والمناظر المتغيرة مالا عداد له . فمن منظر جبلى جميل ، يعلوه ضباب الصباح ، الى لون ذهبي ، الي لون فضى ، ثم يتحول ذلك الى بساط من الذهب ، يرسل أشعة فى الظلام ، كالأنهر تجرى فى الارض. واذ وقف الرجل ينظر الى ماأمامه كان يظهر عليه أنه يصغى الى صوت أمواج هذا الخضم الهوائي ، تتخبط أمواجه فوق هذه الصخور الوهمية .

اختفى من الوجود استيفن هيلز ، وظهر مكانه اسماعيل أفندى . لقد نقص عدد المسيحيين في القاهرة واحدا ، وزاد عدد المسلمين فيها واحدا .

مضت سنون خمس على انفصاله عن شركة جرل ليفيبر ، ولقد حدث خلالها الكثير من الامور .

لقد حصل اسماعيل أفندى الآن ، على كل ما كان يتوق اليه استيفن هيلز ، أيام فقره وبؤسه .

كان ذلك بمثابة المكافأة على ارتداده عن دينه ، لم يلوه عنه رجاء

زوجه وتوسلاتها ، ولا حجج ليفيبر وبراهينه .

ففى غد تلك الليلة ، التى أخبر استيفن زوجه فيها ، بعزمه الجديد أسرع الفرنسى بالحضور الى بولاق ، لأن مرغريت كانت بعثت فى طلبه . فجاء تخنقه العبرات ، وتسيل الدموع من عينيه ، الى صديقه راجيا أن يقلع عما اعتزمه وانتواه . وقدم له نصف الكسب في الشركة ، ممنيا اياه بأمانى كبيرة ، وآمال عظام .

قال « أقلع ياعزيزى عن تلك الفكرة . انى أضرع اليك أن ترفض خدمة ذلك الطاغية ، ذلك اللص الذى أباح لنفسه اللصوصية ، فيغدق عليك هداياه يوما ثم يضرب عنقك فى اليوم التالى . ويهب اليوم ، ثم ثم يسترد غدا ماوهب . وعدا ذلك ، من يدرى ، ربما تصيبك طعنة خنجر من مملوك ، فلا تجد من يدفعها عنك ، بل وتذهب ضحية تسرعك . ولو أن ابراهيم بك كانت له الغلبة يوما على مراد ، فان رقبتك لاتكون فى مأمن من حبل المشنقة . »

قال استيفن « لكل نصيبه من هذه الحياة ، وما قدر سوف يكون . »

قال « أضرع اليك مرة أخرى ، أن لاتنكر قوميتك ، وتجحد دينك ، وتخون نفسك وما عاهدت . »

قال « ومن ذا الذى يقول اننى أنكرت قوميتي ؟ »

قل جول « ها انك ستصبح مسلما . »

قال استيفن « ذاك شيء آخر ، استمع الىّ ياجول ، ليس فى الكلام من فائدة . لست أريد أن يحجبنى عما أريد ، أو يقف فى طريقى ، مثل هذا الشىء التافه . لقد فكرت فى الأمر طويلا ، وهذا ملككم هنرى السادس الذى رحتم تشيدون بذكره ، ألم يقل ان تاج فرنسا ، أفضل من كل قداس يقام في كنيسة نوتردام ؟ »

قال الفرنسي « وماذا كانت آخرته ياسيدى ؟ »

قال « أعلم أنه كان سيموت على كل حال . »

قال « وزوجك ما أمرك بها ؟ »

قال وقد أزعجه ذلك الخاطر « أما مرغريت فانها عليّ أشد منك .
أقول لك انى لست مستطيعا قبلها شيئا . لقد اقسمت أنها تنفصل عنى
ان أنا تركت دين آبائي وجدودي ، فهل سمعت فى حياتك بمثل هذا ؟ »

قال « وانك بالطبع لن ترضى منها ذلك ؟ »

قال « تلك وجهة نظرها . لقد طلبت منها أن تسافر الى انجلترا ،
ولكنها رفضت وقالت انها ستمكث فى مصر ، وستجد لها عملا ما
تكسب منه قوت يومها ، لأنها لن تمد يدها الى قرش واحد مما تسميه
كسبا حراما ، لم يحصل عليه من طريق شريف . فهل سمعت حياتك
بمثل هذا الحمق ، وتلك الجهالة ؟ »

صاح الفرنسى فزعا جازعا . « أضرع اليك ياعزيزى ، أتوسل ،
أتوسل . »

قال استيفن مقاطعا « لا تضايقنى بعد الآن بأقاويلك ، لقد أعملت
فكرتى وانتهيت ، وسألصق بالأمر وأمضى فيه ، مهما كانت النتائج . »

كان ذلك ختام الحديث ، فامتطى جول حماره ، وعاد أدراجه الى
القاهرة ، وبقلبه من الحزن مايزيد عن حزنه لو أنه سمع أن محل جول
ليفيبر وشركاه ، قد أفلس واندثر .

وعاد بعد ثلاثة أيام ، فقد سمع أن مرغريت قد صممت علي انفاذ
عزمها ، وأنها بالفعل قد بحثت لها عن عمل في حارة النصارى . فجاءها
يقترح عليها اقتراحا ، وعرضه عليها بكل مسكنة وذلة ، وهو يقضى
باستلامها حسابات المحل ، لأنه هو نفسه لا يجيد مثل هذه العمليات ،
وفى الوقت نفسه ، لا يثق بالكتبة الأقباط وأنها سيكون لها فى مقابل

ذلك الحصة التي كانت لزوجها من قبل .

قبلت مرغريت ذلك بكل سرور ، وما كان الحصول على عمل لها بالأمر الهين الميسور . غير أنها رفضت هذه الحصة ، ورضيت ان تأخذ الأجر الذي كان سيعطيه جول للكاتب القبطي ، لو انه جاء .

رأى جول ليفيبر أن الرجل مضى في انفاذ عزمه ، لايلويه شيء وأن زوجه لم تستطع بأي حال من الأحوال احتمال ردته . فجاء بمرغريت من بولاق ، الى بيتها الحقير في حارة النصارى مرة أخرى ، واختار لها سودانية لخدمتها .

ومضى زمن طويل على استيفن هيلز ، لم ير زوجه فيه ، وكأنه لم تجمعه بها جامعة .

وكان يسأل جول ، اذا ماقابله صدفة ، عن زوجه فيقول «وكيف حال مرغريت ؟ علم الله أن ثقتي فيها لم تتغير . » فكان يجيبه جول عن ذلك قائلا « انها بخير . » ثم يسأل متلهفا «هل من رسالة أوصلها لها ياسيدي ؟ »

واذ كان يجلس استيفن هيلز الى نفسه ، يفكر في تلك الحوادث المختلفة التي حدثت له ، كان يزيد اقتناعا بأصوبية مافعل .

جاءه ذات ليلة خادمه يسترق الخطى وقال بعد أن سلم « لقد حضر ياسيدي الأفندي مفتش الترسانه . »

قال « حسن فليتفضل وليوافني الى هنا ، واذهب أنت وأعد شبقا آخر ولا تنس القهوة . »

ذهب الخادم وجاء في أثره ، رجل بدين قوي ، يرتدي رداء فاخرا وضع على رأسه عمامة قرمزية اللون ، وكان سرواله الواسع قرمزي اللون أيضا . اما صدرته ، التي كانت مفكوكة العرى ، والتي تظهر منها رقبته وجزء من صدره العاري ، فقد كانت قاتمة الزرقة وكان

ينتعل حذاء أصفر لا كعب له ، وعلى وسطه حزام واسع ، تظهر منه قبضة خنجره المرصعة بالجواهر .

فكان كاليعسوب الكبير ، كثير الألوان واللمعان . الا أن مظهره كان لا يخلو من روح الوحشية والشراسة . جاء يتهادى فى مشيته ، يتبعه غلام يحمل مشملا كبيرا ، فى جراب من الجلد . لقد كان هذا الرجل صاحبنا مكسيم ليجراند .

ولقد كان يعرف الطريق ، لأنه جاء مباشرة الى حيث ينتظره استيفن .

قال استيفن « هاقد جئت ، وكنت أخشى أن يحجبك الحر عنا . ما الذى تريده لك شرابا ؟ النبيذ أم القهوة ؟ أم تفضل عن كل ذلك شربة من الماء القراح ، شأن المسلم الصالح ؟ »

قال « بعدا للماء بعدا ، يامسيو هيلز . انما أشربها حين لا مندوحة عن شربها ، حيث أصلى فى المسجد ، وأتوضأ هناك ، فتنزلق ، على الرغم مني ، كمية من حلقومى .

ضحك استيفن ، ثم أمر الخادم أن يحضر زجاجة ، لفت بخرق مبللة ، ووضعت تحت السلم الرخامى . قال الضيف وقد مسح فمه بعد أن كرع شيئا منها : « لا يمكن الحصول على شراب أحسن من ذلك الذى يقدمه مفتش الجمرك ، وأما في الترسانه فالأمر على عكس ذلك . أننا لا نجد هناك شيئا أضافيا . »

قال الآخر ضاحكا مشيرا الي مامع زميله من سلاح : « ولكنى أراك قد أحضرت معك الترسانة كلها بسلاحها وذخيرتها . »

قال « كلا وانما يجب أن نحافظ على المظاهر يا استيفن ، فالمشمل الذى أحمله ، انما أحمله لكى أمتاز عما عداى من عامة حامليه : ولا تنس أنه شعار المصلحة التى أنا فيها . »

ابتسم الانجليزى : لأنه كان يعرف من زميله الضعف في المسايفة.

وقال مكسيم بعد أن خلع عنه عمامته ، وجعل يخط بأصابعه رأسه « يالشدة حر هذا اليوم ! اننى أفضل ان أخسر خمسة أكياس من الذهب ، عن أن أقضى الليلة في القاهرة . قدر فى مخيلتك كيف يكون حال النائم فى حارة النصارى ، فى مثل هذه الليلة . »

فهز استيفن كتفيه وتابع مكسيم حديثه قال « انى لأدهش كيف أن جول ليفيبر يحب هذا الحى ويطيق السكنى فيه . يالله كم يكرهنى هذا الرجل ! يأخذ علىّ اسلامي ، ويعتبره اثما لا كفارة له عنده. لقد عرفته فيما مضى ، قبل أن تفد أنت على مصر ، وانى ليخيل الىّ أيضا أنه يظن أننى كنت السبب الأكبر ، والدافع الذي دفعك لان ترتد عن دينك وتعتنق الاسلام . »

قال « ان جول ، مع هذا ، رجل طيب السيرة والسريرة . »

قال « وأظن ان مرغريت لازالت ممسكة حساب الشركة أليس كذلك ؟ »

اعترى استيفن نوع من الضجر والهم والقلق وظهر أثر ذلك على وجهه وقال « أجل انى أظن ذلك . »

قال « ان النساء غريبات الطباع ، عجيبات الغرائز ، وهذا سيدنا سليمان هل أستطاع ان يفهمن ، وقد كان له منهن ستمائة ؟ انه أخفق فى تكييفهن ، والوصول الى حقيقة أمرهن . وها أنا ياأستيفن ، ولم يتعد عدد نسائى ستا ، لا أزال أجد أمامى صعوبات ومعضلات . خذ مدام هيلز مثلا ، تجد أنها تفضل العمل فى الحسابات والسكنى في حارة النصارى ، وهى أقذر الحارات في المدينة كلها ، عن أن تعيش هنا عيشة الترف والراحة . ولماذا ؟ لأن زوجها يدير وجهه شطر مكة حين يصلى ، بدلا من أن يوجهه شطر أى مكان آخر فى سوريا . ذلك غير محتمل بالمرة ، ولقد أجاد من قال

« يعنفنى فى صحبة الدون معشرى — ووالله لم يعلق بصحبتهم قلبى »
« ولكننى أصطاد رزقى بأرضهم — ولا بد للصياد من صحبة الكلب »

قال استيفن « ان نظر النساء الى الأمور يامكسيم يختلف عن نظرنا فالدين ازاءهن ، ليس كما يتراءى لى ولك ، واسطة لغاية مقصودة . »

قال « لا . لا . صدقنى ان الأمر ليس متوقفا على مسألة العقيدة ، واعلم أنهن لايعارضن ولا يمانعن فى ذلك . ولو أنك بدل أن تعتنق الاسلام ، أنكرت الاله وأصبحت من الزنادقة الملحدين ، ما كانت مرغريت حركت ساكنا . أما أن تصير مسلما تعتنق الدين الذى يبيح للرجل أن يتخذ من النساء أربعا ، فهذا مالا تقرك عليه مسيحية أبدا . علم الله أن ذلك الدين فى نظر المرأة من هذه الوجهة ، أردأ الأديان . انه يؤلمها أن يكون نصيبها الربع فيما يجب أن يكون كله لها وحدها . وهنا سر المسألة ، وهنا سبب النفور والرفض . »

هز استيفن كتفيه مرة أخرى ، ولم تبد عليه رغبة فى فحص الموضوع وبحثه . ولقد كان من دواعى ألمه يوما من الأيام أن زوجه تركته ، لانه غير دينه ، وجاء تفضيلها العمل ، عند جول ليفيبر ، ككاتبة للحسابات ، عن العيش بجواره ، ضغثا على ابالة . وهو وان كان قد قسا قلبه مع الزمن ، وطرح عنه هذه الأفكار التى كانت تعتريه فتحزنه ، ولم يعد يعن البتة بأمر زوجه ، الا أنه كان يلذ لسماع اسمها ، ويشتاق لتعرف أخبارها ، عن لسان ذلك الفرنسى المرتد الخليع .

قال الفرنسى « انه لدين يسر الرجال ياعزيزى ، لولا تحريمه الخمر واستبداله بالماء ، وصوم رمضان ، وان كان هذا الصوم يمكن تخطيه ، وذلك بأن يمرض الانسان المرض الملائم ، فيصف له الطبيب الدواء . ومن ثم يستطيع أن يأكل . كلا ، اني أعيدها ، فليس الاسلام في الجملة بالدين العقيم ، وهو الذي يبيح للرجل ان يتخلص من زوجه الجموح

بمجرد قوله ، طلقتك ثلاثا . لم يكن النبي صلي الله عليه وسلم ، بالأبله المغفل . ولقد قلت هذه الكلمة خمس مرات ، فى ظرف خمس عشرة سنة ويغلب على ظنى أنى قائلها مرة أخرى ، لان زوجي قد أصبح لها أخيرا خلق لا يسر ولا يطاق . وكان بودى أن أطلقها من زمن مديد ، لولا أنى أمهرتها مهرا غاليا ، يصعب على استرداده . وعدا هذا فقد ولدت لى غلاما ، وفي هذا من بعض الوجوه ، شيء من الخلاف والتباين ، عن حالك هذه . وانى أحب ابنى هذا حبا ، لم أمنحه لمخلوق فى مصر كلها . »

قال « وفى فرنسا أيضا ؟ »

عبس الفرنسى وقال « فرنسا ؟ ان للاسم نتنا تشعر به خياشيمى اذا ما فهت به . لقد ولدت فرنسيا ، وهذا حق لست أنكره . ولكن ماالذي استفدته من ذلك ؟ وماذا صنعت به ؟ يتكلمون فيها عن العدالة وكانت حياتى هناك جحيما وعذابا . لقد كانت كلمة طائشة ، وعدم تبصرة من فتى لعبت الخمر بعقله ، ثم بدأت سنو الاضطهاد ، وأيام البؤس والشقاء ، التى دفعت بسببها الى الجريمة ، وآل الأمر بي الى السجن . ولكن مالى ولهذا ، لقد أخبرتك بأمري ، وحدثتك بالقصة كلها . الآن أنا مصرى ومسلم . لست أريد سوي المنفعة ، وهنا اريد العيش وهنا سأموت . وسأستقبل ماتبعثه الىّ الآلهة بصدر رحب ، وقلب مسرور . ولكني أؤكد لك أنه ان سنحت لى فرصة أستطيع فيها أن أوذى فرنسا ، وألحق بها أكبر الأضرار ، ماونيت وربك عن انتهازها وما احجمت ونكصت . »

قال هذه الكلمات ، ونفث فيها كل ما بصدره من حفيظة وضغن ، فما وسع استيفن أن ينظر اليه لبشاعته أوكأنه وجد فيه شيئا لا يسر الناظرين .

قال استيفن « يدهشني ماأرى من فرنسا من الاهتمام فى هذه الأيام بهذه البلاد . ولقد علمت أنه ، فى الأسابيع القليلة الماضية ، جاء ثلاثة

من الفرنسيين ، الى بولاق من الاسكندرية . ولقد قالوا انهم سياح مستكشفون يبحثون عن الآثار ، وكان من بينهم واحد له دراية بالبحرية لأني سمعته يبدى بعض الملاحظات عن السفن التي كنا نبنيها ، لا يمكن لواحد أن يبدى مثلها ، مالم يكن له دراية تامة بالبحرية »

ارتبك الاخر وقال « قد يكون ذلك محض مصادفة ، ليس من ورائها شيء . »

قال « ربما : الا أنى كثيرا ماعجبت وتساءلت لماذا لم تبعث فرنسا من زمن مديد ، حملة علي مصر ، تقطع بها طريق التجارة الانجليزية الى الهند . ولقد كان ذلك علي ما أعتقد ، مشروع كارنوت . »

لم يجب الآخر بشيء . شغله عن ذلك ما كان يدور بخلده من الآلام ولكنه قال بعد لحظة :

« بل ان من المدهش أن ترى أنت ذلك ، لأن مصطفى بك كان كثيرا مايضرب علي هذه النغمة . ولم يكن فى استحسانه هذا الموضوع بأكثر مني ، فلا تنس أنه هو أيضا فرنسى ، ترك فرنسا وكان لايزال طفلا صغيرا . »

قال « اذن انت تعرفه قبل الآن يامكسيم ؟ لقد سمعت نتفا من حديثه ، ووقفت على شيء من تاريخه فهل لك ان تحدثني به ؟ »

ثم جلس مصغيا ، ولم يكن قد ظهر عليه الجد فى الحديث وفى الاستماع مثل ماظهر عليه الساعة .

قال مكسيم « ومن ذا يستطيع أن يخبرك عن كل دقائقه ؟ ان الذى أعرفه انا هو أنه وفد على مصر مع أبيه ، مهاجرا من فرنسا ، ثم صار بعد وفاة أبيه مملوكا ثم بيكا ، فكان هو الفرنسى الوحيد الذى بلغ هذه المنزلة . وكل ماعدا ذلك من القصص الشائعة ، التى يسمعها الواحد كل يوم ، فهو هراء لانصيب له من الصحة . مثال ذلك مايقال من أن على

بك نفسه كان فرنجيا وكان اسمه ليونارد .

«وقابلته أول مرة، لما أن رمت بى المقادير ، فى مصر . وكان ازائى رجلا صالحا طيبا ، وليس يعلم غير الله سبب ذلك . لقد كان رجلا ظريفا وكان هو الذى يستطيع أن ينازل مراد بك بالمشمل او بالجريد .

« ولقد كانا صديقين حميمين ، حتي وقعت عين مراد بك على زوج مصطفى ، وكانت أجمل امرأة فى القطر المصرى ، بل وخيرهن جميعاً. وهنا بدأ الشر واستحكم . وأظنك سمعت الباقي ، وهو أن مراد بك أمره أن يسافر لمناهضة اسماعيل بك . ولم يمض على سفره أيام قلائل حتى أرسل مراد بعضا من رجاله ، فهاجموا داره ، وكانت فى الجيزه ، وحاولوا ان يخطفوا زوجه وأبناءه ، ولكنها طعنت نفسها بخنجرها مفضلة الانتحار على العار ، والموت على أن تحمل الى حيث تزول عفتها وتضيع كرامتها .

«ولما أن وقف مصطفى على الأمر ، جمع بعض مماليكه حوله، وعاد مسرعا الى القاهرة، وقابل مرادا وهو بين جنده وحراسه ، فأقسم له هذا على براءته ، الا أن مصطفى رماه فى وجهه بالكذب والرياء ،قائلا ان لديه من البراهين مالا يجعل للشك عنده مجالا . وهجم على مراد بك طالبا أن ينازله منازلة المستميت . ولكن مراد بك، على الرغم من رضائه بهذا ، منع من ذلك وأجبره البكوات على عدم المبارزة وحكم على مصطفى بالاعدام .

« ولم ينفذ الحكم على الفور . وقال البعض ان مرادا توسط فى الأمر ، ومن الممكن أن يكون قد توسط حقيقة ، بعد أن رأى نتيجة فعله . وجرد مصطفى من رتبته ، وجلد فى ميدان الرميلة ، ثم نفى الى مكان سحيق فى سوريا .

« ولقد كان من حسن حظ مراد ، أن تخلص منه . لانه اذا كان

هذا الرجل مكث في مصر لكان ناوأه فى مشيخة البلد، وهو الأريب الفطن اللبيب .

« ولقد سمعته غير مرة يتكلم فى الموضوع الذى تحدثنى به الآن . قال لى مرة اذكر كلماتى هذه يامكسيم ، وهى أن الانجليز أو الفرنسيين سيغيرون على بلادنا يوما من الأيام فأعد مدافعك ودرب رجال المدفعية خير تدريب ثم يضحك بين هازل وجاد . »

قال استيفن « وهل مدافعك معدة ؟ »

قال « نعم معدة كما كانت وقتئذ . يجب ياصديقى أن يعد المال قبل أن تمد المدافع ، ولقد كان يضحك مراد حين كنت أقول له ذلك . وكان يشير الى مماليكه ويقول ، هؤلاء يافرج افندى هم مدافعي . وهكذا لست أصنع له الا البنادق ، وما كانت الترسانة الا سوقا تعرض فيه السروج والسيوف فقط . ولكن لا بأس ، معلهش ، فان الفرنسيين لم يأتوا بعد . ولقد مضى خمس عشرة سنة على تنبؤ مصطفى بك بذلك . وانى ليدهشني كيف قضى هذا الزمن الطويل . أخاله الآن في عداد الذاهبين الأولين ، سألت الله بحق النبى العظيم ، أن يمده دنيا وآخرة، فلقد كان معى رجلا طيبا ، بل وكان رفيقا بي شفيقا عليّ . »

« قال وماذا حدث لابنائه يامكسيم ؟ »

هز الآخر كتفيه وقال « يحتمل أن يكون الكل قد ماتوا ، لأن دارهم أحرقت . وما كان مراد يرغب فى الأبناء وانما كان كل همه فى الزوجة . ولقد بحثت واستقصيت فى حينها ولكنى لم أعثر لهم على أثر . »

وعندئذ سمع فجأة صفير طويل ، من جهة النهر ، فانتبه الرجلان وقام استيفن ، وأطل من فوق السور واذا به يري سفينة تسير ببطء فى النهر ، ووقف عند مؤخرها مملوك صغير مدجج بالسلاح ، فى حين كان فى جوف السفينة ، جواد مقيد .

قال المملوك « هل أنت وحدك يا اسماعيل افندى ؟ »

قال « لا معى فرج افندى مدير الترسانة ، وأنت الى أين ذاهب ومعك هذا الجواد ؟ أعلم أنك كنت ستتناول معى الليلة طعام العشاء . »

قال « هذا صحيح ، ولكنى مسافر الي المنصورة ، لأمر يخص مراد بك ، فرأيت أن أقول لك ذلك وأنا سائر فى طريقى ، وسأعود بعد أسبوع ان شاء الله . »

قال « اذن عند عودتك عرج علىّ لتتغذى معى . »

قال « حبا وكرامة . » ثم ابتعد القارب وقد نشر شراعه الكبير ، وراح يجرى فى النهر ، فضاع صوت المملوك ، الا أن جسمه الأهيف الطويل ، كان يرى بجانب الشراع .

لم ينتقل الفرنسى من مكانه ، ولم يترك كأسه ، وقال متسائلا « من هذا ؟ »

قال « هذا عثمان السليكتار ، المملوك الصغير ، فهل تعرفه ؟ »

قال « أعرفه ! ! ومن ذا الذى لا يعرف ظل مراد الملازم له ؟ ان الصلة التى بينهما عجيبة جدا ، ففى أيام طفولته ، كان يكفى أن يقول الانسان كلمة بسيطة ضد شيخ البلد ، ولو مزاحا ، فكان يهجم عليه كالقط المتوحش . وكان اذا جرح فى مناوشة مع اسماعيل ، كان مراد يوقف الكفاح ولا يترك الفتي ، مخافة أن يقع بين براثن المماليك الهائجين الجائلين .

« وفى تلك الليلة ، التى وقع مراد فيها فى كمين نصب له بمصر ، وقد أديت أنت له فيها خدمة ، كان الفتى الصغير بجواره ، يحنو عليه ، وتحدوه عاطفة الولاء والاخلاص . فلقد دفع جواده فى النهر ، يريد أن يعبره سابحا ، وكان النيل في فيضانه . ولقد رمى رفاقه بألفاظ لا تخطر لك على بال . لأنهم فضلوا أن ينتظروا القوارب ، لتنقلهم الي الضفة الأخرى : ان هذا الفتى تكاد تذهب به الحدة كل مذهب ، لولا أن حسن

الكبير ، صديقه الساكن الرزين، يلازمه دائما ، يخفف من حدته، ويكبح من سورته . »

قال « انهما من الصلابة والشدة ، بحيث لا يستطاع روضهما ، بأى حال من الأحوال . »

قال ومع ذلك فقد يجرى بينهما أحيانا ، كفاح شديد ، أشد من الكفاح القائم ، بين مراد بك وابراهيم بك ، وأظنك سمعت كيف أن حسن الكبير ، كان يلطمه اذا ما أتي شيئا . فكان يؤدي ذلك الى عراك واقتتال ، لولا أن هذا كان يرفض منازلته ضاحكا ، لأنه لم يكن في وسع أى مملوك من مماليك مراد بك ، أن ينازله ويصارعه ، مع أنه لم تظهر لحيته بعد . وكان عثمان يستفزه ، بكل أنواع السباب ، أمام كل أنسان ، ولكن حسن كان واسع الحلم ،وباستطاعته أن يسكته الى الأبد، لو أنه شهرمشمله وصاوله.وعلى ذلك أحضر عثمان الصغير ، سيفين فرنجيين طويلين.عنى بأمرهماعن كل شيء آخر ، فى هذه الدنيا . قال حسن اذ رآهما ، انهما سفودان للحم ، وضحك منهما ، ولم يشأ أن يتنازل ويتناولهما،فأجابه عثمان،تقول انهما سفودان للحم ، اذن فلن يكون اللحم غير لحمك؟فهل تخاف منهما نخسة ؟ واذ ذاك أمسك حسن، وهو يضحك، بأحدهما، ظانا أنه سيلقي على عثمان درسا بهما ، ولكن الفتى العفريت جال جولة بخفة،فكان كالظل يتبع صاحبه، وأصابه اخيرا فى ذراعه فدهشت وقلت فى نفسى لابد أن يكون الصغير،قد تعلم المبارزة، على يد عارف بها ، متضلع فيها . ومن ياترى ، في مصر كلها ، دربه عليها ؟ ذلك مالا يعلمه غير الله . »

ابتسم استيفن وقال انه فتي ظريف ، ولو كان لى ولد ،لوددت أن يكون مثله . »

قال « لن تجد الفرصة سانحة ، ياسيدى ، مادمت على الرغم من

الميزات والحقوق، التي خولك الدين اياها ، تعيش عيشة الخصى . قل لى لماذا لا تتزوج ؟ لقد أخبرتنى زوجى اليوم ، أنها تعرف حسناء غنية ، وهى بلا شك توافقك ، فهل لك فيها ؟ »

قال مبتسما « شكرا . شكرا . فان مراد بك نفسه تعطف علىّ ، وقدم لى احدى قريباته . »

قال « وهل قبلت التقدمة ؟ »

قال « قبلتها ؟! وهل كان لى أن لا أقبل ؟ »

قال « أهنئك من كل قلبى : ان مشايخ البلد لم يمنحونى بنات خؤولتهم ، ولست أدرى ، هل أقبل المنحة ، اذا قدمت لى أم لا . انك لن تستطيع الخلاص منهن بسهولة . والآن اسمح لى بالذهاب. »

قال « هل لك فى العشاء معى ؟ »

قال « ألف شكر لك ، سامحنى الليلة . ان ابنى الصغير فى انتظارى ، وليس من اللياقة فى شىء أن أخيب رجاءه . ليلتك سعيدة . »

قال « سعيدة . »

وذهب الفرنسى يتبعه غلامه حاملا السيف ، وجلس استيفن يفكر، غير مضجر مؤلم، فى الملاحظة الأخيرة ، التى أبداها مكسيم بخصوص مراد بك وصنيعه معه .

لم يندم على ما فات ، بل أصبح ما كان سجلا مطويا . لقد صار الآن مصريا فى المشاعر ، فى الدين ، بل وفي التفكير . ليس لديه ما يربطه بحياته القديمة ، الا شىء واحد ،هوزوجه مرغريت،فقدأصبحت له ، موضع ألم يخزه وخزا ، كلما خطر أمرها بباله .

انه لا يستطيع البتة ان ينسى حياته الماضية ؛ مادامت هي مقيمة فى مصر . وهي ستكون مصدر قلقه وايذائه، بل هى كل آلامه وأحزانه . على أنه ربما اذا سمت بزواجه ثانية ، وذلك ما يبيحه له الدين

الاسلامى ، تغادر البلاد على الفور . وعندئذ يهبها دخلاسنويايكفيها حياتها ، ويكون بذلك ، لولا هذا أيضا ، قد نسى ماضيه ، وأسدل ستارا علي تاريخه الأول .

الفصل الثامن

عبد الله يخرج فى نزهة

قامت فى صبح يوم ، ضجة في صحن الجامع الأزهر ، ذى الابواب السبعة ، وملأته أشعة شمس الصباح .

وكان العمل آخذا مجراه ، فقد جلس الطلبة متربعين ، جماعات جماعات . علي أرض الجامع المبلطة بالأحجار ، يقرؤون القرآن ، او يستمعون للدرس ، يلقيه عليهم أحد المشايخ ، وقد جلس فى أول الحلقة . يحيط به تلاميذه .

وكان يوجد من الطلبة هناك عشرة آلاف . جاؤامن جميع الأقطار الاسلامية ، فى مناحي العالم ، حيث الاسلام هو الدين ، وحيث الرسول محمد هو الرسول الذى استولى على قلوب الناس ، فلا يؤمنون بغيره رسولا ، ونبيا صادقا أمينا . فكنت ترى من الطلبة ، من استرسلت لحيته ، ووخطها الشيب ، جالسا بجوار فتى يافع ، لا يعتريه خجل ، ولا يظهر عليه وجل . ألم يكونوا فى نظر الله سواء ؟ ألا انما التفاضل بالتقوى ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم .

فالى الأزهر جاء جزائريون ، وتركستانيون ، وفارسيون ، ومدنيون ومكيون ، ممن يتعصبون للاسلام أشد عصبية ، ونوبيون من السودان ، لهم جلود تلمع كالأبنوس . جاء كل هؤلاء ، الى أكبر جامعة أسلامية ، فى العالم ، ليتعلموا المنطق والتوحيد ، ويقفوا على التفسير الصحيح للقرآن ، ويحفظوا صحيح البخارى والأحاديث القدسية .

فكان يتصاعد من الجامع دوى آلاف عدة من الطلبة ، أختلط فيه صوت الشيخ المسن أضعفته السنون ، وصوت الرجال يخرج من حناجرهم ضخما عاليا ، بصوت الصبية ، تسمع فيه لعثمة الطفولة ، وهم يصيحون بصوت واحد ، يسبحون باسم الله الرحمن الرحيم ، المانح المعطى كل خير ، الدافع المبعد كل شر .

وفي الجهة القبلية الشرقية ، يوجد المنبر ، يقف عليه الامام ، يخطب المصلين خطبة الجمعة . أما فى الجهة الغربية . فكان يوجد رواق كبير مسقوف ، أعد للمشايخ الكبار ، يعلمون فيه تلاميذ مختارين ، ويجلسون الى بعضهم هناك يتحدثون .

فمن هنا ، يخرج أولئك المسلمون المتحمسون المتعصبون لدينهم ، فيثيرون الحمية فى صدور المسلمين ويشعلون فى العالم الاسلامى ، نارا شديدة الأوار . ذلك لأن الأزهر ، هو المعهد الذى تنتشر منه الدسائس والفتن ، والذى فيه يجد التعصب الدينى مرتعا خصبا .

وما نحن بغافلين عن ذلك ، فلا ندرك المشاعر العميقة المختفية تحت تلك الأصوات الخافقة ، والخلق الهادىء الرزين .

وجلس فى ركن ، بجوار باب المزين ، شيخ مسن وقور ، وأمامه نصف دائرة من الصبية . أمسكوا بأيديهم كتبا ينظرون فيها ويستمعون له حين يقرأ هو في ورقة (تغييرة) في يده . فاذا ما قرأها وضعها ، وجعل يشرح مافيها ، مشيرا الى ماحوته من محاسن ومبادىء متباطئا متمهلا كأن الكتاب وما فيه من الأصول هو الشىء الوحيد ، الذى أوجده الله ، على ظهر هذه البسيطة ، والذى يستحق من الناس البحث والفحص والتدقيق .

وكان الطلبة الذين يحضرون في حلقته ، يصغون بشغف وانتباه شديدين ، لأن التلمذة على الشيخ السعدى ، لم تكن من الميزات التى

يستهان بها .

وكان فى الحلقة طالبان ، لم يكن يفوتهما من كلامه صغيرة ولا كبيرة . وكان أحدهما شاحب الوجه، تظهر على عينيه الغائرتين، مظاهر الوحشية . على أنه ، رغما من الجد الذى كان يبدو عليه، لم يكن باللبق الكيس ، بل كان الغالب عليه مظهر التعصب الشديد . تختلج برأسه فكرة واحدة ، تملكته وغلبته على أمره ، فصار عبدا لها ، وظهر ذلك على وجهه المتغضن ، وهو يحاول أن يتابع أدلة الشيخ وبياناته .

أما الآخر فكان طرى الأديم ، ناعم البشرة ، يضرب لين شعره الي الحمرة . له عينان زرقاوان واسعتان ، ينظر بهما الى الشيخ باحترام . وكان يظهر على وجهه أنه أدرك فهم ما كان يلقى على مسامعه .

لقد كان هذا الفتى هو صاحبنا عبدالله . حصل على مرغوبه ، وما كان يريده من دنياه ، لأن الشيخ فضل توسط ، بماله من نفوذ، فأدمجه فى حلقه الشيخ السعدي ، وسمح له أن يحضر فى الصباح ، الى الأزهر لتلقي الدروس .

قال الشيخ . « أقرأ يا ابنى ياعبد الله . » فجمع الفتى أردان قفطانه المسترسلة ، ورفع تفييرته، ووضع أصبعه علي سطور الكتابة ؛ حتى لا يخطىء. وقرا ببطء ، دون أن يخطيء .

قال الشيخ محبذا « حسن . فسر اذن ما قرأته، مثل مافسرته أنا . »

ولكن الفتى لم يسمع ، لأنه كان ينظر ناحية الباب الكبير، القريب من الحلقة .

دخل الجامع رجل، ووقف هناك فى ضوء الشمس . فكان كأنه أحد رجال القرون الوسطي الخياليين . ووضع على رأسه خوذة مستديرة من الصلب ، وعليه قفطان من الحرير الجيد ، وتمنطق بحزام، وعلى صدره رباطان من القطيفه الزرقاء ، وحمل على كتفه بندقية ، ويتدلى على

جانبه مشمل . ووقف وراءه وقفة الخضوع ، غلام يحمل له نعليه .

قال الرجل بلهجة بين الوقار والحياء « السلام عليكم يا سيدنا الشيخ . »

قال الشيخ « وعليك السلام يا بنى . »

قال « اذن أنت هنا يا عبدالله ، وانى عن قريب سأراك فوق المنبر ، فقد سمعتك تقرأ . علم الله ما كنت أصدق أنك بالغ ذلك يوما . هيابنا من هنا ، فان ما أراه من العلم يفزعنى أكثر مما لو كنت أرى فصيلة من الجند مقبلة علىّ . »

قال « لقد انتظرتك أمس ، وكان أمس يوم بطالة . »

قال « تأخرت فى الريف ، ولولا ذلك لكنت حضرت فى موعدى فهيا بنا الآن . ان معي بغلا لتركبه ، وعندى أن يوما تقضيه فى الجيزة خير مائة مرة من قراءة تلك السطور الرديئة الخط . »

قال الشيخ محتجا « ولكن الدرس لم ينته بعد . »

قال بهدوء « انك تستطيع أن تتمه غدا يا والدى . »

قال « ولكن ما يضيعه الانسان من زمنه لا يكون له عوض . والعاقل من ينتهز الفرص ويغتنم النهز . »

قال « صدقت ، وعلى ذلك فنحن نحسن صنعا ، ان قصرنا زمن بقائنا هنا . وخرجنا مسرعين . ألست تسمع يا عبدالله ما يقوله مولانا الشيخ ؟ هيا ، ونصيحتى اليك أن تستمع لمشورة أستاذك ، وتصغى لنصائحه . »

وبعد ذلك ابتسم .

نظر الشيخ مرتابا وقال محتجا « ان ما علينا مطالعته اليوم وحفظه لكثير . »

قال « وهل هو بطىء الحفظ ؟ »

قال « لا لم أرد ذلك ، وانما ارى فى فتاك ميلا الى العلم ، وهو

يزدرد منه الكثير ، ويمتص عقله العلم ، كما يمتص نبات القطن الماء من التربة .»

قال « وستكون رأسه فى النهاية ، ياسيدنا الشيخ ، كلوزة قطن امتلأت بذورا . »

حار عبدالله فى أمره ، وجعل ينظر طورا الى الشيخ وطورا الى هذا ، وقد يجد لذة فى الكتب ، ومتعة في المطالعة والعلم . ولكن ذلك لم يكن شيئا مذكورا بالنسبة لما توقع أن يجده ، لدى زيارته لمعسكر مراد بك فى الجيزة ، وقد وعد بها من زمن مديد .

توثقت عرى الصداقة بينه وبين المملوك الصغير ، بشكل عجيب مدهش . ذلك لأن عثمان السليكتار ، بعد الحادثة التى جرح فيها عبدالله جعل يعوده كل يوم في بيت الشيخ فضل ، مستفسرا عن صحته . وكان أحيانا يحضر له برتقالا وأحيانا يحضر له عنبا من حدائق الجيزة . وكان مجيئه في أول الأمر ، عن شعوره بأن عليه واجبا يؤديه . على أنه بعد ابلال عبدالله من مرضه كان يواظب على الحضور ، كأنما يدفعه لذلك ما آنسته نفسه فى الشيخ فضل ، من رقة ووداعة ، وما وجده من جاذبية غريبة مخبوءة لاترى .

قال المملوك أخيرا « استمع الىّ يا أبت . أعرف أنك رجل محسن وأعلم عنك أن وجوه الاحسان ، التى تتجه اليها كثيرة .» ثم وضع يده فى كيس من الجلد معلق في جانبه وقال « فهل لك أن تتصرف فى توزيع ذلك كما ترى ، أوصرفه في الوجوه التي تجدها مناسبة ؟ » ثم سلم الشيخ حفنة من النقود .

أن التصدق في عرف المسلم فرض عليه ، يلزمه الاسلام بعمله . وكان الشيخ السعدى يرى فيه فوق ذلك ، أنه نوع من الشفقة يحس به الغنى زاء الفقير . ولم يكن لاحد مشايخ الأزهر ، من الأتباع المساكين

ما الشيخ السعدى . وكان قد مضى عليه زمن طويل لم يحصل فيه على مثل هذا المبلغ .

قال الشيخ « أسأل الله أن يرزقك ، قدر ما وهبت ، مائة مرة . أذهب ياعبدالله مع صديقك ، فانه على الرغم من كونه مملوكا ، يستطيع أن يعلمك علي الأقل كيف تتصدق على الفقراء البائسين . »

واندفعا يسيران، فى الأزقة الملتوية الضيقة ، المملوك فى المقدمة يركب جواده الشكس ، وعبدالله وراءه ، راكبا البغل ممسكا بقربوس سرجه وخرجا من باب الفتوح ، واتجها ناحيـة الجنوب ، الي تلول الفسطاط المـتربة ، حيث نشر عمرو بن العاص لأول مرة العلم الأخضر على البلاد التى فتحها باسم النبي ، بحد السيف .

وتركا خلفهما أبراج القلعـة ، وكان على يسارهما تلك السلسلة الجبلية ، سلسلة جبال المقطم ، التى تحمى القاهرة من جهـة الشرق . وعلى يمينهما البناء الـكبير الشامخ ، المسمى بالقصر العينى، تجاه جزيرة الروضة . واذ رآه المملوك الصغير ، نظر اليه نظرة المهـدد ، وقد هز نحوه قبضة يده .

قال «هنا يقيم الـكلب ، ابن الـكلب ابراهيم بك ، خرب الله داره، وأهلك حرثه ونسله . »

فنظر اليه عبدالله نظرة دهش واستغراب ، وقال « ظننت أن مراد بك ، الذى أنت فى خدمته ، وابراهيم بك هذا ، قد زالت من بينهما الأحقاد ، وحل الصفاء محل البغضاء . أليس هما الآن متصافيين ؟ »

قال « متصـافيين ؟ ! لست أنكر أنه لاحرب بينهما اليـوم ، وقد مضى على ذلك سنون عدة . على أنهما يحبان ، بعضهما اليوم ، كما يحب الشيخ فى الأزهر زميله . لست أنسى أنه ، فى يوم من الأيام ، حاول قتل أبي وكان سيبلغ ذلك ، لولا اسماعيل أفندى المقيم الآن

فى بولاق الذى تناولت معه اليوم طعام الفطور . »

فنظر اليه عبدالله نظرة المتسائل المستفهم ، وكان فضوليايحب أن يقف علي كل شيء ، ويعرف كل شيء ، فقال « لم أسمع قط بهذه الحكاية . »

قال « لم تسمع بها ؟ ! اليكها فاستمع . » ثم أخبره بقطع الخليج ، وكسر جسر القوارب ، ونجاة مراد بك على يد الفرنجى . وكيف أنهما عبرا وهما كذلك ، نفس الجسر ، وجدا فى سيرهما راكبين ، بين حقول الحنطة فى الجيزة وقد وقفت الأهرام أمامهما ، ظاهرة يراها الناظرون ، وهم في حوض النيل .

وختم المملوك حديثه قائلا « اسماعيل افندى هذا ، رجل ولا كالرجال ، فلا عجب ان أحبه مراد بك . »

قال الصبى « ولكنى لا أحترم الرجل المرتد . »

قال الآخر « ولا أنا فها هو فرج أفندى ، مدير الترسانة ، يكاد لسانى لايخاطب لسانه . أما مع اسماعيل أفندى فالأمر على النقيض من ذلك . ولو أننى كنت ذلك الرجل ، علم الله ، ماكانت خيرات مصر كلها ، بدافعتي الي أن أغير دينى فأصير مسلما . لان للرجل ياعبدالله ، زوجا هجرها على ماسمعت ، هى فى نظرى ، تساوى كل ما في مصر من دين وعقائد . »

قال « أراك تبالغ . »

قال « انك لا تزال صغيرا ياعبدالله ، وانى لأقول لك انه ليخيل اليّ أحيانا ، أننى صائر يوما من الأيام ، نصرانيا لأجلها . وقد بلغت من السن ، مايجعلنى أضعها فى صف أمى . أنظر تجد قصر مراد قائما وسط الحدائق ، وهذه البيوت التى تراها بجواره هى بيوت المماليك . »

نظر المملوك الى السهل الواسع المنبسط أمامه ، والى الفناء الواقع

أمام المباني الواطئة ، حيث كان جماعة من الخيالة يتحاطبون، ويلعبون بخيامهم • ثم قال « لقد انتهى شوط الصباح فى اللعب والمران، وسنراهم بعدئذ ، فهيا بنا نذهب الي السلاملك ، لأنى اريد أن أخبر مرادبك أنى عدت . »

ثم سارا الى الباب الخشبى الكبير،ورد ببشاشة على سلام البواب .

جذب عثمان الجواد ، ووقف أمام بناء كبير، ظنه عبدالله أنه القصر لكبره وقال « هذا هو السلاملك ياعبدالله • وأنا وحسن الكبير نقيم فيه ، لأننا نقوم بخدمة مراد الخصوصية • ولذا يتحتم علينا أن نكون بالقرب منه ، لاجابة ندائه . » ثم ترجل برشاقة فى حين ترك عبدالله سرج بغله ببلادة •

قال « ان ساقيك جامدتان . » يا عبد الله ، كلسانى بعد أن أقرأ درس الشيخ السعدى • والآن فادخل . وانى أسأل الله أن يجعل زيارتك الأولى هذه لدارى، مباركة ميمونة . »

غير المملوك الفتى ملابسه ، وارتدى قفطانا واسعا ، وقام مع عبدالله يتمشى ، يريه ماحوته الدار من مناظر،الى أن يحين وقت الغذاء.

قال « هيا بنا الى الاصطبل، فقد نجد حسن الكبير هناك . »

وكان أول ماعنى به المماليك الخيل والأسلحة ، ولم يكونوا مع هذا يعدمون وسائل اللهو والتسلية . وهذه مبانيهم وآثارهم ، قد زينوا القاهرة بها ، فملؤوها بالمباني الفخمة ، التى هىَ اليوم ليست أقل مفاخرها على ماهى فيه الآن من تدمير وتخريب . وقد أقاموها في وقت ذهب حب الفن فيه من القلوب ، الا أنه اختلجت قلوب هؤلاء المماليك ، بعاطفة الانسان الأول ، وهى حب الخيل والسلاح •

وكان يوجد فى الاصطبلات ، بعض الخيول العربية الكريمة ، فجاس المملوك خلالها ، يقف من آن لآخر يذكر نسب الجواد وأصله.

وكان عبد الله دهشا لسماعه ذلك من فم صديقه ، ينطق به واثقا مما يقوله ، يصعب عليه أن يباريه ، حتى اذا استعاض عن نسبة الجواد بذكر نسب النبي نفسه عليه الصلاة والسلام .

وأخيرا وقف أمام معلف فرس كميت ، تشد رسنها ، وتدير رأسها الصغير ، كلما سمعت صوتا .

طوق عثمان عنقها بذراعيه ، ملاطفا ، وقد قربت أنفها منه ، وأدخلت مقدم فمها ، بين طيات ملابسه ، وأخرجت قطعة من القصب كان أخفاها هناك ، وقال لها « سأعود ياعزيزتي . هل ساءك اني لم آخذك معي ؟ »

ثم التفت الى عبد الله وقال « انظر ياعبد الله الى هذه الفرس . ليس لها مثيل فى كل الاصطبلات بل وليس لها ند حتى فى اصطبلات مراد بك نفسه . لقد أعطانيها ، حينما كانت مهرة صغيرة ، قائلا انها رقيقة نحيفة ، لاتحتمل وزنه . ولقد كانت مسألة تربيتها وتمرينها وترويضها صعبة علىّ . ولكنها أصبحت الآن لايضاهيها جواد آخر . لم تمرض ولم تتكاسل ، وباستطاعتها أن تحمل اثنين ، كمراد بك ، ان استدعي الأمر ذلك . انظر الى بنيتها والى أعضائها ، تجد أن الرأس صغير ، والعين كاملة . وانظر انها تكاد تنطق ، تكاد تخاطبني . قل أترى تقوس ضلوعها ؟ انك لن تجد فيه اعوجاجا او تثنيا . وتلك سيقانها — مستقيمة ملساء كالسهم ، والله انها لفرس كريمة . »

قال عبد الله « انك تحبها . »

قال « ولم لا أحبها ؟ لطالما اختارت لى ولنفسها خير المواقف ، ومن يدرى فربما أدين لها بحياتي في يوم من الايام . لقد قدم لي عمر بك مدير أسيوط ، عشرين كيسا من الذهب ثمنا لها ، فقلت له انى لن أفرط فيها ، ولو كان في مقابل ذلك ، حصولى على رتبة البكوية ولم أكن والله ، الاجادا فيما قلت . ذلك لأن الرجل ، كان ازاء النساء والخيل ،

وحشا قاسيا ، ولقد خفت أن يسرقها ابن الكلب منى ، ولذلك نمت بجوارها عشر ليال متتاليات • ذلك لأنى لم أستطب نظرة الاعجاب التي رمقها بهـا .»

قال « ولـكنه لن يستطيع أخذها منـك ،أليس كذلك ؟»

قال « كلا ولـكن حدث منه مثل ذلك فى الصعيد ، فهناك بعض من رجاله ، يعرفون كيف يسرقون الخيل ، وانك لتجد فى جسومهم جراح مشملى • على أنهم كادوا رغم حرصى الشديد ، يسرقونها منى ، لولا يقظة حسن الكبير ، ومساعدته لى ، فقد كان ينام معى بجانبها • والآن هيا نبحث عنه ، انه لاشك سيسر لمرآك .»

وعندئذ اقترب منهما مملوك صغير ، ورمق عبد الله بطرف عينه ، وقال «لقد أمرنى سيدى حسن الكبير ، أن أخبرك أنه يرغب في رؤيتك فى الوقت الذى تختاره . وهو الآن فى الجهة البحرية من الاصطبلات .»

فكان جوابه المقتضب على ذلك « حسن ، حسن. »

اجتمع في الناحية البحرية من الاصطبلات ، فى جزء فيها أشبه شىء بالفناء ، عدد من الرجال ، حول جواد ، وقد جعل مملوك منهم يمرر يديه عليه ، بشغف وحزن شديدين.

قال أحدهم « انه العضل منهوك مكدود .»

قال الآخر « لا، ليس الأمر كما تقـول أوكد لك أنه خلع فى الحافر . »

التفت المملوك البدين وظهر على وجهه بريق السرور حين رأى صديقه قال « سـلام يا عثمان، سـليم قد أصابه العرج ولست أدرى لذلك سببا • لعنة الله على الشيطان ، فقـد أخفى عن أعيننا موضع المرض . ان هؤلاء البيطريين يتجادلون في الأمر ويتنازعون . أرى معك الشيخ الصغير الأزهري . مرحبا بالشيخ .» وسلم على عبد الله

باشا متأدبا وقال« لقد أخبرني عثمان أنك قادم الينا ، يوما من الأيام، ولكنى لم أعرف ذلك اليوم . ولو أنى كنت أعرف أنك قادم الينا ، لركبت وذهبت لاستقبالك٠علي أني لو كنت فعلت ذلك لما كان أصاب سليما العرج .» ثم التفت الى عثمان ، وكان هذا قد ذهب ليفحص سيقان الجواد ، وقال « ماذا ، هل وقفت على كل شيء ؟ »

قال عثمان ضجرا مستاء« لم أقف بعد على شىء ياأخي٠»

قال المملوك البدين وقد ظهر عليه الاكتئاب «وددت لو أعرف ماذا حدث . »

وفى تلك اللحظة رؤى فى فناء الدار ، رجلان يسيران ، أحدهما طويل ، عريض الكتفين ، عليه من الملابس الفاخرة المسترسلة ، الثمين الغالى٠والآخر قصير ، بدين ، استعاض عن قصره ، بزيادة التجمل فى ملبسه .

فظهر على وجه المملوك البدين البشر والفرح، وكأن ضيقة انفرج، وقال اذ رآهما « الحمد لله ، فقد شرفنا اسماعيل افندى ، وهو خير من يعرف الخيل وأدواءها ٠ »

ابتسم اسماعيل افندي ، ثم نظر الى المملوك وقال «ما الذى تريده ياحسن ، وما سبب ألمك ؟ »

قال « لقد أصاب سليما العرج ، وقد أعمانا الشيطان ، عن تلمس موضع العلة ومعرفة مكانها ٠فهل لك أن تصنع معي معروفا ، وتختبر بيدك مؤخر رسغ الجواد؟»

نظر عبد الله مبهوتا الى القادمين، وأدرك كيف أن المماليك يحترمون الرجل أكثر من زميله٠

فعرفه للحال٠عرف أنه المملوك الذى قابلته نفيسة فى الحارة، ولم يكن بحاجة ، ليهمس له عثمان فى أذنه قائلا انه اسماعيل افندي، المفتش

الفرنجي ، على أحواض بولاق ، الذى ضحى بزوجته ، لأجل دينه .

قال المملوك راجيا « ما الذى تراه ياسيدي ؟ »

قال « لست أرى خلما فى الحافر ، واني لأخشى أن تكون العضلة منهوكة مشدودة . »

قال « وكم من الزمن يجب أن يمضى حتى يبل ويصبح صالحا للركوب ثانية ؟ »

قال ضاحكا « عشرة أيام ، اذا كان الراكب متوسط الوزن ، وخمسة عشر اذا كان راكبه بدينا مثلك . وأرى أن يغسل بالماء طول النهار ، وأن يربط مؤخر رسغه ليلا ويلف بقطعة قماش منقوعة فى الصبر والماء والملح . »

قال « سيكون ذلك باذن الله . »

ثم نهض استيفن واقفا ، مسلما على عثمان مرحبا به قال « لقد عدت اليوم ، ولا بد أن تتناول معى طعام العشاء . » ثم أبصر بعبد الله واقفا بجواره ، فنظر اليه دهشا .

قال عثمان « هذا صديقى يااسماعيل افندي ، وهو أحد طلبة الأزهر الشريف ، بل ومن العلماء الأعلام . أقسم لك بالله أنه سيتولي منصب الافتاء في القاهرة . »

اطرق عبد الله الى الأرض ، أمام النظرات التى كان يوجهها اليه استيفن ، واستمر هذا يحدق النظر اليه ، كأنه يرى شيئا يستوقف النظر ، وظهر على وجهه البشوش بعض الاضطراب .

قال عثمان « سيتغذى معنا ان شاء الله يااسماعيل افندى . » فلفت استيفن نظره ، وأشاح بوجهه مرغما عن عبد الله ، ملتفتا الى عثمان قال « ألف شكر ، لأن رضوان أغا ، قد سبقك فى دعوتى على أنى مقابلك فيما بعد ، لأنى سأمكث حتى العصر ، لأرى المصارعة والمبارزة

وأنت ترى أن كثيرا من المماليك قد حضروا ، ولا بد أن تري منهم شيئا ، يستحق منا ان ننتظره ونراه.»

أعجب عبدالله بما كان على مائدة صاحبيه المملوكين ، بل وذهل ، وهو الذى قاسى الكثير من بخل خالته خديجة ، ورأى في بيت مولاه الشيخ فضل ، الكرم والكثرة .

كانت صنوف الطعام كما يأتى : « قورمة ، وهى عبارة عن لحم ضأن مطبوخ مع البصل ، وشواء من لحم الضأن على سفافيد (أسياخ) ودجاج محشو بالزبيب والفستق ، وكنافة مقلية في السمن وحلواؤها من عسل النحل ، وغير ذلك من الأصناف الكثيرة ، التى لم ير قط مثلها ، والتى أقبل على التهامها بشهية الفتى الذى لم يتعد الرابعة عشرة من عمره .

شبع الرجل البدين فقال « الحمد لله . » وقام ليغسل يديه ، فقدم له الخادم ابريقا من النحاس ، وطشتا وصب الماء على يديه ، وكان من ماء الورد .

وبعدئذ اضطجع على وسادة من الحرير ، وأمسك لى نرجيلته (شيشة) وسأل عبدالله قائلا

« ألا تحب أن تدخن ياعبد الله ؟ »

ضحك الفتى وقال « لقد وعدت شيخي أن لا أدخن الا بعد أن أتم دراستى فى الأزهر . وهو يقول ان الذين يدخنون ، يتيهون فى خيال ، ويغرقون في أحلام ، وأولئك لا يستطيعون عملا ، ولا يتمون دروسا .»

قال « نعم الرجل شيخك ، ما أعقله ، ولكن ألا تجرب فانه لن يعرف أبدا . »

قال الغلام « لقد وعدته وكنى بوعدى رباطا . »

قال « كان يجب أن تكون مملوكا ياعبدالله ، فان خصالك أكبر من أن تكون خصال أحد من أبناء البلاد . والقهوة هل لك فيها ؟ أم شيخك منعك أيضا من أن تحتسيها ؟ »

قال « ليس الرجل من القائلين بالابتعاد عن شربها ، وهو يقول عنها أنها طيبة مفيدة ، لانه اذا تثاقلت الجفون ، من جراء القراءة ، وجاء الوسن يأخذ العيون فيغمضها ، استعان المرء بالقهوة فكانت له الغلبة ، فيهرب النوم ، وتستنبه العين . ولطالما استطاع شيخي بها ، أن يظل مستيقظا حتى يؤدي صلاة العشاء ، ولولاها لما استطاعها ، ولغلبه النوم على أمره ، ففوت عليه الوقت ، وصلى الفريضة قضاء . »

وجلس المملوكان مضطجعين ، يتصاعد الدخان من فميهما ، بعد أن تسمع كركرة النرجيلة ، كسلين متراخيي الأعصاب ، ينظران الى عبدالله ، وقد دفعه نزق الشباب ، وحركته ، الى المشي في الحجرة ، والتجوال حول جدرانها ، الملأى بالأسلحة والدروع ، علقت عليها .

فمن درقات من جلد الكركدن ، ملأى بالمسامير النحاسية ، خفيفة الحمل ، الا أنها مع ذلك تقي حاملها من شدخ مشمل . الى خوذات ذات سلاسل جانبية ، لوقاية الرقبة . الى فؤوس عربية ذات أيد قصيرة بعضها غير عريض الحافة ، وبعضها عريضها له نهاية مدببة ، شديدة الفتك . الى صوالج ضخمة رائعة الى حراب ومزاريق ، ذات رؤوس كالابر . وكنت ترى هنا وهناك ، ملابس حرب لها دروع ذات سلاسل قد تكون أثرا مما كان يلبسه المقاتلة في الحروب الصليبيه ، بين الفرنجة والعرب . الى بنادق ذات أجراس وضعت عند أفواهها ، وقربينات مرصعة بالأحجار الكريمة ـ وجد كل ذلك في تلك الحجرة ، فكانت أشبه شيء بمخزن أسلحة ، ووجد فيها أيضا السيفين الفرنجيين ، اللذين أعطاهما استيفن هيلز الى عثمان المملوك .

شغل عبدالله بما يراه عن كل شيء ، حتى نبهه صوت غريب قريب منه يقول « السلام عليكم ياعثمان ، السلام عليكم ياحسن . » فالتفت واذا به يرى رجلا طويلا ، دخل عليهم ، دون أن يسمع له صوت ، ووقف بالقرب من الباب . وعرف من نظرة واحدة الى تينك الشفتين الغليظتين البلرزتين والى الوجه الغير الملتحي ، والى الملامح النسائية ، أن القادم الجديد خصي ممن وكل اليهم أمر الحريم .

وكان عبد الله يعلم مالهؤلاء القوم ، من قوة التأثير أحيانا ، في بعض الكبراء ، وماكان لهم من الميزات ، التي يتمتعون بها ، باعتبارهم حراس الحريم . الا انه كان يشعر نحوهم بشيء من البغضاء ، قد يكون سببها رعونة الطفولة ولم يدهش حينما رأى صاحبيه ، يرحبان به ترحيبا شديدا ، ثم جعل يخالسه النظر .

وهم المملوكان بأن يتركا النرجيلتين (الشيشتين) ، الا أنه منعهما باشارة لطيفة منه . قال « سمعت ياعثمان ، من اسماعيل افندي ، انك عدت ، فهل أحضرت لي معك البذور من الرحمانيـة ؟ والله اني اراهن انك نسيت ، مدفوعا لذلك ، بلا نزاع ، بحب العودة السريعة الى القاهرة ، هربا من تلك القرى الملعونة ، حيث لايجد الانسان فيها حتى التبغ ، الصالح للتدخين . »

قال « لاوحق النبي مانسيت ولا أهملت ، فقد أعطانيها الرجل في الرحمانيـة . والظاهر لي ، يارضوان افندي ، أنهـا بذور قيمة ، لأن الرجل أعطانيها وكأنه كان يعطيني ذهبا وهاجا . فكان ينظر ذات الشمال وذات اليمين ، مختارا لذلك مكانا مظلما معتما ، وأوصاني شديد الوصاية أن أسلمها يدا بيد . انظر هاهي . » ثم مد يده وأمسك بغلاف مختوم كان بجواره ، ودفعه اليه .

تسلمها الخصي شغفا ، ووضعها باحتراس بين طيات قفطانه .

قال عثمان ضاحكا مداعبا « سنتذوقها نحن حين تثمر وتخرج نباتا صالحا يارضوان افندى ؟ »

نظر الخصى ، بعينه السوداء الفاحصة ، الى الفتي ، وقال « ستذوقها اذا مانضجت ، وأراهن على أنك مصيب فيها سهمك ياعثمان . »

قال الفتي ضاحكا « انى واثق اذن أنى مستسيغ مذاقها . »

قال « ليس يعرف ذلك غير الله وحده . » ثم نظر الى عبد الله ، وكان قد وقف ساكتا لايحير جوابا ، وقال « وأنت ياعبد الله ، تلميذ الشيخ فضل ، لقد سمعت الكثير عنك ، لأن لعثمان افندى لسانا لايحاجز الناس عن ذات نفسه ، ولا يوارى عنهم مضمر سره . آمل أن يكون قد اندمل جرحك ، وأن يكون الله قد من عليك بالشفاء التام . »

فلم يكن من عبد الله الا أن زحزح عمامتـه ، فكشف عن جبهته وظهر أثر الجرح ، وقد اندمل وأبل .

قال الآخر « لقد تم برؤه . » الا أنه التفت بنوع خاص الى الشعر الأحمر الذي ظهر تحت عمامته فوضع يده يتلمسه ملاطفا وقال « أنت اذن ابن أحد أصدقاء الشيخ ، لانزاع في ذلك ، أليس كذلك ؟ »

قال « لاياسيدى ، فلقد توفى أبى فى طنطا ، ولم يكن يعرف الشيخ قط . والحقيقة أنى كنت أقيم فى دار عمى ، وهو نحاس فى سوق النحاسين . وحدث أن أحد المتسولة ، وكان يقف دائما ، بالقرب من حانوت عمي ، سمع أن الشيخ فضل ، في حاجة الى تلميذ ، يصحبه في غدواته وروحاته ، ويقرأ له أحيانا ، فدله على ومن ثم التحقت بخدمته . »

نظر الخصى اليـه حائرا دهشا وقال « حقا ان مصر بلاد عجيبة ، حيث بلغ فيهـا أن أحد المتسولة يؤثر في شيخ من العلماء الأعلام ، ويجعل من صانع نحاس اماما كبيرا ، أو شيخا للأزهر . من يدري ما ستجيء به الاقدار من يدرى ؟ » وجرى على فمه ابتسامة خفيفة .

قال عثمان «ولقد سمعته يقرأ كأنه شيخ ، وكان ذلك صبح هـذا اليوم . فكانت الكلمات تخرج من بين شفتيه فتنساب انسياب الماء من الساقية ، تروى الأرض وتبعث فيها الحياة . فما كان أبدع منه فى الشرح والتفسير ، وأقسم أن الازهر كله ، ليس فيه من سن عبد الله ، من يضارعه في طلاقة اللسان ، وسرعة الفهم . ولقد وجدته يقبل على العلم متعطشا اليه ، ولاتعطش الظمآن للماء ، ولا اقبال المدمن علي احتساء الكؤوس . ولقد سألني بخصوص هذا الدرع ، أكثر مما سألنى حسن هذا ، وكنت أجيبه عليها ، بل أنى أستطيع القول ، أنه يضاهيك أنت نفسك في العلم والعرفان ، وان كنت فيهما كنز الايفنى ، وخضما لايجف ماؤه . قص عليه حديث الملك الانجليزى ، الذى حارب صلاح الدين لقد حدثته بشيء عنه ، ولقد سألني الكثير عن أسباب ومسببات بعض الأشياء ، فكنت لا أستطيع جوابا . »

ابتسم الخصى وقال « يظهر لى ياعثمان أن الملك الانجليزى قد أحاطك بطلسم أورقية أوعوذة ، فسحرت وخلب لبك . وانى لأعتقد جد الاعتقاد ، أنك ان تخير بين أن تكون هذا الملك ، وبين أن تكون النبي المفضل ، لما ترددت أن تكون الأول . على أن أعمال الحروب وقصص المعارك لاتلذ يابنى لطالب من طلبة الأزهر ، فليس من أدواته المشمل والسيف ، والرمح والسنان . »

قال ضاحكا « لست أعلم هـذا عن صاحبى ، لأنه ليس ميالا الي السلم والمسالمة ، وكم كنت أريد منك أن تراه حينما قابلتـه أول مرة . لقـد اعترضنى فى طريقى ، وهـددنى بقبضة يده ، وراح يسبنى سبا شديدا وطلب الىّ أن أترجل حتى يستطيع منازلتي ، فيـدقنى دقا ، ويسحقنى سحقا ، ويأخذ روحى من بين جنبى . »

قال « حسن اذن ، أعدك بأن أقص على صاحبك القصة ، وانما فى

غير هذا اليوم ، لو أنه يرغب في سماعها . وآمل أن أراه كثيرا بعد اليوم ، السلام عليكم . »

قال الثلاثة « وعليكم السلام . »

وخرج الخصى يسرع الخطى نحو القصر ، وهو يقول في نفسه وقد وضع يده على كيس البذور .

« ليس يعرف الا قليلا ، عن نوع ذلك الثمر الذي سينبت من بين هذه البذور . يا أسفا على أيام قادمة علينا ، حين يصحو أمثاله من نومهم ، على صيحات الفزع ، وآهات الألم ، ويجرى ماء النيل دما ، تفجر من بين الصدور ، ومن بين حبات القلوب،يا أسفا يا أسفا ! ! ان ذلك اليوم قادم لامحالة ، ولم يعد بالاستطاعة تأخيره ، الى الأبد . ياحسرتا على شبان وشيب، على صبية وفتيان، سيحصدهم الردي حصدا وتفتك بهم المنايا فتكا ، فلا أستطيع عندئذ الاستمتاع بلذيذ المنام ، كما يستطيع أولئك البله المساكين . واني منذ اليوم مستيقظ مستعد لا كهؤلاء الحمقى ، أغرق فى الرقاد ، حتى أصحو صحوهم فأري الهول والفزع

« أبيت مسهدا أرقا كأني تمشت فى مفاصلي العقار . »

الفصل التاسع

استيفن يحارب لنصرة الجيزة

احتدمت ودائق هذا اليوم القائظ ، واضطرمت هواجره . فما كاد يقبل العصر بنسيمه العليل ، مذهبا لوافحه ومقايظه ، حتى تحرك المملوك الصغير ، ونفض عنه غبار الكسل والخمول ، وجعل ينظر الى رفيقه .

واضطجع حسن الكبير ، وامتدت أوصاله ، وجعل يغط فى نومه وكذلك عبد الله كادت تغمض عيناه من النوم ، الا أنه استيقظ اذ سمع صوت المملوك الصغير ، يتحرك بجواره .

قال عثمان « لقد حان وقت ذهابنا الى الاصطبلات ، ومن عادتى أن أرى بنفسى الخيل تسرج . فالسياس مهملون الا اذا وقف الواحد يراقبهم ، اصح ياحسن — اصح ياحسن . »

وجعل يغمز أضلاع صاحبه بطرف قصبة التدخين (الشبق) ثم قال « ظهر لى أنك استطبت الرقاد فلا تريد الاسراع فى النهوض ، قم لقد أتعبتنى . »

فتح حسن الكبير عينيه ببطء وثبات ، ثم نهض قائما يتثاءب ، وقال « لم يفتنى الوقت بعد يا أخى . »

ثم بدأ يغير ملابسه بأخري أكثر ملاءمة من ردائه الواسع المسترسل الذى كان يرتديه .

وما كادا يقتربان من الاصطبلات ، حتي أسرع اليهما سايسان لمقابلتهما وسأل أحدهما المملوك الصغير « أى حصان تركب ياعثمان ؟ »

قال « عصفور فأسرجها وألجمها . »

قال حسن « أخالك ياأخى ، باختيارك هذه الفرس تتحد انى فما الذى انا صانعه ، وما الذى اختاره من خيلى ، لأقابل به عصفورك ، وأنت تعلم أن سليما قد أصابه العرج ؟ »

قال ضاحكا « ولست من البلاهة ، بحيث أني أختار غير عصفور جوادا . انى سأركبها ، ويعلم الله انى سأكون في حاجة لمساعدتها ، ان أنا رغبت فى أن أدفع عن رأسى العوادى ، وأحميها من ضرباتك ، وانى لأري في عينيك ياحسن، نظرة لا أستطيبها. » .

أعد الجوادان فى الحال ، وخرجت عصفور تتهادى في مشيتها ،

تنبيء كل حركة من حركاتها . على كرم أرومتها . أما الجواد الآخر ، فكان أشهب اللون ، ضخم العظام ، كبير العضل قويه ، هو خير جواد يستطيع حمل جسم كبير ، كجسم المملوك .

وأسرجا بسرجين لهما قربوسان عاليان ، وركابان على شكل مسحاتين وألبسا فى فمهما شكيمتين ، ثقيلتي الوزن ، ربطت كل منهما بعنان غليظ ، به يستطاع ايقاف الجواد المندفع بأقصى سرعته ، بعد خطوتين .

ووقف في السهل الخالى ، جمع من المماليك ، انشغلوا فى مرانهم وألعابهم . فى حين كان يخرج غيرهم من الاصطبلات والمساكن قاصدين ساحة اللعب .

سار المملوكان وعبد الله ، يتبعهم السائسان يقودان الجوادين الى أن وصلوا الى خيمة كانت مضروبة وجلس أمامهما جميع المماليك ، متربعين على سجاجيد ، ينتظرون أن تخف حرارة الشمس ، قبل أن يبداوا في مرانهم على الصراع . وجلس خلفهم جمع من السياس ، يقودون الخيل جيئة وذهابا ، يصيحون وهم يدربون الخيل ، وكانوا أحيانا يضربونها بالسياط .

وكان هؤلاء السياس قوما عضلين ، نحاسيي لون الوجه ، من غير طبقة العبيد المماليك ، جلهم من الأحرار ، لما كان يظهر لهم من لحى طويلة . ووقف هنا وهناك بعض البكوات ، بملابسهم الفاخرة ، جاؤوا من مديرياتهم ، يصحبهم حرس من المماليك ، ليحضروا الى الديوان في القلعة .

قال عثمان هامسا « انظر يا أخى انى أرى هناك ذلك الكلب عمر بك . لم أكن أعلم أنه كان فى القاهرة . »

قال « لقد جاء بعد سفرك للرحمانية بيومين . »

قال « الحمد لله لم يسرق عصفورا فى غيبتي . »

قال « ألم أكن هنا يا أخى ؟ انك تستحق على ذلك لطمة فوق رأسك . »

قال متذللا خاشعا « العفو يا أخى . لقد جرى لسانى بفلتة فكأنى مجنون أو أبله . »

وكان المملوك الذى قصداه بحديثهما ، رجلا متوسط السن تقريبا ، له ذقن طويلة حمراء . وكان يوجد الكثير مثله من البكوات المماليك ، الذين استبدوا بالسلطة ، فارتكب الواحد منهم فى مديريته ، من أعمال القسوة والعنف الشىء الكثير ، اذ لم يكن هناك قانون يخضع الجميع لبنوده ، ولم يكن أمامه وازع يزعه غير ضميره ، وقد عدم أمثال هؤلاء الضمير الحى المحاسب . وكان هذا الرجل بنوع خاص ، لا تتأثر نفسه بما يصيب الغير ، من آلام ومصائب ، قسا قلبه فصار كالوحش الضارى ، مدفوعا لذلك بطرق بربرية شرسة ، لم يكن لها مثيل في أخبار المماليك وتاريخهم . فكان لذلك امرأ تخشى عداوته ، وتخاف مناهضته .

فكان الناس ينكمشون من رؤية هذا الأنف الملتوى طرفه ، وتلك الجفون الذابلة المسترخية ، التى تحجب وراءها ، عيونا باهتة اللون ، تنظر الى الناس نظرة الريبة والحذر . وكان الفلاحون فى مديرية المنيا ، يئنون من حكمه الذى لم يكن له مثيل ، في حكم المماليك كله لمصر . وكانوا يرهبونه ، بحيث اذا رأوه وهم فى حقولهم ، ولوا مدبرين ، والويل كل الويل لتلك المرأة التى كان يوقعها سوء الحظ فى طريقه ، وينظر اليها نظرة الراغب فيها ، المتطلع اليها ، وكذلك ياويل كل رجل ناصبه هذا الوحش العداء ، ان حياته تكون معرضة لأشد الأخطار وافظع الأهوال .

وجلس غير عابىء بما يراه أمامه ، متربعا وهو يرتدى ملابس المماليك الواسعة المسترسلة ، ولم يكن مظهره ولا ملابسه ، لتخفى ما منحه الله

من قوة ، تظهر آثارها فى ذينك الكتفين العريضين ، وتلك الرقبة التى تشبه رقبة الثور ، والتى كانت قائمة منتصبة ، كأنها عمود من اللحم عارية فوق ، فتحة رقبة برنسه الواطئة .

تراجع عبدالله الفهقري اذ رأى تلك النظرة ، التى تجلى فيها الشر والكدر ، ينظر بها المملوك الى القادمين.

وماكاد يظهر صحبنا ويراهم مماليك مراد بك ، حتي قاموا يرحبون بهما ترحيبا شديدا ، غير مألوفة شدته.

قال واحد من هؤلاء « سلام ياحسن . سلام ياعثمان . ان عمربك قدوهب برنسا لمن يغلب مملوكه فرج ، في ثلاثة أشواط ، أولها يكون للمباراة فى اصابة المرمي بالرصاص ، وثانيها يخصص للعب الحطب ، وثالثها للمصارعة فوق ظهور الخيل . »

قال عثمان « انى أشتاق والله أن يسمح لي بمحاولة ذلك . فما أشد حاجتى الى برنس جديد ، ولو أننى فى ذلك أخاطر بنفسى ، فيصيبنى هصر في جسمي أوكسر فى ضلع من أضلاعى . وكل ذلك من جراء رغبتى فى الحصول على مثل هذا البرنس . »

قال أحد المماليك المتقدمين في السن وكان بجبهته أثر جرح « انك بلا شك ، ستحصل علي طلبتك من تكسير الضلوع ، فان لفرج قبضة هي الثانية بعد قبضة عمر بك نفسه . »

قال عمر بك بصوته الغليظ « أن مملوكى لن ينازل الا قوما أحرارا لاعبيدا وخداما . »

التفت اليه عثمان وقال محتدا « ومن ذا الذى يجرؤ أن يقول انى غير حر ؟ »

قال الرجل ضاحكا ساخرا « انك غير ملتح فأينت هي لحيتك ؟ »

تصاعد الدم فى وجه الفتى ، وأصبح وجهه الناعم موضع ألمه

وشجوه .

قال « ليست الرجال باللحى ، ياعمر بك . هذا اعتقادنا نحن سكان القاهرة ، مهما كان اعتقادكم أنتم فى المنيا . »

عندئذ ثارت ثائرة الرجل وانتفض حتى كاد يقف على قدميه وقال « وددت أن تكون عندي فى الصعيد ، فكنت أعلمك الأدب . »

كان عثمان على وشك الرد عليه ، لولا أن مملوكا متقدما في السن أمسكه بذراعه وقال «هون عليك ياعثمان،فليس ثمة من فائدة في المنازعة ومراد بك لابد يستاء لذلك . وعلى كل حال فان طوسون سيركب في الشوط الأول .» واذ ذاك خرج من خيمة قريبة منه ، مملوك وضع على رأسه خوذة ، وباحدى يديه ترس وبالأخري هراوة .

قال عثمان « قربينتان ياطوسون لك بدلا من البرنس . »

قال هذا ضاحكا وكانت لحيته سوداء « لا لا ياعثمان فانى بحاجة شديدة الى البرنس ، وأصبح برنسى لايليق الا لسائس . »

وذهب مملوك ، وأقام هدفا على سارية ، على بعد بضع مئات من الياردات ، وكان عبارة عن جرة ماء «قلة» مصنوعة من الفخار ، يقرب حجمها من حجم جوزة الهند ، ولم يكن بالسهل الميسور اصابته برصاصة من قربينته ، على بعد ثلاثين ياردة فى حين يكون مطلق الرصاص ، راكبا جواده وسائرا بأقصى سرعة .

وخرج فى الحال من خيمة عمر بك،المملوك المسمى فرج الصعيدى وكان رجلا مشهورا بأنه ذو دراية بالسلاح وحمله . وكانت تظهر عليه أمارات القوة والفتوة . وظهر عليه وهو واقف عند مدخل الخيمة، أنه نعم التابع لرجل كعمر بك .

عملت الترتيبات اللازمة بسرعة . وأبيح للمتبارين أن يطلقوا ثلاث طلقات على الجرة ، وأن يتحاطبا مدة لا تزيد عن خمس دقائق ،

وبعدئذ يتصارعان لمدة عشر دقائق .

وسحب المملوكان جواديهما وخرجا الى الفضاء ، وجعل كل منهما ينظر للآخر نظرة الناقد الفاحص .

وقفز كل منهما على ظهر جواده ، دون أن يضع قدمه فى الركاب . وتلك كانت عادة المماليك .

قال المملوك المتقدم فى السن «وددت لو أنه جيء برجل آخر غير طوسون ، فاني لا أنكر بأسه وشدة مراسه ، ولكني أرى فيه القرن غير المكافيء لفرج الصعيدى .»

قال آخر « كان يجب أن يكون أيوب بك هنا .»

قال « كنت أفضل والله أن يحدث الصراع بين أيوب بك أو مراد بك وبين عمر بك فانهم والحق يقال صناديد مبرزون ، وأبطال متفوقون »

قال آخر « التفت فقد بدأ المتصارعان ، وها ان كلا منهما أخطأ الرماية . » وكان قد ذهب كل من المتسابقين يجري بجواده ، وأطلق كل منهم النار على الجرة ، وانكشف الغبار عن الجرة فى مكانها لم تصب بشيء .

قال « لقد أخطأها طوسون للمرة الثانية ، ما أحمقه ، وها هو فرج يطلق النار للمرة الثانية . واذ ذاك أطلق فرج النار وسقطت الجرة مهشمة متفتتة . فانقبضت وجوه مماليك مراد بك ، وقال قائل منهم وقد عبر فى الحقيقة عن شعور الباقين لأن الشوط الثاني انتهى ايضا بغلبة طوسون « لقد خانه الحظ تماما ، لأنه لو كان نجح فى اصابة القلة ، لكان استطاع أن يدفع الهراوة عن رأسه ، وعلى ذلك فقد ضاعت عليه الفرصة فى المصارعة . لقد غلب تماما ، لقد غلب تماما . »

وكانا خلال ذلك قد دخلا فى الشوط الثانى وأعطى كل منهم هراوة سميكة طويلة يبلغ طولها أربعة اقدام .

وتجاول المملوكان وتصاولا ، يحافظ كل منهما علي توازن العصا التي

بيده ، بأن أمسكها من الوسط يريد كل منهما البدء فى المحاطبة .

وجعل كل منهما يراوغ زميله . وثار التراب من عند حوافر الجوادين ثم دفع مملوك مراد بك بهراوته ، فانطلقت كالسهم ، يريد بها رأس خصمه الا أن هـذا ، انحرف عنهـا وزاغ ، بسرعة غريبة ، فلم يصب بسوء . ثم استقام فجأة على سرجه ، واقفا على الركابين ، وضرب خصمه بهراوته وكل قوته ، قبل أن يأخذ الآخر حذره ، فلم يستطع أن ينجو منها ، وأصابته في جانب رأسه .

وكانت قوة الصدمـة شديدة ، فترنح فوق سرجه وتمايل ، وتدلى ذراعاه على جانبيه . ولـكنه رغم تمايله وترنحه فى سرجه كالثمل النشوان لم يقع من فوق سرجه ، ولـكز جواده بركابيه لـكزة شديدة ، فراح هذا يعدو به الى خارج الميدان .

ظهر الغيظ والخزى على وجوه مماليك مراد بك . وضحك عمر بك ضحكة الهزء والسخرية ، وقال « لا يمكن بأى حال من الاحوال أن يستحق هـذا الفارس لباس مملوكى . ظننت أن لديكم من المماليك من هو أشد ساعدا وأقوى مراسا من ذلك الذى رأيناه . لسنا نريد أطفالا انا نريد رجالا . »

قال المملوك الشيخ « ان خير رجالنا لم يعودوا بعد وانى أستطيع أن أنزل معه شوطا لو سمحتم بذلك . »

قال عثمان « لا . لا . اتركنى له يامحمود ، وهذا دوري . »

قال عمر بك « ماذا أسمع ؟ المملوك الأمرد يتكلم عن المصاولة مرة أخرى ؟ هل لك فى منازلته يافرج فنضع حدا لزهوه وغطرسته ؟ »

نظر المملوك الى الطالب فى نزاله وابتسم وقال متهكما « فليكن وانما كنت أفضل أن أنازل رجلا كملت رجولته ، وها انى أرى هناك مملوكا بديننا ، وربما كان له ميل فى منازلتى . »

ابتسم حسن الكبير وقال « ولكن صاحبي قد تقدمني بالسؤال. »
قال عمر بك « ياله من جبان رغم ضخامة جثته. »
قال عثمان لصاحبه وهو سائر الى امتطاء جواده والاستعداد للمنازلة « انك منعتني وحلت بيني ، علم الله ، وبين منازلة هذا الرجل للآن ، وذلك بسبب أني وعدتك بالمنازلة اليوم ، فاعذرني واني منازلك فيما بعد . »

قال الآخر هامسا « اعمل كل مافى وسعك فى المحاطبة ، واعلم أنه يدق عنقك دقا فى المصارعة ، ان أنت لم تغلبه فى المحاطبة . ولا تنس أنه يعلم أن عمر بك يكرهه ، كما يكره المسلم يهوديا . »

ضحك عثمان ، غير مهتم للأمر ، وقفز على سرجه وراح به الجواد يعدو مبتعدا به عن صديقه.

وأصاب فرج المملوك الجرة بطلقة ، ولو أن جماعة من رجال مراد بك أخذوا عليه أنه لم يكن مسرعا بجواده بل كان يسير به خببا .

ولم يخطىء كذلك عثمان المرمى . وكان يسير بأقصى سرعته ، وأصاب طلقه الجرة الجديدة ، فهشمها تهشيما :

وأخفق فرج فى المرة الثانية ، ووقف عبدالله يرقب كل ماحدث بشوق ورغبة شديدين ، وقال :

« ان رصاصته تجرى نحو الهدف أليس كذلك؟ »

قال استيفن « ليس في ذلك شك أيها الشيخ الصغير . ان عثمان ليس له بين المماليك في مصر كلها ، مثيل فى اصابة المرمى بالقربينة أو البندقية . انظر هاهى الجرة الجديدة تسقط . لقد أصاب المرمى للمرة الثانية . » وماكاد ينطق بذلك الا وسقطت الجرة وتهشمت .

وقبل أن يتباريا للمرة الثالثة في الاصابة بالرصاص ، طلب عمر بك أن تفحص القربينتان ، فعجب مملوك مراد بك لهذا الطلب ، الا أنه

قبله .

فأخذ عمر بك القربينة ، وبدأ يفرغ الرصاص منها وقال صاخبا « لا يمكن للانسان أبدا أن يعرف هل حشوت القربينة بالرصاص أو بحشو آخر . أعرف أن ذلك يحدث كثيرا . »

قال المملوك الشيخ « لسنا نعرف هذا الخداع بالجيزة . »

امتلأت عينا عثمان ، بدموع الغيظ ، ووضع قبضة مشمله وقال « أتظن أننا قوم مخادعون . »

رفع المملوك الشيخ يده ، وقد أحاط به من جميع الجهات ، نار الغيظ تتأجج في صدور القوم ، وكانت ثائرتهم قد بلغت المنتهى وقد يتطاحن القوم ، ويتقاتلون ، فلا يكون غيره مسئولا أمام مراد بك ، عن سبب ذلك ، فصاح به قال « صه ، صه . » ثم التفت الى عمر بك وقال « هل اقتنعت ؟ »

قال « ليس بها سوى رصاصة واحدة . »

قال أحد المماليك لاغطا « وددت ان تفرغ هذه الرصاصة فى رأسك . »

ثم أعيد حشو القربينة ، وعاد المتشاجران يتباريان ، فأخفق فرج أيضا . ولكن عثمان أصاب الهدف ، فضج مماليك مراد بك ، ضجيج الرضا والاستحسان ، وكان قد ساءهم سلوك عمر بك وصاحوا « الغلبة في الشوط الأول لمملوك مراد بك . »

وذهب عثمان ليأخذ هراوته استعدادا للمحاطبة فقال له صاحبه « تأن ياعثمان ، وابذل قصارى جهدك لكى تكون الغلبة لك فى هذا أيضا ، واعلم أن بعد هذا سيجيء شوط المصارعة ، وأخشى أن لا تكون لك الغلبة فيه . »

هز الفتى رأسه ، وفهم تمام قصده ، وسار ليلاقى خصمه ، وكان قد تأهب للقائه .

فتجاولا وتصاولا . وكانت مهارة المملوك الصعيدى ، فى المحاطبة، مضرب الأمثال ، فلم يعبأ بالفتى واحتقره . وكان الفتى حذرا، أفسد بمهارته كل حيلة كان يجىء بها فرج الصعيدى . والظاهر ان الفتى أراد أن يفسد على خصمه خططه، وأن يزغل بصره ، فصار ينتقل بسرعة البرق ، من جهة الى أخرى ، يريد بذلك القاء الروع فى قلب خصمه .

وكان مسلك عصفور فى المناجزة ، كأنه مسلك آدمى ذى عقل راجح ، لأنها كانت تطيع أقل أشارة بيديها راكبها ، فكانت طوع أمره . وظهر للمشاهدين ، أن الفتى وفرسه ، مخلوق واحد فى المناورة التى كانا يأتيانها ، لانتهاز فرصة ، يستطاع بها أصابة الخصم .

فكم من حيلة رآها أحدهما وأفسدها عليه الآخر، ولم يشأ أحدهما أن يرمي هراوته . واذ ذاك اقتربا فجأة من بعضهما. وقد ثارت سحابة من التراب ، فلم يدفع فرسه الى الأمام، بل جذب العنان بشدة ،فوقفت الفرس على شا كلتيها ، ثم دفعت مقدميها الى الأمام ، وثبتتهما فى الرمل ، وأهوى المملوك الآخر بهراوته ، فزاغ عثمان منها بهذه الحركة التى أجراها ، ولولاها لكانت أصابته ، وطارت من يد زميله .

وصوب هراوته نحو خصمه . وكان هذا قد انحنى فوق جواده. ثم ضربه بها فى وجهه ، ضربة شديدة ، جعلت الدم يسيل منه ويتساقط على الارض .

صاح مماليك مراد بك صيحة الفرح والطرب ، عند رؤيتهم ذلك فى حين ظهر العبوس على وجه عمر بك ، ونظر الى مملوكه شذرا .

قال أحد الواقفين بجوار عمر بك « لقد خسرت برنسك يا عمر بك . »

وأحاط المماليك بعثمان يهنئونه على فوزه ، ولكن هذا لم يكن ليعير تهانئهم أى التفات ، بل انه كان ينظر الى ردن قفطانه ، وقال « لالم أنتصر تماما يا ادريس ، ألا ترى أن هراوة فرج قد أصابتنى

هنا؟» ثم استدار فوق جواده، وأظهرلهم فتقاضئيلا فى حرير قفطانه قال الآخر «ما أبلهك!»

قال «صدقت وهل لي أن أكسب الرهان دون أن يصيبنى دنس؟»

ثم ذهب بجواده الى حيث وقف فرج الصعيدى. وقال «أنظر أن هراوتك قد أصابتني هنا، وعلى ذلك لم تكن غلبة أحدنا على زميله تامة.»

قال عمر بك «لاتنس أن البرنس لم يصر لك ملكا بعد، وأقسم بالله أنك لن تحصل عليه أبدا» ثم نهض عمر بك، وذهب الى خيمته: وكان قد سبقه اليها مملوكه فرج، ليعد نفسه للمصارعة. وخلع المملوكان قفطانيهما المسترسلان، وخوذيتهما، وركبا عاريي الرأسين، ولبسا ردائين خفيفين. وظهر جسم عثمان تحت القميص الخفيف، أهيف القد، عضل الذراعين والساقين مفتولهما. وله على ذلك مرونة القط. وكان خفيف الوزن، صغير الجثة. وعلى العكس من ذلك وقف فرج، وقد ظهرت ضخامة عظمه، وظهر شعر صدره، وعضلات كتفيه، واضحة تحت القميص الحريرى الخفيف. والويل كل الويل لعثمان لو أن هذين الذراعين الطويلين العضلين القويين يمسكان به، ويقبضان عليه قبضا محكما.

قال محمود لحسن الكبير، وكان واقفا بجواره «أرجو أن لايخون الحظ فتانا. لقد كان أبله اذ ذكر أن قفطانه قد تمزق، لأنه ليس بالند الكفء لفرج الصعيدي، فى المصارعة. انظر اليهما تجده كالشجيرة الصغيرة، بجوار نخلة كبيرة. ولست أكتمك ياحسن، أني لم أستطب ما أرى على وجه عمر بك من نظرات تنذر بالشر، انه يريد الشر، انظر ما أمر اسماعيل أفندي؟ وماذا هو صانع، انه يشد حزام الرجل. حقا ان لهذا الفرنجي عينا حادة.»

وكان استيفن وقتئذ قد غادر الجميع وذهب الى عثمان .

ووقف عبدالله فى هذه الحلبة لاينطق بشىء ، ولا يتطفل على أحد ، مسرورا مما يراه يجرى أمامه ، من حوادث غريبة ؛ دهشا من الوسط الذى وجد فيه . ولكنه كان يجوب بطرفه ، الى ماحوله من الخيام المضروبة ثم خالس القوم وراح يجول بينها ويمشى ، فلم يجد فى هذا المعسكر مايلذه ويسر اليه .

ثم اقترب من استيفن ، ويكاد الخجل يقتله ، ولمس ردن قفطانه فالتفت استيفن اليه ، ورآه وابتسم وقد ظهر الجد على وجه الفتى ،على غير المعتاد .

قال .« ماذا بك يابنى ؟ يخيل الىّ أنك تحمل من الأخبار مالا يسر . »

ثم انحنى ليسمع كلام الفتى ثم قال « ماذا ؟ هل قال ذلك ؟ ماأخسه وأدنأه ، كلب من كلب . » « هل سمعت ماقال الفتى يامحمود ؟ انه سمع عمر يأمر فرج . أن يضرب عثمان ضربة مميتة ، ووعده بخمسين جنيها ذهبا ، اذهو نجح فى قتله . »

اضطرب المملوك الآخر وقال « انه شيطان رجيم . » ثم نادى حسن الكبير ، وأدلى اليه بالأمر كله قال « والآن ياحسن فاننا لانستطيع شيئا ، والا قال أننا انما نعمل تلك الحيلة ، هربا بعثمان من المنازلة ولكن هل لعبد الله اذا سئل عن الامر أن يجيب ؟ »

ـ قال عبد الله « بكل تأكيد . »

قال « حسن اذن فابق معنا لحظة ، ووددت لو انمرادبك كان هنا ، فانه لابد أن يسيل الدم هنا وليكن ماشاء الله أن يكون . »

ولم يزد على ذلك حرفا . لانه جعل يراقب بداية المناوشة بين الخصمين ووقف بجواره حسن الكبير ، وبجانبه استيفن ، هادئين ساكتين ينظران الى مايجرى بانتباه ، وتتبع أعينهم كل حركة من حركات المتبارزين

قال مملوك « ما أبدع الفرس ! لئن نجح عثمان في هذا الصراع ، فانه يكون مدينا فى ذلك الى فرسه عصفور . »

قال أحد البكوات « انى امنحه فيها عشرين كيسا من الذهب. »

قال آخر « أنك ان أعطيته مائة ماحصلت عليها . انى أعرف هذه الفرس وأعرف صاحبها أيضا. »

وصاح جمع منهم « يالله ! لقد أمسك بناصيته. » وذلك لأن الفرس قفزت فجأة الي الأمام ، وأحاط المملوك الصغير جسم الآخر بذراعيه وأمسك به من الخلف .

ولكن المملوك الآخر ، وكان قد أحرجه خصمه ، لم يترك لاحد أن يأخذ عليه ضعفا ، أو يقول انه اكتسب شهرته هذه كذبا وافتراء. ذلك لأنه ضغط بركبتيه الضخمتين على جواده ، فكانتا كالكلاليب. فلم يستطع عثمان أن ينتزعه من مكانه ، على الرغم من ان ذراعيه الصغيرتين القويتين ، قد لوتا الرجل ليا .

قال أحد الحضور « انه سيرميه على الأرض وقال. » آخر « انه لا يستطيع ذلك ، لأنه لا يقدر على رفع هذا الحمل الثقيل. » وكان الجوادان قد صهلا وزعقا ، متأثرين من ذلك المجهود . قال آخر « أنظر ان فرج قد أمسك بمعصمه ، والله لقد كاد يكسر رسغ الفتى . »

ولكن الفتى كان قد التوى كلمح البصر ، فلم يستطع خصمه كسر عظمة يده . واشتبك الاثنان يجذبان بعضهما بعضا ، ولكن فرج ، بدلا من أن يوجه مجهوده لجره ، من فوق ظهر جواده ، وكان يستطيع ذلك لماله من قوة كبيرة ، مال الى الأمام وحمله الى قربوس سرجه . ولو أنه تمكن من المحافظة على موازنة جسمه ، لاستطاع أن يهصر عثمان هصرا ، ويهشمه كما تهشم قشرة البيضة . غير أن الفرس جثمت فجأة على ركبتيها . . فاندفع المملوك الى الأمام ، بهذه الحركة الفجائية .

وبذلك أفلت من بين يدى خصمه ، وقد تركه هـذا حتى لا يعرض نفسه للوقوع من فوق سرج جواده .

امتقع وجه عثمان . وخرج الدم من فمه يجرى ، وتقهقر كى يستعيد الى نفسه توازنه ، ويعود الى الصراع ، ولكن المملوك الشيخ ، أسرع اليه ، وأمسك بعنان فرسه ، وقال بلهجة الآمر «قف . »

قال الآخر « ماذا حدث ؟ اننى استطيع المضى . »

قال عمر بك ضاحكا « أتريد يامحمود افندى أن تخرج من الميدان صاحبك ؟ هل أشفقت عليه أن يغلب أم هو يخاف المضى فى الصراع ؟ »

قال عثمان مهتاجا مغتاظا « اترك العنان يامحمود ، اتركني . اتركني . »

قال محمود وقد التفت الى عمر بك « ليس الأمر كما ظننت وانما أنا أمنع المنازلة وأوقفها . لقد اتضح للجمع الواقف ، أن مملوكك يريد أن تكون له الغلبة ، فيضرب خصمه ضربة ليست من الصراع فى شىء . لقد دفع عثمان الى قربرس جواده ، يريد أن يحطم القربوس صدره ، بواسطة الضغط والدفع ، فهل تجد فى ذلك بابا من أبواب الصراع ؟ »

قال هذا هازئا « أن ماتقوله عذر معكوس ، لأن مملوكك كان قد أحرج ، وشعر انه لابد مغلوب . »

قال المملوك البدين « لقد كانت الضربة التى وجهها مملوكك لخصمه ، ضربة معيبة ، ليست من الصراع فى شىء . بل وعداهذا فقد انصاع فيها مملوكك لأمرك أنت الذى امرته بها ، وطلبت اليـه أن يخالس الفتى بضربة تـكون القاضية عليه . أتنكر ذلك ؟ »

قال وقد نهض واقفا « ماذا تقول ؟ وهل بلغت بك الوقاحة أن تجابهنى بهذا القول ، أيها الـكلب بن الكلب ؟ » ثم أهوي بيده على قبضة مشمله ، وأشهره .

قال الآخر وقد زال عنه هدوءه وسكونه « أنا لك هيا بنا الى العراء . »

سكنت حركة المماليك الحاضرين ، فلم يعد يسمع لمناقشتهم صوت وكان قد انقلب الأمر من مباراة ، الى مجاهرة بالعداء ، لم يكن يتوقعها أحد .

قال محمود بصوت الآمر « أترك مشملك ياحسن ، اننى هنا الآمر الناهي ، الى أن يعود مراد بك ، ولست أريد ان أرى منازلة ولا اقتتالا ، واذكر أن عمر بك ضيفنا ، واكرام الضيف واجب . »

ضحك عمر بك اذ رأي حسن ينصاع للامر ، ويضع مشمله فى غمده ، وكان قد أشهره وقال « لقد تنازلت لكم عن حقوق الضيافة عليكم ، وانى أقول لكم أننا لانتهج نهج هذا الشيخ فى الصعيد . لانعرف كيف نرمى الرجل بالكذب ، ثم نقبع ونلوى ونتقهقر مخذولين خزيا وجبنا . »

قال حسن وقد بح صوته من الغيظ « انما أنا أنتظر أمر أبى . »

قال أحد البكوات الموجودين « ولكننا لانريد أن يقف الأمر عند هذا الحد ، أننا ضيفان شيخ البلد ، ولا نقبل أن توجه الينا مثل هذه التهمة ، فما لديك من البراهين على أن عمر بك الصعيدى ، قد أصدر لمملوكه مثل هذا الامر ؟ »

قال حسن مشيرا الى عبد الله ، وكان واقفا بجوار استيفن ، وقد وضع استيفن يده علي كتفه « سل الفتي الواقف هناك . »

التفت المملوك الى عبدالله وقال « ما الذى عندك بصدد ذلك ؟ »

وقف عبدالله أمامه وقفة الاحترام ، وقد ظهر لون شعره الأحمر يلمع فى الشمس ، وصوب ناظريه الى الذى وجه اليه السؤال ، وأدلى اليه بكل ماسمع .

قال عمر بك « ومن أنت حتى تكذب على قوم أشراف ؟ طالب فى الازهر ؟ يالله ما أصدقك ! » ثم قهقه ضاحكا وسأله « ألا تخشى عذاب النار ، وهل لاتخاف تعذيب الاستنطاق؟ »

لم يتردد الفتى بل قال على الفور « وكيف لا أخشاه ؟ الله يشهد أنى قلت الحق ونطقت بالصدق ، واني أسأله أن يمنحنى القدرة على احتمال ماتريد توجيهه الىّ من آلام وأرزاء . »

لغط الحضور لغط الاستحسان فقال المملوك « اذن فلنجرب . »

وعندئذ تداخل استيفن فى الأمر وقال « ليس من الضرورى ياسيدى البك عمل ذلك ، بل ولست أسمح لأحد أن ينال الفتى بأذي . »

قال المملوك « كأنى بك تريد أن تأخذ المسؤولية على عاتقك ، فهل أنت المدافع عن مماليك مراد بك المحامى عنهم ؟ »

قال وقد اضطرب صوته من الغيظ « أجل متي دعت الحالة ، وانى وان كنت من رجال مراد بك ، الا أنى لست واحدا من المماليك . والسبب الذى من أجله امتنعوا عن منازلتك وتأديبك ، ليس بمانعى أنا عن القيام بذلك فلست مرتبطا بنظمهم الداخلية ، ولست مقيدا بقيودهم . »

أغرق المملوك في الضحك وقال « اختر ماشئت من الأسلحة ، فامامك الرمح والدرع وما عداهما ، لست أعني بذلك ، راجلا اردت أم راكبا ، فسأقابلك بشملى ، وبفضل الله ، لاتصل الشمس الى قمة النخلة الواقفة هناك ، الا ويكون مراد بك فى حاجة الى مفتش آخر لبناء سفنه ، ولست أكتمك أني أحمل لك فى صدرى حقدا وضغينة وكرها ، لست أعرف لها سببا . »

اقترب عثمان ، وكان مصفر الوجه ، وترى بقع الدم على ردائه ، من استيفن ، وجذبه من ردنه ثم همس به قائلا « يعلم الله يا اسماعيل

افندى ، اننى آسف أن أكون السبب فى كل هذا ، ونصيحتى أن لا تنازله بالمشمل ، فليس يوجد له ند فى المبارزة به ، سوى مراد أو أيوب واستعمل السيف الفرنجى فليس أمامك من مخرج الا به . »

هز استيفن رأسه موافقا على ذلك وقال «حسن . تسرنى فكرتك والسيف على الأقل سلاح أعرفه ولم أصر بعد مدربا على المنازلة بالمشمل تدريبا تاما . »

نادى عثمان عبد الله وقال له «ياعبدالله أنك تذكر السيفين الفرنجيين للذين رأيتهما على الحائط . عليك بهما واسرع لاتن . » فأسرع الولد يجرى فى طلبهما .

وخلع عمر بك عنه برنسه الواسع ، وساعده فى ذلك مماليكه . ووقف وعليه قميص من الحرير ، محكم على جسمه . فظهر من تحته ، تمام الظهور ، جسمه القوى البنية ، ووقف مدة ، يحرك يديه ، ملوحا بمشمله الثقيل الوزن فى الهواء ، تلويحا يسمع له صفير وأزيز .

وخلم استيفن عنه قفطانه المسترسل ، وشد حبل سرواله المترهدل وجعل يصعد نظره ويصوبه ، فى عمر بك ، ينظر اليه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وعلم أن جزعه قوى متين • وكان المملوك وهو فوق ظهر جواده ، اثبت منه وهو مترجل .

سأل أحد البكوات آخر بجواره « أى سلاح سيختاره ؟ »

قال « لست أدرى ، وربما استعمل عصا لها رأس فلزية . »

قال «ليس لديه من الفرص مايخرج به من هذه المبارزة سالما ، ولكن الله ، والحق يقال ، قد منحه قوة عظيمة أيضا ، أنظر الى أوصاله الطويلة ، والى العضل كيف يتحرك ، تحت جلده الناعم كالحرير ، وانظر الى قبضة يده تجدها ثابتة كالصخرة ، والى عينيه لا تجد للخوف أثرا فيهما ، رغم أنه يعرف تمام المعرفة ، أن ساعته ، بلا نزاع قد دنت ،

وأن آخرته قد قربت . يعلم الله أنى حزين لأجله ، فانه رجل ونعم الرجل . ولكن ماذا أرى ؟ أى نوع من أنواع السلاح ذلك الذى جاءه الفتى به ، أتظن أنه ينازل عمر بك بهذا السلاح ؟ »

وكان استيفن اذ ذاك قد أخذ ، من عبد الله ، السيف الطويل المستقيم الماضى ، وقد وجه طرفه للارض ، فانغمر فيها ، ووقف كأنه مرتكز عليه .

ونظر اليه المملوك بوجه عابس ، ثم التفت الي أحد مماليكه ، وأمره أن يسرج له فرسه .

قال استيفن » لا ياسيدى البك ، فلنتبارز متراجلين ، وفاقا لما جاء بشروطنا . »

كان عمر بك علي وشك أن يرجع فى قوله ، لولا أن صاح به القوم دهشين « تلك شروطك يابك . »

وهمس أحدهم فى أذنة « ان الرجل لا يستحق منك اللجاج ، انك لابد مصيبه فى أقل من لمحة البصر . » ولكن يظهر أن عمر بك ، كان يعرف من الأمور أكثر من صديقه .

قال « أعطنى درقتي . » ثم أخذ درعا مصنوعا من جلد الكركدن ، مصفحا بالنحاس والذهب .

قال محمود محتجا ، « وأى حاجة بك للدرقة وأنت الذى خصصت للضرب بالمشمل . »

قال « وهل لايحتاح المشمل الى درقة؟ انني أنازله بسلاح المماليك ، ولا بأس أن يستعمل الفرنجي درقته ، ان يرغب فى ذلك . »

كان المملوك سيوالى أحتجاجه ، ولكن القوم تجمعوا حوله صاخبين لاغطين ، فلم يجد بدا من الرضوخ . ظهر الجد على وجه استيفن ولم يكن قد حسب حسابا للدرقة ولكنه وجد أنه من غير المستحسن

أن يثير أي أعتراضات أخرى ،فخلع نعليه الحمراوين (مركوب) واندفع الى العراء ، يلتمس قطعة من الارض خالية من الحصى والزلط .

واجتمع المماليك في دائرة ، وغرق ثلاثة منهم فى أفكارهم . في حين وقف عبد الله مصفر الوجه جزعا مهتاجا ، ممسكا مسبحته ، يذكر اسم الله عليها ، ويقرأ الأدعية والاوراد .

قال عثمان هامسا « اذكرطريقك في البتر العلوى . هل من شيءآخر نستطيع تقديمه اليك؟»

قال « اجتهد أن تكون الدائرة واسعة ، ولا تسمح للمماليك أن يتجمهروا حولنا . وانني ازاء هذه الدرقة أحتاج اليوم لبذل كل مجهود . »

ووقف الرجلان وجها لوجه في وسط حلقة المبارزة . فكان استيفن طويل القامة ، عضل الجسم ، واقفا آخذا حدره ، وكان المملوك الآخر نصف رابض خلف درقته . وكان ضوء الشمس يسقط على ذقنه الحمراء فكانت تظهر كأنها شعلة من نار .

ووقفا لحظة يرقبان بعضهما بعضا، مراقبة الخوف والحذر . ثم قفز المملوك الي الأمام فجأة ، ومشمله بيده ، يلوح به فى الهواء ، فيسمع له صوت ، ويرى له ضوء ، كالبرق الخاطف . وصوبه نحو خصمه ، وضربه فتلقاها هذا ، ورد عليه بأخري واخرى بسرعة لاتدركها العين . وجعل المملوك يضغط على خصمه ، ويحاوره بخفة وقوة عجيبتين . ولكن سيف استيفن كان يقابل الضربات ، فيفسدها على صاحبها وكان استيفن يقبل ثم يدبر ، ويذهب طورا الى اليمين وطورا الى الشمال ، بعيدا بقدر ما يمكن عن ذلك السلاح الذى يشبه الموسى في مضائه ، وعن تلك القوة التي كانت تدفع هذا السلاح فتجعله يتقهقر الى الوراء .

وتراجع المملوك لحظة ، ولم يستطع السيف الفرنجى ، أن يصيب المملوك ، أية اصابة وذلك بسبب الدرقة ، التى جعل استيفن يلعنها لعنا

صاح أحد المماليك دهشا «يالله! انه لم يمت بعد .» وكأنه بهذا القول كان ينطق في الحقيقة عن شعور القوم .

قال عثمان « لا ، لم يمت ، على الرغم من تلك الدرقة اللعينة . » ثم صمت لا ينطق بشيء ، لأن عمر بك ، كان قد قفز الى الأمام مرة أخرى مصدرا درقته ، متحاشيا بها ، طعنة طعنه اياها خصمه ، فدخل سن السيف فى الدرقة ، وظل في جلدها لحظة . وعندئذ ضربه عمر بك عشمله ضربة من أسفل ، كادت تفدع رأس استيفن من جبهته الى ذقنه ، لو أن المشمل ظل لحظة أخرى فى الجهة التى صوب اليها . ولكن استيفن اندفع الى الخلف ، وجاهد جهاد اليائس ، حتى نزع سيفه من جلد تلك الدرقة ، فلم يتوان الا لحظة بسيطة ، ومع ذلك تمكن خصمه من اصابته بحرف مشمله فى ذقنه ، فبتر منها جزء يسيرا .

وعندها تراجع المملوك ، وجعل استيفن ينظر اليه ، وهو يمسح الدم الذى سال على رقبته ، ولمح مراد ، بك العابس الوجه ، وهو ينظر الى المتبارزين ، من خلف حلقة المماليك .

ووقف بجانبه الخصى ، ورجل آخر قوى البنية ، جعل ينظر بعينيه البراقتين ، الى ذلك السيف الذى لم يره ، دهشا مذهولا . لقد كان ذلك الرجل ، هو أيوب بك ، أشجع بطل فى مصر .

لقد رأي استيفن ، مراد بك يغمز صاحبه فى ذراعه ، ويشير الى السيف الذى بيده ، ولكنه لم يسمع قول مراد لايوب ، «أترى السيف الذى بيد الفرنجى ؟ »

قال « أجل وهل تذكر فى يد من رأيناه لآخر مرة ؟ »

قال « وهل تظن أننى أستطيع نسيان ذلك ؟ ان عمر بك يذكره أيضا . » انظر كيف يقف أمام الفرنجي وقفة الحذر والاحتراس ، ولم يكن هو بالرجل الذى يبارز خصمه بهذا الحذر والانتباه . »

قال « ها لقد عادا الى صراعهما . » وتقدم المملوك الى الامام ودرقته في يده ، ولكن استيفن كان قد تعلم ، فلم يصوب سن سيفه الى الدرقة حتى لايدخل فيها ، فيعوقه عن المبارزة .

لذلك تقهقر أمام هجوم خصمه عليه ، وخادعه بأن صوب اليه رأس سيفه ، فرفع المملوك درقته ، يريد بذلك اصطياد السيف . ولكن استيفن ، بسرعة البرق ، ضرب مشمل خصمه ، من أسفل ، فطار المشمل من يد المملوك ، وكان قد أصابها الكلل . وجعل الدم يسيل منها .

وقفت حركة أصابع استيفن ، من أثر الصدمة ، فأمسك سيفه بشماله ، فى حين وقف المملوك وقد صعق لما أصابه ، واستل خنجره فجأة دون سابق انذار ، ورمى بدرقته ، وانقض على استيفن انقضاض الصاعقة .

صاح مراد باستيفن ، ينبهه ويحذره ، فالتفت الى نفسه ، وكان وقتئذ قد وصل اليه ، فلم يكن لديه وقت لاستعمال سيفه ، الا انه قفز الى أحد الجانبين ، وصوب قبضة يده الي وسط ذقن عمر بك ، ولطمه فيها لطمة شديدة قوية ، أطارت صوابه وأفقدته لبه ، فمالت رقبته الي الخلف ، وكانت آشبه شيء برقبة الثور وأندفعت من أثر الضربة القاتلة ، ووقف المملوك لحظة ، وقد انفرجت عيناه ، واهتز جسمه ، ثم سقط على الأرض ، فسمع لسقوطه صوت ، وهناك أنطرح كالكومة ، ترجف أعضاؤه ، وغاب عن الوجود .

وجرى مملوكه اليه ليرفعه عن الأرض ، وذهب مراد فى الوقت نفسه ، متجاهلا المملوك ، وهو ملقى علي الأرض ، الى استيفن وصافحه وقال « ماذا بقبضتك الفولاذية ، وبم لطمته ؟ لم أر في حياتى رجلا يسقط فى مبارزة بهذا الشكل ، انى اعرف المبارزة بسيوف الفرنجة ، اذ أنى رأيتها قبل الآن فى يد شخص ، كان أحب الىّ من أخى ، ولكن

طريقتك هذه جديدة .

« ما كنت أصدق ، والله العظيم ، ونبيه الكريم ، أن أرى رجلا يستطيع بسيفه ، أن يجالد خصمه وقد أمسك بمشمل وادرع بدرقة . بل انى ما كنت أعتقد أبدا ، أن عمر بك يسقط علي الأرض صريعا ، من لطمة من قبضة يد . ولكن كيف حدث ذلك وما سببه ؟ أجبنى يامحمود ، فقد وكلتك عنى أثناء غيبتى . »

فأخبره محمود بالقصة ، وفى خلال ذلك ، لبس استيفن قفطانه ، والقوم من حوله يهنئونه علي انتصاره ، ثم غادر الساحة ، ومعه عثمان وحسن الكبير .

وتصاعد دم الغيظ في وجه مراد لدى سماعه حكاية محمود وقال « والله لأحاسبنه على ذلك . » وسار الى حيث حمل عمر بك .

وكان شيخ البلد ، اذا غلا دمه ، يأتى من الأمور ما يأسف له فيما بعد . والظاهر أنه أراد أن يأمر بالقبض على المملوك ، لولا ان أيوب بك وضع يده على كتفه وقال « ان الرجل ضيفك ، فهل يصح ان يغيب عنك ، ماذكره مماليكك ؟ »

قال « هذا حق ولكن اذا كان للضيف حقوق ، فان عليه أيضا حقوقا . »

قال « فليكن ، ولكن الفرنجى قد ألقى عليه درسا فى الفروسية ، ويصح لك يابك أن تلقى عليه درسا فى الكرم . »

قال « لقد أصبت يا أيوب . » ثم ذهب الى عمر بك وقال « عمر بك ياصعيدى ، لقد سمعت القصة ، وانى ليسوءنى أن أتهم ضيفا بارتكاب أمراد ، ارتكانا علي كلمة صبى قد يكون مع كل هذا مخطئا ، ولكن مملوكك لم يسلك المسلك الشريف فى المبارزة ، وهذا لاشك فيه ، والك ان تأخذ عنى ، أن هواء الصعيد بالنسبة اليك ، أصح ، على الأقل ، من هواء القاهرة ، وجوه أصلح من جوها ، واسمح لى ان أقول لك » وهنا

علا صوته وقال « لو ان فتاى عثمان السليكتار كان قد قتل اليوم غيلة وغدرا ، وأنا أعلم أنك تحفظ فى قلبك له غلا وبغضا ، يمينا بالنبى الكريم ، ما تركت واحدا منكم يغادر هذه الساحة ، بل كنت جندلتكم واحدا واحدا . »

قال عمر بك موبخا « ما أحسن شيخ البلد يهدد ضيفه فى داره ما أشجع ، ما اكرم ! »

قال مراد مغتاظا « وما رأيك فى رجل يضيفه آخر ، ويحسن وفادته ، فلا يكون منه الا الشطط والاساءة وعدم الوفاء ؟ »

قال « كذب والله مابلغك عنى ، وليس لأحد أن يرمينى بهذه التهمة . » وكان بلهجته شيء من الكبرياء والعظمة ، ثم نظر الى من حوله من البكوات ، يتلمس فى وجوههم وعيونهم ميلا الى تبرئة نفسه من تلك التهمة الشنعاء .

قال الخصى بصوته الناعم اللين « ألم تنتهك حرمة هذه الضيافة فى الجيزة ؟ »

قال « يظهر لى أنك تخاطبنى بالأحاجي والالغاز . » ولكنه لم يشأ أن تقابل عينه عين السائل .

فقال له هذا « لاتنس بعد اليوم السيف الفرنجي ، وابحث فى أعماق صدرك عن جواب لسؤالى هذا . »

فظهرت على وجه المملوك لأول مرة نظرة خوف ووجل ، وحملق بعينيه الى مراد بك ، خائفا فزعا .

ولم يزد الخصى على ذلك حرفا . ولفت مراد بك وجهه ، ثم عاد من حيث أتى ، و على وجهه علامات الاحتقار والازدراء .

الفصل العاشر

المتسول

جلس الشيخ فضل متربعا على مقعده ، تحيط به أكداس الكتب ، وجعل يملي عبدالله ، بصوت لين متراخ ، ما كان يجود به مخه . وجلس عبدالله متربعا أمامه على حصير ، وجعل يكتب بقلمه ما كان يمليه عليه فوق ورق كان ممسكا به .

وجعل الشيخ فضل يهتز ذات اليمين وذات الشمال ، وهو مغمض العينين ، يلتوى وينحنى فوق عبدالله ، وقد عقد هذا حاجبيه ، مجتهدا فى متابعة الشيخ ، وكتابة مايسمعه منه .

وجلست بالقرب منه نفيسة ، صامتة ساكتة على غير عادتها، ترقب ملامح الشيخ الرزينة ، ووجهه الناعم اللين ، الذى كانت تبدو عليه علامة الحماسة الهادئة ، ثم بعدئذ تنقل ناظريها الى عبدالله ، تنظر الى أصابعه اليسرى نظرة الاعجاب والاكبار ، الا أنها كانت والحق يقال تتثاءب مابين آن وآن تثاؤب الكسل الوسنان .

ولقد كان الموضوع الذى يمليه الشيخ ، صعبا يستلزم جهدا كبيرا وكان ذلك الموضوع ، خاصا ببعض الآراء الفقهية ، وكان الناظر الى الشيخ ، يراه يرفع صوته الهادىء أحيانا ، ويرفع يده اليمنى ، مؤكدا لما يمليه .

قال أخيرا « أرى أن ما أمليته عليك اليوم يابنى حسن لم يصل اليه قبلى مؤلف وانى لأستغفر الله عن زهوى وغرورى ، ان أناقلت اننى ماتركت فى هذا الموضوع شاردة ولا واردة ، كبيرة ولاصغيرة، مظهرا فيه معايبه ونقائصه، ذاكرا محاسنه وأحاسنه ، فاقرأ لى ما كتبت يابنى ، فان فى الاعادة افادة . »

ثم اضطجع على وسادة المقعد ، وأصغي وهو مغمض العينين ، الى عبدالله يقرأ له ببطء ماكان قد أملاه عليه .

قال الشيخ وقد انتهي عبدالله من القراءة « حسن يابني ، ولننته من العمل اليوم ، ففي هذا كفاية ليومنا . يجب أن يكون هناك حد لما تعمله يدك ، وما يعمله مخ شيخ متقدم في السن . ان يدك ومخي ان أصابهما التعب والكلال ، صارا بين بين ، بل وكانا الى الخطأ أقرب ، واعلم ان لبدنك عليك حقا ، أصغ الىّ يابني ، انك حين تفكر بمخك وتشغله عندماتصير شيخا ، نخذ خير ما يمكن أن تصل اليه فى بحثك . تلمسه حتي تصل اليه ، ثم قف عنده ، فانك تقدر بخير الاشياء التى تستطيع ان تخرجها للناس ، لا بكميتها . وقيمة الانسان ما يحسنه . واعلم ان عين الناقد تتلمس نقط الضعف ، فاذا ما وصلت اليها ، شوشت بها على ماعداها من النقط ، مهما كانت قوية متينة .

« وانهج نهج المماليك فى ذلك ، وليكونوا لك مثلا . فهل هم موجهون ضرباتهم الى مقابض السيوف والى الدرقات المصنوعة من الجلد ، أم هم يوجهونها الى وصلات الدروع . والى اجزاء الجسم التى تجد الاسلحة فيها منفذا ومسارا ؟ وهل يصيح المملوك عندئذ ويقول لخصمه انك خالستنى ففزت علىّ ، ولماذا لم توجه ضرباتك الى سلاحي ، والى ما ادرعت به من حديد ؟ ألا يجيبك صاحبك عثمان على مثل ذلك الصراخ بالضحك والسخرية ؟

« ولا تكن أيضا كصاحب الكرمة المتسرع ، فلا تقدم على قطف الثمرة قبل النضوج . اياك والسرعة ، فلا تأخذ من الثمار الاماطاب ونضج ولا يغرينك الكسب فتقطف من زرعك ، مالم يصل بعد الى درجة النماء الكامل ، فاذا ماقطفت فافتح عينيك وانتبه ، كأنك انما تنتقى من

عنبك ماسيوضع على مائدة ملك من الملوك . وهل انت الا فى خدمة ملك كبير يا عبد الله ، وحاكم هو احكم الحاكمين . رب السموات والارض من تخر لهم الجبابرة سجدا ، امام عدله يوم الحشر والميزان ؟»

قال الفتى « اسأل الله ان يعينني على ذلك »

قال « هل فيما كتبت اليوم شيء استعصى عليك وتريد مني ان اشرحه لك واوضحه ؟ »

قال « فيه كثير من الحقائق التي فهمتها يا والدى ، الا امرا واحدا حاولت حل رموزه ، والوقوف على معميه ومستوره، ولكني لم أفز بطائل . »

قال « وماهو يابني ؟ »

قال « هو ما جاء عن العقاب على السيئات مع ملاحظة مسألة القضاء والقدر ـ ارادة الله المطلقة ـ وقد بحثت انت في ذلك في باب القدريين. انهم يقولون ان الله ليس الاصل الموحى بالشرور، وانه هو اصل الخير والرشد ، وان للناس حق الاختيار . بمعنى ان الشر والخير موجودان ، وان على الانسان وحده، ان يختار منهما مايشاء. فاذا كان الامر كذلك، فالامر واضح يا أبت، وعليهم تقع تبعة خطاياهم ، وعليهم تحمل العقاب. اما اذا لم يوكل اليهم امر الاختيار ، وكان ذلك مقدرا عليهم مكتوبا فى اللوح المحفوظ، فلماذا اذن يستهدفون لعذاب الاخرة؟»

وتلك هى المسألة القديمة، المتجدده، التى كانت سببا فى شق المسلمين الى جماعات، بل وجعلت الاسلام قبائل وشيعا ، وكان الشيخ فضل حنفي المذهب، فبقي ساكتا لحظة .

قال الفتي « ما الذى قاله سيدنا محمد بصدد هذا الموضوع ؟ لقد سمعت كثيرا من الاراء المتناقضه بشان ذلك . »

قال « باستطاعتي ان أجيء لك بآيات كثيرة من القرآن ، يابني ، وكلها تدل على ان سيدنا محمد يعتقد ان الله قد قدر كل شيء ، مهما كان صغيرا لاتدركه العين . ولكن هناك من الاقاصيص ماجعلني أبحث في الامر ، وربما كان في اخبارك بها مايقرب الموضوع الى ذهنك ، ويجعله اكثر بقاء فيه .

« لقد قيل ان آدم ، وهو اول المخلوقات ، تحادث مع سيدنا موسى فعنفه قائلا — انك ياآدم قد خلقك الله ، ونفخ فيك من روحه الحياة ، واسكنك الجنة ، التي طرد منها الانسان بسبب خطئك . قال آدم وأنت ياموسى ، وقد اختارك الله رسولا ، وانزل عليك التوراة ، ترى كم مضى من السنين على نزول توراتك قبل ان يخلقني الله ؟ قال « إربعون سنة . » قال ولم تعثر فيها على هذه الكلمات وعصى آدم ربه . قال وماذا ، قال آدم هل لك ان تؤنبني اذن على فعل ذلك وقد كتب الله على ان اعمله قبل ان أخلق باربعين سنة . لا بل قدره على قبل ان تخلق السموات والارض بخمسين الف سنة . »

قالت نفيسة « ارى ان آدم لم يكن مخطئا . »

فأسكتها الولد بنظرة من نظراته وقال الشيخ « لاتظن يابني أنك وحدك في هذه الآراء ، وان الذي يجري بنفسك الآن يذكرني بنفسي ايام شبابي ، حينما كنت ملتحقا بخدمة الشيخ جلال ، رحمة الله عليه . ولقد اجاب على سؤالي بمثل ماأجبتك الآن . فالصق يابني بالنبي ، فاذا ما قال شيئا فخذه قضية مسلمة . وأما بخصوص ماتركه النبي ، غير مكتوب فاذكر أن الله رحمن رحيم ، وفسر بعدئذ لنفسك هذا التفسير . » ثم جعلت أصابعه تنتقل من حبة الى حبة في مسبحته المصنوع حبها من الكهرباء (الكهرمان) وجعل يتلو وردا من الاوراد .

ومكث الولد لحظة صامتا يفكر تفكيرا عميقا ، ثم بدأ يجمع ما تناثر حوله من الاوراق المكتوبة ، ووضعها فى كومة فى ناحية من الحجرة فطربت نفيسة لذلك ، اذ أنه يدل على نهاية تلك الجلسة الطويلة . فوقفت تساعده أيضا فى عمله بسرعة كادت تتلف الورق لولا ان عبدالله نبهها قائلا « رويدك ياأخية ، والا فانك ان داومت على ذلك دقيقتين جعلتنى أشتغل فى ترتيب مابعثرت ساعات طويلة .»

نظر الشيخ اليها وقال « أخشي ياابنتي أن تكونى تعبت من حديثنا وقد طال . سنتعشى الآن ولقد أمرت باحضار شمام لك ، لانى أعرف من عبد الله ، أنك تحبين مثل هذه الأشياء الحلواء . ولقد اشتريت اليوم وانا عائد من الجامع ، صندوقا من الحلوى ، لانى عرفت انك حاضرة اليوم . » ثم صفق بيديه فجاء الخادم قال «أعد العشاء لنا ياأحمد . »

قال « انه حاضر ياسيدى ، ولكن المتسول واقف بالباب ، ولقد جاء منذ ساعة ، ينتظر احسانك . »

قال «لقد جاء صاحبى يزورني ، أعد له صحفة أخرى معنا . » ثم قام الشيخ مدفوعا بعامل الكرم الشرقى وذهب ليجىء هو نفسه بضيفه .

قال الشيخ « السلام عليكم ، مرحبا بقدومك ياسيدى. لانت كالضوء ينير لنا حندس الظلمة . »

وقاد الشيخ ضيفه الجديد ، ودخل هذا يتخبط فى سيره ، وقد تجلبب بجلابية مسترسلة ووضع على رأسه طربوشا ، اعتم عليه بشريط من الشاش غير النظيف .

قال الرجل « لى من الجرأة ماأسألك به ضيافتى يا سيدى الشيخ ، ولكن القوت أستطيع أن أجده فى أى مكان ، فالناس يحسنون على المساكين ذو الاسرات أمثالى . وانما جئت لأغذى عقلى ، فقل لي بربك أين أجد ذلك بمثل هذه الكثرة والوفرة فى غير بيت الشيخ فضل ؟

اسأل الله ان يبـاركه ويزيده من نعمه.»

قال «انما أنت دائماً تحضر معك اكثر مما تأخذه من هنا. فكم مرة طلعت عليّ فاضأت لى مغلق نفسى. لان الله وان كان قد اصابك بالعرج في قدميك، فصارت حركاتك بطيئة وغـير ثابتة، الا ان عقلك سريع الحركة، صادق في ادراك الحقائق، كالسهم فى اصابة الهـدف. تفضل ادخل فليس عندى أحد سوى عبد الله ونفيسة أخته.»

وسكت عبد الله خلال الحديث كله فلما انتهي أسرع الى المتسول وصافحه وقال «لقد مضى زمن طويل على رؤيتى لك آخر مرة، لانه كان من سوء حظي اني كنت خارج البيت حين شرفتنا بزيارتك.»

قال «لقد كنت ياعبـد الله عند مراد بك فى الجيزة، كما أخبرني الشيخ. وخفت اذ ذاك أن تكون استعضت عن القلم بالهراوة، وعن التوحيد بصنعة السيف.»

قال «فليغفر الله ان أنا قلت، ان في رؤية الخيل تجرى، وفى قعقعة السلاح تسمع، لخلابة وسحرا. لست أدرى لماذا، انأ نا سمعتها تأخذنى هزة الشوق اليها، ويتصاعد دمى الى وجهى.»

أبرقت عينا المتسول الغائرتين، وظهرت عليهما علامات الاشفاق. الا ان الشيخ ظهر عليه القلق اذ قال «توجد حروب يا عبـد الله لا ينفع فيها سيف ولا جواد. الا وهى حروب العقل ضـد الجهل والعقائد الفاسدة، وضد أعداء ياعبد الله لا يقلون شجاعة ودهاء، عمن يحاربهم المماليك، وتحت راية ليس لدى مملوك فى مصر راية مثلها يستظل بها، هى الراية الخضراء، راية الاسلام، بيمينك تمسك بها، وعلى لسانك تجرى كلمة الحق.»

قال المتسول باحترام «هذا حقيقى، وستكون القيـادة فى يدك يا عبد الله يوما، ان شاء الله ذلك.»

قال « اني لانتظر بشغف هذا اليوم ، الذى أراه فيه ، وقد تدثر بثوب الفاقة ، يحج من بلد الي أخرى ، ينشر دين الله، بعلمه وفصاحته ، واطلاعه وذلاقته ، حبا فى أعلاء دين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام . وهذا هو ماتجنح اليه نفسي ، ويصبو اليه قلبى ، لو أن الله سبحانه ، منحنى القوة والقدرة عليه . »

قالت نفيسة « مع هذا فان عبد الله يصلح أن يكون مملوكا ،وانى ليحلولى ان أراه متجلببا بالذهب ، ممتطيا جواده ، كما هو شأن عثمان المملوك . »

قال الشيخ وقد أبرقت عيناه بريقا طفيفا : «اين أذن المرأة يابنية لتستطيب طنين الخلخال ، ورنين الذهب ،ما احلى ذلك وما اوقعه في آذانكم معشر النسوة . »

قال المتسول « وما يدرينا، لعل هذه الاشياء للنساء، وخشخشة العنان لدى المملوك، وطلاقة اللسان لدى شيخ من الفحول الاعلام، شيئا واحدا ـ من أم واحدة هى الغرور والخيلاء . »

قال « واذا كان الامر كما تقول ، فأنا نسأل الله السلامة والوقاية . »

وانتهى طعام العشاء الا ان نفيسة كانت لا تزال تأكل قطعة كبيرة من الحلوى ، وجيء بالقهوة، وأعد الشيخ نفسه لمناقشة طويلة مهدلها بأن جمع أطراف ثوبه وضمه حوله .

وكان الشيخ لايحب من كل الذين يقصدون داره للمناقشة والبحث فيما انغمض عليهم فى القرآن ، وما حواه من أقاصيص الاولين، الا هذا المتسول وكان لايستطيب من الاحاديث غير حديثه ولا نكران فى ان كثيرين منهم كانوا يفوقونه علما ومعرفة ، الا أنه لم يكن منهم من يضاهيه ، فى اقتناص المواضيع الوثابة الناتئة ، التى كان يلصق بها فلا يميل عنها الا وقد الم الماما لا حاجة بعده لمستزيد ، وكان فى مناقشته

يهاجم خصمه بما ينم عن رجاحة عقل ، وبعد نظر ، ولقد توصل غير مرة باسئلته ، الى ارباك الشيخ فضل ، مع ماله ـذا من غزارة المادة وسعة الاطلاع .

ولكن المتسول لم يفاتح الشيخ فى هذه الليلة كعادته فى أمر من هذه الامور ، ولقد شاغله الاستاذ بان طرح أمامه مسائل متنوعة ، كان له فيها آراء خاصة ، ولكن هذا جلس ساكتا مشتت الفكر ، ينقل ناظريه بين نفيسة وعبد الله ، وعلى وجهه تبدو علامات حب السؤال والاستطلاع.

قال فى النهاية «وهل انتما أخوان حقيقه وانحدرتما من بين صلب وترائب رجل واحد وحملتكما أم واحدة ؟ » وكأنه بذلك كان يتابع استقراء طائفة من الآراء ، دل عليها بعقاله وهو لا يدرى .

قال عبد الله « أجل أبونا محمد بن فرج من أهالى طنطاوامناعلية زوجه ، وكان صانع جلود ، وكان مماليك المديرية يكلفونه بصناعة سروجهم وسلمهم الجلدية . »

قال «كأنى به قد تزوج اذن من جوارى احد البكوات فان امكما لا بد ان تكون اجنبية ، لا يمكن ان تكون مصرية من مصرية . »

قال الفتى دهشا « وكيف توصلت الى ذلك ؟ »

ابتسم المتسول عندئذ وقال «اليس الامر كما تقول ؟»

قال « لقد كانت على ما اذكر ، حسناء حمراء الشعر. ولكنى لاأدرى من اين جاءت فهل تعرف عنهاشيئا ؟» هز المتسول رأسه وقال « لا ـ لست اعرف عنها شيئا . »

قال الفتي غير مصدق « وكيف اذن وصلت الي معرفة ذلك ؟ »

قال « انظر ياعبد الله ، فانت جميل احمر شعر الرأس . ونفيسة أختك ولو انها سوداء الشعر ، الا ان عينيها عسليتان . انظر كيف تلمعان .

لايمكن ان مصريين صميمين ، يلدان ولدا مثلك . وعلى ذلك فاذا كان ابوك أخا ءلى فرح ، صانع النحاس ، فان امك يجب ان تكون شركسية او جورجية . ولقد قلنا انه كان يشتغل فى صناعة السلع للمماليك ، ونحن نعلم انه اذا اراد أحد البكوات أن يكافيء أحد خدمه الامناء ، ولم يجد المال الكافى لمكافأته ، فانه يمنحه احدى جواريه ، ويزوجه منها ، وقد يكون عمر بك فعل هذا مع ابيك . »

هز الفتى رأسه وقال « قد يكون الامر كما تقول . ولكنى كنت لاازال طفلا عندما توفى والدى بالطاعون وذهبت بعدها الي عمى على فرج ، لاقيم معه هو وروجه خديجة . واراك تذكر عمر بك فى حديثك ولقد رأيته في الجيزة وقيل لى انه مدير اسيوط . »

قال « هذا حقيقى لانه الآن هناك . ومديرية اسيوط اكبر من الغربية . »

قال « وقد يكون المناخ هناك اكثر جودة . لقد سمعت مراد بك يقول لمملوكه فرج ، انه يرى هواء الصعيد اصح من هواء القاهرة . »

سمع المتسول اسم شيخ البلد ، وسرت فى جسمه هزة ظهر اثرها فى عينيه . الا ان هذا الاثر زال بسرعة ، حتى ان نفيسة وكانت قد لاحظت ذلك ، نسبته الى اهتزاز لهب الشمعة التى كانت موجودة وموضوعة على رف فوق رأسه . »

قال الرجل « وكيف كان ذلك؟ »

قال عبد الله « لقد كان ذلك خلال مبارزة حدثت في اليوم الذى زرت فيه الجيزة . » وكان هذا اليوم لايزال ماثلا أمام مخيلته بما حدث فيه .

قالت نفيسة « قص على السيد القصة كلها . » وكانت نفيسة سمعتها قبل اليوم غير مرة . الا انها ما كانت تتعب من سماعها دائما . فانتهزت هذه الفرصة لانها كانت قد تعبت من المناقشات الدينية في هذا اليوم

وكانت ترى الشيخ متحفزا ما بين لحظة وأخرى ، للدخول في موضوع هذه المناقشات .

وأخبر عبد الله الرجل كيف ان صديقه عثمان المملوك ، جاءه فى الازهر ، وأعاد على سمعه كل ما رأى وكل ماحدث . أخبره بالدار ، بالحديقة ، بصنوف الطعام ، بما كان من أمر الصراع والمتصارعين . وشجعه المتسول ، وكان يتابع حديثه بشوق غريب ، أدرك به تماما كل ما حدث . فلم يسأل سؤالا عن هذا وذاك ، بل ظهر عليه انه يعرف كل شيء معرفة دقيقة ، لم ينتبه اليها عبد الله الا فيما بعد ذلك بزمن طويل .

سأل سؤالا واحدا ، وذلك لما أخبره عبد الله بما كان من أمر عثمان ، حين أشار الى قفطانه الممزق . الامر الذى هيأ لفرج الصعيدى فرصة لاسترداد شجاعته ، وتلمسه الغلبة عليه .

قال « ما كنت أعرف والله أن المماليك شم الانوف بهذه الدرجة . أنهم لم يكونوا أبدا كذلك . »

وواصل عبد الله حديثه ، فأخبره بامر المبارزة التي حصلت بين المفتش الفرنجى رئيس ساحل بولاق ، وبين عمر بك . وعندئذ ابرقت أسارير المتسول ، واهتم بالامر وأجد فيه .

قال مقاطعا « بسيف فرنجى ؟ وهل استعمله في المبارزة مع عمر بك ، فى حين تسلح هذا بالمشمل والدرقة ؟ ياللفارق الكبير ! قل وكيف انتهت المبارزة ؟ لكم كنت علم الله أشتاق لرؤية هذا الصراع . وتقول ياعبد الله انه ضرب المشمل فطاره من يد المملوك ؟ »

فلما أن أخبره عبد الله بما كان صاح المتسول قائلا « وحق النبى ما كنت أصدق ان في الوجود رجلا يستطيع بلطمة من قبضة يده ان يصرع عمر بك . ولكن قل هل أنت متحقق من أن الرجل لم يكن

يخفى فى قبضة يده سلاحا ؟»

قال « لم يكن بها شيء البتة ، لان مراد جاءه ذهلا وصافحه، وكان معه أيوب بك ، وشكره على أنه دافع عن شرف الجيزة والجيزاويين . ورغب الى الفرنجى أن يمسك سيفه مرة أخرى ، ويناوله وهو ممسك بالمشمل .»

عندئذ ابتسم المتسول وقال « هذا طبع مراد بك ، وتلك ميوله واهواؤه ولكن قل هل تطاعناو تطاحنا؟ »

قال « لا . لانى سمعت أيوب بك يقول له دعنا من هـذا السيف الفرنجى يامراد ،فانه يثير لدينا ذكرى ذات شؤون وشجون . فما كان من مراد بك ، وهو شيخ البلد ، الا أن تأبط ذراع صاحبه وسار بجانبه وقد بدا على وجهه الغم والاكتئاب ، مما لم ادر له سببا . »

هز الشيخ العجوز رأسه وقال « أما عنى فلست أحب هؤلاء المماليك وفعالهم الدموية . أنهم مؤمنون ، ومع ذلك يظلمون الناس ، ويصرفون مال الاوقاف . وعدا هذاوذاك فانهم يهزأون بالخليفة نفسه . يسخرون من أمير المؤمنين . وهذا عـلى بك الذى قال للخليفة ان أردت الجباية والجزية ، فلتتقدم بنفسك لتجمعها ان استطعت . وهو هو الذى قتل وزير السلطان فى صحراء هليو بوليس . »

قال المتسول « وما كان الرجل فى ذلك الا مدافعا عن حياته. ولولا ان اللعين محمد بك أبو الذهب قد خانه ، لـكان انبثق على مصر، فجر جـديد ، وطلع عليها عصر سعيد . وما كنا تمزقنـا الآن بين حزبى ذلك المجنون الاخرق مراد ، وذلك الدساس ابراهيم بك . كلاهما اعمى لا يبصر . أعمـاهما حب الاستئثار بالسـلطة عن كل شيء وفاتهما ان الفرنجة عن قريب نازلون ديارهم ، مشتتون أوصالهم ، مقتلون رجالهم ونساءهم . وانهم سيتخذون من المساجد ، وهي بيوت الله، اصطبلات

ومرابط لخيولهم . »

اصغى عبد الله لذلك الكلام وقد دهش كل الدهش . ولكن الشيخ فضل أجاب بلطف وهدوء «لقد عرفت يا أخى نبؤاتك هذه قبل الآن ، ولطالما سمعتك تذكرها . »

قال عبد الله «وما ذا يحدث ان هم نزلوا بلادنا ؟ ان الخليفة بالطبع سيرسل جيوشه، ويطرد الكفار ويقذف بهم فى البحر . الم يعمل صلاح الدين ذلك مع ملوك الفرنجة، وعلي الاخص ذلك الملك الذى نسيت اسمه؟»

قال المتسول دهشا «ومن ذا الذى أخبرك بتلك القصة ؟»

قال « خصى اسمه رضوان اغا ، وكان عثمان قد طلب اليه ان يحدثنى بها عند مازرته . »

قال المتسول متمتما «رضوان الخصى؟»

قال «أجل وهو رجل ضخم الجسم ، أطول من حسن الكبير . وهو خصى ولكن لا كل الخصيان الذين رأيتهم . يعلم الله انه رجل ولنعم الرجل هو . ان عثمان وحسن الكبير يجلانه ، اجلالهما لمراد بك نفسه ، ولو انه من هؤلاء الذين يهتمون بصغائر الامور . ذلك لانه أظهر من الاهتمام ببعض بذور جاءه عثمان بها من الرحمانية ، مالم يظهره لشيء آخر . »

قال المتسول ضاحكا ماذا وهل رأيت هذه البذور يابنى؟ »

قال « لا . لانه طوى الكيس الذي كانت فيه ، وأخفاه بين طيات قفطانه ، كأنما الحب من ذهب . ولما ان سأله عثمان هل هو مستطيع فيما بعد ان يأكل من ثمرها ، ابتسم الرجل فقط وأجاب، بانه لايشك أبدا في أن عثمان لابد ان ينال نصيبه منها . »

وعبثا حاول الشيخ أن يدخل فى جدال بشأن المسائل الدينية ، وعبثا حاول الشيخ ان يبسط امامه رقعة الشطرنج يحرك عليها حجارتها،

فان المتسول لم يعره أي التفات . ويظهر ان ذكر مراد وقومه ، قد استنفذ وسعه ، واستغرق جهده ، فخلب لبه ، والقى عليه شيئا من الخلابة ٠وجعل يسأل عبد الله اسئلة ، لم يستطع هذا عليها ردا ٠ وكثيرا ما كان يسترجع عبد الله يسأله عن الخصى وعن بذوره ٠

وأخيرا ، وقد وقف على كل مالدى الفتى من الاخبار، قال وهو يتألم من قدمه العرجاء « أى عبد الله، انى اجلس في الطرقات اتلمس الصدقات ، وأمد يدى للرائح والغادى بالسؤال ، تحت وقد الشمس مستهدفا للتراب يثور علىّ من كل النواحي، ولا أشعر بالسعادة والفرح الا حين أجلس عند قدمي مولاي الشيخ فضل ، الذي وفقك الله ، منة منه وكرما ، الى ان تدخل فى خدمته ٠واعلم يابنى ان هذه الحياة وذلك العيش ، الذى حدثتنى عنهما ، هما لدىّ دنيا جديدة ، أو عالم جديد٠ ولقد جعلنى حديثك كالطفل يقرأ فى كتاب جديد، يطالع صفحاته ببشر وسرور . »

قال الشيخ بلهجة الاب الحنون «هذا حقيقى فان تعطشك للعلم لا يمكن ان يروى ٠على أن وقوفك على حياة الرجال ، يتساوي لديك منهم المماليك والمشايخ ، لمما يساعدك على تقدير الامور حق تقديرها.»

قال «حقا ياسيدي الشيخ، وهل لم يكن النبى عليه الصلاة والسلام محاربا ومشرعا ؟ وأننا نفهمه أكثر كلما اتعبنا مداركنا في توجيه الضربات وفى ارتياد المعارك والملاحم،وفى الهيجاء وقد ثار الغبار ، والتقي الفرسان وصالوا وجالوا . »

قال «هذا حقيقى ، ولكنى أسأل الله أن لا أعيش فأرى فى زمنى دما يهرق . ولقد كان عليه الصلاة والسلام ، يحارب الكفار لأجلنا وانى لأرغب من صميم فؤادي ، أن تكون حروبه هذه آخر الحروب. والآن ياولدىّ ، عبدالله ونفيسة ، لقد حان وقت خروجكما ، وان

خالتك يا نفيسة متلهفة عليك الآن تريدك آيبة اليها ، فهيا ياعبد الله الى مصباحك (فانوس) وهراوتك ، وأوصل أختك ، الى دارها آمنة مطمئنة ، ولا تنسى يا ابنتي الحلوى ، خذيها مقابل هذا الحديث الطويل الذي أرغمت على سماعه . »

قالت « الا أنى مع هذا تعلمت منه كثيرا . » ثم لفت الحلوى بسرعة فى قطعة من الورق .

قال المتسول باسما « وما الذى ربحته يا ابنتى ؟ »

قالت نفيسة « عندي على الاقل جواب لخالتى خديجة ، ان هى رغبت فى لومى وتقريعي على مايفرط منى . سأذكر جواب سيدنا آدم لسيدنا موسى ، وسأقول لكل غلطة ارتكبها ، أوخطأ أقع فيه ، أليس هذا مقدرا علىّ قبل ان أولد ، بخمسين الف سنة فلا تستطيع بعد الآن ان ترد علىّ »

قال الفتى « ولكن يانفيسة ... »

قالت « كفى كفى فلست أريد ان أحفظ اليوم فى علم الاصول شيئا ، هيا بنا ، هيا بنا . »

ابتسم الشيخ عندئذ وأغرب المتسول فى الضحك وقال « لطالما كنت أعتقد ، ياسيدى الشيخ أن علم الاصول ليس شيئا عمليا ، والآن قد رجعت الى نفسى ونكصت . يا الله انها تذكرني بأخرى مثلها ، وكان ذلك من خمسة عشر سنة ، فالوجه وجهها ، والملامح هي هى ، أجل بل ومشيتها وجوحها . . لا لا . انى لا أمكث بعد ذلك ، فلقد تأخرت ، ساجىء مرة أخرى يا سيدى ، أتلمس العلم عندك ، من بحرك الطامي ، أما الليلة فاني متعب ، وفضلا عن ذلك فقد ألقى الليل رواقه ، وأسبل ستره ، وضرب فسطاطه ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . » ثم لف جلابيته حول جسمه وراح يتسكع فى مشيته ،

ويسير متمكثا متلوما متريثا .

وانحدر فى الزقاق وهو يقول فى نفسه « ما كان أغرب بحثنا الليلة فى علم الاصول ، والله ما أدرى هل أستطيع المضى فيه ، ولقد قالها الفتى ، لقد قالها ، أن خشخشة السرج ، يتمشى صوتها في مفاصلى ، وتبعث قعقعة السلاح في نفسى ثورة غريبة ، تطرد الدم الى وجهى ، وتأخذنى اليها هزة ، حتي بعد انقضاء خمسة عشر سنة ، وأنا على ما أنا عليه ، من ضعة وحقارة وذلة ومسكنة . لقد ظننت أن ليس فى ذلك من القوة ، مايثير أشجانى ، ويحرك ماسكن من نفسى ومشاعري . ولكن كلمات الفتي جعلت قلبى يثب من مكانه ، وأوجدت فىّ ميلا الى السلاح ، والمبارزة . وهذه الفتاة ، ووجهها ، وحركاتها واشاراتها ، ومشيتها وجموحها ، كل هذا حرك وترا فى قلبى كان قد سكن سنين طوالا .

« يا الله كيف يعود الى كل ذلك لمجرد ذكر الاسماء ؟ فهل يموت مراد من تأنيب الضمير ؟ وأيوب وعمر بك ورضوان ، و ، و ... تلك اسماء قديمة أعرفها واعرف أصحابها جد المعرفة . والبذور ، البذور أيضا ، وهى سبيل توصيل الاخبار . اذن لقد أدرك الرجل كل شىء ، ورجعت اليه مخاوفه في غزو الفرنجة للبلاد . والخصى ، ولم يعادل نصف رجل الا انه أكثرهم رجوله ، ولو انى أعدم من الاسباب مايجعلنى أحبه ، لانه برهن على انه رجل يحنث فى يمينه ، غير صادق العهد ، غير امين فى الود .

« مع هذا فلأ كن على حذر . يدهشنى أن يكون الرجل وقف على شيء . ولكن لقد فات الاوان ، لقد فات الاوان . فلا رضوان ولا مراد ولا أي مملوك على ظهر الارض يستطيع ان يمنع ماسيجيء به الزمن . انى لأسمع وقع حوافر الخيل ، ولجب الجموع ، وهمهمة الرجال

المدججين بالسلاح القادمين من بعيد . اسمعها كأنها بداية الرعد ، يولد من لا شيء ، أو كأنها أول العاصفة تهب على غرة .

« لقد حدثتهم عنها من سنين فما كان منهم الا أن سخروا منى وضحكوا . ولقد ابطأت فى مجيئها بسرعة . »

واستمر يخاطب نفسه على هذا النمط ، وهو يسير من حارة الى أخرى ، ومن زقاق الى زقاق ، حتي وقف أخيرا ، أمام باب كان يقابل بيتا خلا من السكان . ثم تلفت يمنة ويسرة ، خائفا وجلا ، كأنه أسد يبحث عن مربض ، وأخرج من جيبه مفتاحا ، وفتح الباب الضخم ، ومرق منه مروق السهم ، ثم اغلقه وشد رتاجه حذرا محترسا .

الفصل الحادى عشر

جول ليفبر يأتى باسوأ الانباء

مضى على المصريين ، اربعمائة عام ، وهم تحت ذلك الحكم . وشبوا وهم يعتبرون انه لن يتغير ولن يتبدل ، كانما هو قضاء الله المكتوب ، وقدره المقدر .

ولم يعلموا أن نهاية حكم المماليك قد قربت ، وسلطانهم قد قارب أن يزول . وأن محاربا عظيما ، وقائدا كبيرا ، أكبر من اولئك الذين قبضوا على ناصية الحكم في مصر ، قد حول ناظريه ، الى سهولها الخضراء ، ومروجها النضرة ، وتربتها الخصبة .

لقد كانت دلائل ذلك موجودة ، ولكن لم يدركها ابراهيم في قصره - القصر العينى - ولا مراد بين رجالاته ، ومماليكه الاشداء .

لم يكن منهما الا أن جعلا يرقبان بعضهما بعضا ، بعين الحذر والاحتراس ولم يلتفتا ادنى التفات الى الزوبعة التي ستثور من الشمال وكذلك لم يبعث السلطان ، وهو صاحب السيادة الاسمية على البلاد

بكلمة يثير بها وزيره وينبهه . . فقد كان هـذا غرقا فى ملاذه بين قصوره ونسائه فى استامبول ، وذاك مشغولا في جمع المـال لنفسه وتكديسه ، من منفاه ـ مصر ـ فما كان أجمله منفى وما كان افخمه وابهجه!

اما عن الفلاحين فـكانوا لا يعرفون شـيئا ، عن منـازعات امم الفرنجة ومشاحناتهم . وكانوا لا يعرفون من دنياهم الا ان الله قـد اوجدهم ، كرما منه ومنة ، ليعبدوه ـ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ـ فما كانوا يعلمون ان شيئا اسمه انجلترا ، فى الوجود ، ولم يمر ببالهم ذكر أى شىء ، ولم تجر على لسانهم كلمة بونابارت ، التى ما كانت تذكر فيما بعد ، على لسان أى واحد ، حتى ان كان طفلا ، الا ويصحبها الهول والفزع .

وكان الامر على عكس ذلك في أسواق القاهرة والاسكندريه ، حيث تجيء القوافل بالسلع ، من أسواق آسيا وهندوستان ، وحيث ينقل التجار أخبار الفرنجة ، وكيف أنهم يتقاتلون ويتناجزون ، وكيف أن أصوات المدافع تدوي بين السندو بين بو ندشيرى ، تصحبها صيحات المقـاتلة ولجب الحرب ، حيث اشـتجرت الاسـنة ، وتنـازل الفرسان ، واصفرت الالوان ، واقبلت الآجال تفترس الآمال ، فيتشاكل الامر لدي الرائى ، ولا يستطيع التمييز بين المتقاتلين ، يذبحون بعضهم تذبيحا ، ويقتتلون من جراء بلاد ، ليست لأية فئة منهم .

وتحدث القادمون من الشمال كيف ان ايطاليا قد اكتسحتها جيوش الفرنساويين ، وكيف ان البندقية قد سقطت بايدى الغزاة الفاتحين ، وكانت سفنها الى وقت قريب ، راسية فى الموانىء المصرية . كل ذلك قالوه وتحدثوا به ، وفاتهم ان في ذلك ماينـذر بلادهم بالبـلاء الوبيل والشر المستطير .

الا انه مع هذا قد وجد قوم لمحوا بصيصا من نور الحقيقة . نخشى استيفن ، وهو الذي وكل اليه امر الميناء فى بولاق ، ان يذهب منه كل ما وصلت اليه يداه من مال وجاه ، وما استمتع به من ترف وغنى ، ثمنا لدين آبائه واجداده . ووقف الخصى على خبيئة الامر ، فادرك بثاقب فكره ماستلده الايام ، ووصل الى ذلك بطرائق غريبة .

أما صاحبنا جول ليفيبر ، فقد كان لديه من مصادر استقاء الاخبار ، مالم يكن عند سواه . ولذلك كان لديه معلومات عن مجرى الحوادث ، أكثر وضوحا من غيره . فجعل يرقبها وشكوكه فيها تزايد يوما عن يوم . وكان يذهله كيف أن ذلك يؤثر في ماليته ، بعد ان كبرت اعماله واتسعت تجارته .

فلم يكن طمعه وطموحه الى تأسيس بيت تجاري له عملاء في كل مدينة شرقية ، وسفين فى كل ميناء اوربية ، ابعد تحققا منهما الآن . ذهبت آماله وخابت ، وانصرف عن حاجته باليأس والقنوط والفوت ، ينطبق عليه المثل «اخلف رويعيا مظنته :»

وحينما ذكر احلامه وآماله أيام شبابه ، ابتسم ابتسامة لاتشوبها مرارة . ولكن عمل الشركة كان قد أخذ مجرى جديدا ، وانبعثت فيه روح أخرى ، منذ تسلمت مرغريت حسابات الشركة وامسكت دفاترها .

وكان جول ليفيبر ينظر لعمله من وجهة أخري عالية . فانه مزج العمل بشكل غريب بالوطنية ، واعتبر ان شهرة بلاده في مصر ، كائنة فى يديه . وعلى ذلك لم يكن يسمح قط بدخول سلع ، من نوع رديء ، فى محله ، حتى لاتكون سببا فى نقد الناس واستهزائهم بمصنوعات فرنسا .

فلم تكن بضاعته ، لذلك ، بالبضاعة التى يهرع لشرائها عامة الشعب ، بل كانت للسراة الموسرين ، الذين كانوا يأخذون السلع اليوم ، ليدفعوا ثمنها غدا ، كما هى عادتهم .

بدأت مرغريت تغير شيئا فشيئا ذلك النظام . ووقفت على خلق المصريين ، وعرفت كيف تعاملهم بنسق لم ينهجه زوجها ولا جول . عرفت حب القاهريين للفخفخة وادركت منهم ميلا الي المساومة. فحددت الاثمان ومع ذلك كانت تساوم الزبائن الذين تجد فيهم ميلا لذلك . ولم تكن تسمح لاى مشتر ان يغادر المحل على وعد منه بانه سيدفع الثمن في الغد .

ولم تقنع بذلك ، بل انها جعلت تزور نساء البكوات فى بيوتهن ، وتعمل لهن مثلا من البضائع فكن يستقبلنها أول مرة باعتبار أنها (دلالة) من اولئك النسوة المتاجرات. أما فيما بعد فكن يستقبلنها باعتبار انها من كرام الضيفان . ذلك لان هؤلاء النسوة كن بمعزل عن الحياة ومعتركها، ولم يكن لهن من المدارك ما يعادل مدارك الاطفال . يملن الى مرغريت ويحترمنها لاستقامتها وكن كالاطفال، يلمسن باصابعهن ، ملابسها ويسألنها اسئلة غريبة ويفضين اليها بآلامهن ومتاعبهن، التى كانت فى الحقيقة غريبة اذا سمعتها اذن اوروبية، مضحكة اذا وقف عليها نساء الفرنجة.

فمن جرعة للحب تسقيها المرأة منهن لزوجها المعرض عنها ، الى بخور يدفع عنها عين الحسود وشر الحسد، الى رقية تجعلها لا تلد الا ذكورا ، الى غير ذلك من الاشياء التى كن يعتقدن بصحتها ويثقن بها تمام الوثوق.

ولطالما كن يطلبن اليها ضارعات ان تعلق لهن منديلا علي باب زويله ، أو تحضر لهن ماء من صهريج الرميلة ، حيث كانت ترمي جثث المحكوم عليهم بالاعدام ، حتى يستطعن بذلك أن يلدن لازواجهن ذكورا لا اناثا . وما الى ذلك من الخرافات ، التى كانت مرغريت رغم جهودها لاتستطيع زحزحتهن عنها قيد شعرة . فانهن يعرفن مالم تكن تعرفه، ويستشهدن على صحة ذلك بامثلة عدة .

واستطاعت بطريقة واحدة أن تحصل على حبهن لها . ذلك أنه

صناعة الطب وان تكن قد اتقنها قدماء المصريين، الا أنها فى عصر المماليك انحطت فصارت نوعا من الخرافات الخرقاء. فكنت ترى الامراض تفتك فتكا ذريعا بهؤلاء النسوة المترفات، المترعات من النعيم، الرافلات فى الدمقس والحرير، وكنت ترى الموت يحصدهن حصدا، وذلك لتفشى الجهل بينهن، وانتشار الخرافات بشكل مريع فى دورهن.

ولم تكن مرغريت تعرف من أمور الطب الا ما تعرفه كل اوروبية فى بلاد كمصر. ولكن الشيء الذى لم تكن تعرفه كانت تعمل فيه فكرها، محتفظة بالقواعد العامة لقانون الصحة. فكان اذا حل المرض بدار ونزل اليأس بقلوب اهليها، تحثو هؤلاء النسوة التراب على رؤوسهن ويصحن فزعات جزعات: « ارسلوا فى طلب السيدة الفرنجية. ارسلوا فى طلب السيدة الفرنجية. »

وكان ذلك العمل يملأ فراغا فى حياتها، لم يستطع العمل وحده سده. وقد تكون الامومة حدثا فى حياة النساء، أما في حياة مرغريت هيلز فلم تكن الا مجرد عاطفة من العواطف. فكانت ترى فى تجمع الاولاد حولها نوعا من نعيم الجنة. ولقد مات ابنها غرقا في النيل، وتركها الشخص الذى كان موضع عنايتها، ومرمى فكرها، والموئل فى وحدتها، الحبيب المحبوب، واعرض عنها، يعيش عيشة أخرى، له فيها مآرب ومصالح واطماع، لا ترى لنفسها فيها فائدة، ولم تشترك فيها بأى شكل كان.

وجدت أن عزلتها هذه لم يكن لها من الاثر لديه أكثر مما كان لرجائها عنده والحافها عليه فى العدول عن فكره، وعلمت بعد أن محاسن الجديد المستحدث هى كما كانت ولا تزال، أقوى فى اثارة النفس، من تكرار القديم من الملاهى، والاستمتاع بما الفته النفس.

وقد يكون هذا الطبع عند استيفن هيلز مضعفا، لان قوة الخيال

عنده كانت أشد من قوة الذاكرة •

وربما كانت القوة في نظره عزيزة، ولكن الابهة والفخفخة كانت أعز واعظم • وهل كال باستطاعته أن يجد بلدا كمصر، توافق مزاجه من هذه الوجهة ؟

آلمها سماحه لها بتركه، مفضلا العمل تحت امرة دين لا يعتقد فيه • وحرح عزتها أكثر مما لو كان انكر دينه وكفر به، فقد يكون ذلك الانكار جريمة أو خطيئة أما تركه لها وهجرانه اياها ففيه معنى الاهانة، وذلك مانهكها وادنقها، ووقذها وأضناها •

فلما أن تبينت سنه ذلك، بعد آلام واسقام، وتحققته تماما، بعد تجارب وأختبارات، ودت لو تفاتحه هو نفسه فى الامر، وتعترف له به عند استكشافها اياه، تريد بذلك فتح الباب للمصالحة •

ولكنها احجمت اذ أنها لم تجد من وراء ذلك غير الضعة والحقارة، والمهانة والصغار. وعدا هذا فقد كان سعيدا، فرحا مرحا بما هو فيه، فكان بيديه، الى حد ما، الغنى والجاه، حصل عليهما دون مساعدتها له، لا بل على الرغم منها، فقد تركته وكان حظه معلقا فى ميزان القدرة، فلا يصح أن تطلب العودة اليه، في ساعة فوزه وانتصاره.

فمن ذا الذي يصدق فى طهر سريرتها وصفائها، ونقاوة الدوافع لها على ذلك من كل مظنة ؟ لا يوجد من يصدقها حتى استيفن نفسه.

وعلي هذا فخير لها أن تنتظر الوقت المناسب فتبرهن له على حبها له، وكان هذا الخاطر هو السلوى لها في حياتها، يخطر لها اذاما مشت أو جلست، ويشغل ذهنها وهى تبيع الناس سلع ليون.

وتتالت السنون، وقلبت عليها مجنها فعاضتها من نضارة عودها ذبولا ومن سواد عذارها قتيرا، ولم يعد اليها استيفن بعد.

ورأته خلال هذا الزمن كله ، مرة واحدة . فمر بهـا فى الطريق ، وقد ائتزرت بحبرتها وتنقبت بنقابها (يشمكها) ، تروح وتغـدو في المدينة ، وعيناها لاتستقران ، تنظر بهما ذات اليمين وذات اليسار هالها أن ترى استيفن بما عليـه من أردية بهية متأنقة ، وما آل اليـه امره من عظمة وابهة .

وكان اذا مشى ينظر الى المارة ، نظرة البشر والايناس ، تظهر على وجهه الذى أحرقته الشمس فسودت اديمه ، كأنما هو رجل وجد العيش قد طاب له ، وان الحياة راقت في عينيه . فلما ان رأته لم تستطع الظهور له ، بل انتحت جانبا . ووقفت علي عتبة باب ، وجعلت ترقبه ، ويداها تضغطان بشدة على قلبها ، وقد زادت ضرباته ، حتى مر من امامها وسار فى طريقه .

ففي الليلة التى جلس عبد الله فيها في دار شيخه ، يصف للمتسول معقل مراد ومعسكره فى الجيزة ، فـكان لحكايته من الاثر فيه ما كان ، جلست تأكل وبعد ان انتهي العشاء ، وازالت خادمتها السودانية مابقي على المائدة من فضلات وفتات ، قامت تقلب مثلا وردت على المتجر قبل ذلك ببضعة ايام .

وكانت في ذلك اليوم قـد تعبت من كثـرة العمل ، فلم تقلب تلك العينات كثيرا ، ووضعتها جانبا . وغرقت فى لجة من الافـكار ، وجالت بعخها فى كل مجال بعيد ، والقت بها عصا التسيار في النهاية الى زوجها . ولم يقطع عليها مجرى افكارها . الاجول ليفيبر ، جاء ، على غير عادته ، قبل الميعاد ، وقرع الباب قرعا ، قطع عليها هذا التأمل والتفكير .

دخل عليها كما دخل ساعة ان انقذ استيفن مراد بك ، وسدر بصره من الضوء . وهو ينظر خلال منظاره المصنوع اطاره من القرن ، وانحنى امامها وبالغ فى احترامها .

لم تغير هذه السنون السبع شيئا منـه ، بل لقد ازالت منه بعض السمن . وضاع من خديه شيء من استدارتهما . الا انه لازال يظهر عليـه البشر والايناس . وكان وهو يمشي بقفطانه المسترسل وعمامته الضخمة ، لايزال ينظر الى العالم خلال منظاره نظرة الحلم والرأفة .

حيته مرغريت تحية الابنة لابيها ، وجمع هذا اطراف ثوبه ، وجلس متربعا على المقعد ، وقد تنهد تنهد الرضا والقناعة . ووضعت مرغريت امامه بعض التبغ الذى استوردته من انجلترا له خاصة . لان جول كان يحب التدخين في قصبته ويفضله عن كل (سجائر) مصر .

جلس لحظة لايتكلم ، وكانت تبدو عليـه علامات ضجر وقلق غير عادية . وما كادت الخادم تضع القهوة امامـه ، حتي بدأ يتكلم وكأنما كان يجد فى الـكلام انه يجرم اجراما .

قال « ان الحر هذه الليلة شديد . واني ليخيل الى واحد من اثنين : اما ان يكون الجو تزداد حرارته سنة عن سنة ، واما ان يكون ذلك من نذير تقدم السن . وسواء كان هذا او ذاك ، فاني اشعر بالحر اكثر من ذي قبل . » ثم رفع عمامته ، ومسح رأسه الصلعاء بمنديله .

قالت « انك تشتغل كثيرا يامسيو ليفيبر . »

قال « لا كما تتصورين ، فلم اعمل الا القليل منذ اغلق المتجر ظهر اليوم . ولقد نمت الي مابعد العصر ، ولم اذهب هذا المساء الا الي خان الخليلي . واني لارى ان فى المستقبل خفايا سوف تظهر . فهـذه فرنسا تنظر الى مصر نظرة لم اعهدها فيها من قبل . نظرة الطامع فيها ، الراغب فى امتلاكها . ولقد حضر عندى امس ثلاثة من مواطني ، خلال بضعة الايام الماضية ، ولم يشتروا من سلعنا شيئا بقدر ما جاءوا يستفسرون عن الاخبار . وهم كما يقولون من الذين يحبون العاديات القديمة ، وقد جاءوا خصيصا لابتياعها ولـكني اراهم لايفرقون بين الجمل والمسلة .

ومن العجيب انهم يطلبون خرائط ومعلومات عن سكك القوافل التجارية، وعن الآبار وطرائق النقل .

« وأعلم ايضا أن المسيو ماجلان ، وهو قنصل فرنسا هنا كان بين آن وآن ، يرسل تقارير مطولة عن الحالة هنا للحكومة الفرنساوية . وانى لست ادرى سواء أكان مواطنى ، يعدون العدة لهجوم على مصر أم يتلمسون طريقا يسلكونه لمهاجمة الهند . ولا اكتمك ان بالصحف التى تسلمتها أخيرا من فرنسا ، اشارات وتلميحات لمثل ذلك . »

قالت « آمل أن لا يكون سكان البلاد هنا، قد وقفوا على الامر، والا فان مركز الفرنجة هنا يكون محفوفا بالخطر . »

قال « أما عن هؤلاء فلا تخافى ، وانما أقول لك ، انه من مدة جاءنى خصى وألقى على أسئلة غريبة ، وجعل يستقى منى الخبر ، على غرة منى وانى أحمد الله على انى لم اكن أعلم شيئا ، لانى لو كنت أعرف شيئا لبحت له به ، وأنا خالى الذهن عن كل شىء . »

قالت « ربما كان ذلك كله محض حدس وتخمين، ألم تلاحظ يا مسيو ليفيبر ، كيف أن الانسان اذا شك فى أمر ، امتدت شكوكه الى كثير من الأمور ، كأنما هناك جاذبية أو مغناطيس . »

قال « صدقت يامر غربت ، ولكنى لست أدرى لماذا أشعر أن الامر ليس مجرد شبهة أوشك وليس بوسعى ان أدلى اليك بأكثر من هذه الاسباب ، الا انى أشعر فى قرارة نفسى ، ان ستجتاح مصر أزمنة كلها تعب وشقاء . ولقد أحسنت صنعا بالعمل باشارتك فى ارسالى الحوالات الى بنك ليون . »

قالت « ويحسن ايضا أن نرسل كل مانستطيع جمعه من المال ، وان نوقف استيراد ارساليات السلع ، حتي نكون على بينة من الامر . ولا أنكرك أن نتيجة هذا العمل ، خسارة في الارباح لمدة سنة ،

ولكنى أفضل هذه الخسارة عن أن نخاطر فنخسر كل شىء.»

قال جول « ولدينا على كل حال ، مايكفينا لان نعيش عيشة متوسطة في أوروبا ، وقد كان ذلك غير متحقق لنا منذ سبع سنين مضت . كم كنت أود ياسيدتى ، لو تكونين شريكتى فى التجارة قبل ذلك بعشرين سنة . لئن كانت هذه الشركة حدثت ، لكان محل جول ليفيير الآن ، لايضارعه محل من بومباى الى انفرس . »

ضحكت مرغريت وقالت « انك تبالغ فى اطرائى يامسيو ليفيير. »

قال « لا والله ولئن كنت أجد شيئاً آخذه عليك ، فانما هو اقبالك على العمل اقبالا شديدا ،والآن ماذا كنت تصنعين من ساعة ان أغلق المتجر الى الآن ؟ أرى مثلا للسلم منثورة على المقعد هناك.»

قالت « لقد كنت فى دار الشيخ البكرى . »

قال « ذلك الشيخ المسن الذى يذكرني مرآه بأحد المفتشين المحققين الكبار في محاكم التفتيش ، أرأيت مثل صعوبة مراسه ووقاره فى آدمى ؟ ولكن خبرينى كيف حال المريضة ، آمل ان تكون قد تقدمت صحتها . »

قالت « أجل لقد هبطت الحمى . »

قال « الحمد لله ، الحمد لله ، لئن أبلت من مرضها فانما لك يرجع الفضل فى ذلك . »

قالت « لم أتبع فى علاجها غير ارشادات الطبيب لابونى. »

قال « نعم الرأى ما ارتأيت يامرغريت، تفحصين الطفلة مسترشدة بآراء الطبيب لابونى ، وتحدثينه يوما عن الاعراض . ياالجهل هؤلاء الذين يأبون على الطبيب زيارة المريض ! والسبب في ذلك مايرون للنساء من حرمة ، وكأنه لاحرمة للحياة عندهم . فتخطى حجرات النساء جريمة لاتغتفر ، أما فقد الحياة فانه ارادة الله التى لاترد . ماشاء الله ، ماشاء

الله ، هذا هو المنطق لدى هؤلاء المسلمين ، ما أبلههم وما أبعدهم عن محجة الصواب ! وهذا الشيخ وهو من سلالة النبي ، يحفظ القرآن من الفاتحة الى آخر آية ، ومع ذلك فانه كقوه لايفهم شيئاً من هذه الأمور ، قبح هؤلاء الناس وقبحت أراؤهم. »

قالت « وما قولك في انى رأيته مسهدا بالليل . سجد لله فيه خمسين سجدة ، والدموع تهطل من عينيه ، يسأل الله رحمته الواسعة ، متوسلا اليه بالنبي الكريم. »

قال جول « هذا جائز . ولكن يكون مثل الشيخ فى ذلك مثل رجل اشرف على الغرق وهو قريب من اليابسة ، ووقف على الشاطىء رجل من المسلمين ، لا يتقدم ولا يتأخر ، وانما يصيح ويقول ، ياالهى ياارحم الراحمين ، أنقذ بقدرتك المغصوصين ، واشمل برحمتك المكدودين العاجزين ، ونج صاحبي هذا من الغرق ، ياواسع المغفرة . استمع يارب لصراخه ، وانتشله من بين براثن الماء . فاذا ماغمرته المياه وغرق قال : المجد لله بارىء السموات والارض ، والامر له . انه لم ينقذ حياته لحكمة غاب عنا ادراكها . تباركت ياالله . لك منا السمع والطاعة ، والرضا بما تأمر والقناعة. »

وجعل ليفيبر يضحك بعد ان أتم كلامه . ثم سكت فجأة ، كأن فكرا عارضا قطع عليه ضحكه وسروره وجعل ينظر حوله نظرة مضطربة جزعة .

قالت مرغريت وقد نظرت اليه متسائلة « حالك الليلة غريبة يامسيو ليفيبر . لم اسمعك تتكلم قبل الآن ، بمثل هذه الشدة عن الدين الاسلامى. »

قال « لم اعثر قبل الآن على مثل هذا السبب الوجيه والحجة القوية . ان هذا الدين لايلائم واحدا مثلنا ، تربى تربية غريبة ، وله آراء غريبة . وفى رأيي أن هذا الدين ، يسم العقل ويحط من شأنه . وهو بعيد جدا ،

بل وغريب ، بالنسبه لآرائنا من حيث الشرف والاستقامة .»

قالت مرغريت « ماذا بك ومم تتألم؟ »

وكان جول كاثوليكيا متعصبا لدينه ، الا انه كان يحترم دين القوم الذين يعيش بينهم ، مستعدا دائما للتمدح ، ببعض مافيه من اركان حكيمة ثابتة ، كالصوم والزكاة •

لم يجب ليفيبر على سؤالها ، وجعل يتلمس طوق (ياقة) قفطانه .

نظرت اليه مرغريت نظرة المستريب السائل . ثم ظهرت فى عينيها نظرة الذى احس بالخطر ، وادرك بثاقب فكره ان فى الامر شيئا •

قالت « ترى ماذا تحمله الي من الاخبار يامسيو ليفيبر ؟ قل ماالذى سمعت اليوم ؟ » ثم مالت الى الامام تنظر الى الرجل نظرة الخائف الوجل.

قال « يسوؤنى ياسيدتى ان يكون مقدرا على ان احمل اليك انباء السوء ، وانا الذى يود ، علم الله ، ان لايحمل اليك منها ، الاخيرها . ولم يحدث ان جئت يوما ، على كره منى ، كاليوم . وخطر لي ان احجم لولا انى فضلت ان يكون اخبارك بها ، على يدى ومن طريقى ، لاان تعرفيها من آخرين . »

قالت متشجعة « هيا أدل بها الى . أدل بها الى . »

قال « سمعت ياسيدتى ، من رجل في السوق ، يسكن بولاق ، ان مسيو هيلز ، قد تزوج منذ عدة اسابيع ، من احدى قريبات مراد بك . ولقد بحثت الامر ووجدته حقيقيا. » قال ذلك بصوت خافت . واذ لم يسمع منها صوتا ، التفت اليها ليرى هل سمعت مرغريت قوله.

رآها جالسة تحدق النظر فيه ، وذهب من عينيها الواسعتين ، كل نشاطهما . وسكنت حركتها ، وهى مائلة فى جلستها الى الامام على مقعدها . وكان منظرها منظر من تلقي ضربة مميتة قاتلة .

قالت « تزوج ثانية !؟ استيفن تزوج مرة اخرى!؟ »

قال « ليس ذلك بالمهم ، فهو لايؤثر في مركزك ياسيدتى . »
قالت « أخالك غير فاهم ياليفيير . »

ولكن جول كان فاهما وفاهما . عرف أن ذلك معناه ، تحطم كل أمل لها ، وضياع كل رجائها وأطماعها . بل وعلم أن ذلك هو الكسر الذى لايمكن اصلاحه ، والحائل الذى بترما بين الماضى والحاضر . لقد حدث مالاتوهمته ولا خالته ، وانقضى كل شىء .

ولم يستطع ليفيير أن يقول شيئاً ، يعزيها به ويواسيها ، فلم يكن منه الا أن نهض ، يسير في الغرفة جيئة وذهابا ، يستنزل اللعنات على استيفن وعلى كفره بدينه ، وعلى الاسلام الذى يسمح للرجال بمثل هذه الاشياء .

الفصل الثانى عشر

خدمة سرية

تمزق ستر الليل وولى بركنه ، وكاد ينبلج الفجر وينشق عموده . وهب من الشمال ، قبيل طلوعه بساعة ، نسيم بارد ندى ، من الصحراء على أسوار المدينة ، وتخلل سككها الطويلة ، زاحفا ببطء خلال الازقة الضيقة ، متسللا بين الحجرات ، من نوافذها المفتحة ، جالبا معه لذيذ النوم وهنيه ، حيث عاد الساهرون ، من قصفهم ، الى منازلهم آخر الليل ، او اضطجعوا على المصاطب ، ولم يتحرك بعد من القاهريين أحد . ففى مثل هذا الوقت تخلو شوارع القاهرة من الحركة ، اللهم الا من نباح الكلاب ، تطلب طعاما .

جلس فى جامع السلطان حسن ، شخص يرجف ارتجافا بسيطا ، فى ملابسه المسترخية ، وقد أضىء الجامع بمصباح .

أحاطت بالرجل ، مهابة المسجد وبساطته ، وكان فى ذلك الوقت

أحسن مسجد فى القاهرة ، يملؤه بالنهار همهمة الاصوات ، فوق أرضه الرخامية وتحت سـقفه ذى الابراج والقباب . وكان المسجد فى هذه اللحظة خاليـا ، الا من ذلك الشـبح الظاهر فى فنـائه ، ومن موقد المصابيح (الوقاد) يمشى كالشبح فى المسجد ، يؤدى عمله ، متنقلامن مصباح لآخر .

وعبثا حاول المؤذن ، وهو فوق المئـذنة ، المبنيـة من الحجر ، يؤذن فى الناس النيام يدعوهم للصلاة يقول . « حى على الصلاة ، حي على الصلاة ، الصلاة خير من النوم . » فان المدينة كانت هاجعة ، ولم يسمع اذانه الا قوم تنبهوا من نعاسهم لحظة وهم يقولون

« الله أكبر ، لا اله الا الله محمد رسول الله . » ثم ناموا ثانية .

ونام المتسول فى تلك الليلة ، وانما نوم الذى ينتظر نداء .

وتسلل الهواء من الباب ، وتخلل غطاءه الخلق ، فغير الرجل مكانه محتميا بأحد العمد .

نظر اليه موقد المصابيح وكان يوقد مصباحا بجواره وقال «لقد شعرت بالبرد يتمشى في عظامك يا أخى .» فكان جواب الراقد « الله اكبر . » فتركه هذا وعاد بعد لحظة ، حاملا بيديه كيسا خاليا من الخيش قال « لقد لاحظت وجودك هنا منذ ليال عدة ، يزرى ايمـانك بايمان كثير من المسلمين ، خذ هذه والقها عليك ، فمـا هى الا كيس عادى ، أسأل الله أن يبدلك منه ، جزاء اخلاصـك وايـابك ، قفطانا مطرزا بالذهب . »

قال « شكرا لك أيها المحسن الـكريم . »

وقف الآخر كأنما يريد أن يتابع الحديث. الأ أن المتسول ، بعد أن تلفت يمنة ويسرة ، وهو حذر محترس ، نهض متثاقلا ، وجلس جلسة المصلين ، بحيث اضطر الخادم أن يفارقه ، رغم انه كان يريد أن يتكلم .

اتم المتسول واجبه ، وجلس يتمتم بصلواته ، ممسكا بمسبحته ، وكان حبها من العنبر . واذا بشبح جاء يزحف ، في فيء الحائط القريبة وكان يمشي مسرعا دون ان يسمع له صوت . وظهر فجأة ، فكأنما تجسم من الظلمة .

وكانت كل حركة من حركاته تنبيء عن خوف . ولكنه مع ذلك بصق على أرض الجامع ، وسط هذا السكون ، بصاق المتأفف المستخف المزدرى .

تحول المتسول ، وسمع لمسبحته صوت عال . واختفي القادم الجديد فى لحظة وراء دعامة من دعامات الجامع . ولكن المتسول رآه ، فقام في لحظة من جلسته متثاقلا ، واسرع نحو الباب ولحق بالقادم الجديد .

سار الاثنان ، الواحد خلف الآخر ، واتجها الى الناحية القبلية ، حيث ميدان الرميلة ، المؤدي الى القرافة .

وكان على اليمين اسوار الجامع ، بمئذنتيه العاليتين ذاتى الابراج وقبته الكبيرة المستديرة ، التى كانت أشبه شيء بخوذة مملوك . وعلى اليسار كانت ترى القلعة ، ظاهرة فى الظلمة ، تنبعث منها مابين آن وآخر اصوات الحراس الاتراك يصيحون «دور اسكندرال ، أى قف ايها الساري هناك . »

لم يعن المتسول بشيء من هذا ، ولكن الرجل الذي تبعه ، كان يبدو عليه انه يرتجف لكل صوت يسمعه . فيلصق بالاسوار ، محتميا بظلها ، وهو يطيل النظر ، الى البناء الشامخ ـ بناء القلعة ـ الكائن على يساره .

واذ وصل المتسول الى فجوة تحت دعامة ناتئة من البناء وقف حتى لحقه الآخر . فجذبه اليه داخل هذه الفجوة ، ليخفيه عن انظار المارة .

سأله قال « هل احضرت الاوراق ؟ »

قال « هاهي مربوطة على وسطي ياسيدى وكأنما هي نيران جهنم تحرق جسمى . وكم خشيت كلما خشخشت ، ان يسمع صوتها آخرون . وانا اعلم علم اليقين ، انه اذا اطلع عليها احد ، كان نصيبي من العذاب مالا يضاهيه عذاب النار . »

قال الآخر « واذكر المكافأة والأجر . »

قال « اجل اعرف تاج الشهداء الذى سأستمتع بوضعه على رأسى . »

قال بخشونة « وعشرة اكياس من الذهب ، الا تعد شيئا مذكورا ؟ »

قال متلهفا « وهل سينقدوننى اياها ياسيدى حقيقة بعد كل ماقاسيت وخاطرت ؟ »

قال « يدفعونها ! اتظن ان الفرنجة يعنون بعشرة اكياس من الذهب ؟ قل متى غادرت الاسكندرية ؟ »

قال « منذ اربعة ايام . ووصلت القاهرة ليلا فى الوقت الذى كانوا يغلقون فيه ابواب المدينة . »

قال « وهل اعطيت الاوراق التى سلمتكها الى الفرنجة ؟ »

قال « اجل ومعى وصول منهم بذلك واوراق أخرى سلموها . »

قال « حسن . هيابنا فقد أوشك الفجر ان يستبين . »

وسارا فى جنح الظلام ، خلال الحوارى والازقة الضيقة المتعفنة يتعثران فوق اخاديد الارض ، وفوق الادران والاقذار ، ويدوسان على الكلاب النائمة ، حتى وصلا الي باب بيت اختفى نصفه في الارض فوقف المتسول ، وقرعه حذرا محترسا ، قرعا غريبا ، فلم يرد عليه أحد . فقرعه مرة أخرى ، وانفتح الباب بهدوء ، وولجا منه ، وراحا يتعثران فى ظلمة الدار .

اغلق الباب وراءهما ، وارتج زلاجه . وقدح دليلهما زناده ،

واوقدعوداً، فاضاء النور وجهه ، وظهرت لحيته المنبوشة وانفه الغريب .
ولم تكن ملابسه بالملابس الممتازة . بل كانت عبارة عن جلابية قذرة مذرة . وكانت ملامحه الغربية تنبىء عن انه اسرائيلى . وجمع الرجل المرافق للمتسول ، عباءته القذرة حوله ، كأنه خشى ان يصيبها دنس أو نجاسة ، ان هي لامست الرجل .

قال الاسرائيلى « ان الفرنجة قد اعتراهم بعض القلق ، وظنوا ان قد جد فى الامر شيء عائق ، وأنهالوا على سبا و تقريعا ، بالفاظ لا يقولها المسلم لليهودى . »

قال المتسول « اذهب بنا اليهم . هيا . هيا . »

تقدمهما اليهودى ، وازاح استارا جانبية ، فانكشفت عن شقة وراءها ، وصاح اليهودى قال :

« أخواننا الفرنجة ، لقد حضر خدامكم الامناء . »

قال أحدهم بصوت مرتفع « لقد جاءوا فى الوقت المناسب ، علم الله اننى أكاد اموت وأنا فى هذا الحجر الضيق ، واننى لمستاء منه استيائى من وجهك ياسيدى اسحق . ان ذلك لا يتفق مع مزاجى ، كما لا يتفق لحم الخنزير مع معدة المسلم . لعن الله ذلك اليوم ، الذى تركت فيه حجرتى فى الباخرة ، لأجيء الى تلك الصومعة المنتنة الزنخة . »

قال آخر محذرا « احترس فى كلامك ، واذكر انك هنا منصور افندي ، تاجر العاديات . »

قال « العاديات ، لعن الله هؤلاء القوم وآثارهم ، أن في اسحق لى عادية من هذه العاديات ، وفيه الكفاية ، ولست ارانى فى حاجة لرؤية غيره . اننى عند ما تطوعت للقيام بهذا العمل ، لم يكن يسنح بفكرى الا الحريم ، والقصور ، والجوارى . وها انى أرى نفسى فى هذا الجب ، بدلا من ان ارانى فى قصر من القصور ، وبدلا من الحسان ارانى

استعضت عنهم بصاحبنا اسحق، فما أقبح وما ابشع!! »

قال رفيقه « أدخل القادمين. » وكأنه أراد بذلك ان يحول زميله عن هذا الموضوع، الذي كان يظهر أن فيه شيئا من الغضاضة

وكانت الحجرة، كما وصفها الفرنسي، صغيرة حقيرة، أشبه شيء بقبو، لا يدخل الهواء اليها الا من نافذة صغيرة مسدودة تطل على الحارة، وليس فيها من الاثاث سوى بضعة سجاجيد قذرة، ومقعد (كنبة) مكسور، في حين علق في سقفها، مصباح كدر معتم، ينبعث منه دخان غليظ القوام، كريه الرائحة.

وجلس في الركن، على احدى هذه السجاجيد، رجلان متربعان، يلبس كل منهما جلابية، وكان أحدهما قصيرا قوي العضل أحمر الوجه، تبدو عليه سيماء حسن العشرة والصحبة، الا ان عينيه كانتا على الرغم مما يبدو عليهما من البشر والايناس، تنمان عن دهاء وحذق شديدين.

وكان الآخر طويلا نحيفا، خلع عنه عمامته، فظهر من تحتها جبهته الضيقة، وكانت تقاطيع وجهه الطويلة، وعظام خده ذات الزوايا وذقنه الطويلة الشاردة، كل هذا كان يجعل له مظهر اكتئاب، يغاير تمام المغايرة، مظهر رفيقه الدال على البشر والايناس، وكان بلهجته شيء من لهجة الآمر، تدل على انه من العسكريين. »

قال المتسول اذ دخل هو ورفيقه « السلام عليكم. » قال الرجل الطويل بغلظة « وعليكم السلام. »

قال الآخر « دعنا من سلاماتكم، وخاطبنا بلسان أكثر تمدينا. ان هذا السيد، وأشار الى المتسول، يعرف الايطالية، ونحن نعلم عنه ذلك، ومن يدرى ربما يكون أمامه من الفرص مايمكنه من تعلم الفرنسية. » واغرب في الضحك.

قال الاخر محتجا « ولكن من الضروري ان نكون أهل بصيرة

وتعقل . »

قال « بصيرة ، وتعقل ، وهل تظن أن هؤلاء القوم ياعزيزي به مجانين ؟ ان اسحق يعرف عنا كل شيء ، والمتسول ، كما تعلم ، من أهل الذكاء والرأى ، وأما هـذا الرجـل القبطى ، على ما أري من ملاسة وجهه ، فانه بحسب مايبدو عليـه ، يكاد يكون لديه علم الاولين والآخرين . انظر اليه ، تجده كأنما خرج الساعة من أحد القبور الاثرية . »

وجعلت عين الفرنسى الفاحصة تنظر الى القادمين الجـديدين ، وتنظر على الاخص ، الى وجه زميل المتسول ، نظرة الريبة والحذر ، فظهر اليه أضخم الوجه أصفره ، بأنفه المصري المفرطح ذى الاحد يداب القليل ، وبعينيه السوادويين الناعستين وبعظام خـده البارزة بعض البروز ، وبأديم وجهـه الطري الاملس ، فكان خليقا بأن يكون من نسل هؤلاء المصريين القدماء . أدرك الرجل بنظرة الي معصمه ، انه من قبط مصر ، وذلك لمـا على المعصم من صليب أخضر منقـوش (مدقوق)

سأل الرجل الطويل قال « هل جئت بالاوراق ؟ »

فأشار المتسول الى القبطي ، ففك هذا قفطانه ، وأزرار صـدرته ورفع قميصه ، وأخذ حزمة ملفوفة بالقطن كانت مربوطة بحبل ، لف على وسطه ، وسلمها للآخر .

أخذها الرجل الطويل شـغفا متلهفا ، وأوصلها هـذا الى زميله ، فخلع هذا عنها رباطها ، وأخذ منها كيسا مختوما ، ففضه ونظر بسرعة الي مافيه ، فوعى محتوياته ثم قال « حسن ، ان الـكل هنا ومعها وصول الجماعـة ، المنبىء عن تسلمهم الاوراق . » ثم التفت الى القبطى وقال « لقد أنجزت عملك وقمت بالمأمورية خير قيام . » وأخذ من جيبه نقودا ذهبية وجعل يعدها حتى وصل في العد الى مايساوى خمسة أكياس من

الذهب وقال له « اليك هذا وهو نصف ماوعدناك به ، وأما النصف الآخر فستستلمه في اليوم الذي نغادر فيه الاسكندرية . »

قبض القبطى للمال ، وعده بشراهة ، ثم ظهرت على وجهه علامات الخيبة ، والتفت الى المتسول واحتج احتجاجا مرا.

قال الرجل متسائلا « ما الذى يريده؟ »

قال « ان هـذا المبلغ الذي تسـلمه نصف ما اتفـق معكم عليـه ياسيدى . »

قال « صدقت ولـكن هل تظن اننا ، نحن الفرنجة ، بله مأفونون؟ ٠لا٠لا٠ فانني بحجزى الاكياس الخمسة الأخرى أمسك بيـدى خمس ضمانات على اخلاصه وصدقه . »

قال الفرنسى الآخر « اننى أفضل أن تعطى له الاكياس الخمسة الأخري ، وها صاحبنا اسحق مأمون الجانب ، صادق الود ، وكذلك زوجه ربيكا وباقى قبيلة بنيامين ، في مرسيليا رهائن لدينا. »

نظر اليه الرجل الطويل وقال للمتسول والقبطى « تـكرما بتركنا الآن فاننا نريد الخلوة ، وابقيا قريبين منا. » فخرج المتسول وهو يعرج فى مشيته ، يتبعه القبطي وهو يصخب ويلعن حاملا المـال ، ووراءهما اسحق ، وأسدل هذا وراءه الستار وهو خارج. »

قال الرجل ذوالوجه الاحمر « والآن ماذا في الورق ، هل الامور على مايرام؟ »

قال « على مايرام ، لدى الـكولونيل الآن كل الخطط ، مصحوبة بمذكراتنا ورسوماتنا ، وبقى علينا القليل عدا بعض المعلومات الخاصة بالمدفعية التى يستطيع المماليك جلبها الى الميدان ، والترتيب الاخير الخاص بتنظيم الجاسوسية . ولـكن الـكولونيل يريد منك ، أن تمسح الشاطىء الشرقى للاسـكندرية ، وهو نفسه سـيقوم بمسح الشاطىء

الغربي ولقد سار بنفسه في الصحراء حتى بلغ الرحمانية ، وهو يرغب الينا أيضا ، ان نسافر في النهر الى رشيد ، نرقب الامور ونلاحظها في الطريق ، ونكتب عنها ما يعن لنا من الملاحظات . »

قال الاخر متنهدا « لن اسر الا بعد ان ينتهي ذلك اللعب الزرى ويعلم الله أن مايجعلني الصق بالامر ، انما هو مجرد رغبة فيه ، وكم اخشى أن يعلم القوم أمرنا ، ويقفوا على مكنون سرنا. لو انهم علموه لكانت نهاية أيامنا هنا ، هنا في هذا القدر الذى يغلى ، الكائن بين القلعة وجامع السلطان حسن ، ها ، ها ، ماأجمله منظرا ياعزيزى ، حين نجلس نحن الاثنين ، في الميدان ، علي عنقينا المحزوزين! ولا تنس ان زنتي ثمانون كيلو جرام ، وان مجرد التفكير فيها يسبب لى فى الحال دوارا في راسى . »

هز الآخر رأسه ضجرا وقال « لست استطيب منظر هذا القبطى ونظرته . »

قال « صه ، فالرجل صادق في اخلاصه . انه يكره اولئك المسلمين اكثر مما يكرههم يهودي • وهو يحب المال كثيرا • وفضلا عن هذا فان الرجل قد جرى في المسألة شوطا طويلا • قد يبلغ المماليك امرنا ، وقد ينهوا امرهم معنا ان أراد القبطى ذلك ، ولكن لايفتك انهم يلحقونه بنا ، ويقتلونه تقتيلا ، وهو يعرف منهم ذلك جد المعرفة . »

قال « والمتسول ما أمره معنا ، لست ادرى والله كيف يكون سلوكه معنا ، وسلوكنا معه ؟ »

قال « لكل رأيه ، ولهذا المتسول اراؤه وميوله مهما كانت • وعدا كل هذا ، فقد ضمنه لنا المسيو ماجلان ، القنصل الفرنساوى. »

قال الآخر « يعلم الله انى لست ادرى ماذا كنا نصنع بدونه ؟ لولاه لشددنا رحالنا ، وتركنا هذه الديار تنعى من بناها . لقد سألناه عن كل

شيء ، عن اخبار المماليك وعن عديدهم وعددهم ، فكان يجيبنا عن كل شيء بالدقة والاحكام ، لابد ان يكون هناك ثمت نظام فى العمل ، وانى لاعجب من ذا الذى يصله بهذه المعلومات ؟ ونحن علي كل حال قد اتممنا عملنا هذا ، وكلما اسرعنا فى السفر الى رشيد ، كلما كان ذلك الينا احسن حالا ومآلا . »

ثم صفق بيـديه وقال « ادخل يااسحق المتسول علينا . » فدخل وجلس امامهما متربعا .

قال « لقد رأينا أن نسافر الى رشيد ، فمتى نستطيع السفر ؟ »

قال « عند طلوع النهار رأسا . »

قال « اترى من عمل بعض الترتيبات اللازمة ؟ »

قال « كل شيء جاهز معد . »

قال « ياعجبا ولكننا لم نقرر ذلك فيما بيننا الا منذ دقائق خلت . »

قال « فليكن ، وانمـا كان من الضرورى أن نذهب الى رشيد ، وعلى ذلك فالقارب معد ينتظر فى بولاق . »

قال الرجل البدين القوى « حقا ان بمصر اشياء تدعو الى الدهشة والاستغراب ، ووالله لست ايها الرجل الامنها . ربما استطعت ان تخبرني عن الوقت الذى سيجيء فيه الجيش ، وعن المكان الذى ستدور فيه رحى الحرب ، ومن يدرى ربما استطعت ان تخبرنى بالنتيجة الآن . »

قال « انما هى يد الله فوق ايديهـم ، وهو القائد المدبر . »

قال الرجـل البدين « انك ذكرت بولاق فهل لك ان تخبرنا عمن وكل اليه امر مينائها ، لقد رأيت المفتش في يوم وصولى الى هذه الديار ، ولا اكتمك انه نظر الى نظرة لم استطبها منه ، وحينما قلت له اننى تاجر ابحث عن العاديات القديمة ، خيل الى ان عينيه تقولان لى انك كاذب مخادع . »

ابتسم المتسول وقال « انه انجليزى اعتنق الاسلام ، واسمي نفسه اسماعيل افندى . »

قال الآخر وقد بدا عليه القلق « انجليزى ، آمل ان لا يكون قد ادرك سبب مجيئنا . »

قال المتسول « ليس ذلك بذى بال ، والرجل ليس كما تعتقد ، فهو كسل خامل ، سرى فى اخلاقه شيء من خصائص المصريين ، وقد يقول مثلهم معلهش . وفضلا عن هذا وذاك ، قد تزوج بالامس فقط . »

ضحك الفرنسى وقال « انك فيلسوف ايها الصديق . » .

وقال الرجل الطويل « وهل تظن أن هناك آخر قد يختلجه شك في أمرنا ؟ »

قال « واحد على الاقل وهو خصي مراد بك . »

قال الرجل البدين « ياللشيطان، وكيف وصل ذلك الى علم الرجل ؟ »

قال « لست ادرى كيف ، وانما ادرى انه علم بالامر ، بل علم ايضا ان الكولونيل الفرنسى وصل الى الرحمانية ، ويظهر أن للرجل هناك عيونا وأرصادا . »

قال « وماذا كان من أمر مراد بك ؟ »

قال « انه لن يصدق شيئا . ان كل ما يفعله ، اذا اخبره بالامر انسان ، ان يشهر مشمله ويلوح به فى الهواء ويقول دعهم يجيئون ، لاطردنهم والله بحد السيف ، واقذف بهم فى البحر . ما اكثر بلاهته وما أشد حمقه ! » وظهرت على شفتي المتسول علامات الاحتقار الشديد

قال الرجل البدين « أكاد ألمس منك انك لاتحب شيخ البلد . »

قال المتسول « أحبه ؟ الله يشهد بما بيني وبينه . انظروا الى قدمى ياسادة . » ثم عراهما فظهر مابهما من عرج وتشويه .

خرجت من فم الرجلين آهة طويلة ، ونظرا بعضهما الى بعض ، وهزا

رأسيهما علامة انهما فهما كل شيء.

قال الرجل البدين « هل سنراك غدا ؟ »

قال « يحسن أن لا أقابلكما ، وسيقودكما اسحق الى هناك ومعه صناديقكم التى بها ما جمعتم من عاديات . »

قال « حسن ، وبعد هذا ، أليس لك من حاجة عندنا تريد قضاءها أتريد مالا مثلا . لقد كنت لنا ذا فائدة عظمى ؟ »

تقهقر المتسول الي الوراء وانكمش أنفة وتأففا

قال الفرنسي على غير قصد « العفو والسماح. »

وقال الآخر وبلهجته شيء من العظمة ، وكانما بقوله يطلب اليه الانصراف « سأرفع تقريرا مسهبا عن مسلكك معنا الى السلطات العليا . » وقال البدين « انك ، ان قدر عليك ان ترانا مرة أخرى ، فانك لن ترانا بهذا التنكر . على انه ان عدنا ، فلك ان شئت مقابلتنا ان تسأل عن الاميرال ديوبونت ، قائد القوة البحرية . واني ليسرنى ان أراك قريبا ان شاء الله . » ومد يده اليه مصافحا.

تردد الاخر لحظة ، ثم مد يده فجأة وقال « سلام عليكم . » وخرج يتسكع فى مشيته .

قال الرجل البدين متمتما متفكرا « لقد أعياني أمر هذا المتسول. »

الفصل الثالث عشر

دار المتسول

وخرج الموكب للمرة الثانية ، المتسول فى الاول يتسكع فى مشيته يتبعه القبطى ، حتى وصلا مرة اخري الى جامع السلطان حسن ، وقد هرع اليه المسلمون المتدينون ، يصلون أول صلاة . وهنا وقف المتسول وقال انى ذاهب للصلاة .

قال القبطى متعجبا «انك بلا شك كثير التدين .»

قال «ولماذا لا أكونه ، أتريد منى ان أخسر هناء الجنة وسعادة الآخرة ، وأنا الذى عانيت ماعانيت وصبرت ما صبرت ؟ »

قال « وماذا عن خمسة الاكياس الأخرى ؟»

قال « صه انهم سيدفعونها لك فى الاسكندرية ، فالفرنجة ليسوا كالشرقيين . هم لايرجعون فى وعودهم . ولكنى أريد منك ان تسافر الى رشيد معهما . وتصلنى بأخبار الرحلة . فكن فى بولاق الساعة الثالثة ، وحذار ان يراك المفتش الفرنجي . واذا وجه اليك بعض الاسئلة ، فزن كل كلمة تخرج من لسانك . »

مرت على وجه الرجل ابتسامه الواثق وقال «اطمئن فان في استطاعتى ان احادث الذئاب لا الآدميين . لقد آذانى الرجل مرة ، ولكنى آذيته مائه مرة ، ورددت له الاساءة بعشر أمثالها . لقد ألقى القبض على يوما ، على أنا بخائنل القبطي ، ولكنى هصرت قلبه هصرا ، حيث كنت السبب في مامر عليه من أيام كانت كلها شؤما وآلاما . على أنه مع هذا لم يعرف اننى كنت السبب فيه . فلا تخف فليس هو بالرجل الكفء لى .»

قال المتسول «انما قلت ذلك يا أخى ، لان المسألة تحتاج الى كتمان . انظر ، انظر الى النافورة التى ترمى فيها جثة الجناة الآثمة . فان في رؤيتها مايجعلك تحذر الحذر الكافي . هل سمعت بما حدث لرجل وقف على مؤامرة كان يحيك شباكها اسماعيل بك ضد مراد بك . لقد كان للرجل ضلع فيها ، ثم خان صحبه ، ووعده مراد ان يشبعه من الذهب .»

قال القبطي «وهل فعل ذلك ؟ وهل حصل على الذهب؟» ثم أبرقت عيناه بحب الكسب .

قال «فلما انكشف أمر المؤامرة ، وتراكمت جثث القتلى فى القلعة

فوق بعضها ، البسه مراد ملابس مطرزة بالذهب ، وأمر عساكره ان يحضروا الف كيس ذهبا .»

قال القبطي دهشا « الف كيس ! حقا انه في المنح كالسلطان . »

قال « أجل واسمع ماذا حدث . قال له مراد لقد وعدتك أن أشبعك من الذهب ، فقال الرجل نعم وما كان أكرمه وعدا قال واني ماض في وعدي ، معطيك ما وعدتك وباشارة منه ، طرح الجند الرجل على الارض ، وجعلوا يحشرون قطع الذهب في حلقومه ، واحدة بعد واحدة حتى وصلوا الى الف قطعة ، والرجل يصيح ويستغيث ولا مغيث ، وقد اقشعر بدني لدي سماعي صوته . »

ذهب البريق من عيني القبطي .وظهر على وجهه الا كتئاب فصار يتلون كالحرباء ، وقال « ياالهالسموات هل فعل ذلك ؟»

قال «لقد فعله ياأخي ، ورأيته رأي العين فلا تنس ان تكون في بولاق عندالساعةالثالثة : السلام عليكم .» ثم أدار وجهه ، وراح يتخطر في مشيته العرجاء .

جعل القبطي يرقبه ، ووقف لحظة مترددا حائرا . ثم التفت الى القلعة حيث يقيم الوزير التركي ، وابرقت في عينيه السود اوين أشعة الرجاء وبوارق الامل . . ثم استدار فجأة فرأى أمامه الجب الذي ترمي فيه جثث الخائنين ، فسرت في مفاصله رعدة شديدة ، وتملكه جزع أفسد عليه طمأنينته ، فاشاح عنها وقال « لا . لا . لابد ان أذهب الى بولاق . الى بولاق ، الى بولاق . »

وما كاد يمشي حتى ظهر المتسول ثانية ، وجرت على وجهه الملتحي القذر ابتسامة الظفر ، وقال يخاطب نفسه « ميخائيل يريد مخادعتنا في آخر لحظة ، فهل هو ماض في الخديعة ياتري ؟ ولكنه جبان رعديد ، يحب الذهب ويحب نفسه اكثر منه . انه يضع الخطط ويطبخ المؤامرات

ظنا منه أنه بذلك يخدم دينه . ستسود المسيحية على مصر وسيضع القبطي المحتقر المزدرى قدمه على رقبة سيده المسلم . انه يظن ان حبه لدينه ، لا كرهه للمسلم ، هو الذي يدفع به الى مواضع الخطر، ويعرض رأسه للضياع . ويجيء بعد هذا كله حبه لذهب الفرنجة وماهم . وعلى كل حال لا يعنيني الامر . ولميخائيل آراؤه فى تلك الخيانه لبلاده ، ولى رأيي . نحن كلنا أبناء رجل واحد هو آدم وقد يكون لميخائيل غرض اسمي من غرضي . من يدرى ؟ انى أعتبر أنه بجانب حبه للذهب، توجد بعض مؤثرات دينية تبرر لديه الخيانة . ولكني أنا لست أجد من نفسى مثل هـذه الدوافع والمؤثرات . ولست أرغب من حياتى هذه الا ان أجلب الدمار لقوم عشت بينهم ، ومنهم صحبي ومن اليهم كنت أبث شجنى ، وللشيخ فضل أيضا وكثيرين غيره . لقد أكلت عيشم وملحهم فهل يجوز لى أن أخونهم حبا في انتقام شخصى بحت ؟ » ثم سكت لحظة وبعدها قال وهو متحمس متأثر « لا بد أن يكون ضعفى هذا ، وربى ، من الجوع ، والا ماكنت وهنت هـذا الوهن . ولكن ترى هل أنا فى حاجة الى شيء ليقوينى حتى أصل طلبتى ؟ لئن كنت كذلك لابلغن هذا الشيء، ولأحصلن على المرغوب . »

ووصل في النهاية الي الدار التى في الحارة التي ذهب اليها ليلة ان غادر منزل الشيخ فضل . وبعد ان تلفت يمنة ويسرة ، قرع الباب . فتح الباب سوداني عجوز وقال « الحمد لله ان عدت ياسيدى ، فقد خفت ان يكون قد اصابك مكروه . »

قال « وكيف حال السيدة ؟ »

قال « تسأل عنك ياسيدي . يعلم الله انها استفاقت من وطأة الحزن الذي وليها ، واناخ عليها زمنا طويلا . »

قال « وماذا كانت تقول؟»

قال « الحكاية القديمة ياسيدى . تقول اذا ما عاد زوجى من الحرب ظافرا منصورا ، سيجدنى بانتظاره اتلهف شوقا لمرآه . »

اعترت وجه المتسول نوبة الم شديدة وقال « وهل اعددت كل شيء يا اسماعيل فاني متعب وجائع . »

قال « كل شيء مجهز ياسيدى وموضوع على الخوان في المنظره (المندره) . »

دخل المتسول الي حجرة لها باب يؤدى الى فناء الدار . وبعد ربع ساعة خرج منها شبحا غريبا ، علي رأسه خوذة من الفولاذ مرصعة بالذهب ، وعلى وسطه درع يلمع . ممنطقا بحزام اصفر يرفع سرواليه الواسعين المترهدلين المصنوعين من الحرير القرمزي اللون . ويتدلى من هذا الحزام مشمل رصعت قبضته باللآلىء . والتف فوق ملابسه هذه ببرنس فخم ، يليق بالامراء والملوك .

وقف الرجل ، وهو مرتد ملابسه الفاخرة ، بصدره العريض ، وخاصرته الرفيعة ، واطرافه الطويلة ، فكان احسن مثال لبكوات المماليك . الا انه عند ما سار ، ظهر عليه عرج صاحبنا المتسول .

صعد على السلم وسار الى باب اسدل عليه ستار وقال « هل تسمحين لى بالدخول ايتها الحبيبة ؟ » فسمع من الداخل صوت الموافق المجيب ، عقبة وقع اقدام وهفهفة حرير ، وجذبت الستار الى احد جانبيها ، وظهرت على الباب حسناء من حسان الشرق المسنات ، بزخرفها ودلالها ، فكأنها ابنة جفطاح ترحب بابيها وقد عاد من الحرب ظافرا منصورا ، تستقبله ليوفي نذره ان يذبحها ان كتب له النصر .

القت بذراعيها حول عنقه وقالت « ها لقد جئت اخيرا ، وكان قد تملكنى خوف عليك . ولا بد ان تكون الآن متعبا . فدعنى اخلع عنك سلاحك ولباس الحرب . ولكن قبل هذا ، سأقدم لك كأسا

من الشراب (الشربات) أيها العزيز . » ثم اسرعت وملأت كوبا فضية وقدمتها اليه . فشربها وتنهد تنهد الرضى والقناعة قالت « هيـا . » واحتضنته بذراعيها وسارت به الي داخل الحجرة .

ووقع شعاع من الضوء ، تسلل خلال النافذة ، على خوذته المصقولة وعتاده البراق (عدة الحرب) وعلى وجهه المتعب المكدود ، وقد التفت به اليها مطبوعة عليه سيماء حنان غريب شديد ، وحب اغرب وأشد .

وكذلك وقع الضوء على المرأة ، فظهر منها ما لم يكن الضوء داخل الحجرة قد أظهره . واستبان الشيب ، وقد اختلط بياضه بسواد شعرها الاسحم . وبدا للعين التجعد فى وجهها . وتكشفت عيناها السوداوان الجميلتان ، عن ان بعقلها جنة سلبتها نهاها .

حلت رباط برنسه ، وشريط خوذته ، بخفة ورشاقة ، كانها اكتسبتهما من طول مرانها على هذا العمل . وكانت وهي تعمل ذلك تلاطفه وتمازجه. قالت « لقد انتظرتك أيها الحبيب طويلا ، ولقد أعياني الانتظار ما أقبحه وأرذله . وكان يخيل الى كأن الساعات علقت الاثقال بأجنحتها فابطأت فى السير ابطاء قتالا . ولكن له المجد والشكر ان جئتني في النهاية . »

وعندئذ كانت قد خلعت عنه كل شيء فقالت « حسن . والآن اليك قفطانك فهو أيضا بانتظارك . » ثم صفقت بيدها منادية الرجل السوداني وقالت « ان سيدك يريد الطعام فهاته هنا . »

وجلس الرجل على ارض الحجرة متعبا ، يأكل ماتقدم اليه من الطعام . وقامت المرأة على خدمته خلال الأكل . وكانت الحجرة مؤثثة على نمط أثاث حجرة الحريم فى بيت أحد البكوات . بها من السجاجيد أفخرها ، ومن الستائر الحريرية أثمنها ، ومن المقاعد (الكنب) ماغطيت بالانسجة ذات الصور . وكانت تبدو عليها لاول وهلة مظاهر الغنى والترف . وكان وجودها فى مثل هذا الحي الفقير غريبا فى بابه . الا

ان الذى يدقق النظر فى أثاثها يجـد أنه يرى سجاجيد مقلدة ، وان الحرير ماهو الا قطن . بل ويجد عدا ذلك ان بالاثاث ترقيعا أخفى بمهارة .

ولم يكن ثمـة شىء ثمين مما رأيت فى الحجرة ، الا عتاد الرجل (لباس الحرب) وكانت الحجرة مزغولة الاثاث زائفته ، ولعل ذلك كان مقصودا .

وكان فيها من المعانى الخفية مالا يمكن للعين العارية أن تراه .

وكان الرجل وهو فى جلسته هذه ، وعتاده بجواره ، أشبه شىء ببعض مقاتلة الصليبيين جلس يستريح من وعثاء القتال . وكان شعره الاسود الكثيف يغطي رأسه ، اللهم الا جزء صغير في أعلاها ، يكاد يكون حليقا وكان يخاله الرائي أحد القساوسة المجاهدين ، اذا مانظر الى جبهته الواسعة ، وأنفه الافي ، وخديه الغائرين . على أنه كانت عيناه العسليتان ، اللتان كان يظهر منهما بريق النجابة والذكاء ، تنبئان عن حزن عميق ، ورقة متناهية ، كلما نظر بهما الى الواقفة بجواره .

بيد أنه كان يري في مقابل تلك الليونة والرقة ، أنياب تكاد تشبه أنياب الضواري ، وشفتان غليظتان لا يسر العين مرآهما .

لقد كان وجهه يدل على أشياء كثيرة ، وينم عن دفائن عديدة . فكانت قوة التفكير ووضع الخطط ظاهرة واضحة فى جبهته العريضة ، وقوة الخيال مكتوبه فى عينيه الوسنانتين ، وقوة العزم والارادة في ذلك الفك الضخم وتلك الانياب الغلاظ . لقد كان بالاختصار رجلا لايلتوي عن عزمه بسهولة .

قال فى النهاية « ألا تجلسين الآن أيتها الحبيبة ؟ لقد قضيت نهمتي من الأكل ، ولم يبق الا ان أروي حرتى من مرآك ، وحق على بعد تلك الغيبة أن أعود اليك وها قد عدت . »

قالت المرأة شاكة مرتابة « لقد غبت عنى طويلا ، وتركتنى وحيدة

طول هذه المدة ، فغلبني النوم فنمت ورحت أحلم بأحـلام ، وأري رؤيا غريبة ، أسأل الله أن يبعـدها عنى أبدا .»

ثم تلفتت حولها فزعة جزعة

قال الرجل مهدئا روعها متلطفا أيما تلطف « لاتخافى أيتها الحبيبة . لاتخشي شيئا . »

ثم أحاطها بذراعه كأنمـا يحميها من شر قادم وجـذب اليه رأسها وقال « الآن زالت همومك ، وسأراك سعيدة بعـد عودتي اليك ، اليس كذلك ؟ »

قالت « لم يعدلى شيء أرغب فيه أيها الحبيب ولـكن .. ولـكن .. »

ثم تلفتت يمنة ويسرة وقد تجمد وجهها وتجهم وقالت « اخال أني أريد شيئا ، لست أدري ماهو . »

اكتأب وجه الرجل وظهر عليه الألم وقال « هل يروق لك أن اخبرك بالذى حدث لى فى سياحتي ؟ »

قالت « خبرني بالذى حدث لك منذ أن رأيتك آخر مرة ، حين وقفت مع آخرين فوق سقف المنزل . ورأيتك تسافر مع مماليكك وكانت اشعة الشمس تساقط على اسنة حرابكم ، وعلى دروعكم المصقولة اللامعـة ، فترتد الي العـين يخطف سناها البصر . وكان يوجـد منكم الكثير هناك . ولقد رأيتك قبل ان تغيب عن نظري ، تلتفت نحو الدار ، ثم وضعت خوذتك على سن رمحك ، ورفعته وهززته هزة الوداع . »

قال « وقد رأيتك تجيبين على اشارتى بمثلها حيث اشرت لى بمنديلك . »

قالت « وهل رأيتنى ؟ لقد خفت ان لا تكون رأيتنى . قل وكيف كان حال الحملة ؟ »

قال « التقينا بالاعـداء بالقرب من الصالحية ، وكانو أكثر منا عديدا الا اننا أجليناهم عن الميدان ، وفر اسماعيل بك الى سوريا . »

قالت اذن هو يقيم هناك حيث يهاجر المماليك العصاة الثائرون. سيسر مراد بك لذلك ، لان الست نفيسه اخبرتني انه كان يخشي كثيرا ان يثور اسماعيل بك ومماليكه .»

ولدى سماع اسم شيخ البلد تنطق به شفتا المرأة ، قرض الرجل على انيابه حنقا وغيظا وقالت المرأة « ربما عاد اسماعيل بك عند مايجمع حوله عددا اكثر من المماليك .»

ابتسم الرجل ابتسامه صفراء ، فقد انتهى امر اسماعيل بك ، ولم يعد لغاراته واطماعه ودسائسه مجال بعد ذلك ثم أراد ان يغير مجرى الحديث قال « يقال ان الست نفيسه من البارعات في الجمال .»

قالت « ليس يوجد لها بين نساء مصر من تضاهيها حسنا وجمالا . قد كانت متزوجة من على بك والآن تعيش مع مراد بك زوجا مكرمة معززة . ولقد اشترط مراد بك لاشتراكه فى الثورة ضد على بك ، ان تكون نفيسه من نصيبه : واني لاافهم لذلك معنى. بل انني لافضل ان اقتل نفسي بيدي عن ان اقع فريسه بين يدى آخر، واكون قعيدة داره ، وضجيعة له فى فراشه .»

واذ قالت ذلك سرت فى جسمها رعدة .

قال «ماذا بك ايتها الحبيبة؟»

ادارت اليه وجهها تبدو عليه آثار الرعب وقالت « انه حلم ايها الحبيب. مجرد رؤيا رأيتها وأنا نائمة. رأيت في نومي كأنهم قتلوك كما قتلوا على بك من قبل، ورأيت كأني وقعت ، كما وقعت نفيسه ، فى ايدى قاتلك . ولكنى طعنت نفسى بخنجر هنا هنا.» ثم شقت مئزرها الحريرى من عند الرقبة وهي ثائرة مهتاجة، ووقفت أمامه عارية الصدر بادية النهدين.

حدجته بعدئذ بنظرة ثم صاحت به قائلة « انظر ! انظر . وهناك

تحت الندى ظهر أثر جرح طويل اندمل وتجعد . قالت « ياالهى ياالهي ليس حلما ماأرى . » ثم التفتت اليه وصرخت به صراخ من بعقله جنة قالت « يالك من خائن مخاتل هتاك للاعراض سلاب لعفة النساء . تلك ثالت مرة أيها اللعين وانا يخدعني مرآك فاظنك زوجي مصطفى بك وأنت نت القاتل ، لامس مواضع العفة بالقهر والنذالة . »

وانقضت عليه تنشب فيه أظافرها وتعضه باسنانها وقالت « الان عرفت الذى أبحث عنه . رد لى ابنائي . ردلى أبناء الرجل الذي قتلته . » ثم تركته فجأة وأمسكت بمشمل ، قبل أن يدرك منها قصدها هذا وشهرته من قرابه بسرعة مدهشة ، وأهوت به علي رأسه بكل مافيها من قوة .

ولقد كانت حركة قدميه بطيئة ، الا أنه أسرع كالبرق الخاطف والتقط الصنية النحاسية وتلقى عليها الضربة ، وكانت شديدة جداً بحيث ان المشمل نفذ من الصينية ، وغاص فيها مسافة ليست قصيرة.

وقبل أن تسحب المشمل وتطلقه من الصينية ، كان هذا قد أمسك بيده اليسري قبضتها ، واحاط جسمها بيده اليمنى ، فلم تستطع حراكا فى حين جعلت تصرخ فيدوي صراخها فى الدار .

أسرع السودانى اليهما ، ولم يسل سيده شيئا ، بل أخذ المشمل من يدها ، وقادها دون مقاومة الى حجرتها ، في حين جعلت تضرع طالبة أولادها بشكل يقطع نياط القلوب .

الفصل الرابع عشر

أخبار من شمال مصر

قال العلامة المؤرخ والمحقق المدقق ، الشيخ عبد الرحمن الجبرتى امطره الله تعالى بهوامع احسانه وبره ، واسكنه فسيح جناته ، في كتابه

عجائب الآثار في التراجم والاخبار ما يأتى : —

بسم الله الرحمن الرحيم . كانت سنة ثلاث عشرة ومائتين والف أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الامور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الاهوال ، واختلاف الاحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الاسباب ، « وما كان ربك مهلك القري بظلم واهلها مصلحون . »

ففى يوم الاربعاء العشرين من شهر محرم الحرام من هذه السنة ، وهي الموافقة لسنة ١٧٩٨ ميلادية ، خرج الشيخ فضل تصحبه نفيسة وعبد الله ، ركوبا من الباب البحرى للمدينة ، لتمضية هـذا اليوم على ضفاف النيل في بولاق ، بين الغياض والرياض .

والافق مؤتلق السنا   والزهر فياح العبير

وكان عبد الله قد مرض بالحمي ، وكان قلق الشيخ عليه خلال مرضه عظيما . فلما اقترحت نفيسة ، فى احدى زياراتها اليومية له ، قضاء يوم فى الريف ، قابل الشيخ اقتراحها بالرضى والموافقة .

قال يرد على احتجاج عبـد الله علي ذلك « لا لا يا بنى . لا بأس من ارجاء العمل فان اوصالك لا تزال فى وهنها هشـة كالقش . وعدا هذا الم نتم الجزء الثالث ؟ وجب علينا اذن ان نقيم لذلك حفلا . ولقد مضت علىّ سنون عديدة ، لم اذهب فيها الى الريف ، ولم اقض يوما فى الخلاء ، بين المزارع والحـقول وفى الصحراء وفوق اديم النهر . أليس هؤلاء مع هـذا كله ، صفحات من صحف الله ، وهل لا يصح لنا ان نغير الكتب ، ولو يوما واحدا ، ونستبدل كتابة الانسان بما خطته يد الله ؟ »

وقامت نفيسة يشاركها الشيخ ، باعداد الطعام اللازم ، فى حين جعل عبـد الله يراقبها وهو صامت فملأت نفيسة الاكياس بالحلوى

(الملبن) والشراب (الشربات) ودس الشيخ فيها رغم ماقاله ملفا ضخما من الورق المكتوب .

وساروا الهوينا فى طراءة البكور : عبد الله فى المقدمة ، ومعه الكيس (الخرج) فوق سرجه ، ووراءه نفيسة ، تزهو بجلابيتها الصفراء وتتيه بها عجبا ، منتصبة القامة على سرجها . ويجئ الشيخ فى المؤخرة وقد لبس قفطانا ابيض ، واعتم بعمامة خضراء ، تنبعث منها على المارة اشعة متألقة . وكان يقف بين آن وآن ، يشير الي مسجد فى الطريق او بناء يحفظ له فى ذاكرته الواسعة بعض الحوادث المتعلقة به .

ووقفوا برهة بالقرب من البوابة ، وانتحوا جانبا . مبتعدين عن تزاحم الفلاحين ، يدخلون زرافات ووحدانا حاملين الخضر والحبوب الى سكان القاهرة .

وجلس فى فجوة قريبة من الباب رجل ، رث المنظر ، خلق الثياب . فوقعت عين نفيسة عليه . فلما رأته مالت نحو اخيها ، وجذبته من ردن قفطانه ، وقالت « انظر يا عبد الله . اليس ذلك الرجل القابع هناك هو صاحبنا المتسول ؟ »

نظر اليه وسرعان ما ترجل وذهب اليه وقال « السلام عليكم يا والدى . قل ماذا اصابك ، هل نزلت بك نازلة او انت تشكو مرضا ؟ »

صحا الرجل من خموله وقال « هذا انت يا عبد الله . ان حرارة تحيتك لى قد اضاعت برد هذا الصباح . وهذى اختك ايضا . سلام يا ابنتى . ان عينيك تلمعان فى الظلمة فيري لهما بريق فكأنهما كوكبان صنوان . واستاذي ايضا الشيخ فضل ؟ تري هو تارك المدينة ؟ كنت اظن انه ما من شىء يستطيع أن يجعله يهجر كتبه واوراقه . وأعلم انه يواصل الدرس والقراءة ، حتى وان وقف العدو ببابه أو قد اشتعلت النار بداره . »

ابتسم الشيخ وقال « كأنك تضرب الامثال بكلامك ايها الصديق

فلم افهم معنى ملاحظاتك عن الاعداء وترك المدينة . انما نحن ذاهبون الى الخلاء لان عبد الله كان مريضا ، ولا يزال يلقط الطعام كما يلقطه الطائر. ولا بأس من ان اقول لك اننا اتممنا الجزء الثالث . وعلى ذلك يصح ان نحتفل بذلك .»

قال « اجل وبعد رمضان يأتي العيد اليس كذلك ؟ انني احسدك يا سيدي الشيخ على جدك فى العمل ، وعلى من برفقتك .»

قال اما عن العمل فلست اجدنى بحاجة للكلام . واما عن مرافقي فانى اقدم لك قسطا فيها . فهل لك فى المضى معنا ؟ اننا ذاهبون الى ما بعد بولاق . فأت معنا فلدى الكثير مما اريد ان اناقشك فيه ، وابحث فيه معك ، حتى رسم الخطة لوضع الجزء الرابع . »

قال المتسول مهتما « انت ذاهب الى بولاق ؟»

قال عبد الله « ومع هذا فانى اقدم لك حمارى . وساركب مع نفيسة على حمار واحد.»

لم يتكلم المتسول بعد ذلك ، بل امسك اللجام ، وقبض على القربوس وقفز على البرذعة ، بخفة ورشاقة غير عاديتين .

قال عبدالله « لك وثبة المملوك يا ابت في ركوبك .»

قال متمتما « يا الله ان للفتى عينا حادة نقادة. » ثم قال بصوت عال « لست اعرف يا بنى الطريقة المصيبة من الطريقة المخطئة ، لانني لا امتطى الدواب الا نادرا .»

ومرق الكل من البوابة ، وساروا الهوينا فى العراء ، على ضفة النيل العالية .

وكانت ترى الحقول على جانبى النهر ، بعد ان جمعت منها الحنطة ، جافة ، شققت الشمس تربتها تنتظر الفيضان الذى سيغمرها عن قريب . وعلى اليمين كان جبل المقطم الاشمط اللون ، يشطره الجبل الاحمر

بجمرته القائمة . وعلى اليسار كان يجري النهر وقد انخفض ماؤه ، ووقفت ساريات الفلك فيه عارية فى الهواء ، كأنها نابتة في تربة الحقول ، لا بارزة فوق سطح النهر .

سألت نفيسة قالت « وماذا كنت تريد ياسيدى حين استفهمت عما اذا كان الشيخ يهجر المدينة ؟ »

قال المتسول « ألم يسمع سيدى الشيخ اذن بالاخبار الواردة من الاسكندرية ؟ »

هز الشيخ رأسه وقال « لم اغادر البيت الا قليلا منذ مرض عبدالله . »

قال « يشيعون ان الاسطول الانجليزى حضر هناك للتفتيش على الفرنسيس . وكان ذلك فى اليوم الثامن من شهر محرم الحرام . فلما وجد ان الفرنسيس لم يحضروا عاد راجعا . وانك لتعلم ان الفرنجة فى حرب طاحنة بعضهم مع بعض . »

قال الشيخ « بل سمعت شيئا من هذا ، فاني قابلت فى المكتبة ، أحد علماء المسلمين الهنود وقد حدثنى ببعض الشيء عنها . ولقد تكلمت معه طويلا في الموضوع . وانى لاذكر من حديثه كل ما كان خاصا ، بتعليم بعض مسلمى الهند ، ذوي المناصب العالية . ولا اكتمك انه ادلى الىّ ببعض احاديث الحرب ، ولكنى نسيت من هم المحاربون ، وعلام يتحاربون . »

قال المتسول « ربما كانوا يطاردون بعضهم بعضا . ولكن سمعت أن الفرنسيس يدبرون حملة يرسلونها على مصر . »

ضحك عبد الله وقال « ما احمقهم وما أخرقهم رأيا ! ان المماليك يدوسونهم باقدامهم ، فيحيلونهم سحيقا جرزا . ثم الا يعين الله المسلمين فى حربهم مع الكفار ، وينصرهم عليهم ؟ »

قال المتسول « ومع هذا فقد طرد المؤمنون من بلاد الاندلس »

قال الشيخ « تعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا · ان لله حكمة بعيدة الغور ، وطرقا لاتستقصى. مع هذا فانى ادعو الله ان لايمد فى أجلى حتى ارى حربا ضروسا تشتعل حتي مع الكفار . »

قال عبد الله « ولكن كلما كثرت بينهم الحروب يا ابت قل عددهم . »

قال الشيخ « كلهم يا بنى عبيد الله الواحد القهار . »

ومروا فوق اكوام التراب ، التى تفصل ما بين بولاق والقاهرة . ووصلوا فى النهاية الى ضفة النهر . وساروا في محازاتها مارين بمنزل صغير ، اقيم وسط حديقة تشرف على النيل . »

وكان هذا المنزل ، هو المنزل الذى سكنه استيفن مع مرغريت ، وكان عثمان المملوك الفتي يؤمه ليتعلم اللعب بسيوف الفرنجة . ومرت هـذه الفئـة الصغيرة بالدار غير مكترث بها . ولو ان اثنين منهم ، كان يفيض قلبـاهما بشرا لانهما يعرفانها حق المعرفة ويذكرانها بكل انواع التبجيل .

ومروا فى طريقهم بجامع على ، مواصلين السير بجانب النهر ، حيث الاساكل واحواض بناء السفن. فوقفوا على الشاطىء لحظة، شاهدوا فيها حركة العمال وضوضاءهم . ثم ذهبوا الى دوحة اقيمت فوق ساقية قديمة . وهنا جذب عبـد الله عنان حماره وقال « الا تجدون ان هذا المكان يصلح للراحة ؟ هناك ما يصلح ان نستظل به من الشمس ، فضلا عن ارتفاعه عن سطح النهر مما يجعـله ندى الهواء ، بليله وطريه . وعـدا هذا فاننا نستطيع ان نري العمال ونحن نأكل . »

وافق الكل على ذلك . وفتح عبـد الله ونفيسة أكياس الطعام . ومدا السماط تحت ظل الاشجار . ووضعا امام الشيخ والمتسول رغفانا كبيرة رقيقة ، وصحفة كبيرة ملاى بالفول المدمس والزيت . ووقفا وقد وضعا ذراعيهما على صدريهما ، سكوتا صابرين متأدبين .

قال المتسول اجلسا يا ولدى وشاركانا فى الطعام .»

قال عبد الله « لا بأس من وقوفنا لا باس واسمح لنا ايها الوالد ان نقف للخدمة . ألست ضيفنا ؟» وظلا واقفين حتى اتم الشيخ والمتسول الطعام.

قالت نفيسة هامسة ، وقد مضى الشيخ والمتسول فى حديثهما غرقين فيه « ما كان انبهك يا أخى فى رفضك الجلوس معهما . فلو انك كنت قبلت دعوة الرجل ، اذن لكنا ما استطعنا ان نأكل الكفاية لأنه ليس من المستحسن ان نبقى على المائدة فى حين قد اتم البعض طعامهم. ولا يفتك ان الشيخ كان يزدرد طعامه ، كانما يؤدى واجبا فقط . اما صاحبنا المتسول فانه يريد ان يصوم الدهر كله . ويرغب فى ان تكون ايامه كلها كأنها شهر الصوم .والآن فليس من حاجة الى الاسراع فى الاكل ياأخى . »

قال عبد الله « ما فكرت فى ذلك قط يا اخية ، وانما كان ذلك محض اكرام منى للضيف . ومع هذا فما دام الامر وافق هوى منك فهذا ما كنت ابغيه . »

قالت « وما الذى بالمتسول اليوم ياأخى ؟ ار في عينيه بريقا غريبا وارى انه كثير الهم لا يلتفت لقول محدثه . ترى ما الذى كان يصنعه هناك فى باب الحديد ؟ يخيل الى انه كان يرقب شيئا. »

قال الفتى موبخا « ليس من اللياقة فى شىء يا نفيسة ان نناقش الضيف فى امره ، ونستجلى مكنون سره . »

قالت « أليس هو صديق لنا قبل كل هذا ؟ وهل فاتك ان الصديق للصديق هو الأخ المواسى ، يسر لسروره ، ويغص لآلامه ؟»

قال « أخشى ياأخية ان تكونى ممن يحبون الجدل ويتعشقون الحوار . أخاف ان تكوني من اولئك القدريين ، الذين يخفون الحقائق

ويسدلون عليها ستارا ينسجونه من الكلام والسفسطه.»

قالت ضاحكة «حقا لقد صرت شيخا ولما تتعمق بعد فى العلم التعمق اللازم.»

وكانت النقطة التى جلسوا فيها تشرف على الضفة الأخرى لشاطيء الجزيرة. والى الجنوب الغربى منهم وقفت اهرام الجيزة شامخة الانف. وبأسفلهم مجرى النهر، وكان منسوبه منخفضا وكان فى جريانه أشبه شيء بالزجاج المنصهر، يلتمس حول القوارب وقف فيها البحارة (المراكبية) بجلاليبهم الزرقاء، يؤدون أعمالهم وقد جعلوا يصرخون ويصخبون.

وجلس عبد الله ونفيسة يزدردان الطعام بشهية وقد اتجه ظهراهما الى الشمس.

أما الشيخ فقد أثر فيه هواء الخلاء فاتكأ بظهره على شجرة، واغفى اغفاءة واهتزت من جرائها رأسه. ولم يؤثر فى المتسول صحو النهار ونقاوة الهواء. وجلس متربعا فوق الجزء الاكثر نتوءا من الضفة. وكان منظره يدل على أنه يرقب بدقة ماكان يجرى أمامه وأظل عينيه بيديه أكثر من مرة وبعث بنظره الى الضفة المقابلة.

نهض من جلسته مرة واحدة، فانزاح عنه خموله كما تنزاح العباءة، ونفض عنه غبار الكسل. وكان ذلك حينما سكتت فجاة أصوات العمال، كما تسكت أصوات صغار الطير، حين ترى بازيا يطير فوقها. واذ قام من مكانه أطل من حافة الضفة على مايجرى تحته.

رأى رجلا على رأسه عمامة وقد ارتدى معطفا قصيرا وسروالين واسعين، يترجل عن جواده. ثم سار يفتش على العمال.

قال المتسول «انه المفتش الانجليزى ظننت من طريقته فى الركوب أنه أحد المماليك. ماأظرفه رجلا! وانى لست أدرى ماالذى هو صانعه فيما بعد. لقد اكل عيش مراد وملحه، ترى هل هو باق ليشرب الكأس

حتى الثمالة ؟ انه ارتد عن دينه واعتنق دين الاسلام ، فهل يلصق بالرجل الذى أغناه من فقر وأشبعه من جوع ؛ انه عدل عن الكثير ، ترى هل سيرضى بالقليل ؟ من يدرى ، قد يكون ذلك ، ومانحن كلنا الا بله مجانين . »

اقترب العصر بكسله وهجوعه ، ولا زال الشيخ في نومه وقد مالت رأسه على صدره . يتخلل نومه ، تمتمته بالصلوات ، وذكره لبعض ماجاء فى كتابه الذى وضعه ، ونام عبد الله نوما عميقا ، وكان لايزال منهوك القوى من مرضه ، متخذا من ذراعه وسادة لرأسه فى حين جلست بجواره نفيسة تطرد عن وجهه الذباب ، بمذبة (منشة) من سعف النخل ، أمسكتها باحدى يديها ، وأمسكت بالاخرى قطعة من القصب .

وحلقت الغربان والحدأ ، وجعلت سابحات الطير تسجع وتهدر وقد عادت من الحقول الى أوكارها فى أعالى الاشجار . وكان الوقت بالاختصار وقت كسل وخمول ، ينفث فى الناس روح الكسل والخمول فلا غرابة ان يتولد من توالى مثل هـذا اليوم على القوم عبارة (معلهش بكره) فهى بلا مراء انحدرت من مثل ذينك الابوين .

سمع وسط هـذا السكون المخيم صوت وقع حوافر جواد فوق الارض اللينة يعدو مسرعا لايلوى على شئ . فكان لا يسمع الاصوت الراكب يقول « هيا . هيا . » أو « اسرع . اسرع . » فيخيل للانسان ان الراكب كأنما يعدو للحصول على ملك واسع ، معرضا نفسه بسرعة الجرى الى الموت المحتم .

وجعل الشيخ يلغط فى نومه ويهمس . والتفتت نفيسة تصغى متلهفة مشتاقة ، ووقفت أسنانها البيضاء لاتقضم القصب وتمصه . أما صاحبنا المتسول فقد ظهر ، وقد مالت رأسه الى الوراء ، كأنه جواد حروب يتلمس بمنخريه رائحة البارود ويبحث بعينيه عن الملحمة وقد

اشتعلت الحرب ، وأطلق ناظريه ناحية الطريق الممتد من الارض الواطئة الى الشمال .

وما هى الا لحظة حتى ظهر فارس صاعدا بجواده على المنحدر ، وقد ثار الغبار على برنسه الموشى بالذهب . وظهرت آثار الوحل على سرواله الواسع الغرق بالعرق . وكان وجه القادم صغيرا الجرم مستطيلا يظهر عليه العبوس ، الا ان عينيه ظهر فيهما البشر اذ رأيا بولاق وأحواضها .

وكانت فرسه لاتزال غير متعبة ولا مكدودة ، تلهث فتهتز خاصرتاها ، وانتفخ منخرها ، وامتدت رقبتها من الاعياء والتعب وكانت بالاختصار فى آخر رمق من النصب . الا انها مع ذلك تعدو وقوتها لاتقهر رغم ان مظاهر التعب كانت تبدو على عينيها الحادتين .

وكان الرجل ينحنى فوقها ويهمس فى أذنها كانما يضرع ويتوسل . فلا تجيبه بغير المضى فى السير بأقصى سرعة . ثم عثرت فجأة وهى تجرى صاعدة فوق المنحدر ، فترجل عنها وأمسك بالعنان وجرى بجوارها .

رأى المتسول منه ذلك فهز رأسه اعجابا وقال « فرس كريمة وراكب أكرم . » فلما اقتربا منه قال

« السلام على سعادتكم انك اليوم تسرع فى العدو بفرسك. »

القى عليه الراكب نظرة وتابع السير دون ان يجيبه بكلمة .

وأيقظت نفيسة عبد الله ، فصحا من نومه وجعل يفرك عينيه . واذ ذاك مر الفارس بجواره . نظر الفتى الى المملوك ثم نهض واقفا وقال « عثمان يمر بنا دون السلام علينا ؟ »

نظر هذا اليه ولم تبد على وجهه أية ظاهرة من الظواهر. ثم مرت على فمه ابتسامة خفيفة تدل على سروره من أن عبد الله عرفه .

وأسرعت نفيسـه الى جرة ماء (قلة) كانت بجانبها وصبت فيها بعض الشراب (الشربات) وقدمتها له . فأمسكها بكلتا يديه ورفعهـا الى فمه وكرع مافيها مرة واحـدة ، وقال شاكرا ممتنا اذ رد الجره اليها فارغة « فليجزك الله يا أخية على ماقدمت الى . »

قال عبد الله بعدئذ « هل من سوء يا عثمان ؟ »

قال « جئت بانباء لشيخ البلد من اسكندرية ، وقد غادرتها أمس عند الغروب . » ثم قال مخاطبا فرسـه « الى ياعزيزتى يجب علينا ان لانتوانى بعد ذلك . » ولم يزد على ذلك كلمة . بل ذهب اليها وامتطاها وراح يسرع السير فى المنحدر الضيق .

قال المتسول لاغطا « من اسكندرية فى خمسة عشر ساعة ؟ انه لم يسترح لحظة . لست أعرف الا حصانا واحدا يستطيع ان يفعل ذلك وقد كان كميتا أيضا مبقعا . »

وجعلوا ينظرون الى المملوك وقد سار يطلب قاربا . ورأوا المفتش الفرنجى يفد للسلام عليه . وبعدها اقترب منه قارب جاء من الاسكلة .

وأخذ المملوك وعاء وغمره فى النهر فامتلأ وقدمه الى فرسه الى ان شربت الكفاية واذ ذاك كان القارب قد وصـل فقفز اليـه وحمل فرسه اليه .

وقفز الفرنجى أيضا وجلس فى القارب . وامتـلأ شراع القارب بالريح وانتفخ . وكان الريح يهب من الشمال فاندفع القارب يجرى الى الجيزة سابحا على النهر . وسرعان ما اختفى عن الانظار . وصار كالنقطة فوق سطح الماء .

الفصل الخامس عشر

مجلس الحرب

كانت مدينة القاهرة عصر هذا اليوم ، ملأى بالجلبة والحركة . ولم يكن قد جد أمر ملموس . ولكن كان يبدو علي المدينة أن أمرا غير عادي قد أقام المدينة وأقعدها .

واندفع رجال مراد يتسللون فى الطرقات ، لايلوون على شئ ولا ينظرون الى شئ مما هو جار امامهم .

أما السكان فكانوا دهشين لايستطيعون التنبؤ بشئ . يجتمعون جماعات جماعات يتحدثون ويتشاورون ، فى حين أسرع التجار الى اغلاق متاجرهم وحوانيتهم ، وكأنما علمتهم التجارب ذلك . فمن يدرى ربما اشتبك ابراهيم ومراد فى عراك آخر . وليس من الحكمة ان تظل متاجرهم بما فيها من سلع عرضة للقوم وقد نادى منادى الحرب بينهم .

وسرعان ما امتلأت الشوارع بمشايخ الازهر وعلمائه ، ذوى النفوذ بين الأهلين ، ركوبا على حميرهم يقصدون البوابة القبلية . ووراءهم قاضى القضاة فى موكبه الفخم ، يتلوهم بكر باشا وزير السلطان وممثله فى مصر ، يحيط به حرس من الانكشاريين . وكان قد غادر القلعة ، هو وركبه من باب العزب ، قاصدين ابراهيم بك فى قصره (القصر العينى) الذى لاتنقطع السفن والقوارب بينه وبين الجيزة جيئة وذهابا .

وحضر نحو العشرين من بكوات المماليك الى مجلس الحرب سراعا بعد الدعوة التى وجهها مراد بك اليهم . وهناك فى داره عقد مجلسهم .

وكان من المظاهر الدالة على عدم الاطمئنان فى تلك الازمنة ، ان حضر كل واحد من هؤلاء البكوات المماليك مسلحا بقربينته ومشمله. لقد كان يحف بهم الخطر من كل جانب ، وكانوا كثيرى الشك شديدى الريبة ، فلم يقبلوا ان يؤخذ على غرة . وقد تكون هـذه الانباء التى وصلت اليهم ، على مابها من هول ، حيلة من حيل مراد ، أو دسيسة من دسائس ابراهيم .

وترأس بكر باشا الجلسة ، باعتباره وزير السلطان . وكان فى الحقيقة ونفس الواقع لايقام له وزن بجوار مراد وابراهيم .

وكان الاختلاف فى طبيعتى شيخى البلد ، والتباين فى خلقيهما ، موضع درس واستقراء . فان وجه مراد العبوس اشتدت عبوسته عن ذى قبل ، وأبرقت عيناه السودا وان من التأثر واهتياج النفس . وكان الانسان يطالع فيهما ، اذا نظر اليهما ، التشوق للحرب القادمة والترحيب بها ، وذلك من نظراتهما القاسيتين ، كما ان صوته العالى الخشن كانت تحدوه عاطفة الميل الى القتال .

وأما ابراهيم فقد جلس صامتا رزينا يخط لحيته بأصابعه ، يصغى الى مراد وهو غير متأثر بما يقول . الا انه مع ذلك كان حريصا يسمع بأذنيه كل شئ ، ولا تفوت عينيه حركة من الحركات . يهز رأسه هزة الوقار ، اذا ماوافق ، ويجمد لايشير بشئ اذا لم يوافق موضوع المناقشة هوى منه . فما كان أخطرهما رجلين ! أولهما طائش قاس كثير الاندفاع عقلا وجسما ، وسيفه معد دائما للمبارزة والالتحام . أما الآخر فكان حريصا حذرا يحب استعمال الحيلة والدهاء ، ويميل الى الطرائق السرية الخفية . ينتهز الفرص ، عذب اللسان حلو الكلام ، لايفارقه خنجره طرفة عين ، يخفيه تحت برنسه الكبير .

وجلس بجانب الاول منهما الالفى بك ، ومحمى وكذلك لانه

اشترى ألف بندق. والبندق قطعة من قطع العملة الذهبية استعملت أولا فى القرن الثالث عشر وقيمتها نحو خمسة وأربعين قرشا صاغا تقريبا . وبجواره على بك الطرابلسى . فى حين وقف عثمان وراء مراد يحمل سيف مراد . وتلك ميزة اختص بها عثمان دون سواه من المماليك ولم يشأ ان يتركها لسواه رغم ما كان فيه من نصب واعياء .

وجلس بجانب ابراهيم بك أيوب بك الدفتيدار . وكان فى يوم من الأيام صديقا لكل من الزعيمين ابراهيم ومراد . ولذلك وقف وقفة المحايد بينهما فلم ينضم الى هذا أو الى ذاك . وكان معروفا لدى المماليك بأنه أشجعهم ، وبأنه أستاذ فى الحروب الغير النظامية ، لايباريه انسان في صنعة السيف أو المصاولة بالحراب . وعدا هذا وذاك فقد كان محبا للاطلاع ، يقرأ الكثير من الكتب ، صديقا ورفيقا للعلماء ، في طباعه شيء من التصوف ، جلس صامتا غرقا في أفكاره ، فى حين رفع مراد عقيرته بالصراخ ، بصوت أجش ملئ بالحماسة ، يخطب في الحضور مدليا اليهم برأيه .

قال مراد بك « لقد سمعت ياسيدى الباشا وأنتم كذلك ياحضرات البكوات ، الانباء الغريبة التى حملها الينا من الاسكندرية ، مملوكى عثمان السليقتار ، والتي لخواها ان الفرنجة الملاعين ، قد رسوا بسفنهم هناك ، وتسللوا في المدينة ، يغشونها كالجراد في الوقت الذي غادر عثمان فيه الثغر ، وها هى رسالة السيد محمد كريم محافظ الاسكندرية وفيها يقول ان الفرنجة انتشروا حول المدينة كالجراد ، علم الله انهم سيندمون على ذلك ، لست أطلب الا خمسة الاف مملوك فقط وأنا أعاهدكم انه لن يعود كلب منهم الى سفينته حيا . »

قال بكر باشا « لسنا نشك أبدا فى شجاعتك ، وانا لنعرف أيضا انه لاشيء يمكن ان يقف فى وجه المماليك ، ولكن مسألة اليوم تخص

مولاى فى اصطنبول . يجب أن يعلم جلالة السلطان ان الفرنجة قد اعتدوا على حرمة أملاك جلالته.»

قال مراد متهكما « أجل فليعلم ذلك بكل طريقة ممكنة ، ولكن قل لى أى مساعدة يستطيع جلالته تقديمها لنا ، وقد يستغرق الرسول في الوصول الى جلالته أياما عديدة ، ويستغرق وصول جيش تركي الينا أسابيع وشهورا ، وهاقد مضى من الزمن أربعمائة عام ولم يصل بعد الي الديار المصرية جيش تركى . »

قال ابراهيم بك برقته المعهودة « ان ماتقوله لكثير يامراد بك ، وانك لتدفع بالغير الى عدم مشاركتك فخار النصر ، وانى لا أرى من المستحسن ان تعرف آراء جميع البكوات قبل ان نخطو أية خطوة . »

والظاهر ان ابراهيم بك خشى ان مراد بك بهؤلاء الخمسة آلاف قد تدفعه زهوة النصر الى الرجوع بعسكره عليه فيقهره ، قال يخاطب أيوب بك «وما قولك يا أيوب بك؟»

قال « اننى يا ابراهيم بك لا أرى كثيرا فى الظلام ، ان امامنا متاعب وأهوالا ، ومستقبلا ، مظلما ، وعلينا أن نعد العدة لذلك ، ويجب أن ندعو ، كما قلت أنت ، جميع البكوات ، وان نبعث للبدو بما نريد ونثير البلاد لكي نضيق الخناق على الفرنجة ان هم رأوا ان يدخلوا القاهرة فاتحين ، وهيا نرى مالدينا من الميرة والذخيرة وما بالترسانه من المدافع والبنادق ، وما بأحواضنا من قوارب وسفين ، لانه لابد أن نرسل المشاة من جيوشنا بحرا ، وعلينا ، ان تقدموا ، ان نشاغلهم فلا نترك لهم وقتا للراحة ، وان نتجنب الدخول معهم في معركة فاصلة نراوغهم كما راوغ بيبرس جيش الفرنجة بالمنصورة حيث اسر ملكهم . »

قال مراد « أرح نفسك من هذه الناحية ، انهم لن يحضروا الى القاهرة واننا سنقذف بهم الي البحر ولم يكونوا قد خرجوا بعد من

الاسكندرية . »

قال أيوب بهدوء ورزينة « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ، ولكني رأيت رؤيا منذ عشرة شهور أخبرت بعضكم بها قبل الآن ، رأيت أن الفرنجة قد جاؤا ديارنا ، ولم أر المماليك قد داسوهم تحت أقدامهم ، أو طردوهم وقذفوا بهم الى البحر ، بل انى رأيت فرسانهم تعدو مسرعة ، ورأيت نفسى ملقى على الرمل ، وبيدى مشمل مكسور وثيابي غرقة بالدماء . »

وكان في لهجة الرجل شيء من الهدوء الساخر ، وفي عينية السوداوين شيء من السحر ، فسكت السامعون لحظة كان على رؤسهم الطير .

قال مراد بصوت أجش « لوأن غيرك ياأيوب بك هو الذى قص علينا هذا الحلم لقلت أن بعقله شيئا من الجنون والهذبان . »

قال الرجل « هذا هو الحلم فهل لك أو لغيرك ان يقول بصدقه ؟ »

قال مراد بك « اننا نعرفك حق المعرفة يا أيوب بك ، ولقد وقفت بجوارى في الحروب غير مرة ، فكنت الاغر المحجل . »

قال « وسأكون بجوارك ان شاء الله مرة أخري يامراد . وستكون الملحمة القادمة هي أشد المعارك التي خضتها . وسترى ان شاء الله ، كيف أضرب في هذا اليوم قلب العدو ، دفاعا عن الملة والدين . »

قال ابراهيم وقد خشى ان تشرد من المناقشة كلمة طائشة فتبدل الحال غير الحال

« هذا مالم نشك فيه أبدا . »

قال مراد بك « ان اقتراحك حسن ياأيوب . فلنرسل فى طلب المفتش الفرنجى » ثم التفت الى حامل سيفه

قال هذا « أنه بالباب ياأبت ، أوصلنى ولا زال باقيا هناك . »

قال « حسن وارسل أيضا فى طلب الفرنجى الموكل اليه أمر دار السلاح . »

قال « أنه بلا نزاع هنا . لقد رأى رضوان أغا أنه ربما احتاج الامر اليه فارسل يستدعيه . »

قال « ان لهذا الأغا عقلا يفوق عقول كل بكوات مصر وأنا من ضمنهم . لقد تنبأ لى عن ذلك منذ شهور ، ولكنى سخرت منه وقلت هراء وأحلام رجل أخرق ، ولم يكن علم الله غيرى أبله أخرق . »

دخل استيفن عند ما استدعي ، بتلك الشجاعة التي اكتسبها من تربيته الحربية . واحتمل بشجاعته الهادئة ، ما كان يلقى عليه من نظرات الريب والشك ، التى كان يحدجه بها القوم .

قال مراد « أظنك سمعت باخبار نزول الفرنجة فى ديارنا؟ »

قال « أجل . » قال « كم من الرجال تستطيع سفنك ان تنقلهم غدا؟ »

قال « استطيع ان أجد من السفن ماينقل ثلاثة آلاف رجل . وبعد يومين استطيع ان انقل خمسة آلاف . »

قال مراد بلهجة قاسية شديدة « قل غير هذا الكلام فذلك مالا أفهم له معنى . » فكان جوابه العنيف « لا . ليس عندى غير هذا . »

قال أيوب بك بصوته الهادىء الرزين « استمع الى ياسيدى . انك فرنجى فقل في هذه الحالة فى أي صف تقف ؟ أتحارب فى صفوفنا أم تنضم الى الاعداء لمقاتلتنا ؟ كن صريحا . »

قال « لقد اكلنا من خبزهم وملحهم . وفوق هذا فان الفرنسيس أعداء لنا نحن الانكليز . »

قال « هذا جميل ولكن افرض ان الانجليز هم الذين جاءوا ، فمن يدرى ان الدهر قلب ، فماذا أنت صانع اذن ؟ »

عندئذ سكت استيفن هيلز وقال أيوب بك « أجب واذكر أنك الآن أصبحت مسلما فهل تحارب لنصرة الملة والدين ؟ »

وقف استيفن ينظر طورا الى هذا وطورا الي ذاك ، وظهرت نقط

العرق على جبينه ، راصفر وجهه لقد خير فى النهاية بين أمرين فماذا هو فاعل ياترى ؛ لقد كان انجليزيا ، ولم يكن أحد يشعر اكثر منه بعظم التبعة وكبير المسئولية . لقد خلع عنه الرداء الانجليزى وتزيا بالمصرية الصميمة ، ولكن ما أمر انجلترا لديه الآن ، وما علاقته بها ؟ لقد اختار أن يكون مصرياوان يكون مسلماً بقصد الانتفاع والاستفادة.

قال مراد بك بصوت أجش « أجب على السؤال ياسيدى . »

قال « سأحارب معك كل من يحاربك مادام فى عرق ينبض . »

قال « أقسم على ذلك . »

قال « أقسم بالله على ذلك. »

هز الحضور رؤسهم برصانة ووقار . لقد عرفوا الرجل وتبينوا امره وكان بصوته لهجة الاخلاص ، ولكن استيفن بعد ذلك فارقه سروره ومرحه · لقد تخلي عن دينه قبل الآن فلم يشعر بمثل ماشعربه وقد تخلى عن نصرة وطنه ، فما كان أثقل ذلك حملا !

لم يكن هذا السؤال الذى وجه اليه فجائيا ، فلطالما فكر فيه خلال سنين ردتة السبع ، الا أنه كان يتجنب البت فيه فكان اذاخطر بباله ذلك الخاطر قال « غدا أرى رأيي فلأؤجل الامر الى غد » ولكن هذا الغد قد حل ، ولقد استقر رأيه على أمر ، وسواء لحقه من ذلك شر أوخير فقد انتهى الامر، وسبق السيف العزل ، مدفوعابالمؤثرات الحاضرة وقت الاعتزام ، شأنه فى كل حالة .

على انه ربما كان يعتزم غير ذلك لو أن الظروف كانت غير هذه الظروف . ولو انهم كانوا أرغموه على ذلك وهددوه والسيف مصلت فى الايدى ، فربما كان جوابه الرفض ، مقاومة منه وعنادا ، ولكن المسألة ألقيت اليه بغاية البساطة ، وكان قد وثق منه هؤلاء القوم كل الوثوق ، وشرفوه بأن منحوه صداقتهم ، ورفعوه الى مستوي واحد

منهم ، فشعر بانه ان تركهم في ساعة محنتهم هذه ، كان خسيسا دنيئاء أهلا للاحتقار والازدراء .

ومع هذا فقد تجمع بذاكرته ، وهو يمشى بين الجمهور الحاشد خارج الدار، كل ما كان منه ، وخطرت بباله كل مشاغله القديمة، وعشرائه الاقدمين .

أدرك لأول مرة الحقيقة الناصعة فانكمش قلبه .

وكان مكسيم ليجران ، وقد ارتد مثله عن دينه ، واقفا هناك يخطر في ملابسه الفخمة ووراءه فتاه يحمل له سيفه ، فلما ان رأى استيفن خارجا لمسه فى ذراعه وقال أهلا أهلا بالصديق ، نعم الاخبار هذه التي وصلت الينا ، والله لينذ من القوم ، حين تحصدهم مدافعى حصدا ، علي أقصائهم مكسيم ليجران من فرنسا وطرده منها ، وانى لأحمد الله أن هيأ لى من الفرص ما أنتقم لنفسى به . »

قال « اليك عنى، اليك عنى. » فوقف الفرنسى حائرا مدهوشا .

الفصل السادس عشر

معركة الاهرام

ما كادت صدمة الأنباء الخاصة بوصول الفرنسيس تزول حتى أعدت مصر نفسها لخوض غمار حرب قادمة ووقف المصريون بجانب المماليك لأول مرة ولأمر واحد ، فقد كان المصريون لايتدخلون باى حال من الاحوال فى العراك القائم بين المماليك اذ كانت نتيجة هذه المناوشات ليست الا تغيير رجال الحكم فى مصر ، ولئن سقط من المماليك أمير قام منهم على المصريين أمير آخر .

أما الآن فان الدين أصبح فى خطر ، وانتشرت دعوة الى حمل

السلاح فى جميع الارجاء ، من اسكندرية الى أقاصى الصعيد فاستنفرت الفلاحين من حقولهم ، وأثارت البحارة (المراكبية) فى سفنهم ، وأقامت البدو فى الصحارى ، مابين الوادى والواحات الخارجة ، وذلك لايقاف زحف النصارى الملاعين الذين كانوا فى طريقهم الى القاهرة من جهة الشمال .

— ولم يستطع مراد ، لحدة طبعه ، أن ينتظر وصول الامداد اليه ، أو اقامة المتاريس وعمل التحصينات ، فوكل أمر الدفاع عن القاهرة لابراهيم بك ، واتجه نحو الشمال يصحبه ألف من المماليك كطلائع تستكشف خبر الجند القادمين .

وفى الوقت نفسه أشرف ابراهيم بك والوزير التركي ، على عمل المتاريس خارج المدينة من ناحية بولاق ليسد الطريق فى وجه الفرنسيين ان هم جاؤا علي الضفة الشرقية للنهر ، ورأيا أن يلغما الارض هناك .

وقد وجد استيفن فى ذلك الكفاية من العمل فاشرف على عمل الخنادق وعلى ترتيب المدفعية .

ورسم خططا للدفاع عن المدينة ، وقدمها لابراهيم بك وبكر باشا ، فنالت منهما الاعجاب ، ودهشا لها ، وراحا يسألانه عنها أسئلة لاعد لها ، وكانا يطلبان اليه الحضور غداة كل يوم للشروع فيها .

فضاق استيفن بهما ذرعا ، ولعن الحظ الذى أوقعه فى أيديهما ، فهل ظن ذانك الابلهان ، أن المتاريس يمكن عملها فى يوم ؟ علي ان الفرنسويين قد استفادوا من ذلك الابطاء ، فلم يمض علي نزولهم البر اثنا عشر يوما ، حتى سقطت بايديهم الاسكندرية ورشيد ، وجد جيشهم فى السير فبلغ الرحمانية الواقعة على النيل .

ولم يكن الا يوم أو بعض يوم وانهزم مراد بك ومن معه ، ووقعت أخبار هذه الهزيمة وقوع الصاعقة ورجع مراد بك تاركا

المدافع والاثقال طالبا مصر هو. وعسا كره .

فاشتد ازدحام الناس وحل النشاط محل الكسل ، وقاموا بعمل متاريس من بولاق الى شبرا ، واستخدموا فى ذلك الفلاحين ، واشتغل معهم استيفن بجد ، كأنه مصرى من صميم المصريين ، محاولا ان يعمل هو ورجاله فى ايام مايستلزم اسابيع .

كثر العمل على الناس ، وغادر الحقول اصحابها الفلاحون القاطنون على بعد ستين ميلا شمال وجنوب القاهرة ، تاركين حاصلاتهم سراعا الى العمل الجديد ، وكانت جماهير القاهريين تفد يوميا الى بولاق وتغادرها .

وكانت المشايخ ومن بينهم الشيخ فضل ، يجتمعون كل يوم في الازهر ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات . ولما كانوا لا يستطيعون استعمال السيوف والحراب ، ولا يعرفون صنوف الطعن والضرب ، فقد التمسوا المعونة من جانب الله ، وراحوا يضرعون اليه ويبتهلون .

وغص نهر النيل بالقوارب والسفن ، تحمل الهاربين من بلادهم ، الطالبين الاحتماء فى صعيد مصر ، ومعهم ماخف من السلع والامتعة . وأخفى كثير من سكان القاهرة ماعندهم من النفائس ، واغلقوا دورهم وهاجروا الي بيوتهم الاخرى فى القري البعيدة .

وأرسل الشيخ البكرى نساءه الى الواسطى اجابة لطلبهن منه . وابقى معه ابنته فقط ، لانها لم تكن قد ابلت بعد من مرضها الابلال الذى يجعلها قادرة على احتمال مشاق السفر . ولما وجد نفسه فى شاغل بسبب الاحوال الحاضرة ، وفي محاورات ومشاورات مستمره مع المشايخ ، خاف أن لا يعنى بامر ابنته أحد خلال غيابه عن داره ، ولذا رجا مرغريت أن تأخذ ابنته الى دارها وأن تقوم على حراستها .

قالت تخاطب جول وهي مترددة فى قبول دعوة الشيخ « لست

أحب ان تلقي على مسئولية ما . فالفتاة أو الطفلة كما تسميها جميلة وشكسة ، جموع طائشة . وفضلا عن ذلك فقد قاربت سن الزواج . »

قال جول ضاحكا « ولكن ذلك لن يطول امده يامرغريت، ودارك معزولة محجوبة كشقة الحريم فى دار اى مسلم ، وليس يقصدك من الزوار رجال عداى ، ولست أظن ان الشيخ البكرى يعارض فى امرى ، ويأبى على زيارتي لك . »

* * * * * * *

وطربت نفيسة ايما طرب للحركة القائمة في المدينة ، معتبرة اياها نعمة ارسلها الله لها لخلاصها من حياتها هذه . تلك الحياة المملة ذات النسق المستديم .

واغلقت الحوانيت فى الاسواق ، وجعل على فرج يقضى زمنه في سن فأسه ، ليضرب النصاري ان هم هاجموه . على انه لم يكن حريصا فى قبضه على الفأس ، فسقطت يوما على قدمه ، فصرخ من الالم وجعلت نفيسة تضحك منه ساخرة مستهزئة .

ولما ان جاءت الاخبار منبئة عن سرعة تقدم الفرنساويين ، جعل يصرف من زمنه القليل فى صقل فأسه . وخصص الجزء الكبير لقراءة الأدعية : فاذا ما ضجر من سكون داره ، امسك بهراوة ومضى مع غيره الي بولاق . فيجد فى الجموع المحتشدة هناك ما يبعث فى صدره الاطمئنان من جهة ، وما يبعده عن بذاءة لسان خديجة من جهة أخري .

ولم تكن نفيسة قد شعرت بوحشة لغياب عبد الله مثل ماشعرت بها الآن . فان خديجة كانت تغلق الابواب ولا تسمح لاحد بالدخول الي دارها أو الخروج منها . وكان ذلك يؤلم نفيسة وعلى الاخص عند ما تمر الجماهير أمام الدار تصيح وتصرخ وبايديهم الطبول والزمور ، أو عند ما يمر أرباب الطرق والاشاير وبايديهم الدفوف .

ففى صباح يوم سمع دق على الباب ، فجزعت خديجة ايما جزع ، واطلت من فتحة فى المشربية فرأت عبد الله واقفا فى الشمس ، وقد ازاح عمامته الى الوراء فظهر من تحتها شعره الضارب لونه في الحمرة. ورأت ففطانه المعضد (المخطط) وقد تناثر عليه التراب ، ولمحت فى وجهه المحمر علامة التأثر الشديد .

صاحت به بصوت أجش « أهذا أنت ياحامل أنباء السوء ، ويانذير الشؤم ، انك لابد قادم لتخبرنى ان على فرج سقط قتيلا وهو يحارب أولئك الفرنجة الملاعين ، أكاد أرى ذلك من ملامحك . »

ضحك عبدالله وقال « ليس الامر كما ظننت ياخالة ،فانى رأيته آخر مرة ، جالسا تحت شجرة فى بولاق يشكو من قلة الطعام الذي قدمته له فى الفطور . ورجانى اذ وقع نظره على ان اجيئه بطعام والا فانه يموت من الجوع والمسغبة . »

كانت خديجة قد أعدت نفسها للتصويت والندب والبكاء ، الاانها اطمأنت لحديثه وقالت « لم يمت الحمد لله انه حى يرزق . واهاله انه لا يعنى بامر قدر عنايته بامر بطنه . انه يذهب الى بولاق ويتركنى هنا تحت رحمة الفرنجة ، فهل فى الدنيا امرأة رزئت بمثل هذا العمل؟»

جاءت نفيسة اذ دخل عبد الله وقالت هامسه « ماذا حدث من الامور ؟ » وكانت قد رأت ما بعين الفتى من البريق .

قال هو أيضا هامسا « ان الفرنجة الآن دخلوا وردان . وقد عبر مراد بك النهر عند امبابه ومعه آلاف من الفرسان ننتظر قدومهم. على أن أعود مسرعا حتى لا يقطعنى الوقت . اخشي أن يغرق الكفار فى النهر ولا امتع العين برؤيتهم يغرقون . »

ثم حمل الطعام الذى أحضرته له خالته وقال وقد وضع بين فكيه قطعة من الخبز « سعيدة ياامى. سعيدة يانفيسة .»وخرج الى حال سبيله.

وما كاد يدرك آخر الحارة ، الا وسمع وقع أقدام تجرى ، فالتفت فرأى نفيسة تعدو وراءه وقد تثنى شعرها ونفش وانتفخت جلابيتها وارتفعت فى الهواء . فقال غاضبا « مامعنى هـذا يا أخيـة ؟ عودى أدراجك الى الدار يانفيسة . »

قالت « انى ماضية حيث القوم ماضون . »

فقفز وراءها ليمسك بها ، الا أنها تخلصت من يده بان انحرفت عنه واندفعت تجرى مسرعة فى الحارة وقالت « انى ذاهبة الى بولاق يا أخى ولئن لم استصحبك ذهبت وحدى . »

جاد لها واحتج عليها ولعن حتى أصلها وفصلها ، ناسيا انهما أصله وفصله . غير أن كل ذلك لم يجده شيئا ، لانها ستذهب الي بولاق معه أو وحدها. وانتهي الامر بعد كلام طويل الى أن سار معها :

اخترقا وهما ذاهبان ، شوارع القاهرة الخالية ، لان القاهرة اذ ذاك كانت كأنها مدينة الموتي الى أن وصلا باب الحديد ومنه سارا وسط الحقول الى بولاق ، وجاورت نفيسة أخاها فى المشى ، تسأله كعادتها اسئلة لا نهاية لها وقالت « ألم تر أحدا ياعبد الله غير عمنا ؟ »

قال « لم أر غير المتسول ، فانه ينام فى قارب هناك بالقرب من بولاق . »

وتجمهر على ضفة النهر جمع كثير من الفلاحين يلبسون جلاليبهم الزرقاء ، ومن القاهريين بقفاطينهم وعمائمهم ، ومن جماعات من الاولاد خرجوا من المساجد ،ومن كثيرمن المشايخ والدراويش بعضهم يذكرون وبعضهم يعدون هراواتهم وقداعهم (قواديمهم) وكل سلاح كان فى دورهم . وجلس معظمهم متربعين فوق الارض ينتظرون أمر الله وما سيبعث لهم به.

ولما اقترب عبد الله وشقيقته من جامع على طلب عبد الله اليها أن

تنتظر ريثما يذهب وحده ليعطى على فرج ماجاء له به من الطعام . وكان صاحبنا على فرج ينتظره فى المكان الذي تواعد معه على اللقاء فيه وقد برح به الجوع .

فلما أوصل الطعام الي على فرج عاد اليها مسرعا فقالت له نفيسة « لست أرى شيئا سوي جموع محتشدة هنا . اريدأن أرى المماليك في الجانب الآخر . »

قال اتبعينى اذن الى المتسول فربما يسمح لك بالمكث في القارب فى حين أتسلق انا الشراع .

وتبين عبد الله بسرعة قارب المتسول من بين القوارب العديدة الراسية هناك . فأسرع اليه تتبعه نفيسة وحياه قال المتسول « حسن يابنى هاقدعدت وعادت معك أختك ايضا ولكن ماللنساء وللحروب

« كتب الحرب والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول . »

قال « لقد صممت ياأبت علي المجىء ولم يردها عنه رجاء او توسل . »

قالت نفيسة « وهل لشيخ الازهر أو لك أنت عمل في الحروب ؟ علم الله أنكما لن تفضلانى فى شىء . »

قال المتسول باسما وكان يرتاح الى نفيسة والى حديثها « صدقت يا ابنتي . »

قالت نفيسة « ولكنى اريد أن أري المماليك . فهيا بالقارب اليهم ان الشاطىء مرتفع وهو يحجبهم عن أعيننا . »

قال « صبرا يابنية صبرا . »

وأسرعت ساعات النهار فى المضى . وغشى الجمهور المنتظر سكون خيم عليهم . لم يكن يقطعه سوى صيحات بعض الدراويش وقدأهتاجهم الذكر أو انشاد الادعية . وارسلت الشمس أشعة يبهر الابصار ضوؤها ، ويلفح الوجوه حرها . فاحتمت نفيسة بظل الشراع ، ونام عبد الله من التعب الذى ناله بسبب الوقوف . ولكن المتسول جلس متربعا وهو

حذر يقظ متربص ، تتبع عيناه رجلين جلسا على شاطيء النهر بالقرب منه .

وكان استيفن احد هذين الرجلين ، فقد انتهى من عمله . ذلك لان تقدم الفرنسيين على الضفة اليسرى للنهر ، جعل المتاريس التي وضعها والخنادق التي حفرها عديمة الجدوى . وكان الآخر مكسيم ليجراند ومعه فتاه الصغير وقد غلبه النوم على أمره وهو قابض على سيف سيده.

وكانا يتكلمان فلا يسمع لهما المصغى المنصت الا صوتا ضعيفا لـكنه واضح ظاهر . قال مكسيم

« لقد غادروا ام الدينار قبل طلوع النهار بزمن طويل ياعزيزى وها قد انتصف اليوم ومضى جزء من النصف الثانى ، ولا بد ان تراهم اعيننا قريبا . ها . ها . انهم سيستقبلون استقبالا حسنا فى امبابه فلقد نصبت لهم هناك اربعين مدفعا ، تجعل فى صفوفهم ثغرة عند اول طلقة ، واذ ذاك ينفتح المجال امام مماليك مراد بك . »

ابتسم المتسول ابتسامة الرجل تبين شيئا قديما كانت له به صلة .

قال « سكوتا بالله . هل ظننت أن بونابرت رجل ابله ؟هل الرجل الذى سحق النمساويين وفتح بلاد الايطاليين، يعيقه امر كهذا؟ا نه لا بد متجنب مدافعكم قادم اليكم من ورائها. ولا تنس ان المدافع غير متحركة.»

قال وقـد عبس وجهه « سـيكون لها من الفائدة ما لخنـادقك ومتاريسك والغامك على الاقل . »

ضحك الانجليزى وقال « أجل لقد كان جهـدا ضائعا ، ولكنى أريد أن الحق بمراد لا كون بجواره . »

قال « وهل ابوا عليك ذلك ؟ »

قال « نعم فلقد طلبت ذلك ولكن ابراهيم بك يرتاب فى الفرنجة ويسيء الظن بهم . وانى لاشعر من نفسى بالجبـانة اذ اقف هنـا فى الوقت الذى يقف فيه كثير من الاصدقاء فى الوغى هناك . فلم أعش

بينهم هذه السنين السبع دون أن أشعر فى قرارة نفسى شعور الزمالة نحو الكثيرين منهم .»

وجعل الآخر يتكلم ويشير بيديه خلال الكلام ، مدليابآراءه عن الكيفية التى يجب أن تسير المعركة على مقتضاها . ولكن استيفن لم يعره ادنى التفات . بل جعل ينظر خلال منظاره ناحية الشمال .

قال فجأة « هاهم قد جاؤا وانى لأرى بريق حرابهم . »

عندئذ ايقظ المتسول عبد الله وقال « قم يابنى فقد حان الوقت الذى نسير فيه فابسط الشراع وأما أنت يا ابنتى فمادمت قد جئت فلم يعد بالطاقة الرجوع فهيا تعالى معنا فان الخطر الذى تستهدفين اليه فى القارب أقل من الخطر الذى تستهدفين اليه وأنت على الشاطىء . »

قالت « كأنى أرغب فى البقاء وقد ذهب عبد الله . وعدا هذا الست ازيد ان أرى كل شىء أيضا . » وساروا بالقارب عبرا الى الضفة الاخرى ومتجهين ناحية الشمال فلما ان وصلوا الي الضفة الغربية ربطوا القارب وجلسوا فوقه لا تظهر منه سوى رؤوسهم .

وعلى مسيرة نصف ميل منهم ظهر أمامهم كل شىء واضحا بينافى الخلاء . ورأت عيونهم كهوف قرية امبابه المصنوعة من الطمي. ورأوا خط أنتار شمال القرية ، وقد رصفت عنده مدافع من الطراز القديم تتجه فوهاتها ناحية الشمال .

وترى الصحراء على بعد تنحدر تدريجيا الى أن تتصل بسلسلة التلول الليبية السمراء التي تسلطت عليها أشعة الشمس .

ووقف الفرسان تجاه القرية صفوفا ممتدة فى الصحراء . وهنا وقفت زمرة مراد بك ، وكان عددهم ١٠٠٠٠ من أشد المقاتلة . ركب كل منهم جوادا ، يليق بملك من الملوك .

ووقعت أشعة الضوء على خوذاتهم وعلى دروعهم واسلحتهم البراقة

وعلى ملابسهم المطرزة بالذهب ، فما كان أشبههم وهم في القرن الثامن عشر ، برجال السلطان صلاح الدين العظيم ، وقد وقفوا في سهول سوريا . فما كان اجمله منظرا قد لا يوجد له مثيل في تاريخ الامم .

ولقد كان استعداد القوم للحرب يشبه ما نسمعه من أقاصيص الاولين ، أيام الجاهلية الاولى ، بزهوها الخداع ووهنها المختفي تحت بريق السيوف ولمعان ما على القوم من لباس فخم .

وكنت ترى بين آن وآن كتيبة من الفرسان ، تخرج جريا بين الصفوف ، وتطلق البنادق في الهواء ، ثم تعود ثانية الى الصفوف وصيحات رجالها تصم الآذان .

وهناك في منحدر الصحراء كنت ترى فرسان البدو مجتمعين متأهبين للنزول في حلبة الميدان لملاقاة أولئك الفارين من وجه المماليك واشباعهم قتلا وسلبا ونهبا .

وعدا كل هذه المظاهر الدالة على القوة والعظمة ، كانت تختلج صدور المسلمين بفكرة ان الله الواحد القهار معهم ينصرهم على القوم الكافرين .

وترجل كثير من المماليك وبسطوا عباءاتهم فوق الرمل . واتجهوا شطر المسجد الحرام وصلوا ضارعين الى الله أن يجعل النصر حليفهم .

وكان أيوب بك واقفا يصلي بينهم ، بعد أن تيمم بالرمل ، وركع بجسمه الضخم بما عليه من حرير وذهب ، وما طأطأ رأسه قط لمخلوق فيما مضى . فما كان اروعه منظرا حين وضع رأسه فوق الثرى خشية من الله وخضوعا اليه . »

ونهض بهدوء ثم وقف بجانب جواده وقد أمسك بعرفه ، وجعل يفكر لحظة وهو مأخوذ ذهل ، وقد انبثق من وجهه نور غريب .

قال مراد بك « انهم قادمون يا أيوب بك . اننا الآن سنرى وجوههم وبعون الله سنرى اقفيتهم سريعا وقد ولوا هاربين . »

قال أيوب بك « انك بالغ ذلك يامراد بك. أما أنا فاني لن أصدق اني سأمتع العين بمثل ذلك المنظر . »

قال مراد وقد عيل صبره « عادت اليك احلامك ياأيوب بك . أتراها تلازمك حتي فى هذه الساعة ؟ »

قال « ليس الحلم وحده ماأرى ، وانما انا الساعة أبصرت حورية من حور الجنة وقالت لى دع عنك هذه الحياة ياأيوب بك واترك الجسد واحتفظ بالروح .وارك الدنيا لمراد واقدم الينا فانما نحن الحياة . » قال ولم يتأثر بكلام الرجل «لو أن الامر كما تقول اذن لا بد أنى مغادر هذه الحياة أيضا . » ثم التفت الى أيوب بك وقال بشدة

« أيوب لقد بعدنا عن بعضنا زمنا طويلا ، وانى لا اقول لك للمرة الثانية ان ذلك لم يكن لسبب ما من جهتى . وكم كنت أود اليوم أن يكون مصطفى واقفا معى فى الميمنة. »

قال « انى مصدق لقولك يامراد، ولست أدرى لماذا. وليس يملأ ذهنى الا تلك الآراء الغريبة التى تعرفها . ولكنى مع هذا اشعر ان الرجل يرقبنا عن كثب. »

قال « من الجنة . » ثم مال الى صديقه وعانقه وقال « فى الميسرة ياأيوب وسأهاجم العدو بالقرب من امبابة. واسأل الله ان يمنحنا فى يومنا النصر. » ثم امسك بشمله ولوح به فى الهواء وانطلق يعدو بجواده .

قال الآخر « لااله الا الله محمد رسول الله. » ثم أمسك بالقربوس وقفز على ظهر جواده .

وثارت ناحية الشمال ثائرة غبار شديدة . ظهر منها بريق الاسنة والسيوف كالبرق الخاطف . ووقفت الجيوش بعيدة عن مرمى المدافع. فلما انجلى هذا الغبار ، تكشف عن الجيش الفرنسوى وقد وقف مكونا خمسة مربعات ووضعت المدفعية فى الاركان .

قال عبد الله « لقد وقفوا لا يتقدمون . ربما كانوا خائفين . »
قال المتسول « انما هم يرسمون الخطة يابنى . انظرها انهم يتحركون ثانية . ثم انظرها قد تحرك مربعان من مربعاتهم ناحية اليمين قاصدين الصحراء . وها مربع آخر متقدم نحونا . والمربعان الباقيان قادمان مابين امبابة والنهر . »

لقد كان جيشا صغيرا حسب الظاهر ، وحقيرا اذا قيس بمقاتلة الشرق المجهزين بأفخر الاسلحة وأزهاها . الواقفين بانتظاره . ولكن الفرنسيين كانوا مسلحين بالبنادق والاسنة . وهى أخطر آلات للحرب توصل الانسان الى اختراعها ، ولم يكن حاملوها حديثى عهد بها وباستعمالها . لقد جربوا الحروب وخاضوا غمارها غير مرة ، وحملوا أعلامهم المنتصرة فوق سهول ايطاليا وصعدوا بها جبال الرين . وربما لم يشتبكوا مع جنودهم رجلا لرجل . ولكنهم في مربعاتهم المتجمدة كتلة واحدة لا يغلبون ولا يقهرون . وكان يقودهم رجل له مهارة بالحرب وميل غريزى اليها لم يرزقهما الله انسانا قبله . »

وحرقت الشمس وجوه صحبنا المنتظرين . ولفح حرها رقابهم وارجلهم العارية . وعلت من ورائهم أصوات الجماهير متأثرة هائجة . وكان هؤلاء وقوفا على شاطىء النهر الممتد ما بين بولاق وشبرا .

قال المتسول « ان ذلك القائد الفرنجى ليس بالابله الاخرق . لقد أدرك ان المدافع ليست مركبة فوق عجلات تتجه فوهاتها بواسطتها حيث يراد توجيهها ، وتبين انها لا تنطلق الا فى جهة واحدة لذلك عمل حركة التفاف وسيحيط بامبابه كما يحيط السوار بالمعصم . »

وتحركت ميمنة الفرنساويين قادمة نحو فرسان أيوب بك . وانطلقت جنودهم باذلة كل جهد . فكانوا أشبه شىء بكلاب الصيد تبحث عن الفريسة .
قال عبد الله « انظر » وكان قد علا الغبار وملأ الجو . وتلاه اطلاق

الرصاص من أولئك الفرسان على مربعات الفرنسيين .

فانطلق الرصاص وخيل للعين كأنه مامن قـوة تستطيع ايقافه . ولـكن المربع وقف . وصوب البنادق ذات الحراب نحو جيش المماليك . وصارت طلقات الرصاص تتوالى على المماليك خارجة من سياج قوامه ظبى هذه الحراب . واختلطت تلك الطلقات بدوى المدافع العالى الصوت .

وتوالى اطلاق الرصاص فكان يخرج من بين ثائرة الغبار كالشهب تخترق ظلمة الليل . وتصلصلت الاسنة والسيوف ، وتداعت الاصوات ، وتجاوبت الاصداء من الزعقات والصيحات واختلط لجب اولاء بتكبيرات هؤلاء ، صارخين من أعماق قلوبهم قائلين « الله أكبر الله أكبر . »

وكنت ترى فرسان المماليك بين كروفر ، وتقدم وتقهقر ، وتجمع وتفرق . يستحثهم أيوب بك فيجمع شتاتهم ويعاودون الكرة . ولم يكن يرى على القوم من وهن وجبانة ، بل أبلى القـوم بـلاء حسنا واحسنوا المصاولة والمقارعة ، ثبت صبر لا يتقهقرون . واقترب المماليك بشجاعة نادرة من تلك البنادق ذات الحراب ، وقفز بعضهم بخيولهم من فوقها ، كما يعمل في السباق ، فاذا مافرغوا رصاص قربيناتهم فى رؤوس الفرنساويين ، واشبعوهم ضربا ولكما بها بعد تفريغ رصاصها ، عادوا ادراجهم لينظموا صفوفهم من جديد .

ولم يظهر على الفرنساويين ضعف أو وهن . ولم تبد على صفوفهم التي لم تخترق أية علامة تدل على الخضوع والتسليم . ذلك لان الجند ، وكانوا مدربين على الحروب ، يعرفون تماما مايحصل لهم لو ان العدو اخترق صفوفهم ــ سيل من الفرسان يتسلل خلال الثغرة ، تتلوه مذبحة تقشعر لهولها الابدان .

وكان أيوب بك ينسحب ويجمع شتات رجاله الذين فترت قوتهم المعنوية ، ويعيد الكرة . وفي خلال ذلك كان الدم والعرق يغشى ملابسه

الفخمة . فضاع بهاؤها وذهب رواؤها . ان أيوب ورجاله لم يفهموا هذا الضرب من الحروب . لقد التحم القرن الخامس عشر بالقرن الثامن عشر ولكنه لم يعرف طريقته فى الحروب :

وكان المتحاربون يتصاولون قرناً لقرن ومقاتلاً لمقاتل، وهذا الى طلقات طائشات يتبعها تعقب العدو الفار أمام هجماتهم . تلك كانت طريقتهم فى الحروب وهذا ما اعتادوا عليه . أما تلك الحرب فقد كانت متباينة عما ألفوه . لقد خيل لهم ان كل واحد منهم انما يحارب جيشاً بأكمله لا رجلا واحدا . وقد أبت الخيل ان تواجه هذه الحراب الموضوعة فى البنادق .

نادى أيوب بك أربعين من مماليكه وادلى اليهم بخطة ارتآها ، وشجع الآخرين طورا بالوعد وطورا بالوعيد وقال « هلموا فاتبعوا أيوب ان هو شق صفوف العدو . »

ثم قاد رجاله واطلق النار على ذلك السياج المكون من الحراب وصاح « الله أكبر الله أكبر . » فكانت صيحته أعلى صوتا من صرخات القتلى ، وضربات السيوف التي لا تقى منها الدروع المضاعفة ، وتردعنها الجنن الواقية .

وتتبع المماليك ذلك القائد الشجاع وهم مستميتون فى الهجوم . فوصلوا الى مواقف التخاصم ومنازل التحاكم . واقتربوا من خط تلك الاسنة المشرعة فى البنادق وقبل ان يدرك الفرنساويين ، المندهشون بما يرون ، حقيقه مارمي اليه أولئك من حركتهم ، جذب هؤلاء اعنة خيلهم فوقفت الخيل على شواكلها ، ثم سقط كل جواد وراكبه ، ضاغطين على صفوف الفرنسيين حتى احدثوا بها ثغرة .

وتلا ذلك ملحمة هائلة ، كانت المشامل ترتفع فيها وتنخفض . واغلقت الصفوف على المهاجمين . وصارت الحرب بعدئذ فى ذلك الفيلق الذى اخترقت صفوفه ، أشبه شيء بالمصارعة ، هجم فيها المقاتلة على بعضهم بالايدى ، وصاروا يتدحرجون ويتدهورون فوق بعضهم ،

كالكلاب تحارب حرب المستميت ، وعملت الاسنة عملها فى المهاجين حتى لم يبق من المهاجين حيا غير أيوب بك . وكان قد أصابه اثنتاعشر جرحا ، فوقع على الارض ، بعد ان ابلى فى هذه الموقعة البلاء الحسن ، وهو لايزال ممسكا بشمله المكسور ، يصيح صيحته فى الحرب « الله أكبر الله أكبر . » وقد اختنق بها حلقومه .

وأما فى الميسرة فقد اجلى الفرنساويون العدو من أمامهم ، ولم يكن حظ مراد الشجاع باحسن من حظ صاحبنا المقدام أيوب بك . واكتسحت الجيوش الفرنسية قرية امبابه وزحفت فيالق الجنرال ديزيه المنتصرة ، فاحاطوا بفلول المماليك ، التى كانت لاتزال تقاتل فى الميدان قتال اليأس والقنوط .

انتهى العراك وقامت أثره مجزرة هائلة . ولقد تكشف السهل عن بعض فلول من المماليك تعدو بجدة فى الهرب ، فى حين جعلت البنادق تمطر الهاربين بنارها تصيب أفرادهم وتقتلهم تقتيلا .

واندفع المماليك يجرون بين صفوف الفرنساويين متسللين من الثغرات التي فتحت في الصفوف ، يهرعون كالحيوانات تجرى من يد الصياد . ومنهم من اندفع ناحية النهر ، مفضلين الغرق فى النهر على ان يكون نصيبهم رصاص يصيبهم في أقفيتهم فيرديهم .

ووقف المتسول وعبد الله ونفيسة خلال ذلك وكأنهم نسوا أنفسهم من فظاعة ماكانوا يشاهدون فلم ينتقلوا من مكانهم . وكان الرصاص يمر من فوق رؤوسهم واقتربت منهم جيوش الجنرال ديزيه فقال المتسول هامسا « هيا بنا فقد انتهي الامر الا تريان ؟ » وقد ابرقت عيناه السوداوان من السرور ووضع يده على كتف عبد الله .

لم يلتفت اليه الفتى ، وقام من التراب ومن وسط الدماء ومن بين تلك المجزرة مملوكان جنبا لجنب ، احدهما راكب جوادا ضخما وكان كبير

الجثة ممسكا بالآخر وقد وضعه على السرج فانثنى فوقه من الطرفين .

قالت نفيسة خائفة وجله « انظر اليس هذا هو حسن الكبير؟ »

وما كادت تتم كلامها حتى صرخ الجواد وسقط على الارض ميتا، آخذا معه المملوك الضخم الجثة ، وقد التفت حوله سيور السرج، فجر هذا رفيقه المجروح وسقط فوقه .

أسرع عبد الله اليهما ، فصرخت نفيسة والمتسول ، ولكن الفتى كان قد ابتعد ، ورفع الهواء جلابيته ، وسقطت عمامته ، وجعلت رأسه الحمراء تلمع فى الشمس . وكان المملوك الضخم ، خلال ذلك ، يحاول أن يتخلص مما هو فيه واذ اقترب الفتى منه رفع اليه بصره ، ومرت على فمه ابتسامة تدل على انه قد عرفه .

قال الشيخ الصغير « اقطع السيور . » وأشار الى مشمله وكان على بعد ياردات منه .

أخذ عبد الله المشمل وقطع به السيور . فزحزح المملوك ساقه من تحت الجواد ونهض واقفا . ثم جعل يتلفت حوله يمنة ويسرة . وعند ذلك جاء استيفن وهو يقول « هيا ياحسن تعال معنا . ان عثمان معى . ولقد عرفت أنه هو لا نكما لا تفترقان . وانى لاعرفك من ضخامة جثتك وان كنت علي بعد ميل منى . »

قال المملوك « لا . لا . اذهب أنت ودعنى . » ثم أمسك بعرف جواده وقفز على سرجه .

قال « تعال أيها المجنون الى القارب . »

قال « ما كنت لاسمع نداءك ومراد بك واقف فى الملحمة يصلى نارها . انني ذاهب اليه . اعتن بعثمان فقد التقطته وجئت به بعيدا عن حراب الفرنسين . » ثم لكز جواده فانطلق به يعدو كالسهم . وأمسك حسن بمشمله يلوح به فى الهواء وهو سائر .

أسرع استيفن الى قاربه وهو يحمل عثمان ، ولكن حبل القارب كان قد أفلته الريس فانطلق يجرى فى النهر .

فناداه المتسول وكان ممسكا بحبل قاربه . وسار عبد الله فى المقدمة وحمل استيفن جسم المملوك الصغير ، وخاض فى النهر الى أن وصل الى القارب والتى فيه حمله ثم قفز هو أيضا فيه .

وفى الوقت نفسه كان الفرنساويون يجدون فى السير وراءهم . ولكن ما كاد عبد الله يجرى نحو الشراع الا ودفع المتسول القارب ، ثم أمسك بالمجاذيف وسرعان ما ابتعد عن الشاطيء .

قال استيفن « اترك لى مجذافا . »

قال « طأطيء رأسك ونم فانهم سيطلقون علينا الرصاص. » وما أتم كلامه الا وانهال الرصاص من فوقهم ، مخترقا الشراع المطوى ، وشق ساريته . ونفذ فى جوف السفينة . ولكن سرعان ما وصل القارب الى مجرى التيار، واندفع يجرى بعيدا عن مرمى الرصاص .

واذا ذاك ركع استيفن بجوار المملوك الصغير ، ومزق صدرته . وحينما رأى الجرح أفلتت من فمه صرخة ذعر وفزع .

قال المتسول « ان الحراب أشد فى الطعن من المشامل وأرى أنه لابد من الذهاب بالجريح الي الدار. »

قال « انه حامل سيف مراد بك . انى أعرفه تماما . »

قال « وهذا الذى آذاه اذن . ان مرادا لن يقف بجواره جبان. »

قال « والي أين نسير به ؟ انه يكاد يلفظ النفس الاخير . »

ظلت نفيسة ملازمة صمتها طول هذه المدة مع انهاثر تارة . فلما ان وصل الحديث بالقوم الى تلك النقطة قالت « الى دار الشيخ فضل. »

قال المتسول « ما أسرع بديهتك يابنية . ولكن الفرنجة سيدخلون المدينة قبل الصباح ، وسيفتشون بيت الشيخ فضل بلا نزاع ، عند

البحث عن المماليك ، ثم التفت الى استيفن وقال « أتعرف مكانا أحسن من هذا وآمن ياسيدى ؟ »

صمت استيفن ، ومر بخاطره رأى لم يجسر على الجهر به . قال « نعم اعرف مكانا ، اعرف امرأة فرنجية عرفتها من قديم وهي بلا شك تقبل أن تأخذه عندها . »

قال المتسول « نعم الرأى . »

وهناك عند شاطئ بولاق طرق آذانهم صياح الرجال ، وصراخ النساء ، وأصوات الجماهير الهاربة .

وفى الشاطئ الآخر كانت فلول جيش المماليك تعدو هاربة في الصحراء تاركة الجيزة .

وكانت الحراب فى الميدان تعمل عملها في الجرحي الذين كانوا لايزالون يحاربون . وجعلت الجنود الفرنسية تجمع من القتلى ما كان عليهم من ثمين الملبس وفاخر عدد الحرب . وبعد أن جردوا الجثث مما كان عليها ، عرضوا الاسلاب للبيع بالمزاد . وانتهى الامر وزالت سلطة المماليك من القاهرة ، وكان قد مضى عليها أربعمائة عام وانقضى كل شيء

أخنى عليهم ما اناخ على الخورنق والسدير .

الفصل السابع عشر

المملوك الجريح

غشى الليل مدينة القاهرة فى ذلك اليوم الخطير الموافق ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ .وكان للمدينة منظر لم يره أحد من قبل، منذ أن نزل السلطان سليم التركى وجنوده فيها . وكان هذا قبل ذلك اليوم بثلاثمائة سنة :

وأغلقت الحوانيت ، ولم يكن يرى مصباح واحد يضىء شوارعها الضيقة ؛ وقد احلولك الليل وجنح الظلام، اللهم الا بصيص من الضوء كان يرى من ناحية الغرب ، حيث التهمت النيران سفن مراد بك . فنشرت على المدينة نورا أحمر أدكن ، شهد بوجود جيش فاتح غزا البلاد وقتل العباد .

وكانت الجماهير في تلك الظلمة المخيمة تجري هربا، زرافات ووحدانا، راجلين وغير راجلين ، على ظهور الحمير والجمال ، بعد أن حملوها باغلى وأثمن مايمتلكون، مسرعين نحو أبواب المدينة ومنها الى الصحراء ، هائمين على وجوههم ، مبتعدين عن الفرنجة الملاعين ، الذين كان مجرد تصور القاهريين لهم ، مدعاة للفزع العظيم .

فاختلط الغنى بالفقير ، والشيخ بالصغير ، وتسللوا خلال الازقة والحارات الضيقة مندفعين اندفاعا جنونيا ، الى أمن توهموه ، ومكان حصين تصوروه ، والنساء تصرخ والاطفال تبكى، والرجال لاينفكون يلعنون ويصخبون ، وعن الادعية والصلوات لاينقطعون .

وساد الفزع فى القاهرة فى تلك الليلة .

كانوا يهجرون المدينة ، وهم لايشعرون ، الى حيث الفناء والآلام . الى الخلاء ، حيث ينتظرهم الفلاحون وبدو الصحراء كالبزاة الحائمة فوق الفريسة، المحلقة إعلاها للانقضاض عليها وما كان أضعف القاهريين فريسة وهم غير مسلحين . فوقعوا فى ايدى هؤلاء فريسة للنهب والسلب والقتل وهتك الاعراض، وقلوب جلاديهم لاتعرف الرحمة والشفقه .

فكم من قبيله من قبائل البدو جمعت فى تلك الليلة من الاسلاب والاغنام مايكفى لشراء قطعانهم وما يملكون مائة مرة .

ووصل اللجب والضوضاء الى حى الفرنجة ، الي حارة النصاري ،

الى البيت الذي يقطنه جول ومرغريت ، فجعل هذان يرقبان مايجري.

وكانا قد وضعا حائلا على المشربية ، لانهما كانا يعرفان الخطر الذى يتعرضان اليه ان هما لفتا الانظار اليهما ، في مثل تلك الليلة الليلاء .

وجاس بالقرب من الباب ، وقد خلع عمامته،وظهرت رأسه الصلعاء تسطع في ضوء المصباح ، وبجانبه سيف كبير يكادلا يصلح للاستعمال وبحجره قربينتان محشوتان بالرصاص ، تناثر البارود من بيت الذخيرة في كل منهما .

وثبت منظره المصنوع من القرن فوق انفه الغليظ القصير،وظهرت على وجهه مسحة العزم على الحروب ، فكان ذلك المظهر غير عادى بالنسبه لما عهد فيه من مرح وبشاشة .

وكان ما بين آن وآن يدير رأسه يمنة ويسرة ، وينظر الى المنظر الذى امامه نظرة الضجر القلق ، الى أن يسمع صوتا اعلى من المعتاد آتيا من الخارج ، فيلتفت الى الباب ، وينظر اليه كما ينظر الكلب الحانق الي قادم الي الدار حين يحرسها .

وكان فى الجانب الآخر من الحجرة سرير نامت عليه فتاة داعجة العينين تبلغ من العمر الخامسة عشر تقريبا .

وكان وجهها المصفر بطبيعته ، قد هزل وانتحل من المرض ، وعلي خديها خالان زاداها جمالا ، وزادا من أثر عينيها الواسعتين السوداوين وكانت بالاختصار ذات جمال فتان يخلب الالباب .

ولكنها على الرغم من سوء صحتها البادية للعيان، كانت اظافرها وكفاها مخضبة بالحناء . ولم تكن قد اكتحلت بالكحل . وعلقت عند قدميها مرآة ، كانت تخالس النظر اليها بين حين وآخر .

وانحنت فوقها مرغريت ، بوجهها الحلو ، وكان يضئ الحجرة شمعة موضوعة فوق كرسى قريب .

نظر جول الي الفتاة وقد امسكت بذراع مرغريت خائفة مرتاعة قالت مرغريت بصوتها الحنون « لاتخافي شيئا ياعزيزتى . انهم لن ينالوك باذى فهم منا ونحن منهم وعداهذا وذاك اليس معنا المسيو ليفيبر يدفع عنا عاد يتهم؟» ثم اشارت الى جول وقد جلس وعليه مسحة الرجل المحارب وبجانبه سيفه الطويل وطبنجتاه المحشوتان بالرصاص .

قالت الفتاة « ولكن الفرنجة النصاري سيذبحوننا . اليس كذلك؟»

قال جول ، وكان على الرغم من غيابه عن بلاده نحو الثلاثين سنة لايزال يشعر بالعاطفة الوطنيـة الشـديدة تتمشي في مفـاصله « ان الفرنساويين لا يحاربون النساء ، فلا تخافى ياحبيبتى . لن يصيبك ادنى اذى . »

وزحف الليل بعسكره وتمطى بصلبه . وخضعت الفتاة لسلطان النوم فنامت وهي ممسكة بذراع مرغريت اما مرغريت وجول فقد هجرهما النوم ، وأصيبا بارق شديد .

قال جول « وددت لو انى لم اسمح لك بالبقاء هنا ياسيدتى ، وكان يجب على أن الزمك بالذهاب الى بركة الفيل ، حيث ذهب جميع الفرنجة القاطنين بالقاهرة ليكونوا تحت حماية زوج شيخ البلد . »

قالت « لا . ليس من شئ اخشاه . »

قال « ياويل كل فرنجى يمسكه العسس خارج الدور هذه الليلة . ارجو أن تكونى احكمت سد المشربيه فلا يتخللها الضوء الى الشارع . »

قالت « طب نفسا . لقد سددتها بنفسى . ويكاد لا يعرف احد البتة اننا لا زلنا هنا باقين ، ومع هذا فانى يسرنى جدا أن يطلع الفجر . »

قال « انما الخوف ان يهاجم الغوغاء حارة النصارى . ولئن حدث ذلك يامرغريت ، فان الامل بنجاتنا ينقطع . »

قالت المرأة « ما شاء الله . ما شاء الله . »

فنظر اليها الرجل نظرة استغراب . فهل ذكرت ان تلك كانت الكلمة التى طالما كانت تسمعها من فم زوجها ، والتي لم يجر بها اسانها من زمن مديد. كأنها اذعنت فى النهاية ، رغم ما اظهرت من جلد وشجاعة، الى ما كتب فى لوح القدر .

وشغلت نفسها فى اعداد طعام للمريضة ، وبدأ الوسن يغلب صاحبنا جول على أمره ، فجعلت رأسه الصلعاء تترنح ، واذا بصوت وقع اقدام يسمع فى ذلك الشارع المهجور. فوقفت لا تعمل شيئا ، تصغى .وفزع جول للامر . وجعلا يتبادلان النظرات وهما لا ينبسان ببنت شفة . وأخيرا سكنت أصوات الاقدام عند وصول اصحابها الى ما تحت المشربية . فذهبت مرغريت الى النافذة وجعلت تصغى وتتسمع .

سمعت لغطا تبعه قرع على الباب ارتجف له قلبا مرغريت وجول . فنهض الرجل واقفا على قدميه وامسك باحدى يديه طبنجة وبالأخرى سيفا . وصرخت الفتاة الا ان صراخها ضاع فى حلقومها من الخوف . واكتفت بان غطت رأسها بدثار الفراش .

قالت المرأة « لا بد ان يكون القادمون بعض اخواننا الفرنجة جاؤوا يلتمسون مأوى لهم ،والا فانهم ما كانوا يقرعون الباب بهذه الحيطة وذلك الحذر . »

وكأن القادم اراد ان يهدىء من روع الساكنين فى البيت فزفر زفرة شديدة .ثم اتبعها بقرع الباب مرة أخرى . واختلط القرع بلغط اصوات أخرى واطئة .

اسقط جول فى يده . واذ رأى وجه مرغريت قد ابرق وانفرجت اساريره ، لم يستطع ان يخرج من فمه ما كان أعده من ألفاظ الضجر والقلق . قالت « انه هو يامسيو ليفيبر ، لقد سمعت صوته . » ثم اندفعت تجرى نحو السلم دون ان تستأذنه . »

احتـج جول عليها بقوله انها لا بد ان تكون مخطئة ، فلم تعره التقاتا . فما كان مـنه الا ان امسك المصباح باحـدى يديه ، وامسك بالاخرى سيفه واسرع يجرى وراءها .

ازاحت زلاج الباب ، فانفتـح على مصراعيه ، فرأت في الحارة ، بل علي عتبة بابها ، جمعا صغيرا .

رأت شخصا ملقى على عنجريب ضيق من الخوص ، وملابسه الفخمة مضرجة بالدماء الممزوجة بالتراب . ووقف بجانب الجريح فتى يلبس قفطانا رمادى اللون ، وقد أمسك بيد الجريح . ووقف عنـد رأس الجريح متسول رث الملبس باليه . وبجانبه فتـاة تناثر شعرها الاسود علي كتفيها ، فالتف نقابها (يشمكها) حول رقبتها كانه خيط رفيع .

وعلى بعد من الجماعة وقف رجـل بدين يلبس لباسا فاخرا ، واذ رأى مرغريت ، اقترب منها وانحنى متأدبا وقال « عفوا ياسـيدتى . اننا نسألك الصفح عن ازعاجنا لك فى مثل هـا الوقت . » ثم سكت وجعل يسعل لتصفية حلقومه ، كأنه كان يخطب فجف ريقه .

ولكنها لم تلتفت اليه ، وبعد ان اطلقت نظرة سريعة على الجسم الملقى امامها على العنجريب ، نظرت الى الحارة فوجـدتها خاوية قالت فى نفسها « ما كان اغبانى ! ولـكن لا يمكن ان اخطىء . »

قال الرجل البدين « عفوا يا سيدتى هل لي ان اذكرك بى ؟ لقد تشرفت فى يوم من الايام إن كنت . . . »

قالت باحتقار « انى أعرفك تمام المعرفة . كيف جاز لك ان تزعجنى بهذه الكيفية ؟ »

قال « اننا جئناك بمملوك جريح . وكنا املنا ان تؤويه عندك لان لك به معرفه قديمة . »

ولم تكن مر غريت لتود هـذا الطلب قط . ولكنها صمتت لحظة

وكأنها لم تسمع شيئا وحدقت ببصرها الى وجه الفتى ، تنظر اليه حائرة وينظر اليها ضارعا مستعطفا . ثم اخذت المصباح من يد جول وانحنت فوق العنجريت وازاحت البرنس من فوق وجه الجريح.

قالت « ياويلتا هذا عثمان المملوك الصغير . الى فليس ثمت من زمن نضيعه ، تعال ياليفيبر ، امسك بمؤخر العنجريت . وانت ياسيدى تكرم واحمل مقدمه . » فكانت كما قال مكسيم ليجراند فيما بعد لاستيفن « كأنها مارشال فرنسا يصدر الينا اوامره.»

قال جول لها وكأنه يحتج « وماذا نصنع بابنة الشيخ البكرى ؟ »

قالت «صه ياليفيبر فليس في الوقت متسع لمثل هرائك. اننى ساقوم على خدمة الفتى وسآخذه ، ان أدى الامر ، الى دار نساء مراد بك لانقذ حياته.»

ثم حملوه بلطف وصعدوا به على السلم الحجرى واوصلوه الى حجرة مرغريت وهناك ارقدوه بتؤدة على سريرها .

امسكت هذه مقصها وجعلت تقص به ملابسه . قالت « من اين جئتم به ؟ هل من بعيد ؟ »

قال « من بولاق ياسيدتى . »

قالت «ولكنك لاتستطيع حمله وحدك هذه المسافة.»

قال الفرنسى ببلاهة « لقد كان معنا مساعد فى حمله.»

قالت « ومن الذى اشار عليكم باحضاره الى هنا ؟»

وهناك تلكأ الفرنسى فى الاجابة وقال « سمعنا ياسيدتى ــ أن ــ ظننت ان ــ »

قالت « ومن الذى دفعك الى الحضور الي هنا ؟ هل المسيو هيلز هو الذى امرك ؟»

قال « نعم هو ياسيدتى.»

عند ئذ علت وجهها لحظة حمرة ، وكانت حمرة سرور لاخجل ، قالت « وأين هو الآن ؟ »

قال « لا ادرى. لقدرافقنا الى هنا ثم ذهب. »

قالت نفيسة « كلا بل انه مختف عند الباب القريب من بابكم . »

قال المتسول بصوته الهادئ « يا ابنتى لقد حان وقت ذهابك الى الدار . »

قالت مرغريت « ان شوارع القاهرة ليست بالمكان المأمون لفتاة فى مثل ليلتنا هذه ولكن كيف تسنى لها ان تجىء معكم؟ »

قالت نفيسة « لقد جئت مع عبد الله أخى ، ونحن صديقا المملوك ولقد انقذه عبد الله لما سقط حسن الكبير من فوق ظهر جواده . »

قالت « يجب ان تمضى هنا الليلة على الاقل . » ثم التفتت الى عبد الله وقالت « هل تثق بى فتترك اختك معى ؟ »

قال « انى مطمئن عليها معك ياسيدتي بل وانى اضع حياتي بين يديك وانا آمن مطمئن . »

قالت « لك أن تبقى هنا ايضا ان رغبت فى البقاء. »

قال « بل استسمحك في الذهاب الى منزل الشيخ فضل فهو فى أشد الحاجة الى وعلى الاخص في مثل هذا الوقت . لقد تركته من زمن طويل . »

قالت نفيسة « صدق عبد الله فان الشيخ بدونه لا يستطيع شيئا. »

مزقت مرغريت ملابس الجريح فتكشفت عن جرح عميق ثم التفتت الى الواقفين حولها وقالت

« من منكم سيبقى معي هنا ؟ »

قال الفرنسى « اذا سمحت يا سيدتى فانى ابقى وان كانت معرفتي بتضميد الجروح قليلة . »

قال المتسول « خير لك يا سيدى ان تدرأ عن نفسك الخطر . لان الفرنجة ان دخلوا المدينة الليلة فانهم سيسلكون معك مسلك الشدة . »

ارتجف الفرنسى واصفر وجهه . ونظر الى المتكلم ثم ادار عنه وجهه وقال « ان فيما قلته لكثير . لقد انساني وجود ذلك الجمال أمامى الخطر الذي استهدف له . »

ادارت مرغريت اليه ظهرها وقال المتسول « ياسيدتى . ان الله لحكمة منه قد أوجدنى بحيث رأيت كثيرا من الجروح فى أيامى الاولى ، وربما كنت لك بمشيئة الله نعم المساعد . »

قالت « حسن فايق . » ولما أن وجد الفرنسى أنه لم تعد لهم حاجة به قال « ما دمت الان لا استطيع أن اقدم المساعدة للفتى ، فانى أرى انه يحسن بى أن أذهب لادرأعن نفسى الخطر كما قال السيد . فالى اللقاء يا سيدتي . انى احسد من المملوك جراحه . » ثم انحنى مسلما واسرع فى الخروج وباشارة من مرغريت قاد جول عبد الله ونفيسه الى حجرة اخرى ، تاركا مرغريت والمتسول ليعملا اللازم نحو الجريح ، لانه كان يكره رؤية الدماء .

خلعوا عن الفتى ملابسه وراحوا يضمدون جراحه العديدة واحدا واحدا بتلك الطرق البسيطة التى كانوا يعرفونها . وأشار المتسول الى جرح فى صدر عثمان لايزال ينضح منه الدم وقال

« لقد اصيب الفتى بجروح عدة يا سيدي . ولكنى لست أخشى عليه الا من هذا الجرح . انه ناجم من رصاصة اخترقت الرئة . انظرى الي الهواء الخارج منه . » ثم مسح بعناية ما على الجرح من جفال وقال « اما الجروح الاخرى فانها فى العضل . وليست جروحا قاتلة . اسأل الله أن ينقذه من الخطر . ان قلبى ليحن الى الفتي حنانا لا أدرى له سببا . »

ومكثت مرغريت والمتسول اربع ساعات وهما يضمدان جروح الفتى . وانتهيا فى الآخر من اداء مهمتهما فوقفا لحظة ينظران الى ما صنعت ايديهما . وكان التعب قد انهك مرغريت ، وأجهدها ما مر عليها تلك الليلة . فتناثرت دموعها لا تستطيع لها كبحا .

قال المتسول « ارأيت الفتي قبل الآن يا سيدتى؟»

قالت «لقد عرفته ياسيدى منذسنتين واحببته حب الام لولدها . ولقد ملأ فى قلبى مدة مكانا كانقد خلا من زمن طويل.» وكأنها خجلت من أنها ادلت بضعفها الى غريب عنها فاطرقت لا تتكلم .

قال « وأنا يا سيدتى قد مر على ما مر عليك ، ولئن كتب الله له السلامة ، وانقذه من خطر هذه الجروح ، فانه يكون خليقا بان يتخذك اماله ، لانك قد منحته هذه الليله الحياة من جديد . اسأل الرحمن الرحيم ، أن يرفق به ويمنحنا المساعدة فى انقاذه . » وبينما هو يحاول الخروج تحرك المملوك الجريح ضجرا،وفتح عينيه وكانتا كقطعتين من الزجاج لا تتحركان ولا تريان ، وتحركت شفتاه اليابستان تتمتمان.

فانحنيا فوقه يصغيان قال الفتى « ابى،ابى .» ثم رفع نفسه فجأة متكئا علي ذراعه وصاح « الله أكبر ! الله أكبر ! طلقة أخرى يا حسن لاجل الملة ، لأجل الدين . » وكان من جراء ذلك أن أجهد نفسه . فسال الدم من الجروح . ثم وقع جثة هامدة وسقط لا حراك به .

قالت مرغريت « انه يدعو مراد بك اباه وما هو الا مملوكه.»

قال « يدهشني كيف ان هذا الرجل يجتذب اليه القلوب ، حتى ان اولئك الذين يشتريهم بماله ينادونه يا ابى . ولكن كم منهم الآن يدعونه بهذا النداء وهو الآن مشرد طريد؟لقد كان يطعم كل يوم معه في الجيزة الفين ، ترى كم منهم يزاحمه في حفنة من القمح ؟» ثم ضحك ضحكة خشنة . ومرت لحظة ظهر وجهه فيها كانه احدى مخلوقات

الظلام من الطير ترفرف باجنحتهامسرورة على انه غير سحنته فى الحال قبل أن تتبينها مرغريت وقال بلهجته الجدية « لقد انتهى عملي وانى مغادرك ياسيدتي على أن اعود اليك غدا . السلام عليك ياسيدتى . » وخرج يتهادى ويترنح في مشيته، وجعلت مرغريت تنظر اليه نظرة القلق المرتاب .

وأنار له جول السلم فخرج يتبعه عبد الله وقدكان يتلهف لمرآه ليسأله عن صاحبه الجريح .

وعادت نفيسة الى مأواها الجديد بعد كثير من الوصايا وبعد عناق طويل .

وكان التعب قد أخذ من جول كل مأخذ فنام في احدى الغرف . اما هى فانها جلست متربعة بجوار الفتاة المريضة، حتى اذا ما استيقظت وفتحت عينيها الواسعتين ، جعلت تحدثها بكل ماحدث في المعركة عند امبابه .

* * *

ووقف استيفن بعيدا في الجانب الآخر من الحارة ينتظر ، وقد عيل صبره ، صاحبنا مكسيم ليجراند ، وكان هذا قد بدأ يشعر بالخطر المحدق به . ولكم كان فزعه شديدا حينما حياه استيفن باسمه .

قال وقد تنهد ، اذ تبين استيفن ، تنهد الخلاص من مأزق « أهذا انت ياعزيزى ؟ خفت ان تكون ذهبت وتركتنى وحدى . »

قال استيفن وكأنه لم يسمع كلامه « اذن لقد ادخلته دارها؟ »

قال « أجل وحينما تركتها بدأت تضمد جراحه . »

قال « الحمد لله والآن أين تذهب ونحن فى هذا المأزق الحرج ؛ لئن عرف الوطنيون امرنا وتبينوا اننا أجانب ، لكانت حياتنا في خطر محقق . ايقيم فرنجى في القاهرة فى مثل هذه الليلة ؟ تالله ان ذا لعجيب . » ثم اشار الى الجماهير الحائرة وهى تجرى لا تعرف اين تسير والألسن تلهج بلعن الفرنجة ، وبالادعية، وبالعويل والتنهدات .

فانتحى مكسيم جانبا وقال «الا نستطيع العودة الى منزلها وهو منزلك ياسيدي ؟ »

قال « هناك الى منزلي ؟ لا لست كلبا يامكسيم لقد كنت بعيدا عن الدار فى ايام هناءتى فلأبقين بعيدا عنها أيضا فى ايام شقاوتى . »

قال « ومع هذا ياسيدى صدقنى انها سترحب بك . لقد سمعت صوتك وجاءت تبحث عنك . ولقد رايت ذلك فى وجهها واني لا استطيع ان أقول لك انه ليس احب الى قلبها من عودتك اليها . »

فكان جواب استيفن القاطع « لا ، لا ، من المستحيل على أن أذهب ، عد أنت اليها يامكسيم ان شئت اما أنا فانى سائر مع الاقدار . ومن يدرى ربما اجد لى فرصة فاستعيد ما كان لي » قال مكسيم « فرصة ؟ ياالهى اى فرصه تنتهزها الحبة وهى بين شقى الرحى ؟ على انى مع هذا قادم معك ، لان مواطنى الملاعين سينقبون في المدينة غدا بلا شك ، وسيبحثون فى الدور والمساكن . فماذا يكون من أمرى اذن ان هم قبضوا علي ؟ هيا فلنسر الى القصر العينى ، فقد نستطيع ان نجد وسيلة للذهاب الى صعيد مصر من هناك . »

هزا ستيفن رأسه وقال « ان الخطر الذى يتجم من عرفان هذه الجماهير لنا كبير جدا . وعدا هذا فان القوم في الصباح لابد متبينين امرنا . واما عن اللحاق بمراد فذلك مستحيل ، لانه يكون الآن قد وصل العياط · وسيجد الفرنساويون فى اثره عند بزوغ النهار . وعلى ذلك يحسن ان نعود الي بولاق فربما يسعدنا الحظ فنجد قاربا ، وبه نستطيع الذهاب الى أية قرية فى الدلتا ولعلنا فيما بعد نستطيع ان نتصل بالخصى الذى وكل مراد اليه امر زوجه فى بركة الفيل . »

وافقه مكسيم على ذلك فغطيا وجهيهما وشقا لنفسيهما طريقا خلال الجماهير الحاشدة فى الشارع الكبير حتى وصلا الى زقاق ضيق . ومنه

سارا الى باب النصر بعد ان أعيتهم ظلمة هذا الزقاق وما فيه من حجارة ونجوات تعثرا فيها فوقعا غير مرة ونهضا وهما يلعنان حظهما العاثر .

وسارا وراء اكوام التراب والاسوار المخربة ، طورا مختفيين وطورا ظاهرين الى أن اقتربا من دار استيفن فى بولاق . وكان ذلك عند منتصف الليل تقريبا وتسلقا باحتراس وحذر سور الحديقة .

قال الفرنسى « هل حرمك وخادماتها هنا؟ »

قال « كلا بل ارسلتهن جميعا الي قصر مرادفي بركة الفيل منذ ايام . »

قال « شكرا الله على ذلك . وانا أيضا قد ارسلت ولدي الي اقارب زوجي فى البدرشين، واني لا ابذل نفسي رخيصة حتى لا يصيبه مكروه . »

وكانت نيران معسكر الفرنسويين تظهر امامهما فى الضفة الأخرى فكانا يرتجفان لمرآها .

نظرا ستيفن اليها وقال «اظن اننا ، أحسنا صنعا فى اننا لم نتأخر فقد تعبر جماعة من السلابين النهابين النهر حتى فى مثل ذلك الوقت . انتظر هنا ريثما اذهب وابحث فربما أجد هناك بالصدفة احد القوارب . وقد يكون هناك فى الأسكلة واحد في ركن من اركانها . »

وخرج ثم عاد فى الحال وقال « لقد عثرت على واحد. هيا بنا نبحث لنا عن طعام في الدار نأخذه معنا فى سياحتنا هذه . »

واسرعا يأخذان ما تصل اليه ايديهما . وبعد نصف ساعة نزلا الى القارب ، ودفعاه بسكون الي مجرى التيار ، فاندفع بهما يجرى دون أن يستخدما الشراع او المجاذيف .

الفصل الثامن عشر

الجراح الفرنجى

مكث عثمان اياما بعد أن جاء به استيفن الى الدار التى فى حار

النصارى وهو غائب عن الوجود لا يشعر بشيء مما يجرى حوله .

وكان المتسول يجيء اليه يوميا ومعه بعض الادوية ليضمد جراحه وكان جول يدخل حجرة المريض كل يوم عشرات المرات ، ليرى مبلغ تقدم صحته فلا يجد الا انحطاطا وتأخرا . وكان يعمل ذلك ظنا منه بان فيه سرورا لمرغريت .

اما عبد الله فكان يجئ فى الاسبوع عدة مرات ليري اخته وليستفسر عن صحة المريض ، وهو واقف بجوار الباب ، حتى لا يرى امتعاضه احد من البيت وساكنيه . الم يكونوا كفارا مأواهم جهنم وبئس المصير ؟

وكان احيانا يصغي لرجوات نفيسة فيدخل فيجد من ترحيب مرغريت به مايقلقه ويضجره . والظاهر ان مرغريت كانت تشعر من نفسها بجاذبيه اليه غير عادية . فكانت عيناها تتبعانه وكأنهما سحرتا به فلا تستطيع عنه حولا . وكانت تنظر الى وجهه نظرة اضطراب ، كأن فى وجهه شيء خلب لبها .

وفى ذات يوم الحت عليه نفيسه ، وهى المتعطشة دائما الى الاخبار أن يحدثهم بما جريات الامور في القاهرة . فادلى اليهم بها وكانت مرغريت تنظر الى وجهه البشوش الشيق ، وتصغى الى صوته الصبيانى الذى ارتادته خشونة البلوغ ، فتنهض قائمة على قدميها وتضع يديها على قلبها وقد دفعتها الذكريات ، وايقظت ذاكرتها الحوادث الجاريات .

سألها جول يوما وهو قلق « امريضة انت يا سيدتى؟ »

قالت بالفرنسية « لا وانما انا بلهاء ولا بد أن يكون قد انهكنى التعب فأثر في أعصابي . لست أدرى يا جول لماذا يحرك صوت هذا الفتى اوتار قلبي ، ويؤثر مرآه تأثيرا عجيبا تسري بسببه قشعريرة فى جسدى . » ثم نظرت الى جول وقد ارتسمت على وجهها علامات حزن عميق .

قال « انما انت منهوكة القوى يا سيدتى كما قلت . ولقد كان العمل عليك شديدا وشاقا ولا بد لنا من أن نطلب المساعدة . »

قالت « حذار حذار أن تطلبها الى أحد فان القوم ، ان علموا أن بدارنا مملوكا جريحا ، فليس يعلم غير الله ما يحدث لنا . الم تسمع انهم يبحثون عن المماليك فى كل مكان ، وانهم حرقوا وسلبوا قصر مراد بك وابراهيم بك في حي قوسون ؟ ولئن علم الفرنساويون بامره فانهم يقبضون عليه فى الحال ، لانه أحد رجال مراد بك المقربين منه . »

قال « ان فيما تقولين ياسيدتى لكثيرا . ولكنى ساذهب غدا بنفسى واتحقق من مسلك القائد فى مثل هذه الامور . »

قال عبد الله « عليه لعنة الله ، كلب من كلب . رأيته وكان ذلك فى اليوم الذي دخل الفرنساويون فيه المدينة . ولا زال صغير السن لم يحرر بعد لانه ملتح . وشعره يتدلى على عينيه فكأنه أحد الدراويش . وهو اسمر البشرة وهو فى الحقيقة كاحد أبناء الشام . اما ملابسه فهى أشبه شىء بملابس السقايين ، خالية من الذهب والحرير ، حتى جواده عار عن الزينة . ولقد جاء جيشه سيرا على الاقدام أيضا . حقا لا بد أن يكون الله قد ساعد الفرنجة على المماليك ، والا فما كان فى مقدور هؤلاء أن يتغلبوا عليهم . ولكن ـ ولكن لا بد أن يكون اولئك القوم كذلك شجعانا ومغاوير ابطالا . وقد رأيتهم اليوم ماشين فى الشوارع ، اثنين اثنين ، عزلا من السلاح ، يدخنون وينظرون الى الحارات يضحكون من كل شىء يرونه ، وعدا هذا فقد رأيت رجلا يبيعهم سلعه ، وقد رأيتهم بعينى ، وان كنت لا تصدقنى ، ينقدونه ثمن ما يأخذون . »

قال حول « والقائد الفرنجي ، ذلك الرجل الذى تقول عنه ياعبد الله ، انه كأحد الشوام وليس له لحية ، اين مقره ، أفى القلعة يقيم ؟ »

قال « لا . لا . لقد اغتصب قصر الألفى بك فى الازبكية ، ذلك القصر الجديد الذى أتم البناؤون بناءه من قريب ، أما امراء جيشه فقد اخذ كل منهم الدار التى اعجبته ، والناس علي الرغم من ذلك سكون لاية حركون ، كالحمل شهر الجزار عليه سكينه يريد ذبحه . ولم افهم لذلك سببا . والذى يدهشنى اكثر من سواه ، انمشايخ الأزهر قد ذهبوا الى قصر الازبكية ، ليساعدوا الفرنجة على حفظ النظام ، وقد رأيت الجند وانا قادم اليكم ، تلصق على الحيطان منشورات . ولقد مزقت أحد هذه المنشورات وها هو.» ثم اخرج من بين ثنيات قفطانه ورقة كبيرة كان أخفاها .

قال جول جادا « كان يجب ان لاتعمل ذلك ياولدى ، ولئن كانوا قبضوا عليك لكانت حياتك فى خطر داهم.»

قال « انظر اليه تجده غاصا بالأكاذيب ، ألم يقولوا فيه انالفرنجة يحبون المسلمين وملتهم ؟ ومعنى هذا انهم مسلمون شديدو الايمان ومع ذلك لم أر منهم واحدا دخل الجامع لأداء الصلاة.استمع لأقرأ لك ما كتبوا على لسان المشايخ : —

« نصيحة من علماء الاسلام بمصر المحروسة نخبركم ياأهل المدائن والأمصار من المؤمنين ، وياسكان الارياف من العربان والفلاحين ، ان ابراهيم بك وبقية دولة المماليك ، أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات الى سائر الأقاليم المصرية ، لاجل تحريك الفتنة بين المخلوقات ، وادعوا انها منحضرة مولانا السلطان ، ومن بعضوزرائه ، بالكذب والبهتان ، وبسبب ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزائد ، واغتاظوا غيظا شديدا منعلماء مصر ورعاياها ، حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم ، ويتركوا عيالهم وأوطانهم ، فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساوية ، لاجل خراب البلاد وهلاك

كامل الرعية ، وذلك لشدة ماحصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم ، وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ، ولو كانوا في هذه الاوراق صادقين ، بأنها من حضرة سلطان السلاطين ، لارسلها جهارا مع اغوات معينين . ونخبركم ان الطائفة الفرنساوية ، بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية ، دائما يحبون المسلمين وملتهم ، ويبغضون المشركين وطبيعتهم احباب لمولانا السلطان ، قائمون بنصرته ، واصدقاء له ملازمون لمودته وعشرته ومعونته ، يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه ، ولذلك بين الفرنساوية والموسكوف غاية العداوة الشديدة ، من أجل عداوة المسكوف القبيحة الرديئة والطائفة الفرنساوية ، يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلادهم ان شاء الله تعالى ، ولا يبقون منهم بقية . فننصحكم أيها الأقاليم المصرية ، انكم لاتحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ، ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية ، بشيء من انواع الاذية فيحصل لكم الضرر والهلاك . ولا تسمعوا كلام المفسدين ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فتصبحوا على مافعلتم نادمين ، وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين ، لتكونوا باوطانكم سالمين ، وعلى اموالكم وعيالكم آمنين مطمئنين ، لأن حضرة صارى عسكر الكبير ، أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على أنه لاينازع أحدا في دين الاسلام ، ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ، ويرفع عن الرعية سائر المظالم ، ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ماأحدثه الظلمة من المغارم ، فلا تعلقوا آمالكم بابراهيم ومراد ، وارجعوا الى مولاكم مالك الملك والعباد ، فقد قال نبيه ورسوله الأكرم ، الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها بين الامم عليه أفضل الصلاة واتم السلام . »

ثم التفت الفتى الى جول وقال « اليس الفرنجة مسيحيين ؟ »

فلم يكن من جول الا أن هز كتفيه

قال الفتى « أعلم أنه لا اله الا الله ، وانه لم يلد ولم يولد ، ولقد قال لى الشيخ ، ان النصاري يعتقدون ان سيدنا عيسى عليه السلام ، هو ابن الله ، ترى هل كذب الشيخ على ؟ »

اشعل جول سيجارة ·

والتفت الفتي الي المتسول وقد احمر وجهه قال « خبرنى ياسيدى مامعنى هذه الاشياء ؟ »

ابتسم المتسول ابتسامة الحذر المحتاط وقال « انك ياعبد الله كأختك نفيسة ، فى كثرة الاسئلة التي لا استطيع لها جوابا ، وانى لأعلم قول القائل ، اثنان لايشبعان ، طالب علم وطالب مال ، ولكن قل لي انت يابنى ماعندك من الاخبار عن على فرج وخالتك خديجة. »

ضحك الفتى وقال « لقد قصدت دارهما وما ، ظنا منى بانهما ربما يكونان قلقين علىّ وعلى نفيسة ، وقرعت الباب ، وبعد برهة سمعت صوت خديجة تأمرنى بالذهاب ، قلت لها اننى عبد الله ياأمى فكان جوابها انى اكذب وان عبد الله قد قتل ، وان القائد الفرنجى قد اخذ نفيسة ، لتكون من بين نسائه . ولم استطع ان أحصل منها على غير ذلك . ثم ذهبت فى اليوم التالى الى الدار ، فوجدتها خاليه خاوية ووجدت صاحبينا قد فرا الي بلاد الريف. »

لم يعر المصريون أدنى التفات لما كان يبدو من نشاط الفرنجة الفاتحين لبلادهم ، ولم يهتموا لمعرفة الفرنجة لاحوال البلاد ، ولا لما كان يبديه قائدهم ، من الوقوف على دقائق الامور .

ومضى على معركة امبابه اسبوع ، فانتهت الفوضى وسكنت الثورات وساد السكون والهدوء على البلاد ، وكان الديوان الحديد مكونا من الاشراف ومن المشايخ وقام بالعمل خير قيام ، ففتحت

المساجد ثانيـة ، وغصت كالعادة بالمصلين ، وقام الصيارفة الاقبـاط بجباية الأموال لجمعوها .

لقد ذهب أسياد ، وجاء مكانهم آخرون ، وهذا كل ماحدث .

وبعد اسبوعين تبددت فلول جيش ابراهيم فساروا الى سوريا مطرودين امام ضغط بونابارت نفسه ، وسار الجنرال ديزيه الى الجنوب قاصدا الصعيد ، لاقتفاء أثر مراد بك .

ولم تخف عن الفرنسوين وجواسيسهم خافية ، اللهم الا القليل الذي يكاد لايذكر ، ولم يعلم بسر عثمان المملوك الجريح أحد ، ولم تتجه الى القوم فى حارة النصارى أية ظنون .

وشحب لون مرغريت وهزل جسمها ، وقلق حول لذلك ، ولكنها لم تقبل اية مساعدة ، ومضت فى تمريض عثمان وحدها واعادت اليه الحياة .

وانتقل من حالة فقـدان الشعور الى شعور بسيط ، الى نقاهـة بطيئة التقدم . وفتح عينيه فكان كالطفل يتبع مرغريت بهما ، ويجيلهما فى الغرفة وهو مضـطرب من الاندهاش ، وظل كذلك الى أن جاء الوقت الذى يشكرها فيه على ما اسدت اليه من يد ، فكان الشكر لا يتعدى ايماء العين ، وبعدها بالـكلام .

ولم يكن بالدار غيرهما من السكان سوي الخادمة السودانية ونفيسة والفتاة المريضـة . وكانت مرغريت لم تشعر بأى تعب من جراء هذه الفتاة المريضة ، بل شعرت من نفسها بأنها مسئولة عنها ، وخشيت ان يوبخها الشيخ البكري فيما بعد على انها ادخلت فى دارها ، رجلا جريحا لايصح وجوده فى دار الحريم .

ولئن كان الامر وقفا على نفيسة فان مرغريت ما كانت لتهتم لذلك أما هذه الفتاة فقد كانت فى سن تؤهلها للزواج ، حلوة المزايا ولـكنها كانت ذات دل نخور عنيدة جموح ، تصرف الساعات الطوال فى تزيين

نفسها، وتجديد خضاب يديها بالحناء، وتجميل عينيها بالكحل، لايمر عليها يوم الا وتسأل فيه مرغريت « الست جميلة أنا ياسيدتى ؟ » فتنكشف شفتاها عن ثنايا. بيض كالدر المنظوم، فتنظر مرغريت الى وجهها الزيتونى البشرة، وعينيها اللامعتين، وتقاطيعها الواضحة، وشفتيها الحمراوين كالورد، ولا يسعها بعدئذ الا أن تعترف لها بالجمال.

والحقيقة ان الفتاة كانت جميلة . لها جمال المرأة الشرقية بلغت من العمر خمس عشرة سنة، ذات الوجه المستدير الناعم اللين، ذو الوضاءة الفتانة . وكانت لها ميول تلك المرأة التي لم تثقف وتهذب، خصها الله بقوة حجة وتفكير وضبط نفس، تضاهي قوة طفلة صغيرة .

علي انه كان يبدو عليها أمارات مأساة عظيمة، لم يكن فى وسع مرغريت، ولا وسعها هي، ان تعرفها او تحلم بها، الا ان مرغريت كانت تشعر من تلقاء نفسها بمثل هذا الشعور حيال الفتاة، فتحيط عنقها بذراعها وتضحك وتقول وهى تكاد تتنهد « وددت ياحبيبتى ان لو كنت أقل من ذلك جمالا . »

أما عن نفيسة فلم تكن تخشى قبلها شيئا، لانه بقطع النظر عن انها بلغت من السن مايستلزم لبس النقاب، فانها لم تشب فى جو من اجواء نساء القصور، بما فيه من قيود ونظم .لقد كانت حياتها اكثر حرية وخشونة وصحة من حياة المقيمات فى القصور، ولم يكن فى مداركها ماكان فى مدارك عبد الله من صلابة، بل كان عقلها ارجح عمليا من عقله .

وهى وان كان يثور طبعها حين تكون مقيدة بشيء فتصير قلقة شموسا، تبدو علي لسانها علامات الصخابة والحدة، الا انها اطاعت مرغريت، وانقادت اليها انقيادا لم تنقده قط لخالتها خديجة .

ولقد خففت عن مرغريت واعفتها من جزء من العمل المنزلى غير

قليـل ، بهمة لاتعرف الكلل ، تجد الجزاء الاوفي على هـذا العمل ، في أن يسمح لها بالجلوس بجوار فراش المملوك الجريح ، ترعاه وتسهر عليه ان شغل مرغريت شاغل ما ، فتجلس اليه تطرد الطير عن وجهه تقدم له النصيحه خالصة ، وتبدى له الآراء مشفوعة ببعض نتف من الاخبار التى يجىء بها عبد الله ، وكانت عينا عثمان كذلك تتبعها اذا ماسارت فى الحجرة ، فاذا ما ابتعدت عنه وغادرت الحجرة ، جعل ينظر ناحية الباب وهو يتلهف شوقا لمرآها .

غير أن شفاءه لم يسر فى السبيل الذى لايعترضه فيه معترض والذى كان القوم يرجونه له ، ذلك لان الجروح قد اندملت بسرعة مدهشة ولكن اصابه في الوقت نفسه سعال شديد لم يمكن التغلب عليه ، وكان يغرق بالليل فى عرقه، وكثيرا ماكان يضطرب تنفسه فتحسبه يلهث لهثا.

قال جول يوما وقد هز رأسه « أخشى يا سيدتى انه يكون له على الرغم مما بذلت من جهود فى تمريضه ، اياما معدودات فى الحياة . »

قالت « ألا يمكن عمل شىء له ؟ لا يصح ان يموت بعد كل هـذه الاسابيع . »

فتنقبض لذلك اسـارير جول ولا يستطيع جوابا سوى ان يهز كتفيه ويقول « هل رآه المتسول من عهد قريب يا سيدتى ؟ »

قالت « لم يعده منذ ايام عديدة . »

قال « سابحث عن عبد الله وآمره ان يبحث عنه . »

قالت « وماذا يستطيعه المتسول ؟ »

قال « لاأدرى وانما اعتقد فيه وفى تطبيبه بعض الاعتقاد . »

وجاء المتسول عند بزوغ النهار وقال معتذرا « اسأل الله أن يغفر لى تقصيرى يا سيدتى فقد غبت عنكم طويلا ، لقد كان لدى عمل كثير وكان واجبا علىّ أداؤه ، وقد كانت مقـابلة عبد الله لى اليوم ، وأنا

ذاهب الى مسجد السلطان حسن ، لصلاة الصبح ، صدقة اشكر الله عليها »

ثم فحص الجرح وقال « هذا الضعف من جراء جرح الرصاصة ياسيدتى . ولست أدري ماذا جد على المريض فلست طبيبا كما تعلمين ، ووجب علينا اذن أن نطلب المساعدة من معسكر العدو نفسه. »

قالت « ماذا تقصد بقولك هذا ياسيدى ؟ »

قال « اليك ما أريد . أريد ان اذهب الى جيش الفرنجة وأبحث عن طبيب هناك ، لانى سمعت ان لديهم كثيرا من الاطباء وان بعضا منهم من النوابغ العبقريين. »

قال الفرنسى « ما أشد غباوتى ! اننى اعرف الضابط المأمور بأيواء الجند وتموينهم ، وانى سائله المساعدة . »

قال المتسول « لا بل خادمك الحقير سيذهب ، فربما تفرط من لسان هذا الضابط كلمة يكون فيها ايذاؤنا ، ولا اكتمك اننى اعرف واحدا يحاجز الناس عن ذات نفسه ، ويواري عنهم مضمر سره ، وانى آخذ معى عبد الله . »

* * *

جلس فى قهوة بالقرب من مركز رياسة الجيش فى الازبكية . طائفة من الضباط يدخنون ويحتسون شراب المصطكى .

وكان أحدهم يرتدى لباس فرقته ، أحمر الوجه ، بشوشه ، له عينان عسليتان ، تتوقدان حذقا ودهاء ، اذا ضحك أغرق فيه حتى يستلقى على قفاه ، جلس هذا يخاطب زملاءه ويقول « ياالهى ، لابد أن تكونوا قد رأيتم وجهه حينما أدخل الشيخ أصابعه فى جوف اللحم وجذب منه السكلى ، وفى أقل من لمح البصر دفعها في فمه . ظننت أنه سيقذفها خارج فمه. » واذ ذاك دخل الخادم فى طلبه فقال له « ماذا تقول ؟

واحـد يسأل عنى ؟ قل له يذهب الي حال سـبيله ـ ولـكن .. أهو متسول تقول انه متسول ؟ هذا شيء آخر . صفحا ياسادة انه صديق قديم لى ولقد بحثت عنه طويلا ، عفواً ياسادة . » ثم خرج وعلى وجهه علامات الجد والشوق .

وعند مادخل الزقاق ووقعت عينه على التسول ومعه عبدالله قال مرحبا « ها قد جئت الى أخـيراً ، واني لمسرور لرؤياك قل أين كنت طول هذه المدة ولماذا لم تحضر لتأخذ الأجر ؟ »

قال « لقد جئت الآن فى طلبه . »

قال « حسن وان القائد لن يبخل عليك بشيء ، فقد أخبرني أنه ان رغبت أن تدخل فى خدمتـه فانه يجعلك رئيسا على قلم المخابرات . قل كم كيسا من الذهب تريد ؟ »

قال « ما أريد ياسيدي الملك أكياسا من الذهب ، وانما لى صديق أشرف على الموت ، وانى سائلك وراجيـك أن ترسـل فى طلب أمهر طبيب فى الجيش ليعوده ، وليكن الطبيب ممن يحفظون السر . »

قال « ان في الامر سرا اذن . قل امرأة هى ؟ »

قال « كلا وانما مملوك من كبار المماليك قدرا ومقاما . »

قال « أهو مراد ؟ » واذ قال ذلك استنار وجهه مرحبا بالفكرة .

قال « ماهو بمراد بك ولا ابراهيم بك ولا الالفى بك ، وانما هو شاب جرح فى معركة امبابه . »

قال « انمـا تريد اذن جراحا . وانى ليسرني أن أقدم لك الطبيب لاري ، ففيه طلبتك ، لانه خير جراح وجد فى جيش . وهوصـديق صميم لى ، لايردنى خائبا ان أنا سألته المجيء اليك . على أن سؤالي أماله ليس لازما ، لانه انما يعنى بالجروح والعمليات الجراحيـة فقط ، ولا يزلف لسانه بكلمـة أويخطر بباله سؤال : ويتساوى فى نظره المريض

سواء أكان ضابطا كبيرا أم جنديا صغيرا . وليست قيم الرجال في نظره بما يضعون على أكتافهم من شارات ، وانما بما ينالهم من أذى في المعارك ، وذلك رأى ، يعلم الله ، غريب في تقدير الرجال . لقد رأيته مرة يعود قائدا كبيرا ، فلم يمكث معه أكثر من دقيقتين ، في حين أنه عاد مرة جنديا بسيطا فمكث معه نصف ليلة · وله في الحالين الاجر المناسب . ذلك لان القائد قد يشكره على عمله ، أو يقدم له هدية ما ، أما الجندى فقد يقدم له حياته ان استلزم الامر .

« تعال معى ، فهو على ما أعتقد ، في المستشفى البعيد هناك . وانى قائل له انه واجد حالة في الجراحة جديدة ، لم يمر عليه أبدا ، ولن يجد لها مثيلا في أى مكان ، وأؤكد لك أنه اذا لم يستثر حديثي ذلك همه ، فليس من شيء آخر يستثيره حتى بونابرت نفسه . »

ثم قادهما الى بناء طويل غير مرتفع الجدران ، أقيم في الازبكية ، واذ اقترب واياهما من مدخله ، سألهما أن ينتظرا ، وغادرهما وولج باب البناء ، ولم يمض الا قليل حتى عاد وصحبته رجل ، قارب الثلاثين من عمره ، متشحا بالبياض فوق لباسه ، وقال :

« أقدم لك المسيو لارى ، فسله ما تريد . »

أصغى الجراح وسأل بعض أسئلة قصيرة ، غير متعلقة بتاتا بمكانة الجريح وحاله ، وانما كانت خاصة بالجروح وطبيعتها ، مصغيا الي ما يقال له ، مستوعبا اياه بسرعة غير عادية .

قال « حسن ، أن وصفك ظاهر بين ، واسمح لى ان أحضر آلاتى الجراحية . »

وعند ما استعدوا للذهاب ، جاءهم ضابط من فرقة المهندسين ، وقال « الى أين ياسيدى الطبيب ؟ ألعيادة مريض في البلد ؟ اذن فأين الجندى تابعك ؟ »

قال « تابعى ؟ وهل هناك حاجة الى تابع ؟ . »

هز الاخر كتفيه وكان صديقا حميما للجراح وقال « انك ياصديقى لن تتعلم الحرص أبدا ، ايذن لى اذن أن أستصحبك . »

وعندئذ نظر المتسول الى الضابط ديوبونت فتقدم هذا وقال : « عفوا ياسيدي فالمسألة دقيقة ، ولقد وعدت صاحبي أن لايتحدث بهذه المسالة أحد ، ولدى من الاسباب مايحملني على تكريمه باجابة ملتمسه . »

قال « ولك أنت على أفضال كما تعرف ، ولك أن تعتمد على فى ذلك السبيل ، فلن ينطق لساني بكلمة ، ولكنك أثرت دهشتى وانى لابد ذاهب . فمن يدرى ربما كان مريضنا بالصدفة من أولئك الحوارى الحسان اللائى حدثتنى عنهن . أرانى أدركت خبيئة الامر . انك انما مشغول بحسناء مسلمة ، نسيت أنك سبقتنا الى القاهرة . »

هز الضابط كتفيه وقال « حسن انك أدركت كل شيء ، ولكن اذكر أنى أعتمد على حزمك . »

وسار عبدالله في المقدمة ، يتلوه الجراح والمهندس ، ووراءهما سار الكابتن ديوبونت والمتسول بجواره .

قال المتسول « ألم تسمع شيئا عن مراد بك ؟ »

قال « لقد هزمه ديزيه وطرده الي أسوان ولكنه لم يظفر به بعد . »

قال الآخر مكتئبا « وانى لأشك في قدرته على الظفر به ، ولكنه على كل حال يعتبر من الفارين الهاربين المطاردين ، ويهمنى أن أعرف ذلك . »

قال « لو أنك ظفرت به ورأيت أصابعك ناشبة في حلقومه ، ما كنت لاهتم لحياته البتة . »

قال « أسأل الله أن يعجل ذلك اليوم . »

قال الفرنسى ضاحكا « لست بالرفيق المسلى في هذه الازقة الضيقة، ومع هذا فلا أكتمك أنى أثق منك ، رغم ميولك الدموية ، أكثر من وثوقى بصديقك القبطى ، الذى عين مساعدا لرئيس المستحفظين جزاء خدماته . يالله منه ! ان له أنفا حادة الشم يدرك بها رائحه المماليك المختفين ، فيخرجهم هم وسلعهم من المخبأ . ولكن قل لى من هو ذلك المملوك الجريح ، وكيف تسنى له المجيء الى القاهرة ؟ . ولك أن تثق منى كل الوثوق . »

فاخبره المتسول بالقصة كلها .

قال الفرنسى أخيرا « تباركت يا الهي ! ان مصر هذه بلاد العجائب والغرائب ، وانى لا أتوقع الكثير من هؤلاء الناس ، فهم بلاشك سيكونون موضع سرور وسلوى . بعد هذا لاتخف أبدا ، ولن يصل شيء من هذا الى أذنى بونابرت . »

ووصل الطبيب الي فراش المريض وفحصه فحصا سريعا الا أنه دقيق ومر بنظره على جسم الجريح الممزق ، فلم يعر الجروح الطويلة أدنى التفات ، فلما أن وصل الى الصدر أطال النظر الى الجرح الصغير الذى فيه .

أدار وجهه الى مرغريت وكانت بجواره ، وكان الآخرون عند الباب يرقبون مايجرى بقلوب واجمة ، وقال « سيدتى لقد أجدت تضميد الجراح كل الاجادة ، ولايدهشنى أنك أخفقت هنا عند الصدر فالامر يتطلب الطبيب الجراح ؛ ولابد من عملية جراحية هنا . فهل تتفضلين بتوضيح الامر له ، والاستفهام منه ان كان خائفا ؟ »

ترجمت مرغريت الحديث للمملوك ، فبدت على ثغره ابتسامة هادئة وقال « خائف ! أنا أخاف ! وهل لمملوك أن يظهر خوفه أمام

افرنجى ؟ مريه أن يقطع بسلاحه من جسمى ما شاء أن يقطع وانى أسأل الله أن يمنحنى القوة على احتمال الالم . »

قال الطبيب وهو يقرع بيده كتف الجريح قرعا خفيفا « لنعم الشجاع أنت ، وانى أسألك الصفح ياصاحبى لمرورهذا الخاطر برأسى. »

وجاء الطبيب بأسلحته فلما أن رآها حول تسلل من الحجرة .

قال الطبيب « قد لايكون هذا الموقف ياسيدتي ملائما لك ، فتكرمى على ببعض الصحاف والمناشف ، أما أنت ياسيدى الماجور فهل لك أن تتكرم بمساعدتى ؟ »

قال الضابط المهندس « مع السرور ياسيدى . » ثم دخل الحجرة.

قالت مرغريت « وأنا أيضا باقية ، فربما كان الجريح يسر لذلك ويريده . » ثم بدا على وجهها شيء من الاصفرار .

قال الطبيب « حسن اذن ، فاننقله من السرير الى أرض الحجرة ، لان العمل بذلك يكون أكثر سهولة . »

واذ ذاك تقدم المتسول وقال « أظني أستطيع ذلك أحسن من غيرى ، فاني قد اعتدت نقله واسناده . » ثم وضع ذراعيه تحت عثمان ورفعه بسهولة ووضعه برفق على الفراش (المرتبة) الذى بسط على أرض الحجرة .

فصاح الماجور معجبا دهشا « لله عضلاتك الحديدية ياسيدي. »

قال « ان الله لحكمة منه قد أوهن قدمىّ ، غير أنه عوضنى كعادته عنهما قوة أخرى . »

وانصرف الباقون من الحجرة ما عدا الجراح ومرغريت والضابط المهندس والمملوك الجريح .

وركعت مرغريت بجوار الفتى رافعة يديه ، وأخرج الجراح أسلحته وهمست فى أذن الفتى قالت « تشجع ياعثمان تشجع . » فما كان منه

الا أن هز رأسه وابتسم ، واذ ذاك أشاحت بوجهها عنه ، وشعرت بقبضة يده يشتد ضغطها على يديها ، دون أنة أو صوت يخرج من فمه بل ولم تبد منه بادرة حينما جعل المنشار يقطع عظامه ، وكأنما الدماء كانت تفيض منها لامن الجرح.

وخيل اليها انه قد مضت أجيال طوال قبل ان تسمع صوت الجراح يقول « لقد انتهت العملية يا سيدتى ، ولقد تحقق لى ظنى فيها ، ولقد أجريت له فى الوقت المناسب . وانى لمسرور من أنى رأيت مثل تلك الحالة الخطيرة فى الجراحة ، بل ومسرور أكثر لأنى استطعت أن أسعف رجلا شجاعا باسلا . »

فتمتم عثمان بكلمات الشكر ، ولكن نفيسة وعبد الله دخلا الحجرة بعد ذلك وأوسعا يد الجراح لثما وتقبيلا اعترافا منهما بمعروفه وصنيعه.

ثم جمع الجراح ادواته واسلحته وقال « انى قادم فى الغد ياسيدتى لعمل الضمادة الاولى . »

ودخل صاحبنا جول يلح عليهم أن يتناولوا بعض المنعشات من الشراب كالقهوة والشربات ، وبعدها انصرفوا ، واذ وصلوا الى السلم وقفوا لحظة فازاحت ستار احدى الحجرات وظهر منها وجه عند الباب وقد كان ذلك الوجه وجه نازلى . اجالت الفتاة نظرها المتفحص المستقصى ، من وجه الجراح الانيس البسام ، الى محيا الكبتن ديوبونت المتأثر بحرارة الشمس ، الى أن استقر أخيرا على وجه الضابط المهندس وكان جميلا وسيما ، فراعه جمالها ، وذهل لحظة برؤيته فجأة صورة ذلك الجمال الفتان . والتقت عيناهما لحظه من الزمن ، وتمكنا من رؤية بعضهما بعضا ، ثم أسدل الستار .

قال كابتن ديوبونت وهما فى طريقهما عائدان خلال الازقة الضيقة « أى صاحبى ! لنعم المنزل وساكنوه وان تكن لم تر فيه حورية من

الحور العين . »

غير أن الماجور لافون نظر الى صاحبه متفحصا مستفهما وابتسم ولكنه أمسك لسانه معتصما بالصمت شأن الرجل العاقل الرزين .

الفصل التاسع عشر

الجواسيس

لم تكن هزيمة قوم أتم من هزيمة المماليك بعد معركة امبابة حيث دالت دولتهم وذهب سلطانهم . فهرب ابراهيم الي الشام وتقهقر مراد الى الصعيد وهو يحارب فيالق القائد الفرنسى ديزيه الجادة فى أثره.

وما نظن أن شعبا مقهورا رضى بالغلبة وتقبل ما رماه به القدر برصانة وصبر أكثر من رضا أهل مصر وقبولهم يومذاك بما وقع لهم.

واستتب الامر لجيش الاحتلال فى القاهرة ، وشعر الفرنسيون فى مقامهم الجديد بالامن والطمأنينة ، بعد أن أدي الجند واجبهم ، وبدأت عناصر الاستعمار عملها مع عمل الجند .

نعم لقد أدى الجيش واجبه بمهارة . وكذلك بدأ أهل السلم والسياسة منهم الذين رافقوا الجيش فى تأدية ما وكل اليهم اداؤه في بعثتهم هذه .

ومضى هؤلاء فى أعمالهم فلم تفتهم فى مصر شيء عن اديانها وقوانينها وعاداتها وتاريخها القديم الا وعالجوه بالدرس والتمحيص فكان من من مجهوداتهم ذلك الاثر الصالح الخالد ، بل قل أبدع الآثار وأبقاها على الزمن ، مما تخلف من تلك الحملة الفرنسيه على مصر.

ولم يكن اكليل الغار الذى وضعه على جبين ذلك الفاتح العظيم والغازى الكبير ، اولئك العلماء السلميون الذين غشوا الوادى بعد أن أترعته الجيوش بالدماء تقطر من حرابهم أقل الا كاليل التى زانت جبينه.

واختلط الجند بالشعب وامتزجوا بالعامة على صفاء ، وجعلوا يغشون المشارب ويختلفون الى الحمامات ، ويركبون الحمير يستكشفون بها المدينة ويسيرون بها الى الازقة والشوارع المنعزلة ، دون أن يمسهم أحد بأذاه.

وجعل ديوان العلماء يجتمع بين آن وآن ليكون حلقة اتصال بين القائد الفاتح وبين الشعب ، وجعلت البلاغات تصدر تترى وهى طافحة بالوعد والوعيد ، والاغراء والتهديد ، والترغيب والترهيب ، وصارت الدعوة باسم الدين يتوالى ارسالها الى الشعب كي تهدأ ثائرته.

غير أن تلك كانت اللهجة اللينة واليد الناعمة تستدرج الأهلين بعد الحرب ، الا أنه مع هذا قد عين اغريقى ، لقبه الاهلون بالرمانى رئيسا للمستحفظين ، وجعل هذا الاغريقى يجوب انحاء المدينة مع رجاله يبحث عن الكنوز والاسلحة المخبوءة ، لا يعنى فى بحثه بشيء ولا يترك شيئا ، يقتحم حتى مساكن النساء متجسسا على الاسرى وآخذا معه ما يستطيع حمله من الاسلاب .

وهدمت الابواب الكبرى التى كانت فى أحياء المدينة ، فارتاع السكان لذلك ، وذهبوا فى تأويله مذاهب شتي . فمن قائل ان ذلك انما قصده المحتلون لانهم يدبرون أمرهم لمذبحة كبرى ، ومن قائل انهم انما يفكرون فى الغارة على الدور واقتحامها ليلا . وضرب الفرنسيون على المشايخ ضرائب فادحة ، وقبضوا على محمد الكريم والي الاسكندرية بتهمة التواطؤ ومراد بك وتدبير المؤمرات ضد الفرنسويين ، وأعدموه شنقا على ملأ من الناس ، وطافوا برأسه فى الشوارع عبرة وارهابا .

ثم عمدوا الى المساجد التي كانت تعترض اصلاح الشوارع فازالوها دون مراعاة لحرمة الدين ، والى الجهات التى كانت مخصصة للموتى « الجبانات » فشادوا فوقها الابنية ، ومن ثم بدأ الغيظ يتسلل الي قلوب هؤلاء الناس الموتورين يطلبون الترة والانتقام .

وبدأ ذلك الشعب الهادىء الوديع يضجر ويتململ .

ففى احدى القهاوى الكائنة فى درب الجماميز جلس رجلان وطنيان متربعين على (دكة) يدخنان فى نارجيلتين (جوزتين) .

ولم تكن تظهر على أيهما مسحة الغنى واليسر . لم يغسلا وجهيهما ولم يحلقا شعر الذقن ، ولم يمشطا شعر الرأس ، وقد ارتديا جلابيتين زرقاوين وعمامتين ممزقتين ، فكأنهما من أولئك الحشاشين الذين يكثر وجودهم فى المدن الشرقية .

وكانت تري عليهما مظاهر الحقارة والضعة ، ويبدو عليهما شكل الغريب المهاجر من بلاده ، وكانا مابين آن وآن يقفان التدخين وينظران بقلق ناحية الحارة ، وقد ارتسم على وجهيهما منظر المتطلع الي أمر المتوقع شيئا .

وكان أحدهما طويل القامة واضح الملامح ، انثنى ساقاه الطويلان تحته وهو جالس ، أما الآخر فقد كان قصير القامة بدينا يئن كلما حرك ساقيه وبسطهما قصد الراحة .

وكانما كان فى أنين صاحبنا هذا مامرى عن الأول اذ قال له « ماذا بك يامكسيم ، الست مستريحا فى جلستك ؟ »

قال « الحق ان هذه الجلسة هى شر ماوصل اليه الانسان من أنواع الجلسات . »

قال « أبدلها اذن بغيرها تكون خيرا منها ، فلقد قرب وقت الصلاة فمد ساقيك واثن ظهرك . ألست ذلك المسلم التقى الورع ؟ »

قال بلهجة الاحتقار « أين ذلك الأغا الخنزير ، لعنة الله على أبيه وأمه ؟ الا تظن معى أن الرجل ربما يكون قد سخر منا وخدعنا ؟ »

ثم نظر الى زميله نظرة الخائف الوجل .

قال « لا . لا . ليس هو بالرجل الذى يخوننا ، وان كنت أشاركك

الرأى فى أنه كان يجب عليه ان يحضر . لقد وضعنا رأسينا بين فكى الاسد ، وجازفنا تلك المجازفة الخطيرة ، وانى لآمل أن لا نكون قد فعلنا ذلك لغير ثمرة نجنيها . »

قال « قبح الله هؤلاء ، أنهم كلاب من كلاب ، فهم يطأطئون ظهورهم للسوط كالكلاب ثم يتسللون وهم لا يكادون يستطيعون حتى النباح ، وانى لا أثق البتة بأولئك المشايخ أيضا ، وانهم ليسلموننا الى القائد زلفى وتقربا اليه دون أن يرعوا فى ذلك حرمة أو يخافوا من تأنيب الضمير . »

قال « انها على كل حال مجازفة منا ومقامرة ولا بد لنا من المضى فيها ، فلنا عذر جميل مقبول . »

قال « ليس يعنينى وربك أمرهم وماهو فى نظرى بمعادل قلامة ظفر . لقد تطوعت فى خدمتى لمراد لأنى انما أردت النكاية بقومى الملاعين . ألم يشردونى من فرنسا ويخرجونى منها مهينا مطروداً ، فاذا ماهدأ لى الحالى واطمأن البال جاءوا يعيدون الكرة مرة أخرى ليطردونى للمرة الثانية ؟ ألم يكن لى قصر وزوج وألم أبلغ من المجد مجد سليمان ؟ والآن ما أمرى ؟ » ثم بسط ذراعيه فتدلى منهما ردنا قفطانه بشكل محزن . وتابع الحديث قال «أجل لقد تطوعت فى المجىء وتطوعت كذلك فى بث روح الثورة بين أولئك الحملان لذلك الغرض وكذلك جئت لأري ولدي الصغير ، وكم أنا أشتاق اليه والى تعرف أخباره . لئن لم يحضر الخصى سريعا ذهبت مسرعا الى بولاق لأمتع عينىّ بنظرة منه . »

قال رفيقه « صه » ثم التفت فجأة الى شخص طويل وقف وراءه صامتا لاحراك به .

قال القادم الجديد « السلام عليكم . »

قال الأول وقد تنهد تنهد من أزيحت عنه غمة « ها لقد جئت أخيرا ، فما وراءك من الانباء ؟ »

قال « هى سارة أو محزنة حسب وجهة نظرك اليها . »

قال الآخر « هل قرر المشايخ ان يثيروا الاهالى ؟ »

فهز الرجل رأسه .

قال الرجل القصير « وأي سوء فى هذا ؟ ان اولئك الفرنسيين الملاعين سيطردون من هذه الديار وليس فى ذلك مايسوء . »

نظر القادم الجديد الي المتكلم قال « انى انفذ الامر الذى ارسلنى سيدى بسببه ؛ وما أفعالى واجراءاتى الا افعاله واجراءاته ، وأما ارائى فهى لى وحدي دون غيرى ، والان ماذا أرى ؟ لست أري الفرنجة يخلون ديارنا مسرعين ، لا ولست أرى علم الاسلام الاخضر يرفرف فوق القلعة ، وأنما أرى بدلا من ذلك أن نير العدو يشتد وقبضته على المدينة لاتلين ، وأري العلم ذا الألوان الثلاثة يخفق فوق الأزهر ، وأسمع أناث الموتى من الرجال وصراخ الذعر من النساء وبكاء الاطفال وعويلهم . أسمع كل هذا واضحا بين طلقات البنادق والمدافع . فهل لديك شك في ذلك ؟ »

ثم التفت الى الفرنسى الخارج على بلده وقال « الم أر انبابة ؛ انك حضرت المعركة ورأيت بالطبع صولة المماليك وعظمتهم وشجاعتهم تضيع وتفنى أمام حراب الفرنسيين ، فهل تظن أن ماعجز عنه مراد وأيوب ومحمد الدفتر دار يعمله اولئك الصبية المساكين الضالين ؟ »

قال الرجل القصير وقد هاله ماسمع « وما هو الوقت الذى حدد للقيام بالثوره ياسيدي ؟ »

قال « لم أعرفه بعد واني انما انتظر الكلمة من الأزهر . على أنى لاأكتمك أن الوقت قد قرب وسيجيئنا بالموعد ذلك الصبى الذى

حدثتك عنه . »

قال الفرنسى جزعا « آمل ان لايخوننا الفتى فهل انت به واثق ؟ »

قال « ليس هو بالذي يخون ، وانى لفرط ثقتي به أضع بين يديه ماهو اكثر من حياتي ، وان يكن الصبى تلميذ الشيخ فضـل ، ذلك الرجل الذي عاش طول عمره بمعزل عن الدسائس بعيدا عن المؤامرات . »

***

وساد الاطمئنان على المنزل الذي فى حارة النصـارى ، وشعر ساكنوه بالأمان، فلم يعكر صفوه أحد ولم يعتدعليه أحد من الشعب . ولازال لارى يزور ذلك المنزل ، والظاهر أنه وجد فيه شيئا من الحياة المنزلية جذبه اليه بعد سكنى تلك الخيام والوجود فى المعسكرات . اما الضابط المهندس فكان دائما يرافق صاحبـه فى زيارته لذلك المنزل. وكان ، اذا اضطر صاحبه الي التخلف نظرا لكثرة العمل، يذهب منفردا ليتحدث مع العم جول فى أمور فرنسا ولكى يلعب الشطرنج مع عثمان .

ففى هذه الليلة اجتمعوا كلهم فى ذلك البيت الذى فى حارة النصارى ونقل عثمان الى حجرة مرغريت الخاصة ليحتفلوا بشفائه .

واقام جول معالم ذلك الحفل وشرب المجتمعون نخب المريض شرابا أعده جول نفسه .

وراح الكابتن ديوبونت يغنى أغانيه ، أما الضابط المهندس فجعل ينشد الاغانى الشهيرة باسم « لابل باترى » ومعناها « الوطن المحبوب . » أما جول فراح يشرب الكأس وكان قدمضى عليه نيف وثلاثون سنة لم ير فيها فرنسا . وجعل عثمان يقص عليهم حكايات غريبة عما كان يجرى فى خيام المماليك ومعسكراتهم وعن أعمال صحبه فى الحروب وعلى الاخص صاحبه حسن الكبير ، فى حين جلس الجراح بجواره يحادث مرغريت

وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة الرضا والسرور .

وانتهي الليل ووقف اصحابنا مستأذنين فى الانصراف واحدا واحدا من مرغريت وهم لايعرفون ماهو مخبوء في القدر وما سيسفر عنه صبح الغد من أهوال ومفازع .

وعند أعلى السلم وقفت امرأة وقد تدثرت بحبرة واسعة من الحرير وجعلت تنظر ، بعينين قد ظهر فيهما بريق الحب ، الى حيث وقف الضابط المهندس عارى الرأس وقد سقطت على وجهه النحاسى أشعة المصباح فأبانت شعره وقد لمس صدغيه .

قال « الى الملتقى يا سيدتى ، ألف شكر لك على تلك الليلة السارة التي قضيناها فى دارك . انني منذ وطئت قدماى مصر لم أشعر انى قريب من فرنسا وقريب من المدنية مثل ماشعرت الليلة . » ثم انحنى مرة أخري وتبع سابقيه .

ووقف جول بعد ذلك لحظة وقال مازحا « يجب أن يكون لك ياسيدتى بهو استقبال فربما اشتهرت بعد ذلك كما اشتهرت مدام دي ستايل . »

فاجابته باسمة « لست أطمع أن أكونها ، وانى ليسرنى أن أعمل شيئا لهؤلاء السادة وعلى الاخص للمسيو لاري الذي أحسن الي عمان كثيرا . ولكن تري أين عبدالله لقد مضى عليه أيام كثيرة لم نره فيها ؟ »

وماكادت تنتهي من كلامها الا وظهر شبح صبى رفيع كانت مرغريت أول من تبينه فقالت « عبدالله ! لقد كنت الساعة فقط أحدث السيد بامرك فأين كنت طول هذه المدة ؟ »

فراوغ الفتى ولم يجب

قالت « انك تأخرت الليلة خارج المنزل . »

قال « لقد كنت مارا بباب الحارة وأنا فى طريقى الى المنزل ورأيت

أن أعرج عليكم لاطمئن.»

قالت « اطمئن فليس ثمت من سوء ولم يكون هناك سوء؟ ان نفيسه فى فراشها من نحو ساعتين.»

قال جول « والى أين أنت ذاهب بعد هذا يا عبد الله ؟ »

قال « الي المنزل فالشيخ لا بد أن يكون فى انتظارى . » ثم قبل يديهما وأسرع عائدا .

ولم يلحظ جول ولا مرغريت الثورة القائمة فى صدره .

قال جول «ماذا يقول المؤذنون على المآذن؟ يخيل الى أنى أسمع أذانا جديدا ، سعد ليلك ياسيدتى.» ثم عاد ادراجه الى بيته في حين حملت مرغريت المصباح وأغلقت الباب وراءه .

أما عبد الله فانه لما خرج الى الشارع رأى عددا من الجنود الفرنسية جالسين فى القهاوى يشربون ويمرحون ، فنظر اليهم وضحك . فلما أن وصل الى مسمعه تلك الصيحات المنبعثة من المآذن وقف وأصغى وتورد وجهه من التأثر وقال « ما أبلهكم أيها المجانين ، لقد حان حينكم وأزفت ساعتكم وأنتم سكارى لا تبصرون ولا تسمعون . انهم يدعون الناس من فوق المآذن لحمل السلاح وأنتم تظنون أنهم يؤذنون ويصلون . ما أحمقكم وأجهلكم ! »

ثم اصغى ثانيا فلم يخطىء السمع . لقد دوت في الفضاء أصوات المؤذنين تدعو المؤمنين الي التجمع في الغد للدفاع عن دينهم ، وجلس الفرنسيون تحت هذه المآذن يستمعون ولا يعون .

وكان عبد الله كبقية المسلمين اجمعين يحتقر من صميم قلبه كل دين يخالف دين الاسلام وذاك شعور يرافق المسلم منذ ولادته ، غير ان ذلك الكره الطبيعي قد زاد لدى عبد الله من خدمته للشيخ فضل . ولا يفهمن أحد أن ذلك قد اكتسبه من تعاليم ذلك الشيخ الفاضل

وانما جاءه من اختلاطه بغيره من اخوانه فى الازهر وهو مهد التعصب الديني فتشربت نفسه بالكراهيه والاشمئزاز تشربا كبيرا .

وكثيرا ما كان يترك شيخه مع بقية المشايخ متسللا فى الازهر ليحضر تلك الاجتماعات التى كان يعقدها أولئك القادة المتحمسون.

فلم يفته تقريبا حضور أى اجتماع حتى عرفه الجميع وأولوه ثقتهم وصاروا يكلفونه بتوصيل الرسائل الى رجال مراد بك ، وتلك كانت مهمة يسهل على صبي مثله أن يؤديها وهو آمن مطمئن أكثر مما لو قام بأدائها واحد منهم.

ففي تلك الليلة كان جادا فى اداء احدي هـذه المهـام ،ولما سمع ، وهو مسرع في خطاه، المؤذنين ينادون بحمل السلاح ويدعون القوم الى الثورة هنأ نفسه بأن وقت القصاص قد حان وبانه قدكان له يد في تدبير ذلك .

وقال فى نفسه لا رحمة ولا شفقة على هؤلاء الفرنجة الذين سيذبحون ويقتلون فى الغد ، بل لا رحمة أيضا بأولئك النفر القلائل الذين عرفهم حتى الكابتن ديبونت أو الطبيب لارى نفسه الذى عالج عثمان وأنقذه لقد تغلبت عليه عاطفة الانتقام ، ولئن كان الجراح الفرنجى أنقذ عثمان من موت محتم فذلك لان الله سبحانه سخره لذلك . ولقد يسره أن ينجو الرجل من مذبحة الغد ،ولكن الامر جلل والمسألة مسألة وطن ودين وتلك مشيئة الله.

غير أنه استثنى شخصا واحدا ،وهو مرغريت. انه حينما جري فكره اليها ومرت بخاطره زالت عنه فلسفته،وتلك بالطبع أيضا مشيئة الله ، وعندها انقلبت العاطفة الى رحمة وشفقة ولين ، وعندها عرف أن الله رحمن رحيم .

ولقد انساق فى تلك الليلة الى البيت الذى في حارة النصاري بشعور

غريب لا يعرف له سببا .

انه لم يقصد أن يخاطبها أو يحدثها فى شىء ، وانما شعر بميل منه الي أن يري البيت وساكنيه ويطمئن عليهم .

وكان شيخه بانتظاره يقرأ في كتابه على ضوء الشمعة الضئيلة المهتز فلما أن دخل عليه الفتى نظر اليـه وقال وبلهجته شيء التأنيب « لقد تأخرت يا بنى وكنت فى حاجة الى مساعدتك لتقرأ لى ورقة من كتابي كتبت بخط ردىء . وعلى كل حال يسرنى أن عدت الى سالما فانى أخاف عليك أن يمسك أذي فى هذه الايام الثائرة . وكم يسرنى أن تعود الامور الى مجراها الهادىء لان ذلك الحال قد أدى الي اضطراب عملي ولم أعد أستطيع بعد أن أغشى دور الكتب كعادتى . »

عندئذ نظر الفتى الى شيخه نظرة الاحتقار وقال « أهذا كل ما لديك يا أبت ؟ اننى لا يعنيني أن أرى دارا من هذه الدور التى ذكرت أو أن أغشاها مرة أخري بقدر ما يعنينى أن يخرج أولئك الفرنجة الملاعين من ديارنا ، وذلك لان نصرة الاسلام ورفع علمه خفاقا خير لدي من كتابة الشروح والتفاسير . »

نظر الشيخ الى الفتى دهشا وقال « هذا يمكننا أن نتركه لله الواحد القهار يابني ، وهو بلا شك منفذه في وقته ، فالامور مرهونة باوقاتها . »

غير أن الشيخ تابع الحديث قال « استمع الى . لقد رأيت أن أخاطبك فى ذلك ياولدي فلا يسوءك حديثى . انى رأيتك مع الاسف تحضر خطب الشيخ الطنطاوي ، ذلك الشيخ المهيج الذي سيجلب على البلاد ضررا كبيرا باغرائه النـاس وحضهم على الثورة ، وأنت كما أعلم منك ، كثير النزق والاندفاع . فحاذر يابني أن يؤدى ذلك بك الي النصب ويوردك موارد العطب . وانك لتعلم أن أى أذى يصيبك يمضني ويحزننى أكثر من أى شىء آخر ، بل أكثر من فقدانى كتابى الذى أجهدت

نفسى فى تأليفه وكتابته .» وعندئذ ابتسم الشيخ وقال « واذكر أيضا يا بنى أن هؤلاء الفرنجة ،وان يكونوا من النصارى لم يسلكوا في الشر مسلك المماليك أنفسهم لو أنهم كانوا مكانهم ، ولا مسلك كثير من الغزاة المسلمين الذين فتحوا الممالك فى سالف الازمان ،كما هو مدون فى تاريخ المقريزي وابو الفداء .»

قال الفتى محتدا «ليكن ذلك ولكننى أفضل لعنة المسلم لي على بركة النصراني .»

قال « انما الجميع يابنى عبيدالله اخوان فى الانسانية . على كل حال سهرنا الليلة كثيرا ولابد أن تكون متعبا منهوكا،فاذهب الى فراشك . ولعل الشياطين لاتزعج أحلامك .»

زالت عند ذلك حدة الفتي وانبسطت أسارير وجهه وأسرع الى شيخه وتناول يده باحترام وقبلها قبلة الطاعة والخضوع .

الفصل العشرون

القلاقل فى القاهرة

علت الشمس جبل المقطم حينما استيقظ عبدالله من نومه محترسا مخافة أن يوقظ شيخه ، فنهض من فوق الحصير الذي توسده ونام ، وأسرع فتوضأ وصلى ثم تسلل الى الشارع وكان لايزال هادئا .

وكان عبد الله واحدا من كثيرين ممن تسللوا خفية فى الازقة والحارات والأحياء ، مسرعين الى الأزهر .

ولما بلغ المسجد كانت باحته ملأى بالجماهير الثائرة والجميع يستمعون لخطبة حماسية فياضة كان يخطبها الشيخ الطنطاوى يدعوهم فيها الى حرب دينية ضد الفرنجة .

وكانت كلماته المستعرة الجياشة تلهب نفوس السامعين ، وقد وجدت مرتعا خصبا ، وقلوبا متأهبة . وما كاد ينتهى الخطيب من خطبته حتى خرج الجميع من أبواب متفرقة صارخين متأهبين لايقاع الأذى بالفرنجة وتقتيلهم تقتيلا .

ومضوا فى الشوارع يضعون المتارس والحواجز ، وانضم اليهم آخرون كانوا من قبل متأهبين لتلبية النداء ، وانطلقوا ألوفا حاسبين أن جموعهم هذه كفيلة بطرد الكفار أمامهم وسحقهم تحت أقدامهم.

وكان عبدالله واقفا بقرب الأبواب الخارجية فتدافع مع التيار ، وأبرقت عيناه من شدة العاطفة ، وهاج تحت تأثير الوسط هائجه فراح يصرخ ويقول « فليمت الفرنجة المغيرون ، فليمت النصارى الملاعين . »

ولم يلبث الفرنسيون أن أحسوا بالامر وكانوا فى غفلتهم لاهين . وكان بونابارت نفسه فى الروضة وقتذاك ، وخرج ديبوي حاكم المدينة فى سرية صغيرة من جنده ليقمع ذلك الشغب ، غير عالم بخطورة الحال .

وكم من فرنسى استيقظ يومذاك فى البكورة يتنزه فقبض عليه وقتل . واندفع الجمع الي حيث كان الجنرال كافاريلى ، وكان المصريون قد أطلقوا عليه اسم « أبوخشبة » وذاك لان له ساقا خشبية صناعية . ولحسن حظ الرجل أنه كان غائبا عن داره ، ولكن الجماهير اقتحمت داره وانتهبوها وذبحوا من كان فيها .

تأثر عبدالله من هول مارأى وفظاعة ما ارتكب القوم مع أنه شاهد معركة امبابة وما بذل فيها من دماء دون ان يتأثر . ود لو أنه استطاع أن ينجو بنفسه وينتحي جانبا حيث لايري أولئك القتلة الذين جمدت قلوبهم ، ولكن الجموع الزاخرة من ورائه دفعت به الى الامام ، فسار معها حتي وصل الى شارع السوق القديم ، وهناك التقوا بالقائد ديبوى فى كتيبة من الفرسان .

فما كان من القوم لدى رؤيتهم هذه الكتيبة الا أن صاحوا صيحة ملأت الفضاء . وكانت خارجة من حناجر خمسة آلاف مصرى، ولكن تلك الكتيبة لم تفرق ولم تفزع .

وتلفت عبدالله يمنة ويسرة يتلمس لنفسه منفذا من المأزق الذي هو فيه ، ولكن الجمع الزاخر وضغطه الشديد أوقفاه حيث هو . ولم ينتبه الى رجل طويل القامة كان واقفا تحت سقيفة باب أحد المنازل، ولم يسمع صوتا رفيعا لينا يناديه ، هو صوت الخصى .

ولم تلبث تلك الصيحات المتصاعدة الخارجة من ألوف الحناجر تصيح قائلة « الله ، الله » ان أيقظته كأنما هى نداء البوق ونفثت فى قلبه الشجاعة والغيرة الجنونين ؟ فأمسك بهراوته وقبض عليها قبضا محكما . ولماذا هو يجنح الى الهرب ؟ ألم يكن مشتركا في حرب دينية مقدسة ؟ ولقد وضعه الله،لحكمة منه،فى مقدمة الصفوف فلايصح أن يشعر غيره منه بضعف ايمانه ، ولئن مات في المعركة فالله يعرف حسن بلائه ، وتتفتح أبواب الجنة للقائه .

وأخذ الفرسان يقتربون وأمامهم الجماهير واقفة كتلة واحدة سدت عليهم الشارع وملأته من جانبيه تصيح وتصرخ وتهدد وتلعن .

فاستدار القائد فوق سرجه وأخرج الفرسان سيوفهم من اغمادها وسمع لها خشخشة ، وباشارة منه تقدموا صوب الجموع غير عابئين بما يتعرضون له من خطر .

ورفعت اذ ذاك المدى والخناجر والعصى والفؤوس والمعاول لملاقاتهم ، وسرعان ماسمع صليل سيوف الفرسان الذين هجموا مستعينين بخيلهم ، واعملوا فى جسوم المحتشدين طعنا وضربا فكان يسمع لذلك صوت السيوف وهي تقطع اللحم وتهيض العظام .

ثم تقدم عبد الله وضرب الفارس الأول الذى كان في طليعة الكتيبة فما كان من هذا الا أن وقف مستويا على سرجه ثم أهوى بسيفه على الفتى . ولو أن هذه الضربة أصابت الفتى لحزن الشيخ فضل على فقده حين تلميذ وجده ، ولكن الفتى تراجع الى الوراء متفاديا الضربة فسقط فوق جسم شخص آخر ، وقبل أن تطأه سنابك الجواد المتقدم نحوه امتدت اليه ذراع قوية والتقطته من مكانه ووضعته فى فتحة فى جدار هناك آمنا مطمئنا .

وكانت تلك الذراع ذراع الحضي وقد قال يسأل الفتى « ماذا تفعل هنا ؟ »

قال لاهثا وهو لا يزال ممسكا بسلاحه « انما جئت لأدفع عن دينى وبلادى . »

قال « يالك من مجنون . »

وعلى الرغم من شدة الطعن والضرب ومن تلك الخسارة فى الانفس ظلت الجماهير ثابتة فى وجه تلك الكتيبة الصغيرة من الفرسان ، تحارب بالهروات والسواطير ، وتتدافع الى الأمام مخيفة الخيل . وجعلت تجذب الفرسان الى الأرض فى حين تساقط من عل وابل من الحجارة وقطع الخشب وصيب من الخزف بين صحاف وقلل .

وعندئذ أصدر القائد أمره بالرجوع فتراجعت الكتيبة وكانت ، على ما أصابها من فقد رجالها وعلى قلة عددها ، ثابتة رابطة الجأش . وكنت ترى هنا وهناك احد الفرسان ، وقد ترجل ، يحاول أن يعلق بركاب زميله الجلدي فيعوقه عن ذلك أيد تتطاول نحوه ، ثم تنهال الضربات فوق رأسه متتالية تعد بالمئات ، فتفقده الحس ثم يسقط صريعا على الأرض يرجف الى أن يتصرم أجله .

وانطلق سكين من أحدي النوافذ مربوط بحبل فأصاب القائد

فى عنقه ، فرفع يديه وسقط على رقبة جواده .

عند ذلك خرجت من فم الجماهير صيحة شقت عنان السماء ، وتقدموا بوحشية شديدة الى القائد ، ولكن الفرسان تجمعوا حوله ومشوا به وهم ممسكوه حتي لا يسقط عن السرج .

قال الخصى « رباه سيهرق الدم انهارا من جراء فعلتهم هذه . »

وفى تلك اللحظة صاح واحد منهم قال « هيا بنا الي حارة النصاري » فردد الجمع صراخة وانطلقوا منصرفين وهم يقولون « الي حارة النصارى الى حارة النصاري ، الموت للكفرة . »

بلغت الصيحة اذن عبد الله وكان لايزال مذهولا من أثر السقطة والخصى لايزال ممسكا به فقال له « ماذا تقولون ياسيدى الافندي ؟ »

قال « يقولون انهم ذاهبون الى حارة النصاري . »

فحاول الفتي التخلص من قبضته وصاح به « ألا دعنى أذهب دعني أذهب . ان أختي تقيم فى بيت سيدة فرنجيه . »

قال الخصى « ولكنهم لن ينالوها بأذي . »

قال « ولكن السيدة الفرنجية هناك وهم قاتلوها بلا شك . »

قال بهدوء « ما هي بالمرأة الوحيدة التى ستقتل يابنى . »

قال « ولكن عثمان المملوك مختبىء بدارها . »

فاشتدت قبضة الخصي على زيقه (ياقته) وقال « ماذا أسمع ؟ أتقول ان عثمان فى دار امرأة فرنجية ؟ انما أنت حالم يابنى . »

فظل الفتى على صياحه يقول « لم أقل غير الحق ولم أنطق بغير الصدق ، فلقد حمل بعد موقعة امبابه الى ذلك البيت . »

قال « يالله . ما كان أبلهنى اذ لم يخطر لى هذا الخاطر مع أنى قلبت المدينة كلها فى بحثى عنه . هلم بنا اليه ، هلم ، هلم . »

وزال عن الخصى كل هدوئه السابق ، وامسك بذراع عبد الله ،

وانطلق به يعدو لايلوى على شىء ، يزاحم وسط الجموع ويشق طريقا له ، عابرا حارة الى اخرى لكى يستبق هذا الحشد الذى ولى وجهه شطر حارة النصارى .

ولكنهما وجدا ان قد سبقهما اليها خلق كثيرون سدوا مدخل الحارة ومنعوا الطريق على المارة . وسمعا من داخل الحارة عويلا وصراخا اختلطا باصوات ابواب تكسر ونوافذ تحطم .

غير أنهما مع ذلك دافعا وجاهدا ليدخلا الحارة ، وكانت قوة الخصى العظيمة تشق له طريقا وسط هذا الحشد ، فى حين أطبق عبد الله ذراعيه على وسط الخصى وسار وراءه خطوة خطوة .

وكانت أكثر البيوت قد هوجمت وحطمت ، ولكن كان ثمت بيت لايزال هناك جمع كبير وقوفا ببابه يقاتلون أهله ، وهؤلاء يقاتلون المهاجين ويناضلونهم . فهرع اليه صاحبانا ولم يكن باستطاعتهما أن يريا شيئا ، غير أنهما سمعا قعقعة السلاح وتلك الصيحات العميقة التى تشبه صيحات كلاب الصيد وقد ضايقت الفريسة .

وعلى الرغم من طول الخصى فانه لم يستطع ان يرى شيئا مما هو حادث أمامه لكثرة العمائم التي حجبت عنه المنظر . فالتفت الى عبد الله ورفعه فوقه ممسكا به من وسطه وصاح به « أنظر ما الخطب . »

فحملق عبد الله ببصره ثم صاح « ان عثمان واقف بالباب يدفع الناس عنه والمتسول بجواره ومن ورائهما ذلك التاجر البدين مشهرا سيفه . »

عندئذ أسقطه الخصى الى الارض وهمس فى اذنه قال « أسرع الي ثكنة الفرنجة وسلهم أن يحضروا على عجل ، والله سيهب رجليك خفة الاجنحة . »

فانسل الفتى بين الجموع فى حين شق الخصى طريقه خلال

هذا الضغط الشديد ، وكأن الله قد ضاعف قوته الى عشرة أمثالها ، غير آبه بمعارضة الناس ولا مكترث بهم .

ووقفت مرغريت فى مدخل البيت سافرة الوجه رابطة الجأش ، وأمامها وقف جول ليفيبر ممسكا بسيفه الثقيل الوزن ، وعلى «المصطبة» وقف المتسول وكأنه ذلك الشبح الصناعى الذى يخيف الطير ، وبجانبه وقف الفتى المملوك مستندا الي الجدار ، والاربطة مدلاة مفكوكة من فوق رأسه ، وبيمينه مشمله ، فكان وهو فى موقفه ذاك أشبه شيء بالدب المفترس أحرجته كلاب الصيد وهو يخيفها فلا تستطيع الاقتراب منه .

ومن الخلف كانت نفيسة تطل وهى ثابتة غير مروعة ترقب ما يجرى أمامها بروح الفضول والدهش أكثر من الفزع والخوف ، بينما من المشربية كانت تطل فتاة مصرية أخرى وعيناها السوداوان تبرقان رعبا وخوفا ، وكانت تصرخ بين حين وحين بحالة تشنج مخيف.

تبين الخصى الموقف كله بنظرة واحدة من عينيه الحادتين اللتين مرتا بمرغريت ، ثم بجسم الفرنسى القصير ، ثم استقرتا لحظة على وجه عثمان الشاحب المهزول ، وبعدها تولتا عنه الى وجه المتسولى ونظرتا اليه نظرة البحث والتفحص .

ورمى حجر من مسافة فاصاب الفتي المملوك فى وجهه وسقط المشمل من يده اذ تراجع من قوة الصدمة . وعند ذلك صاح رجل من الجمع ضخم الجثة صيحة الحمية ، ووثب والسكين بيده يريد قتل المملوك ولكن المتسول التقط السيف بسرعة البرق ، وضرب به الرجل من أسفل ذقنه وعلا به الى جبهته ، فتدلي ساعدا الرجل وسقط على الارض صريعا لاحراك به .

قال الخصى فى نفسه وقد رأى سرعة الضربة « يمينا لست أعرف

فى مصر كلها من يستطيع ان يضرب هذه الضربة الا رجلا واحدا . »

وعند ما تراجعت الجموع لحظة أمام ذلك النصل البراق اندفع الى الامام ووثب على المصطبة .

فرفع المشمل ثانية ولكن عثمان صاح بالمتسول وهو فى اشد حالات التعب قال « قف . قف . أمسك يدك هذا رضوان أغا . »

وبقى السيف لحظة معلقا كأنما لم يكن عن دافع من المتسول الى الوقوف بل عن نية على الضرب . ولاح فى عين المتسول السوداء بريق الحقد والكراهية حينما رأى شبح ذلك الخصى الطويل . غير انه ولى وجهه عنه على غير ارادة منه ووجه سلاحه ناحية الجموع .

واضطرب الخصى كذلك اذ التقت عيناه بعينى المتسول ، ولاح على وجهه الغليظ ظل الألم والشك ، ونسى الموقف الحرج الذى هو فيه فوقف على المصطبة ينظر الى صاحبه .

غير أنه قد نبهه ثانية الى الخطر المحدق به صيحة فجائية من الجماهير الحاشدة وهم يقولون « أفسحوا الطريق ، أفسحوا الطريق ، لقد جاء اخواننا الجزارون . » فافسحت الجماهير الطريق وأخذوا يهتفون ويرحبون بالجزارين القادمين من المذبح ، بعد أن عجزوا ، على وفرة عددهم ، عن ان يقتحموا الباب ويغلبوا رجلين اثنين ممسكين بسلاحهما . وكان الجزارون مسلحين بالمدى (والسواطير) مما يدل على أن لهم يدا في أشنع ماحدث من قتل واهراق دماء فى ذلك اليوم العصيب .

فالتفت الخصى الى اولئك القوم المتعطشين للدماء وهم قادمون يشقون لهم طريقا وسط الزحام ككلاب الصيد المنقضة على الفريسة .

ولم يبد على الخصى أى أثر للخوف رغم ليونة وجهه ورخاوته ، أبل تجلت عليه ، مع نه نصف رجل ، رجوله رائعة ثابتة حينما نظر الى ذلك الجمع الزاخر والى وجوههم المرعدة الموعدة وهم يصبون جام

غضبهم ولعناتهم .

ورفع صوته الضعيف الرفيع وقال « أيها الحمقى ، ايها المجانين انصرفوا قبل أن ينزل بكم العقاب ، ترى هل تملكتكم جنة فصرتم لاتعون ماتفعلون ؟ »

فصرخ القوم فى وجهه قائلين « ياابن الكلب ياصديق النصرانى الملعون ياناقص الخلقة ياملعون الشبه ياخنزير ، ابتعد من هنا والا قطعت ازبا اربا . انتظر ، انتظر فها هم الجزارون قادمون . »

فما كان منه الا أن تلفت حوله وصرخ فيهم قائلا « أليس فيكم أحد من مماليك مراد بك ، فهنا عثمان السليكتار مملوك مراد . من منكم يغيث مرادا وقوم مراد ؟ » وتلك كانت كلمة الاستنجاد القديمة

فانفجرت أصوات الطغام الحاشدين صائحة « ليسقط المماليك الملاعين . » غير أن الخصى سمع من بين هذه الجموع اصواتا تردد نداءه « مراد ، مراد . » وتقدم اليه واحد وثان وسط هذا الجمهور واقترب الكل منه رغم دفع الايدى و تطاولها اليهم .

ولم يكن ثمت متسع من الوقت للتحية فان الجزارين تقدموا من هؤلاء وأطبقوا عليهم ، ولمعت المدى خرجت من طيات قفاطينهم الطويلة ، واصطدمت المشامل بالسواطير ، وسمع لصدامها صوت عظيم . فى حين جعلت الجموع الأخرى ترشق الخصى وأنصاره بالحصى والحجارة .

ومرقت بجانب الخصى كتلة خشب ثقيلة وصدمت العم جول فى صدره صدمة شديدة تراجع بسببها الى الوراء ، فسقط سيفه الكبير من يده ، وسمع لسقوطه فوق الحجارة صوت شديد .

واذ ذاك أسرعت اليه مرغريت لتمسك به وتجره الى الردهة لتحميه من الخطر . وفى تلك اللحظة كان المدافعون عن الدار يتراجعون تحت ضغط الجموع وهم يقاتلون قتال اليائس المستميت .

وعند ذلك تمادت اليها أيد نحيفة مهزولة وأمسكت بأطراف ثوبها تجرها منه وتجتذبها اليهم . ولو استطاع أولاء أن يسقطوها على الأرض لما كان ثمت رجاء فى نهوضها ثانية .

ومن أعلى جعلت الفتاة تصرخ وتولول، ومن أسفل مضت نفيسة الى مرغريت وأمسكت ثوبها تشدها بكل ما أوتيت من قوة .

وأمسك الخصى بسيف جول بكلتا يديه ، وراح يضرب به بشدة ووحشية ، غير أن مشمل المتسول ، وهو الأقصر ، هو الذى أحمل معظم القتل فى تلك الجموع، فكانت قبضة يده تحركه ذات اليمين وذات اليسار بخفة مدهشة ، وكان اينما ضرب به لايحتاج الي الضرب مرة أخري . أما عثمان فوقف فى هذة المعركة يقاتل وهو يلعن ويتسخط لأنه لم يكن يحمل فى يده غير سكين .

ولم يبق حيا من المماليك غير اثنين فقط وأما الباقون فقد سقطوا تحت طعن المدي والسواطير . وكانت جثث الموتى والمحتضرين قد كفلت للباقين متاريس تقيهم شرة المهاجين . ولو مضت دقيقتان بعد ذلك لانتهي الأمر ولأخمدت الجماهير انفاس اولئك المدافعين . غير أنه لم يلبث أن سمع القوم فى أقصى الحارة اصواتا فرنسية وصليل سيوف وحديد ، فحدث هرج ومرج فى تلك الجموع المتلاحمة المتزاحمة وانجلى الجزارون عن مواقفهم وفروا وهم يلعقون جروحهم التي اصابتهم من أيدي الجند .

وسمعت صيحات وانات ولعنات آتية من الشارع الكبير حيث هجمت فرسان الفرنسيس على الجموع ، والسيوف الطويلة تعلو وتهبط فى أيديهم ، وتلا ذلك ظهورهم عند لفتة الحارة .

وكان الماجور لافون فى الطليعة فالقى نظرة سريعة على تلك الفئة الصغيرة الواقفة بالباب تحميه وتحرسه ، ثم رفع بصره الى النافذة فلمح

الفتاه فى المشربية وهي تمد اليه ذراعيها مستغيثة ، وكأنها وجدت فيه المنقذ لها ولصحبها من هذه الورطة فرفع يده اليها بشهامة مجيبا عليها انه مغيثها .

وجاء عبد الله وهو راكب خلف أحد الفرسان وقال للخصى اذ رآه « لقد جئت بهم يا أفندى بمجرد أن وجدتهم فحمد الله أننا جئنا قبل فوات الأوان . »

قال الخصى « لولا وجود ذلك المتسول لكان مجيئك بعد الاوان . »
قال عبد الله « أتقول المتسول ؟ عجبا وأين هو ؟ »

فتلفتا حولها ولكن المتسول كان قد انصرف غير تارك وراءه شيئا الا مشملا تقطر منه الدماء ، تحيط به حلقة من الموتى .

الفصل الحادي والعشرون

المرتدان

على ضفة النهر وفوق جزء ناتئ فى مجراه كان ثمت دير قديم للأقباط بالقرب من قرية المعادى ، وهناك ينثنى النيل ويتسع مجراه ثم يستقيم منصبا ناحية الشمال .

وعند هذه النقطة تماما يرى الرائى آخر منظر لابراج القلعة ذات الشرفات ، وتختفى أمام ناظريه منازل المدينة ذات السطوح المنبسطة تحت هذه الأبراج .

وفي الجانب الآخر من النهر كانت هناك مركب صغيرة سائرة نحو الجنوب بجانب الشاطئ لان الوقت كان وقت فيضان ، وكان قيدومها (مقدمها) يشق الماء فيسمع له خرير ، وذلك لأن الريح كان يدفع شراعها بشدة .

وجلس فى المركب امرأتان من الاهالي وكانتا متألمتين حزينتين تنتحبان بين آونة وأخرى انتحابا شديدا .

وبجانب الدفة جلس رجل من الأهالى طويل القامة ممسكا بالحبال وضاغطا بقدمه على الدفة . وكان مشغولا بعمله فى السفينة ، عينا ويدا اذ كان النهر فى أشد فيضه يجري ماؤه بشدة حول رؤوس الأرض الصغيرة الناتئة فيه من الضفة ، ولكنه مع انشغاله كان يلقى بين حين وآخر نظرة رحيمة مستفسرة على رجل جلس القرفصاء فى قاع السفينة .

ولم يكن أيوب فى بلواه أروع منظرا ولا أبعث على الشفقة من منظر ذلك الرجل التعس . فقد كان الاكتئاب ظاهرا على كل ملامح وجهه المطرق به وقد وضع رأسه بين يديه ، وانحنى جسمه فاعوجت عمامته وغطى الغبار قفطانه .

ولقد كان قصيرا بدين الجسم ، وكان منظره يدل على انه كان فى أيام نعمائه وعزه رجلا مبطانا مفراحا لايحرم نفسه متعة ، يدلك على ذلك أن رقبته كانت لاتزال متوردة . ولكن وجهه كان اذا رأيته وجدته شاحبا مكفهرا ، وعيناه تنظران الى شيء ملفوف فى قطعة من القماش ملقى عن كثب منه في السفينة تحت الشراع ، وهو فى صمت عميق وحزن شديد .

واشتدت الريح التى كانت تهب باستمرار ، فحركت الماء بشدة وأثارت عجاجه ، وحركت امواجه ، ودخل جزء منه فى جوف السفينة التى تمايلت على جانبيها بشكل يدعو الى التطير ، فالتفت الرجل الاول الى الشراع وجعل ينظر اليه نظرة القلق والهلع .

وهبت ريح أشد من المعتاد وصدمت السفينه فضغط الرجل على الدفة وحركها قليلا ليتفادى الاصطدام بنتوء بارز من الضفة فى النهر ، ثم التفت الى ماء النهر وهو يجرى بشدة حول هذا النتوء وقال مخاطبا

صاحبه بلهجة المعتذر « أرى يا مكسيم أن قد حان الوقت لطى جزء من الشراع ، فهل لك أن تمسك بالدفة الى ان أطوى بعضه ؟ »

فتلفت الرجل القصير قلقا متألما .

فأعاد صاحبه كلامه ثانيه ، واذ ذاك قام الرجل متثاقلا متباطئا وفعل ما أمره به صاحبه ، فى حين اعتلى الآخر السارية وطوى الشراع .

وبعدئذ عاد الى مكانه الاول وأمسك بالدفة ، ودفع بيد ثابتة السفينة فى طريق التيار ، مبتعدا بها عن الضفة ، وهناك استقام سيرها .

وظهر على الآخر أنه يود لو عاد الى مجلسه فى قاع السفينة ، غير أنه جعل يدير بصره حوله لحظة ، فلمحت عينه من بعيد أعلى نقطة فى القلعة وفى الحال تغيرت ملامحه .

لمعت عيناه ، وكأنما هما عينا سمكة ، بشكل جنوني ، وتقلصت عضلاته الرخوة وقال « ها هي المدينة الملعونة فهل يقدر لى الله أن أراها أطلالا دارسة ؟ هلا أرسلت جهنم عليها نيرانها وهلا اقتلعت شياطينها أهل وطنى الملاعين منها وعادت بهم اليها ليهلكوا فيها ؟ »

ثم وقف على حافة السفينة تقريبا ولوح بقبضة يده شطرها مهددا متوعدا .

قال صاحبه ينبهه وقد مالت السفينة « حذار يا صاحبى حذار . »

فانفجر هذا قائلا « ومم أحذر ؟ لقد والله وددت لو أننى مت حين رجعنا منذ شهر . ويمينا لو كنت أعرف ما كان مخبوءا لنا فى القدر لكنت رميت بنفسى لكى تلتهمنى اللجة . »

قال الآخر « ما شاء الله ! »

قال محتدما « ما شاء الله ! انك تجلس في مكانك ترمينا بفلسفتك الباردة اللعينة ، ولكن قل ما الذى فقدته انت ؟ هل فقدت ولدا لك مثلى ؟ »

قال برزانة وهدوء « نعم لقد فقدت ولدا . »

قال « اذن فأنت لا تستطيع ان تشعر بما أشعر به انا ، لا لم تبلغ بعد من الحس ما بلغته انا . ولكنى اقسم لك بالله العظيم انى سأنتقم من كل من كانت لهم يد فى موته. لقد قتلوه رميا بالرصاص فتبا لهم من قتلة ! »

قال « ظننت أن موته كان قضاء وقدرا . »

قال « قضاء وقدرا ! كلا بل كان قتلا فظيعا لم تر العين مثله . قتلوه طفلا ولم يؤذهم ابدا . وانك لتعرف ذلك الطفل الصغير اللطيف الوجه الذى لم يكن يحب أحدا غيرى والذى لم أكن احفل من الدنيا بشىء سواه . » وعند ذلك تقلصت عضلات وجهه الرخو ، واغرورقت عيناه السوداوان بدموع غزيرة .

قال وقد ارتاح بما كان من صديقه ورحب بدموعه التى اخرجته من صمته العميق « وكيف كان ذلك يا مكسيم ؟ انك أوجزت لى الحادث ايجازا . »

فظل الآخر صامتا هنيهة كأنما كره أن يثير شجونه ويذبه مشاعره عما هى فيه من ألم وتعاسة ، أو كأنما أراد أن يعبر عما فى نفسه بغير تلك التهديدات المتقطعة وتلك الايمان واللغة الغريبة ، ولكنه قص عليه القصة اخيرا بعبارة مضطربة .

قال « انك تذكر كيف اكتسح اولئك الحمقى المدينة صارخين موعدين ، ظانين أنهم ماداموا قد قتلوا حاكم المدينة فقد كسبوا المعركة . وتذكر انك تركتنى قائلا ان لديك مهمة تريد قضاءها - واسألك المعذرة ان قلت لك انى عرفت الجهة التى كنت تريد الذهاب اليها . لقد خشيت على السيدة التى فى حارة النصارى أن يصيبها اذى . »

قال بحزن « وقد وصلت متأخرا وقتذاك . »

قال « ماذا أسمع ، وهل ماتت هى أيضا ؟ »

قال « كلا ولكن لو لم تصل اليها نجدة لكان ذلك واقعا حتما . »
قال «وهل رأيتها؟» ولأول مرة بدأ الجد يظهر فى لهجة صاحبنا هذا .
قال «كلا ، وانما رأيت شرذمة من الفرسان وقوفا ببابها يزيحون ما تكدس عنده من جثث القتلى . ويلوح لى ان الغوغاء هاجموا الدار ولكنهم ردوا عنها . »

قال « نعم لقد كان الفتى عثمان المملوك هناك . ولقد كان من حسن الحظ اننا فكرنا فى الذهاب به الى تلك الدار ، ومع هذا فانه وحده ما كان يستطيع ان يوقف هذه الجموع ولو انهم رعاديد جبناء . »

قال « لقد رأيت رضوان الخصى هناك ، وان الواحد منا ليتبين وجهه وقامته فى أي جمع يوجد فيه ، ويخيل الى انه عرف كل شئ فاستنجد فانجد . ولكن قل لى انت ماذا حدث لك ؟ »

قال « لقد سرت الى بولاق بعد ذهابك ، واقسم لك اننى ما قصدت بذهابى سوءا ، وانما اردت ان أرى طفلى الصغير ، ولم أره كما تعلم ، منذ واقعة انبابه .

« وكانت المدينة فى هرج ومرج والقتال ناشب فى الشوارع . وأقسم لك مرة اخرى اننى ما كنت أقصد الاشتراك فيه ، ولكنى ، وأنا على مقربة من دارى اسير حول سورها الخارجى ، رأيت جنديا يطوف به فأيقنت انه لا بد أن يكون قد ضل الطريق والفرقة التي هو منها وأنه قد أوذى من الغوغاء بدليل ما رأيته عليه من الدماء وما كان يبدو عليه من شرود النظر ومن الالم .

« فصوب الى حربته (سنجته) ثم أمسك الملعون بتلابيبى . وفى تلك اللحظة خيل الى كأنما ذلك الجندى فى أثوابه اللعنية تلك هو رمز شقائى الماضى وسبب آلامى ، ولذا وثبت عليه والقيته أرضا ورفسته بقدمي ، فجعل يصرخ ويصيح فضربته بمؤخر البندقية على

أم ناصيته لاسكاته وكدت أقتله لولا أنى سمعت أصواتا تقترب ناحيتنا فجعلت أجره حتى ألقيته خلف دغل من شجر الصبير ، ثم عدوت وتسللت الى الحديقة خلال ثغرة فى الجدار .

« وكانت أبواب دارى موصدة ولكنى دخلتها من باب سرى ، وكان الخدم قد ولوا الادبار أما زوجي فقد وجدتها هناك ، فلما رأتنى رحبت بى وكان فرحها عظيما لانها ظنت انى قد قضيت نحبى ، ثم راحت تعتب على تركى اياها ، واما الطفل فقد ألقى بنفسه بين ذراعي صائحا من فرح وعلق بساقي كأنما خشى أن انصرف عنهم ثانية .

« ومكثت فى الدار حتى الغروب وأنا اسمع طلقات الرصاص وصيحات الناس ، ووددت ان اتسلل من الدار ثانيه ، ولكنى وجدت بعض الجند يرقبون دارى ، ولمحت بينهم ذلك الجندي الذي ضربته فتمنيت اذ ذاك لو أننى كنت ذبحته ذبحا

« وهناك اختفيت خلف شجرة سنط لأرقبهم ، ولكن احدهم لمحني فصاح على الباقين ، فوليت ظهرى لأجرى ولكن الطفل ، وكان قد تبعني دون أن أشعر به ، تعلق بثوبى فلم استطع ان اتركه . وبدافع منى حملته بين ذراعي وانطلقت به ركضا .

« ولم يستطيعوا ملاحقتى لانى كنت أعرف كل لفتة وكل مكمن فى الحديقة ، غير انى وانا أثب الى ثغرة فى الجدار تفضي الي النهر رآنى أحدهم ، وكان مختبئا هناك ، فرفع بندقيته الي كتفه وأطلق على النار . وعندئذ سمعت شهقة ، واني لأسمعها الآن تتردد فى أذنى ، وبعدها شعرت بنقط الدم الحار تساقط على صدرى .

« لم انتظر ولم اتمهل بل جريت واختفيت فى الظلام عن اعينهم ، الى ان وصلت الى القارب ونزلت الى قاعه مع الطفل . ولم يرفع ولدى بالانين صوته ، بل أمسك بيدى وظل كذلك الى ان جاد بأنفاسه

الاخيرة بعد هزيع من الليل .

« وبقيت في مكاني ذاك غداة ذلك اليوم الى أن جئت انت وزوجتك ثم بعدها جئت بزوجي فاطمة وانطلق بنا القارب عند طلوع الفجر . »

فهز الاخر رأسه وقال « ولقد انتهت مهمتنا على ماهو أسوأ من الخيبة يامكسيم . »

قال « لا اكتمك انى كنت اتوقع ذلك . أظننت ان القاهريين يثورون ويطردون الفرنسيين من البلاد ؟ لقد كنت مجنونا اذ تخيلت ذلك . »

قال استيفن وقد وصل الى آذانهما لجب ضئيل بعيد « انهم يدفعون اليوم ثمن ذلك ، فقد حطم الفرنسيون المتاريس التى اقيمت فى الشوارع وقد أحاط كافاريلي المدينة بحلقة من المدافع ، وعند ماتركت المدينة كان خمسون من المشايخ فى غياهب السجن وكان الفرنسيون يربطون خيولهم فى الازهر . »

قال « دعهم ، بين غالب ومغلوب ، يتألمون فانني أمقتهما معا . »

وفى تلك اللحظة كفت المرأتان اللتان فى مقدم السفينة عن العويل وانشغلتا في حديث غير مسموع ، وعاد مكسيم الى صمته الاول وجلسته الاولى . ولكن لم يكد المساء يقبل حتى ألقي استيفن نظراته المتفحصة عليه ثم على الشبح الملفوف الملقى في قاع السفينة .

ولاح عليه غير مرة أنه يريد ان يتكلم الى أن قال اخيرا « مكسيم ، نحن الان فى نهاية اليوم الثانى . » وعاد ذلك القول الى ان سمعه الاخر فأجاب بعد ان فهم المقصود بصعوبة وقال محتجا « لا . لا . لم يحن الوقت بعد . »

قال بسكون وتؤدة « بل لقد آن ياصاحبي . »

فأخذت الرجل البدين رعدة وقال « أعلم ذلك ، أعلمه تماما ، ولكن لننتظر قليلا . »

قال الآخر منذرا «ولكن لايلبث الليل أن يرخى سدوله .»

فلم يجب الآخر فظن استيفن أن سكوت صاحبه رضي وموافقة وعندئذ حول دفة السفينة الى الشاطئ حيث كان هناك نخيل على مقربة من حافة النهر .

وانزلق القارب على الطمي الاملس وهو يتمايل على جانبيه مع التيار الى أن ثبت ورسا .

فأيقظت صدمة القارب صاحبنا الفرنسي من ذهوله وتلفت فزعا يمنة ويسرة ، وخرج من بين شفتيه شبه احتجاج على ذلك .

وكادت المرأتان تعاودان البكاء والعويل لولا ان استيفن أوقفهما عن ذلك باشارة آمرة منه ، ورفع ثوبه وقفز الى الماء ، ورفع القارب لكى يقربه الى الشاطئ ، ثم دق في الارض وتدا وربطه فيه .

قال « أعطنى الطفل يامكسيم . » ثم مد ذراعيه .

فانفجر الآخر كالوحش قال « كلا . كلا . انه طفلي . قالت لك انه طفلي ولن يمسه أحد غيرى . »

وتلفت حوله بعينين ملتهبتين ونظر الى الجثة المدرجة في الثوب ثم الي الشاطئ ثم الى النهر ثم الى السماء ، وكأنما كان يسائل الجميع سؤالا مبهما ، ثم نهض ببطء وانحنى فوق الجثة والتقطها وضمها بين ذراعيه وكأنه يحمل طفلا هاجعا يخشى أن يوقظه ، ثم وثب غير مكترث بثوبه الى طمى النهر ومائه ، ومشى متمهلا يحمل وديعته الى الشاطئ .

فانتحبت المرأتان وحثتا التراب من قاع القارب على رأسيهما .

والتقط استيفن فأسا من مؤخرة السفينة .

وللحال وثبت احدى المرأتين وهي تقول « ولدى ، ولدى . »

وكادت تقفز من فوق حافة القارب لولا ان استيفن ردها وعاقها عن ذلك ، فهجمت عليه كالوحش منشبة أظافرها واسنانها ، ولكن الاخرى

أحاطتها من خلف بذراعيهـا ، واجتـذبتها الى القارب وهى لاتزال تصرخ وتولول .

قال « يحسن ان تبقى معها يافاطمة . »

قالت « طيب ياسيدى انى باقية . »

ولكن الاخرى وكانت أطول الاثنتين بدأت كفاحها ثانية وقالت «لا، لا، انى لابد قادمة ، انى لابد قادمة . »

ظهرت الحيرة على وجه استيفن ، فانه من جهـة لا يريد أن يرى منظرا محزنا عند دفن الجثة ، ومن جهة أخرى خشى ان يتركهما معـا منفردتين .

قال « حسن واذا جئت هل تضبطين نفسك وتحسنين السلوك ؟ »

قالت « أعدك بذلك وانما اسمح لى بالمجئ . »

قال « اذن فتعالى . » ثم حملها الى الضفة

قالت الاخـرى وقـد فـرغ صبرها « وهـل تسمح لى أنا أيضا ياسيدى بالمجىء؟ »

قال « ولعل ذلك يكون خيرا مما لو بقيت . » ثم حملها هي ايضا من القارب .

وكان الفرنسى خلال ذلك لايشعر بما هو جار حوله ، فوقف على الضفة صامتا واجما وهو يحمل ابنه على ذراعيـه ، وسار استيفن فى المقدمة حاملا الفأس والفرنسى في أثره لاينبس ببنت شفة ومن ورائهما المرأتان تنتحبان فى صمت وسار الجميع فوق أرض غير ممهدة .

وعنـد اشجار النخيل وقف استيفن وأدار هناك بصره الى أن استقر على قطعة أرض لينة بجانب نخلة وبدأ يحفر لحدا .

وتطايرت قطع التراب الناعمة الجافة تحت ضربات فأسه القوية وما هى الا لحظات حتي احتفر للجثة لحدا واسعا عميقا .

ووقف حران يتصبب منه العرق من جراء ذلك العمل الذى لم يتعوده ثم اتكأ لحظة على فأسه وقال « لقد تهيأ اللحد يامكسيم وهاهو الضوء آخذ فى النقصان . »

وكأنما قد رأي صاحبنا مكسيم فى كلماته تلك فرصة لينفس عن كربه فمضي يقول « تهيأ ؟ لطالما سمعتك تكرر هذه الكلمة ، وانى لاطالع فى عينيك السرور اذ تري نهاية ولدى . ألم أشهدك تنظر اليه خمسين مرة نظرة الكراهية والسآمة؟ ولكن ماامرك به وما أمره بك ؟ لقد جعلت ميولك وحنوك وقفا على نفسك ، فصرت قفرا من كل عاطفة انسانية خلوا من كل حس وشعور ، ولهذا اراك تضحك منى وتسخر ، وتأخذ على هذه العواطف . وانك لتراني على استعداد أن أرمي بنفسى بين لهب الجحيم لاجله ، فماذا صنعت انت لاجل زوجتك الاخرى لا تلك المسكينه الواقفه هنا الآن ، التى ليست في الحقيقة الا معشوقة ممتازة ؟ قل ماذا صنعت بالاخرى التي تقيم في حارة النصارى والتى بقطع النظر عن اعتبارات شتي ، تفضلك الف مرة ؟ تقول انك فقدت لك ولدا ، وانك لتقولها كأن الذي فقدته جواد أو كلب . اتقول ان اللحد قد تهيأ ؟ رحمتك ياأرحم الراحمين . »

فامتقع وجه استيفن وثارت ثائرته ، ولكن غضبه لم يلبث ان تبدد واستحال الى خجل وحياء فلم يفه بتلك الكلمات الحارة التى كانت متحيرة على شفتيه ووقف ينتظر ما سيكون صامتا لايبدى حراكا .

قال مكسيم لاهثا « انها لحفرة كلب . لا والله ما هو بمدفون فيها كما يدفن الكلب أو يلحد المسلم فى الأرض العاربة . » واذ قال ذلك ألقي حمله ونزع عنه قفطانه الحريرى ونشره في الحفرة بعد ان بسط بيديه ثناياها وغضونها ، كأنما جثة الطفل ستحس بخشونتها والقفطان من فوقها ، ثم وضع الجثة ببطء فوق ذلك البساط في صمت عميق

وروعة رهيبة .

انتظر استيفن هيلز فترة ثم أراد ان يهيل التراب على الجثة ولكن مكسيم أوقفه وقال هامسا «اقد مضت سنون عدة كنت لا اسمع خلالها في مثل هذه الظروف شيئا سوى تلك التمتمة التي يسمونها صلاة الجنازة وهي التي تقال في المسجد ، فهل تذكر طقوس الدفن وما يتلى من الصلوات التي كنا نسمعها ونحن صبية صغار في بلادنا ؟ لقد نسيتها وانا لا أريد ان يدفن الطفل كما يدفن الكلب أو المسلم وهو على كل حال ولدي . »

عندئذ تجمعت بمخ استيفن افكار وذكريات قديمة ، واخيرا نطقت شفتاه ببطء وتردد بقطع من صلوات الدفن ، تلك الصلوات القديمة الرقيقة التي طالما سمعها من قبل كثيرا ، ووقف على الحفرة عاري الرأس وكان قد خلع عنه عمامته مدفوعا لذلك بشعوره القديم ، وجعل يقول « — الي رحمة الله حتي يوم البعث العظيم . آمين آمين . »

وضجت المرأتان بالعويل ، وتساقطت الدموع صيبة على خدي الفرنسي الشاحبين المنتفخين ، في حين جعل استيفن هيلز يهيل التراب الناعم الجاف على جثة الطفل الذي ولد مسلما ودفن كما يدفن المسيحي.

ولم يمض نصف ساعة الا ونشر الشراع ، وسار القارب المرتفع مقدمه ميمما نحو الجنوب يحمل استيفن هيلز ومكسيم ليجراند وزوجتيهما الى معسكر مراد بك في الصعيد .

وبدأوا سفرهم والمدافع الفرنسية تقصف قصفا هو أشبه شيء لآذانهم بالسخرية من نتائج بعثتهما والهزء بما خاب من آمالها ، وتدوى دويا هو في الوقت نفسه بمثابة ناقوس الموتى يدق معلنا فشل مساعي القاهريين في التخلص من ذلك النير الملقى على كواهلهم .

الفصل الثانى والعشرون

غرام عثمان السلكتار .

في عصر يوم ، وكان عثمان قد أبل من جراحه وان كان لا يزال يخمع فى مشيته ، خرج مع الخصى في نزهة من بركة الفيل متجها نحو الشمال .

قال الفتى « اذن أنت ترى ان هؤلاء الفرنجة مقيمون هنا الى وقت قريب . ولكنى سمعت أنهم جاءوا من فرنسا بقوم من مواطنيهم ليسكنوا بلادنا ويزرعوا أرضنا . »

فابتسم الخصى وقال « بل عليهم أن يفروا من هنا أما سمعت أن السفن الانجليزية تجول فى البحر وتذرعه ذرعا ، وها قد مر عام ولم يجىء مدد من فرنسا للقوة المرابطة ببلادنا ؟ بل ألم تسمع أيضا بأن نفس السفن التي حملت الجنود الفرنسية الى مصر قد اغرقت فى خليج ابي قير ؟ »

قال « ومع هذا فان البلد لا يزال فى قبضة أيديهم ، وابى في بلاد النوبة يطلب مأوي يأوي اليه ، وابراهيم قد هاجر الى الشام ، فمن ذا الذى سيتولى طردهم اذن من البلاد ؟ »

قال « صبرا يا بنى صبرا ، فالطاعون وسيئات افعالهم قد تفعل ما عجز عنه مراد ومماليكه . »

قال « ولكن ألا ينطلقون الي بلاد الشام ومن هناك يذهبون الى بلادهم ؟ »

فاستضحك الخصى وقال « انك ياعثمان قد قضيت معظم وقتك فى المشمل والهراوة والخيل ، وان الشيخ الصفير عبدالله ليسخر منك جهلك ، فهناك بلاد عديدة واصقاع كثيرة لابد لهم من المرور فيها

قبل أن يصلوا الى بلادهم، هذا الى ان الامور في عكا ليست على مايرام، فلا زال الجزار واقفا باسوارها وهو ليس بالرجل الذى احبه ولكنه شجاع باسل عرفته منذ زمن بعيد حينما كان ضمن مماليك محمد بك. أما القائد الفرنسى فهو رجل عظيم وانى لأعرف ما فعل بايطاليا، ولقد حدثنى الضابط البحرى الذى قابلته فى بيت السيدة الفرنجية باشياء كثيرة عنه . على انه اذا فشل فى الاستيلاء على عكا ففى ذلك نذير سوء وليحذر بعدها كل الحذر . »

قال «اننى احب هؤلاء الفرنجة فانى اجد فيهم مايجتذبنى اليهم. وتلك لعمرى بطولة منهم أن يغيروا على بلاد بعيدة عنهم هذا البعد ويفتحوها وبعدئذ يعاملون اهلها كما ترى من معاملتهم لنا . ولا يفتك أنهم يعلمون انى امتشقت الحسام ضدهم، ومع ذلك يتركوننى آسير فى الشوارع طليقا لايتعرض لى أحد منهم بسوء . ثم ألم يعدنى الطبيب الفرنسى فى مرضى ويعنى بأمرى كانني أخ له؟ولم اجد من بين العديدين الذين عرفونى منهم، من كشف سرى رغم تلك المكافأة التى وضعوها ثمنا لرأسى . »

قال الآخر ذاهلا « انهم قوم غريبو الطباع . ولو اننى استطيع أن أولد من جديد وخيرت فى امرى لاخترت ، ولا اكتمك الحق ، ان أكون فرنجيا . »

قال من عجب « ماذا يا رضوان افندى أتؤثران تكون غير مملوك ؟ »

قال مبتسما « بل ولا أريد أن أكون مملوكا فلقد دالت دولة المماليك وانقضت أيامهم واصبحوا فى عداد الموتى من نحو مائتى سنة وعفت آثارهم لا كما تظن انت انهم انقرضوا عقب معركة أنبابة ، فلم تكن تلك المعركة سوى الفأس الذي استأصل الجذر الميت الذى

نخره السوس . »

قال « وتريد ان تكون نصرانيا من اؤلئك الذين خفت وطأة دينهم عليهم اليس كذلك ؟ »

قال « وانه لدين لا بأس به جاء به النبي عيسى عليه السلام . الم اقرأ هذا الدين ؟ أعلم ان القوم غير مستمسكين بدينهم، وليس العيب على الدين نفسه وانما العيب عيب اهله اولئك الكلاب، المنحدرين من كلاب، الذين غاب عن مداركهم فهم تعاليمه العالية .

« انه دين يدعو الى السلام وان كانوا يثيرون نيران الحروب، وهو يحرم السرقة وان كانوا يغيرون على بلاد غيرهم ، وهو ينهاهم عن القتل وان كانت رفات القتلى في سهول أنبابه تشهد عليهم أنهم قتلة سفاكون للدماء، وهو يحرم عليهم ان يغتصبوا زوجات غيرهم وانك لتعلم كما اعلم أنا مسلك الشهوة الذى سلكوه هنا في القاهرة . »

ثم اشار الى منشور لا تزال آثاره عالقة بحائط قريب منه والهواء يلعب به كل ملعب وقال « ألا انظر الى ذلك المنشور . انه يقول لا ينبغي ان تنكر الملك القدير ومع ذلك الم يقل القائد الفرنجي هنا » واشار باصبعه اشارة الاحتقار « انه مسلم صميم ؟ ياله من كاذب مخادع!

« لا ، لا ، ان هناك نصاري خير من هؤلاء يا عثمان، والا لانقرض دينهم من زمن مديد ، ولا تنس ان دينهم ظهر قبل مجيء نبينا عليه الصلاة والسلام بالهدي والنور والفرقان بسبعمائة عام . »

اصغى الفتى لحديث صاحبه صامتا وكان معتادا ان يستمع منه مثل هذه الآراء الغامضة ، ومثل تلك الصور الغريبة الصريحة التى يندر سماعها من مسلم.

قال « وماذا تظنه يحدث عند ما ينزح الفرنجة عن هذه البلاد ؟ »

قال « لا يعلم ذلك الا الله وحده ، ولكن ستجىء أيام يسود فيها الاضطراب ، والويل يومئذ للذين شايعوهم منا وساعدوهم ، والويل أيضا لمثل أولئك النسوة الفسقة الفجرة . » ثم أشار الى جنديين فرنسيين قدما اذ ذاك ثملين مرحبين وهما يحتضنان امرأتين من المصريات عاريتى الوجهين لا تكترثان بنظرات السخط التى كان يرمقهما بها المارة والسابلة ثم قال الخصى متمتما « انهما تضحكان الآن ضحكا عاليا ولكن صراخهما فيما بعد سيكون أشد واعلى . »

قال عثمان « لئن كان حدثنا بما نرى اليوم محدث منذ سنتين لاستضحكنا كما يضحك مدخن الحشيش عندما يهذى ويهذر . »

قال « كلا بل كان ذلك منتظرا متوقعا من زمن مديد . الا تذكر يا عثمان تلك البذور التى جئتنى بها من الرحمانية ، وكان ذلك فى اول مرة حضر فيها الشيخ الصغير عبد الله الى الجيزة ؟ »

فهز الآخر رأسه .

وتابع الخصى حديثه قال « أجل ، لقد كانت تلك البذور تحوى انباء عن مهندسين فرنسيين ، كانوا يمسحون البلد يومذاك ، وقد كاشفت مرادا بالامر فما كان منه الا أن ضحك منى . »

قال دهشا « يا عجبا ، وذاك ما كانت تحويه تلك البذور ، ولقد قلت لي يومذاك انني سأذوقها اذا نضجب وآكل من ثمارها ، ووالله ماظننت اذ ذاك انها تحمل مثل هذه الانباء . » ثم لمس الفتى المملوك وهو مهموم ساقه العرجاء وقال « ولقد ضحكت منى يومئذ لصداقتى لعبدالله الصغير ، وقد ظهر فضل هذه الصداقه على كما تعلم . »

قال الخصى بلهجة رهيبة « ان لله حكمة لا تدركها العقول والافهام . »

قال « لقد انقذ ذلك الغلام حياتى مرتين ، مرة في انبابة واخرى

حين هاجم غوغاء القاهرة المنزل الذى فى حارة النصارى وجاءنا هو بالمدد . »

قال « ولقد كان ذلك المدد سيجيء بعد فوات الوقت لولا ذلك المتسول . فمن كان ذلك المتسول ياعثمان ؟ » واذ قال ذلك نظر الى الفتى نظرة الحائر المضطرب .

قال « لم يكن الا أحد المتسولة . ولست اعلم من امره اكثر من أنه ساعد على تمريضى . ولئن كان قد أصيب بالعرج فى ساقه فان الله قد وهبه بعض المهارة فى التمريض والتطبيب . »

قال « لو أن الامر اقتصر على ماتقول لكفى ، ولكنى لم أر متسولا فى حياتى يحسن الضرب بالمشمل مثله . وان مرادا نفسه ماكان ليستطيع ان يطعن بهذه السرعة ، فلقد كان المشمل يصفر فى يديه كأنما هو كائن حى ، وقد كانت الضربة التى وجهها للرجل الذى حاول ان يطعنك سريعة كالبرق الخاطف . نعم رأيتها وما كان أشبهها بضربات المماليك . لست أعرف بعد مراد بك الا واحدا يستطيع أن يضرب مثل هذه الضربة . »

قال « ولعله ذلك المملوك الفرنجى الذى كان صديقك ؟ »

فقطب الخصى جبينه وكأنما تذكر ذكرى اليمة .

وقال عثمان « بربك ألا ماحدثتنى عنه ؟ لست ادرى لماذا تفتننى سيرته وتستهوينى قصته ؟ »

قال الخصى « لاعجب ان استشعرت ذلك منها : » ولما ان رأى عثمان لا يزال ينظر اليه نظرة المستفهم المستقصى قال : « لقد كنت مملوك مراد بك وكان مصطفى بك يوما أعز صحبه وخلانه . وكان هو أيضا قد تنبأ بأن الفرنجة لابد يوما مغيرون على البلاد ، وكان ذلك حديثه الذى مافتئ يردده ، ولا أدرى ان كان مراد اليوم وهو

فى الصعيد يذكر تلك النبوّة . وانى لاعلم أن ايوب كان يرى ذلك ايضا لانهما كانا متشابهين ذهنا واصالة رأى . ولطالما سمعتهما ينصحان لمراد بك ليتصافح مع ابراهيم بك لكي يكونا حليفين متآزرين فى ساعة الخطر . »

قال « وهل كانت ندرة مجىء أيوب للجيزة بسبب ذلك ؟ »

فهز الخصى رأسه مؤمنا وقال « لقد مضى زمن كنا فيه نحن الاربعة كالاخوة الاشقة ياعثمان ، ولكن منذوقع ذلك الحادث الاسيف لمصطفى حدثت نفرة بين أيوب ومراد . ووالله ان فؤادى ليتمزق حين اذكر ذلك الآن ، وذلك لانى لوكنت حاضر أمرهم يومئذ لاصلحت بفضل الله ذات البين ، ولكنى كنت غائبا فى الاسكندريه مع السيدة نفيسة فقد كانت مريضة ، ولما عدت الي القاهرة كان قد سبق السيف العذل . »

قال عثمان « ومن ذا الذى كان يشبه مصطفي بك شكلا ؟ »

فنظر الخصي اليه وجالت عيناه ببطء وتفكير وجعل يصوب بها فى وجه الفتي ويصعد . وكان على وشك أن يجيب لولا أن الخضي تضاحك وقال « ألا تستطيع أن تتحدث عن غيره ؟ دعه هادئا فى رمسه ، ولا تحاول ايقاظ اشباح الماضى وخيالاته ؟ فخير لهؤلاء ان يناموا هادئين . »

قال عثمان فى النهاية « لا يمضى زمن طويل حتى الحق بأبى ، وستكون ساقى بحيث استطيع الركوب . »

ابتسم الخصى وقال « لقد دهشت حينما كانت هذه الحوادث تجرى باعثمان . »

قال « لقد كان يجب أن تقع هذه الحوادث من زمن مديد ، وانى لاستشعر من نفسى للمهانة والصغار ، اذ بقيت هذا الزمن الطويل راكدا مريحا فى دعتى ، في حين أن ابى وحسن والألفى وبقية الاخوان

مشردون فى صحراء بلاد النوبة . ولست أكتمك انى سائر اليهم غدا . »

قال « ولكن لابد من اعداد العدة للسفر . »

قال « لقد أعددت نفسى بالفعل ، وسأبحر فى النيل غدا الى أسيوط ولا شك انى واجد من أنبائهم شيئا هناك . لقد مكثت هنا طويلا ، ووالله لقد كنت أود لو سافرت منذ شهرين . »

قال « ولماذا ؟ لم تكن هـذه الفترة التى قضيتها ياعثمان شدقة كلها بالاحزان والاوجاع . »

قال « كلا ولكنى أعتقد أنى لم أكن سوى كائن حقير فى وسط مدينة واسعة الأرجاء . انك تعلم أن الخيل والسلاح هما كل طلبتى فى هذه الحياة ، وقد كنت فى هذه الفترة أعيش كأحد أبناء البلد ، أصحب الفرنجة والمشايخ علي السواء ، ناسيا أن لي اخوة حاربوا لأجل الملة والدين . الا فليغفر لى الله تقصيري قبلهم . »

قال « ولكنك لم تقض وقتك عبثا ياعثمان ، فلقد تعلمت أمورا لم تكن قط مستطيعا تعلمها فى الخيام والمعسكرات ، وانك لتستطيع الآن أن تخدم أباك ، بما استفدته ، خيرا مما لو لم تكن قضيت هـذه الفترة هنا . »

قال جادا « أو تظن ذلك ؟ »

قال « بلى ، أليست معرفتك بالأمور نافعـة ، ثم اليس وقوفك على أحوال عدوك سر الفوز فى الحـروب ؟ صدقنى أن تلك الفترة لم تقضها عبثا ، فانك لن تستطيع أن تعـود مملوكا كما كنت ، لا تفكر في شيء سوي جوادك ومشملك . لقد خضت غمار حياة أخرى أكبر من حياتك الأولى ياعثمان . »

قال « كنت أفضل يارضوان لو انى بقيت أجهل هذه الامور ، ولطالما وددت لو أننى تركت فى سهول انبابه قتيلا مدرجا بدمى . »

فبدا فى عينى الخصى طائف الاضطـراب والحيرة وقال « أعرف سبب ذلك ياعثمان ، نعم أعرفـه . وانى وان كنت غريبا عن عواطف الحب ومشاعره الا انى أستطيع ان اتبين بريق الحب فى عينى العاشق . »

قال « اراك قد وقفت على خبيئة أمرى ، وكنت أظن أنه لم يلحظ ذلك أحد البتة . »

قال « سر عن نفسك فقد تتحسن الاحوال اذا ماانقضت هـذه الازمنة الثائرة . »

قال الفتى دهشا « أظننت أنى أرتضى لنفسى زوجة تكون قبـل ذلك قد ارتمت فى أحضان رجل من الفرنجة ؟ »

قال الخصى « ماذا تعنى بقولك ؟ » ثم أدرك الخصى لسرعة خاطره الحقيقة فبهت وصعق وقال « رحمتك اللهم ، اذن فأنت لاتهوى الفتاة التي ساعـدت فى تمريضك ؟ تبالى من أحمق غبى ! ظننت أنك أحببت أخت الشيخ الصغير ، وأن حبها قد برح بك ، وانك لهذا كنت كثيرا ماتغشى دار تلك المرأة الفرنجية . اذن أنت تحب نظلى ابنة الشيخ البكرى ؟ »

قال « نعم هي نظلى التى تيمنى هواها والتى أخذها ذلك الضابط الفرنسى ، لعنة الله عليه ، الى داره . »

فلم يحر الخصى جوابا ، وانما ظهر في عينيـه ظل الألم والأسف والحيرة . وتابع الفتى حديثه قال « نعم لقد أحببتها يارضوان ، فحينما كنت طريحا على الفراش بين الحياة والموت ، وكانت السيـده الفرنجية تتركنى لحظة ، كانت هذه الفتاة تختلس الخطى الى حجرتى ، ويدفعها الفضول فتطل على وترمقنى بنظرات الطفل ، فاذا ماسمعت وقع الخطى يقترب من حجرتى انفلتت هاربة مسرعـة . ولـكن شبحها لم يكن ليفارق مخيلتى ، لأنى كنت أراها فى أحلامي تجيئنى من تلقاء نفسها فتملأنى في هجعى بشرا وسرورا ، حتى اذا ماستيقظت من نومى

تسخطت وتألمت . ولطالما كنت أتخيل ماكان يحدث ، وقد عاد مراد ثانية الى سابق مجده وأصبح شيخ البلد ، اذا ماأنا أدليت اليه برغبتى فى الزواج ، فأراه يضحك ضحكته العالية ويقرنى على عزمي وعلى انى انتويت الزواج فى حينه ، ثم ينطلق الى دار أبيها الشيخ البكرى ، ويسأله يد ابنته لى ، ويهىء للأمر عدته .

« ولما أبللت من وعكتى ، وتحسنت صحتى ، صرت أتمنى ان أجلو عينى بنظرة منها . وكنت أحييها بين آن وآن ، وان كانت السيدة الفرنجية حذرة عليها مترصدة ، لأنها بمثابة الوديعة لديها . ولكن ذلك الوغد الفرنسى رآها فراقه جمالها فرغب فيها . أليس الفرنجة هم سادة هذا البلد ومالكو أمره ؟ فلما كان يوم الفتنة انتهز الفرصة السانحة وادعى أن الدار لايمكن ان تكون فى مأمن من الغوغاء بعد ذلك . واذ هدأت الحال واستتب الأمر لم أشعر الا والفتاة قد فرت ، ولا نعلم الى اين فرت . ولكنا علمنا اليوم ان ذلك النصرانى اللعين قد آواها الى داره ، كما فعل الكثيرون من زملائه الضباط ، ويقولون انها تعيش معه بل وتظهر سافرة الوجه لدى زيارة صحبه له . جعل الله جهنم مصير ذلك الوغد السافل . »

قال « حقا ان تلك الحادثة محزنة ، وقد بلغنى ان اباها الشيخ كاد يموت من العار . »

قال « علي أني لست أدرى أيهما أشد حزنا علي هذا الحادث ، الشيخ أم المرأة الفرنجية . فقد حبس الشيخ لسانه لا ينطق بشىء وانما زادت صلواته عن ذى قبل ، اما المرأة الفرنجية فقد ذهبت الى دار ذلك الضابط ويقولون انه وعدها ان يتزوج منها على سنة المسيح ، ولكن نظلي استضحكت لذلك وقالت لهذه الفرنجية انها لاتهتم لأمر الزواج ، وان العيش الذى تنعم به مع ذلك الفرنجى أشبه شىء بالجنة ونعيمها . »

قال الخصى « نعم ولكن الى حين ، ثم لا تلبث أن تدفع ثمن ذلك غاليا . »

قال « بل هو الذى سيدفع ذلك الثمن ، لانها لا تزال طفلة غريرة »

قال « قد تأثم وهى طفلة فاذا ما صارت امرأة تلقت جـزاء ما اجترحت . »

وكانت الشمس قد غربت ، وبدأ الظلام ينتشر رويدا كما هى العادة فى ليالى مصر ، وبدأ الأهالى يضعون على منازلهم مصابيح صغيرة مصنوعة من الورق ، كما أمرهم بذلك القانون الجديد الذى سنه المحتلون.

فقال الخصى « لقد آن لنا أن نعود الى المنزل يا عثمان . »

قال وقد ادار وجهه نحو حارة النصارى « كلا لم يأن بعد . »

قال الخصى يسأله « أتريد أن تزور السيدة الفرنجية ؟ »

قال « تلك آخر ليلة لى فى مصر ، ولئن سافرت دون أن أودعها بكلمة كنت خسيسا ناكرا للجميل . »

فهز الخصي رأسه موافقا على ذلك وقال « لنعم ما تفعل . »

ثم انعطفا فى زقاق ضيق خـلا من الأبواب الكبيرة التى كانت تكنفه وتقيه ، لان جيش الاحتلال كان قد انتزعها ، ثم مرا ببيت جول ليفبر وسارا حتى وصلا الى بيت مرغريت هيلز .

ولم يلحظ احد منهما شبح رجل كان قد تقدم كأنما يريد ان يخاطب عثمان ، ولكنه تراجع مسرعا اذ رأى شبح الخصى الطويل ، واختبأ فى كوة هناك ، وجعل يرقبه وقد ابرقت عيناه ، الى ان دخل الرجلان البيت .

وفى داخل البيت جلس جمع صغير يتحدثون . وجلست مرغريت الى ابرتها وحيكها ، وقد بدت اكبر سنا واكثر شيبا منها قبل اليوم ، ولكن لم تفارق تلك العذوبة الرقيقة وجهها الذي تبدو عليه مخائل

الشجاعة والصبر . أما جول فكان فى عمامته وقفطانه، اللذين اصبح لا يفارقهما ولا يفارقانه، يقرأ بصوت عال صحيفة اسمها «ديكاداجبسيان» كان مكتب الجيش ينشرها مرتين فى الاسبوع . أما عبد الله، وكانت عمامته كما هى عادته مائلة الى الوراء، فقد كان يلاعب نفيسة الشطرنج ، وكانت نفيسة تتكلم وتثرثر وتسأل الأسئلة وتصرخ متسخطة لما أمات عبد الله ملكها وكسب منها دور اللعب .

وكان عبد الله قد فارقه حياؤه القديم ، وكان يختلف الى حارة النصارى ليري أخته . وكانت هذه قد الفت دار مرغريت ، وكانت لا تخشى أ كثر من الرجوع الى القاهرة لتقيم مع على فرج وخالتها . على ان عبد الله مع ذلك لم يكن يفارقه ذلك الوجل والاضطراب فى حضرة مرغريت ، فان كرم وفادتها وترحيبها الشديد به كان دائما يهيج نفسه ويثير شجونه .

غير أنه كان أخذ رويدا ينسى انه كان يكلم مسيحية ، وراح يدلى اليها بآماله وأطماعه ، ويشرح لها ما يعمله فى الازهر ويصف لها مبلغ نجاح العمل فى ذلك السفر العظيم الذى وضعه أستاذه ، فاذا ما قرأ لها بعض ما فيه تبسم ليفبر ابتسامه المتغاضى وتثاءبت نفيسة ، فى حين تصغى مرغريت بكليتها اليه ولا تضجر منه .

فلما سمعوا صوت القرع على الباب ترك كل ما بيده ، ودخلت المرأة السودانية حيث هم وقالت « لقد حضر عثمان المملوك والخصى . »

فوضع ليفبر الصحيفة من يده وقد تنهد تنهد المستريح ، وتوقع من قدومهما ان يسمع نقاشا فى أمر أو يقف على أنباء جديدة ، وجمع عبد الله قطع الشطرنج وقد سره مجىء القادمين ، وتقنعت نفيسة ببرقعها (اليشمك) .

وحيا عثمان الجمع بابتسامته اللطيفة المعهودة ، وأما الخصى فحياهم

بذلك الوقار وتلك الرزانة التى لم تفارقه لحظة .

قال عثمان يخاطب جول ليفبر « أراك يا أفنـدى لا تزال تقرأ تلك الفعال العظيمة التى فعلها القـائد الفرنسى فى سـوريا ، وتتلو قصائد الشعر التي قالها الشعراء تمدحا بفرنسا ، وهى بلاد أولئك الفرنجة . تالله ان قراءة هذه القصائد تجعل الانسان يعجب كيف ان مواطنيكم نزحوا عن بلادهم ، وهذه صفاتها ، الى بلاد كمصر ، وأنت ياعبـد الله كيف حال أستاذك العـالم المحترم ، وكيف حال مؤلفه ؟ وأنت يانفيسـة عار عليك أن تخفي جمال وجهك وخلابته وراء نقاب شفاف من الشاش . »

فضحك عبد الله وقال « تقول فعال الفرنسيين فى سوريا ، أنهم عائدون ياصاح ولا زال المسلمون ثابتين على أسوار عكا . »

فقال الشيخ جول « ماذا تقصد بقولك ؟ هل انهزم بونابرت ؟ »

قال الغلام « لا أعرف ذلك ، وانما الذى أعرفـه هو أنه عائد فى طريقه وان عكا لم تسقط . »

قال عثمان « ومن الذى أخبرك بذلك ؟ »

قال « ثق انى لم أسمع ذلك النبأ من الشيخ ، فالرجل لايكاد يدرى أن الفرنجة فى بلادنا ، وذلك لانكبابه على عمله واشتغاله بالجزء الرابع وهو الأخير من كتابه . »

فانبرى الخصى بصوته الرفيع يسأله أيضا قال « ومتى سمعت هذا النبأ ؟ أسمعته هذا المساء ؟ »

قال عثمان « انما تلك حكاية كاذبة أو اشاعة تسقطها من الاسواق . »

قال الغـلام محتجا « لا بل سمعتها من المتسول وهـو لا يكذب قط فيما يقول . » فتمتم عثمان مرتابا « تقول من المتسـول ؟ وأنى له معرفة ذلك ؟ »

قال عبـد الله « المتسولة فى العالم لايحصون ، ولـكن ليس فيهم

لذلك المتسول قرن أو مثيل . فهو في العلم يكاد يبلغ درجة الشيخ فضل ، وكم من مرة أفحم كبار علماء الازهر ومشايخه وأسكتهم بنقاشه المتين فى الفقه والحديث والاصول . »

قال الخصى « ألا حدثنى بأمره ياعبد الله بالتفصيل . »

فأطاع الغلام وقص كل مايعلمه عن ذلك المتسول وان كان لايعرف عنه الا القليل .

وكان الخصى يستمع اليه وهو فى أشد الدهشة قال « ألا تعلم ياعبد الله أين يسكن ذلك المتسول ؟ »

فهز الغلام كتفيه وقال « ومن الذى يعلم ذلك ؟ انه لم يحدثنى قط عن ذلك ، وأنا لم أسأله مطلقا ، وقد تمضى فى بعض الاحيان عدة أسابيع لا أراه فيها، ثم لايلبث أن يظهر فجأة بعد هذه الغيبة. وأكبر ظنى أنه لابد أن يكون به جنة ، رغم علمه ، لانى سمعته فى بعض الاحيان ينتحب ويبكى وهو يظن أن لا أحد يراه ، فما كان أشبهه بالمجانين الذين يظنون أن الله قد خصهم بجهنم يسكنونها أبد الآبدين . »

واستمر الحديث بهم فكانوا طورا يتكلمون على الاخبار التي جاءهم بها عبد الله ، وطورا يتحدثون بأمر ذلك القول الهراء الذى انتشر فى القاهرة، ولكن الخصى جلس بمعزل صامتا مذهولا غارقا فى أفكاره.

واذ رأى عثمان العم جول لاهيا ، وعبد الله ونفيسة غارقين فى التحدث بأمورهما الخاصة ، اقترب من مرغريت وهمس اليها قائلا « ياسيدتي (ياست) اننى مسافر الى الصعيد غدا . »

فأطرقت مرغريت وقالت « لقد حذرت ذلك ولكن أتقوى أنت على ما اعتزمت عليه ؟ وهل تدرى أى أسلوب من العيش سيكون هناك ، وهل لا يحسن بك أن تبقى في القاهرة قليلا ؟ »

قال « لا أستطيع وليس لى على البقاء يدان ، ووالله وددت لو أنى لم أر هذا المكان فى حياتى . ولكنك يا سيدتى تعلمين أننى لست ممن يجحدون اليد التى طوقت جيدى بها والتى أسأل الله أن يثيبك عليها . على أنه كانت تمر بى أوقات ، ولا زالت تمر بي ، كنت أتمنى فيها في قرارة نفسى لو أنك طردتني من دارك فى تلك الليلة التى جاءوك فيها بى جريحا الى بابك . »

فهزت رأسها حزنا عليه وتأسيا وقالت « انى أعرف ذلك . أعرفه يابنى . ألهمك الله الصبر وقواك على احتمال النازلة . »

قال « بل اسألى الله أن يهبني القوة لانتقم من ذلك الوغد . يالكلب السافل ينتزعها من بين أهليها أو يكون سببا فى جعلها مضغة فى أفواه الناس . انه بلا شك يفخر بصنيعه ، ويعلم الله لو التقت الوجوه لاخرسن لسانه فلا يفخر بعد الآن بإثمه وعدوانه . »

قالت « أتركه يا عثمان الى ضميره ، وهو سيخزه بأشد من طعنات سيفك . »

قال ضاحكا « تقولين ضميره ! ضمير رجل فرنجى ! انه يحمله كما يحمل مشملا أخذه من رجل آخر ، وهو به معجب فخور . »

قالت مرغريت بلهجة الجد « كلا . كلا . لا تقل ذلك ياعثمان ، ولا تفهمن انى عنه راضية ، أليس هو الذى دخل دارى ووائقته فأخلف وغدر ؟ ولكن سيأتى يوم يندم فيه على ما اجترح ، ويذرف دموع الحسرة ، ويتمنى لو أنه سدد الرصاص الى قلبه فما كان أتى تلك الفعلة النكراء »

قال « انه لو فعل لكان غريبا بين الفرنجة . أليسوا كلهم سواء ؟ يكاد لايوجد واحد منهم لم يتخذ لنفسه من نساء مصر خليلة آواها الى داره . »

قالت « كلا وانك لعلى خطأ ، فها هو الجراح لارى ، وهو الذى تدين له أنت بحياتك ، رفض قبل أن يسافر الى عكا أن يمد يده لذلك الضابط المهندس ، مع أنهما كانا صديقين حميمين سنين طوالا ، وكذلك الكابتن ديوبونت لا يكاد يرد تحيته ان صادفه فى الطريق ، وهذا المسيو ليفبر الجالس أمامك ، وهو فرنسى أيضا ، ابتدر ذلك الرجل في الطريق ، وكان قد جاء ليكلمه ، بأن قال له فى وجهه أن مابينهما من صداقة قد انتهى ، ثم ولاه ظهره ومضى . »

فالتفت الفتى المملوك ناحية العم جول ، ونظر اليه نظرة الشكر والاكبار ، وكان جول مطرق الرأس مغفيا وقال « أفعل ذلك حقا ؟ »

وفى تلك اللحظة نهض الخصى واقفا وقال « لقد آن لنا أن ننصرف ياعثمان » قال عثمان « هلم بنا . » وانتبه جول من غفوته ، وجعل يصلح عمامته بسرعة ، وأما عبد الله فقطع حديثه مع نفيسة قائلا لها « وانا أيضا لابد لى من أن أنصرف فقد تأخرت على الشيخ والرجل يعود الى داره قبل الغسق . »

وأنارت مرغريت بنفسها السلم لهم وتباطأ عثمان عند نهاية السلم وكان صحبه قدخرجوا الي الحارة وتمتم يقول «هل من رسالة أوديها لك ياسيدتى ؟ »

فحذرت مرغريت قصده وهزت رأسها .

فاسترسل عثمان يقول « سابلغه أنك لم يصبك أدنى اذي خلال القلاقل الماضيه . »

فقالت مرغريت محزونة « لن يهتم أحد بقولك هذا . »

قال مؤكدا « لاتقولي هذا القول ياسيدتى ، فقد أخبرنى رضوان اليوم فقط ، بأن فرنجيا طويل القامة ، كان مرتديا لباس اهل القاهرة ، جاء يوم هاجم الغوغاء دارك ، يشق لنفسه طريقا وسط الزحام

كالذي بعقله جنة . فلما رأى الجند هنا مضي وهو يحمد الله آونة ويتسخط ويلعن أخرى . أسعد الله مساءك ياسيدتى وأحسن الحال لك ولنا جميعا . »

وجعلت مرغريت ترقبه وهو منصرف ، ثم صعدت السلم ودخلت حجرتها وقد ارتسم على محياها البشر ، وأشرق وجهها وتهلل بعالم تشهده نفيسة من قبل .

قالت نفيسه وقد وثبت اليها وأمسكت بيدها « ياسيدتى ، ما أدركت قبل اليوم أنك جميلة هذا الجمال . »

الفصل الثالث والعشرون

الخصى يتعقب

ازدحمت الشوارع المفضية من الازبكية الى الباب الشمالي (البوابة البحرية) لمدينة القاهرة بجموع الاهالى ، على اختلاف طبقاتهم ، وقد جاءوا يشهدون رجوع بونابرت وجيشه من عكا .

وكان القائد قد أرسل الى الديوان نبأ عن عودته يقول فيه « لقد هدمت أسوار عكا فلم يبق بعد فيها حجر على حجر ، وقد جرح الجزار نفسه جرحا مميتا » ولذلك خرج القاهريون يرحبون بذلك القوي الجبار ويستملقونه كعادة الشرقيين .

ومن بين هذه الجموع كان الشيخ فضل وتلميذه عبد الله ممتطيين حمارين وكانا عائدين الى الدار ، بعد تأدية عملهما المعتاد ، من طريق كثير الازقة ، اختاره عبد الله عن مكر وعمد ، واذا بهما يجدان نفسيهما وسط الزحام لايستطيعان افلاتا ، فلم يكن من الشيخ الا أن صخب واحتج

فتلفت الشيخ حوله وقد تغضنت عيناه وقال «انظر يابنى اننا نمن ضيق عليه الخناق فى معضلة فلسفيه ولم يجد له منها مخرجا .»

واخذ الزحام يشتد ، والهواء يزداد اختناقا ، واطرق الشيخ متعبا ضجرا وتثاءب عبد الله ، وتأخر مجىء الفرنسيين وتمنى الشيخ هو وعبد الله لو أنهم قضوا نحبهم فى عكا .

وانتبه عبد الله على صوت مألوف لديه يصيح به «السلام عليكم ياعبد الله، السلام عليكم يا سيدنا الشيخ .» فالتفت فاذا به يرى المتسول

قال عبد الله « وعليك السلام يا سيدي . هل جئت لرؤية هؤلاء الفرنجة الملاعين ؟ يحزننى أن تكذب الحوادث ماجئتنا به من الانباء عن عدم سقوط عكا بيد المغيرين عليها . هل قرأت المنشورات ؟ انها تقول ان الجزار قدأصيب بجرح،وأن عكا قد اصبحت أطلالادارسة.»

قال « أتظن أن اللسان هو الذى يكذب فقط ، وهل لا يكذب القلم كما يكذب اللسان ؟ »

قال الفتى « بلى اننى أعرف جد المعرفة أن ذلك القائد الفرنجي هو أبو الاكاذيب ، ولكن ألا يعود الجيش المنتصر بالأسلاب والأسرى ؟ »

قال بهدوء « سنرى وننتظر ، ولكن قل كيف اتفق لشيخك أن يكون الساعة فى هذا المكان ؟ لقد كنت أحسبه لا يعنى بهذه الأمور الا قليلا . »

فابتسم الفتى وقال « طريقنا من هنا واذن تحتم علينا المرور بهذا المكان . »

قال « سعيد ذلك الأعمى الذي لدليله عينان مبصرتان ، ولكن ما أمر صاحبك عثمان المملوك ، فانى لم أره منذ زمن طويل ؟ »

فتلفت الولد حوله حذرا وقال « لقد سافر الى الصعيد : »

قال « وهل سافر وحده أم ذهب الخصى معه ؟ »

قال « كلا فان رضوان أغا لا يزال بالقاهرة ، ولقد سألنى عنك منذ بضعة أيام . »

قال مضطربا « عني أنا ؟ وماذا يريد أن يعلم عن متسول مثلى ؟ »

قال « يخيل الى أنه يريد أن يؤدى لك خدمة ، لأنه سألنى عما اذا كنت أعرف موقع دارك . »

فشحب وجه المتسول ولم يلحظ عليه الفتى ذلك وقال متابعا حديثه « انى أخاله مهتما بأمرك ياسيدى ، وهو يقول انه لم ير متسولا فى حياته له خبرتك بالسيف والضرب به . »

قال المتسول متكلفا الهدوء « ان الله هو الذى وهبني تلك القوة في يدي . » ثم تمتم بصوت منخفض قال « ما كان أحمقنى اذ طاوعت نفسى ، وخضعت لدافع داخلى فى ، وعينا ذلك الخصى المتفحصتان ترقبانى عن كثب . » ثم تلفت حوله وقد ارتسمت على وجهه علامات الخوف .

وعندئذ سمعت أصوات الموسيقي ودقات الطبول ضعيفة فاترة ، وما هى الا لحظة حتي وضحت أصوات الأبواق ، وتدافع الناس الى الزقاق الذى أخلاه الجند ، والذي مرت فيه مقدمة فرقة الحرس الفرنسية .

صاح عبد الله قائلا « أنظر ، ها هم قادمون كأنهم جند منتصرة ، ألا ترى الاعلام والمدافع التى غنموها ؟ »

قال « نعم ولكنهم ذهبوا فى أثواب قشيبة . وها هم عائدون فى أطمار وأسمال بالية ، لقد رحلوا سمانا غلاظا كالابقار التى انطلقت ترعى حقول البرسيم ، وآبوا عجافا مهزولين كأنما كانوا يطعمون فى أرض جدباء عارية . »

قال «ولكنهم يصيحون من طرب ونشوة.»

قال «ولم لا يصيحون يابنى ؟ أليس الجياع هم أشد الناس صياحا وصراخا لدى رؤيتهم الطعام ؟ يا لله ! يخيل الى أنهم قوم خرجوا من القبور، ها هي مدفعيتهم فأين فارسهم الفذ، ذو الساق الواحدة، ذاك الذى نسميه أبو خشبة ؟ ألا تذكره وهو ذلك الذى كان يمشى على ساق واحدة مسرعا خفيف الحركة لا يستطيع السليم ذو الساقين أن يسابقه ؟ كنى لقد رأيت الكثير ولقد صدقت نبؤتى، وما كانت هذه المنشورات الا أباطيل وأضاليل. ألا فاعلم أن عكا لاتزال على ما كانت عليه، فلم تسقط كما أشاعوا، وأن مغاليق الامل اليوم فى وجه مراد أدعى الي الرجاء منها فى أى وقت بعد معركة انبابه.»

وانشغل عبد الله بالنظر الى مايجرى أمامه، فنسى بعد لحظه تلك الشروح الطويلة، وتلمس صاحبه المتسول فتلفت حوله فلم يجده.

وخرج المتسول من بين الجموع، وانطلق مسرعا على الرغم من عرجه، قاصدا ناحية الشرق.

وازعجه شعور غير عادى، واشتد اضطرابه فجعل يكلم نفسه وهو سائر ويقول «الحمد لله على انى قابلت هذا الصبى، فلقد أخطأت وضللت اذ جعلتنى هذه الخمسة عشر عاما، التى قضيتها وأنا أعالج الفسيان فيها، قليل الحذر. ان خمسة عشر عاما قضيتها بين العميان الحمقى جعلتنى أنسي أنهم كلهم ليسوا عميان، وعلى الاخص ذلك الخصي رضوان. ياجهلى وحمقى! ألم أره بالقرب من الحى الذى أسكنه ؟ قد يكون ذلك صدفة وان الخوف جسم لى كلمات الفتى، على أن رضوان ليس بالغبى الجاهل كما قد يتراءى للناس، وانما هو الرجل يعمل في صمت وسكون، وبوسائل أخرى. ومن يدرى لعله كان يتعقبنى منذ أيام وأنا لا أدري.» وعند هذه الفكرة وقف عن المسير، وتلفت حوله

بكلمة يثير بها وزبره وينبهه . . فقد كان هـذا غرقا فى ملاذه بين قصوره ونسائه فى استامبول ، وذاك مشغولا فى جمع المال لنفسه وتكديسه ، من منفاه ـ مصر ـ فما كان أجمله منفى وما كان افخمه وابهجه!

أما عن الفلاحين فـكانوا لا يعرفون شـيئا ، عن منـازعات امم الفرنجة ومشاحناتهم . وكانوا لايعرفون من دنياهم الا ان الله قـد اوجدهم ، كرما منه ومنة ، ليعبدوه ـ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ـ فما كانوا يعلمون ان شيئا اسمه انجلترا ، فى الوجود ، ولم يمر ببالهم ذكر أى شيء ، ولم تجر على لسانهم كلمة بونابارت ، التى ما كانت تذكر فيما بعد ، على لسان أى واحد ، حتى ان كان طفلا ، الا ويصحبها الهول والفزع .

وكان الامر على عكس ذلك فى أسواق القاهرة والاسكندريه ، حيث تجىء القوافل بالسلع ، من أسواق آسيا وهندوستان ، وحيث ينقل التجار أخبار الفرنجة ، وكيف أنهم يتقاتلون ويتناجزون ، وكيف أن أصوات المدافع تدوي بين السندو بين بوندشيرى ، تصحبها صيحات المقاتلة ولجب الحرب ، حيث اشـتجرت الاسـنة ، وتنـازل الفرسان ، واصفرت الالوان ، واقبلت الآجال تفترس الآمال ، فيتشاكل الامر لدي الرائى ، ولا يستطيع التمييز بين المتقاتلين ، يذبحون بعضهم تذبيحا ، ويقتتلون من جراء بلاد ، ليست لأية فئة منهم .

وتحدث القادمون من الشمال كيف ان ايطاليا قد اكتسحتها جيوش الفرنساويين ، وكيف ان البندقية قد سقطت بايدى الغزاة الفاتحين ، وكانت سفنها الى وقت قريب ، راسية فى الموانىء المصرية . كل ذلك قالوه وتحدثوا به ، وفاتهم ان في ذلك ما ينـذر بلادهم بالبـلاء الوبيل والشر المستطير .

الا انه مع هذا قد وجد قوم لمحوا بصيصا من نور الحقيقة . نخشى استيفن ، وهو الذي وكل اليه امر الميناء في بولاق ، ان يذهب منه كل ما وصلت اليه يداه من مال وجاه ، وما استمتع به من ترف وغنى ، ثمنا لدين آبائه واجداده . ووقف الخصى على خبيئة الامر ، فادرك بثاقب فكره ماستلده الايام ، ووصل الى ذلك بطرائق غريبة .

أما صاحبنا جول ليفيبر ، فقد كان لديه من مصادر استقاء الاخبار ، مالم يكن عند سواه . ولذلك كان لديه معلومات عن مجرى الحوادث ، أكثر وضوحا من غيره . فجعل يرقبها وشكوكه فيها تزايد يوما عن يوم . وكان يذهله كيف أن ذلك يؤثر في ماليته ، بعد ان كبرت اعماله واتسعت تجارته .

فلم يكن طمعه وطموحه الى تأسيس بيت تجاري له عملاء في كل مدينة شرقية ، وسفين في كل ميناء اوربية ، ابعد تحققا منهما الآن . ذهبت آماله وخابت ، وانصرف عن حاجته باليأس والقنوط والفوت ، ينطبق عليه المثل «اخلف رويعيا مظنته :»

وحينما ذكر احلامه وآماله أيام شبابه ، ابتسم ابتسامة لاتشوبها مرارة . ولكن عمل الشركة كان قد أخذ مجرى جديدا ، وانبعثت فيه روح أخرى ، منذ تسلمت مرغريت حسابات الشركة وامسكت دفاترها .

وكان جول ليفيبر ينظر لعمله من وجهة أخري عالية . فانه مزج العمل بشكل غريب بالوطنية ، واعتبر ان شهرة بلاده في مصر ، كائنة في يديه . وعلى ذلك لم يكن يسمح قط بدخول سلع ، من نوع رديء ، في محله ، حتى لاتكون سببا في نقد الناس واستهزائهم بمصنوعات فرنسا .

فلم تكن بضاعته ، لذلك ، بالبضاعة التي يهرع لشرائها عامة الشعب ، بل كانت للسراة الموسرين ، الذين كانوا يأخذون السلع اليوم ، ليدفعوا ثمنها غدا ، كما هي عادتهم .

بدأت مرغريت تغير شيئا فشيئا ذلك النظام . ووقفت على خلق المصريين ، وعرفت كيف تعاملهم بنسق لم ينهجه زوجها ولا جول .
عرفت حب القاهريين للفخفخة وادركت منهم ميلا الي المساومة. فحددت الاثمان ومع ذلك كانت تساوم الزبائن الذين تجد فيهم ميلا لذلك . ولم تكن تسمح لاى مشتر ان يغادر المحل على وعد منه بانه سيدفع الثمن في الغد .

ولم تقنع بذلك ، بل انها جعلت تزور نساء البكوات فى بيوتهن ، وتعمل لهن مثلا من البضائع فكن يستقبلنها أول مرة باعتبار أنها (دلالة) من اولئك النسوة المتاجرات. أما فيما بعد فكن يستقبلنها باعتبار انها من كرام الضيفان . ذلك لان هؤلاء النسوة كن بمعزل عن الحياة ومعتركها، ولم يكن لهن من المدارك ما يعادل مدارك الاطفال . يملن الى مرغريت ويحترمنها لاستقامتها وكن كالاطفال، يلمسن باصابعهن ، ملابسها ويسألنها اسئلة غريبة ويفضين اليها بآلامهن ومتاعبهن، التى كانت فى الحقيقة غريبة اذا سمعتها اذن اوروبية، مضحكة اذا وقف عليها نساء الفرنجة.

فمن جرعة للحب تسقيها المرأة منهن لزوجها المعرض عنها ، الى بخور يدفع عنها عين الحسود وشر الحسد، الى رقية تجعلها لا تلد الا ذكورا ، الى غير ذلك من الاشياء التى كن يعتقدن بصحتها ويثقن بها تمام الوثوق.

ولطالما كن يطلبن اليها ضارعات ان تعلق لهن منديلا علي باب زويله ، أو تحضر لهن ماء من صهريج الرميلة ، حيث كانت ترمي جثث المحكوم عليهم بالاعدام ، حتى يستطعن بذلك أن يلدن لازواجهن ذكورا لا اناثا . وما الى ذلك من الخرافات ، التى كانت مرغريت رغم جهودها لا تستطيع زحز حتهن عنها قيد شعرة . فانهن يعرفن مالم تكن تعرفه، ويستشهدن على صحة ذلك بامثلة عدة .

واستطاعت بطريقة واحدة أن تحصل على حبهن لها . ذلك أن

صناعة الطب وان تكن قد اتقنها قدماء المصريين، الا أنها في عصر المماليك انحطت فصارت نوعا من الخرافات الخرقاء. فكنت ترى الامراض تفتك فتكا ذريعا بهؤلاء النسوة المترفات، المترعات من النعيم، الرافلات في الدمقس والحرير، وكنت ترى الموت يحصدهن حصدا، وذلك لتفشي الجهل بينهن، وانتشار الخرافات بشكل مريع في دورهن.

ولم تكن مرغريت تعرف من أمور الطب الا ما تعرفه كل اوروبية في بلاد كمصر. ولكن الشيء الذي لم تكن تعرفه كانت تعمل فيه فكرها، محتفظة بالقواعد العامة لقانون الصحة. فكان اذا حل المرض بدار ونزل اليأس بقلوب اهليها، تحثو هؤلاء النسوة التراب على رؤوسهن ويصحن فزعات جزعات: « ارسلوا في طلب السيدة الفرنجية. ارسلوا في طلب السيدة الفرنجية. »

وكان ذلك العمل يملأ فراغا في حياتها، لم يستطع العمل وحده سده. وقد تكون الامومة حدثا في حياة النساء، أما في حياة مرغريت هيلز فلم تكن الا مجرد عاطفة من العواطف. فكانت ترى في تجمع الاولاد حولها نوعا من نعيم الجنة. ولقد مات ابنها غرقا في النيل، وتركها الشخص الذي كان موضع عنايتها، ومرمى فكرها، والموئل في وحدتها، الحبيب المحبوب، واعرض عنها، يعيش عيشة أخرى، له فيها مآرب ومصالح واطماع، لاترى لنفسها فيها فائدة، ولم تشترك فيها بأي شكل كان.

وجدت أن عزلتها هذه لم يكن لها من الاثر لديه أكثر مما كان لرجائها عنده والحافها عليه في العدول عن فكره، وعلمت بعد أن محاسن الجديد المستحدث هي كما كانت ولا تزال، أقوى في اثارة النفس، من تكرار القديم من الملاهي، والاستمتاع بما الفته النفس.

وقد يكون هذا الطبع عند استيفن هيلز مضعفا، لان قوة الخيال

عنده كانت أشد من قوة الذاكرة .

وربما كانت القوة في نظره عزيزة، ولكن الابهة والفخفخة كانت أعز واعظم . وهل كال باستطاعته أن يجد بلدا كمصر ، توافق مزاجه من هذه الوجهة ؟

آلمها سماحه لها بتركه، مفضلا العمل تحت امرة دين لا يعتقدفيه . وجرح عزتها أكثر مما لو كان انكر دينه وكفر به، فقد يكون ذلك الانكار جريمة أو خطيئة أما تركه لها وهجرانه اياها ففيه معنى الاهانة، وذلك ما انهكها وادنفها ، ووقذها وأضناها .

فلما أن تبينت منه ذلك ، بعد آلام واسقام ، وتحققته تماما، بعد تجارب وأختبارات ، ودت لو تفاتحه هو نفسه فى الامر، وتعترف له به عند استكشافها اياه ، تريد بذلك فتح الباب للمصالحة .

ولكنها احجمت اذ أنها لم تجد من وراء ذلك غير الضعة والحقارة، والمهانة والصغار . وعدا هذا فقد كان سعيدا ، فرحا مرحا بما هو فيه ، فكان بيديه ، الى حد ما ، الغنى والجاه ، حصل عليهما دون مساعدتها له ، لا بل على الرغم منها ، فقد تركته وكان حظه معلقا فى ميزان القدرة ، فلا يصح أن تطلب العودة اليه ، في ساعة فوزه وانتصاره .

فمن ذا الذي يصدق فى طهر سريرتها وصفائها ، ونقاوة الدوافع لها على ذلك من كل مظنة ؟ لا يوجد من يصدقها حتى استيفن نفسه.

وعلي هذا فخير لها أن تنتظر الوقت المناسب فتبرهن له على حبها له ، وكان هذا الخاطر هو السلوي لها في حياتها ، يخطر لها اذا ما مشت أو جلست ، ويشغل ذهنها وهى تبيع الناس سلع ليون .

وتتالت السنون ، وقلبت عليها مجنها فعاضتها من نضارة عودها ذبولا ومن سواد عذارها قتيرا ، ولم يعد اليها استيفن بعد.

ورأته خلال هذا الزمن كله ، مرة واحدة . فمر بهـا فى الطريق ، وقد اتزرت بحبرتها وتنقبت بنقابها (يشمكها) ، تروح وتغـدو في المدينة ، وعيناها لاتستقران، تنظر بهما ذات اليمين وذات اليسار هالها أن ترى استيفن بما عليـه من أردية بهية متأنقة ، وما آل اليـه امره من عظمة وابهة .

وكان اذا مشى ينظر الى المارة ، نظرة البشر والايناس ، تظهر على وجهه الذى أحرقته الشمس فسودت اديمه ، كأنما هو رجل وجد العيش قد طاب له ، وان الحياة راقت في عينيه . فلما ان رأته لم تستطع الظهور له ، بل انتحت جانبا . ووقفت علي عتبة باب ، وجعلت ترقبه ، ويداها تضغطان بشدة على قلبها ، وقد زادت ضرباته ، حتى مر من امامها وسار فى طريقه .

ففي الليلة التى جلس عبد الله فيها في دار شيخه ، يصف للمتـول معقل مراد ومعسكره فى الجيزة ، فكان لحكايته من الاثر فيه ما كان ، جلست تأكل وبعد ان انتهي العشاء ، وازالت خادمتها السودانية مابقى على المائدة من فضلات وفتات ، قامت تقلب مثلا وردت على المتجر قبل ذلك ببضعة ايام .

وكانت في ذلك اليوم قـد تعبت من كثرة العمل ، فلم تقلب تلك العينات كثيرا ، ووضعتها جانبا . وغرقت فى لجة من الافكار ، وجالت بعضها فى كل مجال بعيد ، والقت بها عصا التسيار في النهاية الى زوجها.

ولم يقطع عليها مجرى افكارها . الاجول ليفيبر ، جاء ، على غير عادته ، قبل الميعاد ، وقرع الباب قرعا ، قطع عليها هذا التأمل والتفكير .

دخل عليها كما دخل ساعة ان انقذ استيفن مراد بك ، وسدد بصره من الضوء . وهو ينظر خلال منظاره المصنوع اطاره من القرن ، وانحنى امامها وبالغ فى احترامها .

لم تغير هذه السنون السبع شيئا منـه ، بل لقد ازالت منه بعض السمن . وضاع من خديه شيء من استدارتهما . الا انه لا زال يظهر عليـه البشر والايناس . وكان وهو يمشي بقفطانه المسترسل وعمامته الضخمة ، لايزال ينظر الى العالم خلال منظاره نظرة الحلم والرأفة .

حيته مرغريت تحية الابنة لابيها ، وجمع هذا اطراف ثوبه ، وجلس متربعا على المقعد ، وقد تنهد تنهد الرضا والقناعة . ووضعت مرغريت امامه بعض التبغ الذى استوردته من انجلترا له خاصة . لان جول كان يحب التدخين في قصبته ويفضله عن كل (سجائر) مصر .

جلس لحظة لايتكلم ، وكانت تبدو عليـه علامات ضجر وقلق غير عادية . وما كادت الخادم تضع القهوة امامـه ، حتي بدأ يتكلم وكأنما كان يجد فى الـكلام انه يجرم اجراما .

قال « ان الحر هذه الليلة شديد . وانى ليخيل الى واحد من اثنين : اما ان يكون الجو تزداد حرارته سنة عن سنة ، واما ان يكون ذلك من نذير تقدم السن . وسواء كان هذا او ذاك ، فانى اشعر بالحر اكثر من ذي قبل . » ثم رفع عمامته ، ومسح رأسه الصلعاء بمنديله .

قالت « انك تشتغل كثيرا يامسيو ليفيبر »

قال « لا كما تتصورين ، فلم اعمل الا القليل منذ اغلق المتجر ظهر اليوم . ولقد نمت الي مابعد العصر ، ولم اذهب هذا المساء الا الي خان الخليلي . وانى لارى ان فى المستقبل خفايا سوف تظهر . فهـذه فرنسا تنظر الى مصر نظرة لم اعهدها فيها من قبل . نظرة الطامع فيها ، الراغب فى امتلاكها . ولقد حضر عندى امس ثلاثة من مواطنى ، خلال بضعة الايام الماضية ، ولم يشتروا من سلعنا شيئا بقدر ما جاءوا يستفسرون عن الاخبار . وهم كما يقولون من الذين يحبون العاديات القديمة ، وقد جاءوا خصيصا لابتياعها ولـكني اراهم لايفرقون بين الجمل والمسلة .

ومن العجيب انهم يطلبون خرائط ومعلومات عن سكك القوافل التجارية، وعن الآبار وطرائق النقل.

« وأعلم ايضا أن المسيو ماجلان ، وهو قنصل فرنسا هنا كان بين آن وآن ، يرسل تقارير مطولة عن الحالة هنا للحكومة الفرنساوية . واني لست ادرى سواء أكان مواطني ، يعدون العدة لهجوم على مصر أم يتلمسون طريقا يسلكونه لمهاجمة الهند . ولا اكتمك ان بالصحف التي تسلمتها أخيرا من فرنسا ، اشارات وتلميحات لمثل ذلك . »

قالت « آمل أن لا يكون سكان البلاد هنا، قد وقفوا على الامر، والا فان مركز الفرنجة هنا يكون محفوفا بالخطر . »

قال « أما عن هؤلاء فلا تخافي ، وانما أقول لك ، انه من مدة جاءني خصي وألقى على أسئلة غريبة ، وجعل يستقي مني الخبر ، على غرة مني واني أحمد الله على اني لم اكن أعلم شيئا ، لاني لو كنت أعرف شيئا لبحت له به ، وأنا خالي الذهن عن كل شيء . »

قالت « ربما كان ذلك كله محض حدس وتخمين ، ألم تلاحظ يامسيو ليفيبر ، كيف أن الانسان اذا شك في أمر ، امتدت شكوكه الى كثير من الأمور ، كأنما هناك جاذبية أومغناطيس . »

قال « صدقت يامر غربت ، ولكني لست أدري لماذا أشعر أن الامر ليس مجرد شبهة أوشك وليس بوسعي ان أدلي اليك بأكثر من هذه الاسباب ، الا اني أشعر في قرارة نفسي ، ان ستجتاح مصر أزمنة كلها تعب وشقاء . ولقد أحسنت صنعا بالعمل باشارتك في ارسال الحوالات الى بنك ليون . »

قالت « ويحسن ايضا أن نرسل كل مانستطيع جمعه من المال ، وان نوقف استيراد ارساليات السلع ، حتي نكون على بينة من الامر . ولا أنكرك أن نتيجة هذا العمل ، خسارة في الارباح لمدة سنة ،

ولـكنى أفضل هذه الخسارة عن أن نخاطر فنخسر كل شىء.»

قال جول « ولدينـا على كل حال ، مايكفينا لان نعيش عيشة متوسطة في أوروبا ، وقد كان ذلك غير متحقق لنا منذ سبع سنين مضت . كم كنت أود ياسيدتى ، لو تـكونين شريكتى فى التجارة قبل ذلك بعشرين سنة . لئن كانت هذه الشركة حدثت ، لـكان محل جول ليفيير الآن ، لايضارعه محل من بومباى الى انفرس . »

ضحكت مرغريت وقالت « انك تبالغ فى اطرائى يامسيو ليفيير . »

قال « لا والله ولئن كنت أجـد شيئاً آخذه عليك ، فانمـا هو اقبالك على العمل اقبالا شديدا ، والآن ماذا كنت تصنعين من ساعة ان أغلق المتجر الى الآن ؟ أرى مثلا للسلم منثورة على المقعد هناك . »

قالت « لقد كنت فى دار الشيخ البكرى . »

قال « ذلك الشيـخ المسن الذى يذكرني مرآه بأحد المفتشـين المحققين الـكبار في محاكم التفتيش ، أرأيت مثل صعوبة مراسه ووقاره فى آدمى ؟ ولـكن خبرينى كيف حال المريضة ، آمـل ان تـكون قد تقدمت صحتها . »

قالت « أجل لقد هبطت الحمى . »

قال « الحمد لله ، الحمـد لله ، لئن أبلت من مرضها فانمـا لك يرجع الفضل فى ذلك . »

قالت « لم أتبع فى علاجها غير ارشادات الطبيب لابونى . »

قال « نعم الرأى ما ارتأيت يامرغريت ، تفحصين الطفلة مسترشدة بآراء الطبيب لابونى ، وتحدثينه يوما عن الاعراض . ياجهل هؤلاء الذين يأبون على الطبيب زيارة المريض ! والسبب في ذلك مايرون للنساء من حرمة ، وكأنه لاحرمة للحياة عندهم . فتخطى حجرات النساء جريمة لاتغتفر ، أما فقد الحياة فانه ارادة الله التى لاترد . ماشاء الله ، ماشاء

الله ، هذا هو المنطق لدى هؤلاء المسلمين ، ما أبلههم وما أبعدهم عن محجة الصواب ! وهذا الشيخ وهو من سلالة النبي ، يحفظ القرآن من الفاتحة الى آخر آية ، ومع ذلك فانه كقومه لايفهم شيئاً من هذه الأمور ، قبح هؤلاء الناس وقبحت أراؤهم. »

قالت « وما قولك في انى رأيته مسهدا بالليل •سجدلله فيه خمسين سجدة ، والدموع تهطل من عينيه ، يسأل الله رحمته الواسعة، متوسلا اليه بالنبي الكريم. »

قال جول « هذا جائز • ولكن يكون مثل الشيخ فى ذلك مثل رجل اشرف على الغرق وهو قريب من اليابسة، ووقف على الشاطىء رجل من المسلمين ، لا يتقدم ولا يتأخر ، وانما يصيح ويقول،ياالهى ياارحم الراحمين ، أنقذ بقدرتك المغصوصين ، واشمل برحمتك المكدودين العاجزين ، ونج صاحبي هذا من الغرق ،ياواسع المغفرة . استمع يارب لصراخه ، وانتشله من بين براثن الماء .فاذا ماغمرته المياه وغرق قال : الحمد لله بارىء السموات والارض ، والامر له . انه لم ينقذ حياته لحكمة غاب عنا ادراكها • تباركت ياالله . لك منا السمع والطاعة ، والرضا بما تأمر والقناعة. »

وجعل ليفيبر يضحك بعد ان أتم كلامه •ثم سكت فجأة ، كأن فكرا عارضا قطع عليه ضحكه وسروره وجعل ينظر حوله نظرة مضطربة جزعة .

قالت مرغريت وقد نظرت اليه متسائلة « حالك الليلة غريبةيامسيو ليفيبر .لم اسمعك تتكلم قبل الآن ،بمثل هذه الشدة عن الدين الاسلامي. »

قال « لم اعثر قبل الآن على مثل هذا السبب الوجيه والحجة القوية. ان هذا الدين لايلائم واحدا مثلنا ،تربى تربيةغريبة ، وله آراء غريبة. وفى رأيي أن هذا الدين ، يسم العقل ويحط من شأنه. وهو بعيد جدا،

بل وغريب ، بالنسبه لآرائنا من حيث الشرف والاستقامة .»

قالت مرغريت « ماذا بك ومم تتألم؟ »

وكان جول كاثوليكيا متعصبا لدينه ، الا انه كان يحترم دين القوم الذين يعيش بينهم ، مستعدا دائما للتمدح ، ببعض مافيـه من اركان حكيمة ثابتة ، كالصوم والزكاة .

لم يجب ليفيبر على سؤالها ، وجعل يتلمس طوق (ياقة) قفطانه .

نظرت اليه مرغريت نظرة المستريب السائل . ثم ظهرت فى عينيها نظرة الذى احس بالخطر ، وادرك بثاقب فكره ان فى الامر شيئا .

قالت « ترى ماذا تحمله الي من الاخبار ياMسيو ليفيبر ؟ قل ماالذى سمعت اليوم ؟ » ثم مالت الى الامام تنظر الى الرجل نظرة الخائف الوجل .

قال « يسوؤنى ياسيدتى ان يكون مقدرا على ان احمل اليك انباء السوء ، وانا الذى يود ، علم الله ، ان لايحمل اليك منها ، الاخيرها . ولم يحدث ان جئت يوما ، على كره منى ، كاليوم . وخطر لي ان احجم لولا انى فضلت ان يكون اخبارك بها ، على يدى ومن طريقى ، لاان تعرفيها من آخرين . »

قالت متشجعة « هيا أدل بها الى . أدل بها الى . »

قال « سمعت ياسيدتى ، من رجل في السوق ، يسكن بولاق ، ان مسيو هيلز ، قد تزوج منذ عدة اسابيع ، من احدى قريبات مراد بك . ولقد بحثت الامر ووجدته حقيقيا. » قال ذلك بصوت خافت . واذ لم يسمع منها صوتا ، التفت اليها ليرى هل سمعت مرغريت قوله.

رآها جالسة تحدق النظر فيه ، وذهب من عينيها الواسعتين ، كل نشاطهـما . وسكنت حركتها ، وهى مائلة فى جلستها الى الامام على مقعدها . وكان منظرها منظر من تلقي ضربة مميتة قاتلة .

قالت « تزوج ثانية !؟ استيفن تزوج مرة اخرى!؟ »

قال « ليس ذلك بالمهم ، فهو لايؤثر في مركزك ياسيدتى . »
قالت « اخالك غير فاهم ياليفيبر . »

ولكن جول كان فاهما وفاهما . عرف أن ذلك معناه ، تحطم كل أمل لها ، وضياع كل رجائها وأطماعها . بل وعلم أن ذلك هو الكسر الذى لايمكن اصلاحه ، والحائل الذى بترما بين الماضى والحاضر . لقد حدث مالاتوهمته ولا خالته ، وانقضى كل شىء .

ولم يستطع ليفيبر أن يقول شيئاً ، يعزيها به ويواسيها ، فلم يكن منه الا أن نهض ، يسير في الغرفة جيئة وذهابا ، يستنزل اللعنات على استيفن وعلى كفره بدينه ، وعلى الاسلام الذى يسمح للرجال بمثل هذه الاشياء .

الفصل الثانى عشر

خدمة سرية

تمزق ستر الليل وولى بركنه ، وكاد ينبلج الفجر وينشق عموده . وهب من الشمال ، قبيل طلوعه بساعة ، نسيم بارد ندى ، من الصحراء على أسوار المدينة ، وتخلل سككها الطويلة ، زاحفا ببطء خلال الازقة الضيقة ، متسللا بين الحجرات ، من نوافذها المفتحة ، جالبا معه لذيذ النوم وهنيه ، حيث عاد الساهرون ، من قصفهم ، الى منازلهم آخر الليل ، او اضطجعوا على المصاطب ، ولم يتحرك بعد من القاهريين أحد . ففى مثل هذا الوقت تخلو شوارع القاهرة من الحركة ، اللهم الا من نباح الكلاب ، تطلب طعاما .

جلس فى جامع السلطان حسن ، شخص يرجف ارتجافا بسيطا ، فى ملابسه المسترخية ، وقد أضىء الجامع بمصباح .

أحاطت بالرجل ، مهابة المسجد وبساطته ، وكان فى ذلك الوقت

أحسن مسجد فى القاهرة ، يملؤه بالنهار همهمة الاصوات ، فوق أرضه الرخامية وتحت سقفه ذى الابراج والقباب . وكان المسجد فى هذه اللحظة خاليا ، الا من ذلك الشبح الظاهر فى فنائه ، ومن موقد المصابيح (الوقاد) يمشى كالشبح فى المسجد ، يؤدى عمله ، متنقلامن مصباح لآخر .

وعبثا حاول المؤذن ، وهو فوق المئذنة ، المبنية من الحجر ، يؤذن فى الناس النيام بدعوهم للصلاة يقول . « حى على الصلاة ، حي علي الصلاة ، الصلاة خير من النوم . » فان المدينة كانت هاجعة ، ولم يسمع اذانه الا قوم تنبهوا من نعاسهم لحظة وهم يقولون

« الله أكبر ، لا اله الا الله محمد رسول الله . » ثم ناموا ثانية .

ونام المتسول فى تلك الليلة ، وانما نوم الذى ينتظر نداء .

وتسلل الهواء من الباب ، وتخلل غطاءه الخلق ، فغير الرجل مكانه محتميا بأحد العمد .

نظر اليه موقد المصابيح وكان يوقد مصباحا بجواره وقال «لقد شعرت بالبرد يتمشى في عظامك يا أخى . » فكان جواب الراقد « الله اكبر . » فتركه هذا وعاد بعد لحظة ، حاملا بيديه كيسا خاليا من الخيش قال « لقد لاحظت وجودك هنا منذ ليال عدة ، يزرى ايمانك بايمان كثير من المسلمين ، خذ هذه والقها عليك ، فما هى الا كيس عادى ، أسأل الله أن يبدلك منه ، جزاء اخلاصك وإيمابك ، قفطانا مطرزا بالذهب . »

قال « شكرا لك أيها المحسن الكريم . »

وقف الآخر كأنما يريد أن يتابع الحديث . الأن المتسول ، بعد ان تلفت يمنة ويسرة ، وهو حذر محترس ، نهض متثاقلا ، وجلس جلسة المصلين ، بحيث اضطر الخادم أن يفارقه ، رغم انه كان يريد أن يتكلم .

اتم المتسول واجبه ، وجلس يتمتم بصلواته ، ممسكا بمسبحته ، وكان حبها من المنبر . واذا بشبح جاء يزحف ، في فيء الحائط القريبة وكان يمشي مسرعا دون ان يسمع له صوت . وظهر فجأة ، فكأنما تجسم من الظلمة .

وكانت كل حركة من حركاته تنبىء عن خوف . ولكنه مع ذلك بصق على أرض الجامع ، وسط هـذا السكون ، بصاق المتأفف المستخف المزدرى .

تحول المتسول ، وسمع لمسبحته صوت عال . واختفي القادم الجديد فى لحظة وراء دعامة من دعامات الجامع . ولكن المتسول رآه ، فقام فى لحظة من جلسته متثاقلا ، واسرع نحو الباب ولحق بالقادم الجديد .

سار الاثنان ، الواحد خلف الآخر ، واتجها الى الناحية القبلية ، حيث ميدان الرميلة ، المؤدي الى القرافة .

وكان على اليمين اسوار الجامع ، بمئذنتيه العاليتين ذاتى الابراج وقبته الكبيرة المستديرة ، التى كانت أشبه شيء بخوذة مملوك . وعلى اليسار كانت ترى القلعة ، ظاهرة فى الظلمة ، تنبعث منها مابين آن وآخر اصوات الحراس الاتراك يصيحون «دور اسكندرال ، أى قف ايها الساري هناك . »

لم يعن المتسول بشيء من هذا ، ولكن الرجل الذي تبعه ، كان يبدو عليه انه يرتجف لكل صوت يسمعه . فيلصق بالاسوار ، محتميا بظلها ، وهو يطيل النظر ، الى البناء الشامخ ـ بناء القلعة ـ الكائن على يساره .

واذ وصل المتسول الى فجوة تحت دعامة ناتئة من البناء وقف حتى لحقه الآخر . فجذبه اليه داخل هـذه الفجوة ، ليخفيه عن انظار المارة .

سأله قال « هل احضرت الاوراق ؟ »

قال « هاهي مربوطة على وسطي ياسيدى وكأنما هي نيران جهنم تحرق جسمى . وكم خشيت كلما خشخشت ، ان يسمع صوتها آخرون . وانا اعلم علم اليقين ، انه اذا اطلع عليها احد ، كان نصيبي من العذاب مالا يضاهيه عذاب النار . »

قال الآخر « واذكر المكافأة والأجر . »

قال « اجل اعرف تاج الشهداء الذى سأستمتع بوضعه على رأسى . »

قال بخشونة « وعشرة اكياس من الذهب ، الا تعد شيئا مذكورا ؟ »

قال متلهفا « وهل سينقدوننى اياها ياسيدى حقيقة بعد كل ماقاسيت وخاطرت ؟ »

قال « يدفعونها ! اتظن ان الفرنجة يضنون بعشرة اكياس من الذهب ؟ قل متى غادرت الاسكندرية ؟ »

قال « منذ اربعة ايام . ووصلت القاهرة ليلا فى الوقت الذى كانوا يغلقون فيه ابواب المدينة . »

قال « وهل اعطيت الاوراق التى سلمتكها الى الفرنجة ؟ »

قال « اجل ومعى وصول منهم بذلك واوراق أخرى سلمونيها . »

قال « حسن . هيابنا فقد اوشك الفجر ان يستبين . »

وسارا فى جنح الظلام ، خلال الحوارى والازقة الضيقة المتعفنة يتعثران فوق اخاديد الارض ، وفوق الادران والاقذار ، ويدوسان على الكلاب النائمة ، حتى وصلا الي باب بيت اختفى نصفه في الارض فوقف المتسول ، وقرعه حذرا محترسا ، قرعا غريبا ، فلم يرد عليه أحد . فقرعه مرة أخري ، وانفتح الباب بهدوء ، وولجا منه ، وراحا يتعثران فى ظلمة الدار .

اغلق البـاب وراءهما ، وارتج زلاجه . وقدح دليلهمـا زناده ،

واوقدعودا، فاضاءالنور وجهه ، وظهرت لحيته المنبوشة وانفه الغريب.
ولم تكن ملابسه بالملابس الممتازة . بل كانت عبارة عن جلابية قذرة مذرة . وكانت ملامحه الغربية تنبىء عن انه اسرائيلى . وجمع الرجل المرافق للمتسول ، عباءته القذرة حوله ، كأنه خشى ان يصيبها دنس أو نجاسة ، ان هي لامست الرجل .

قال الاسرائيلى « ان الفرنجة قد اعتراهم بعض القلق ، وظنوا ان قد جد فى الامر شىء عائق ، وأنهالوا على سبا و تقريعا ، بالفاظ لا يقولها المسلم لليهودى . »

قال المتسول « اذهب بنا اليهم . هيا . هيا . »

تقدمهما اليهودى ، وازاح استارا جانبية ، فانكشفت عن شقة وراءها ، وصاح اليهودى قال:

« أخواننا الفرنجة ، لقد حضر خدامكم الامناء . »

قال أحدهم بصوت مرتفع « لقد جاءوا فى الوقت المناسب ، علم الله اننى أكاد اموت وأنا فى هذا الحجر الضيق ، واننى لمستاء منه استيائى من وجهك ياسيدي اسحق . ان ذلك لا يتفق مع مزاجي ، كما لا يتفق لحم الخنزير مع معدة المسلم . لعن الله ذلك اليوم ، الذى تركت فيه حجرتى فى الباخرة ، لأجيء الى تلك الصومعة المنتنة الزنخة. »

قال آخر محذرا « أحترس فى كلامك ، واذكر انك هنا منصور افندي ، تاجر العاديات. »

قال « العاديات ، لعن الله هؤلاء القوم وآثارهم ، أن في اسحق لى عادية من هذه العاديات ، وفيه الكفاية ، ولست ارانى فى حاجة لرؤية غيره . اننى عند ما تطوعت للقيام بهذا العمل ، لم يكن يسنح بفكرى الا الحريم ، والقصور ، والجوارى . وها انى أرى نفسى فى هذا الجب ، بدلا من ان ارانى فى قصر من القصور ، وبدلا من الحسان ارانى

وسادة ولف جسمه ببرنسة ، ولم يلبث أن نام .

وانتشر الظلام بسرعة ، شأنه في بلاد مصر ، وساد السكون لولا نقيق الضفادع وصوت الصراصير ، ونباح كلب من بعيد .

وبعد أن لف السوداني رأسه بقطعة من قماش خشن كثيف ، نام في الهواء الطلق خلف الكوخ ، وجلس الفلاح أمام كوخه يدخن ويرسل من فمه ذوائب من دخان الحشيش ، يحملها نسيم الليل فتعم المكان .

وأرخي الليل رواقه ، وهو في جلسته يرتضع أفاويق نرجيلته بشغف ، وينظر بين آن وآخر ، صوب العشة حيث كان ينام المملوك وجعل يخاطب نفسه ويقول « لقد دفعه الله اخيرا الى يدي ؛ واختار لذلك هذه الليلة من بين الليالي . نعم هذه يد القدر تعمل ، ولكن لا ، لا . لست استطيع شيئا . فلأدخن قدرا آخر من الحشيش ، فأنام فأنسى . » ثم نهض مترنحا يتمايل ، واندفع داخل الكوخ وهو لا يزال ممسكا نرجيلته .

وطلع القمر من فوق سلسلة الجبال ، فسقط ضوءه على الصحراء وعلى النهر ، فاكسبهما جمالا أثيريا سماويا . ودجا الليل ، واذا بكل شيء ساكن هاجع ، الا طيور الليل والظلام الساكنة في أعشاشها التي بنتها فوق اشجار النخيل البعيدة . وهدأ نسيم الليل اللطيف ، بل وهدأت أيضا موجات الماء الخفيفة ، ووقفت لا تصدم الشاطيء الا صداما بسيطا يسمع له خرير أشبه شيء بغخيخ الطفل النائم ، واذا بالباب يفتح بحذر مرة أخرى ، وخرج منه شبح الفلاح يحجل في مشيته في صمت وتفكير .

وبدا الرجل أشعث أغبر كالوحش المفترس ، وكانت عيناه أشبه شيء في لمعانها بتلك الكواكب المنتشرة في السماء ، وكان وجهه يرتعش

وشفتاه تختلجان، وأنيابه القوية تقرض علي بعضها . لقد عملت بالاختصار تلك المادة السامة عملها في مخه المعذب .

والظاهر أن فكرة واحدة ملكت عليه حواسه ومشاعره ، يدل عليها بريق نصل الخنجر الذى بيده .

ومشى يزحف على قدميه ويقول « لا ريب ان الله بعث به الي، وأوقعه فى يدى . نعم أعرفه فهو عثمان السلكتار ، الذى ينزل من مراد منزلة الابن من ابيه . لقد حاولت مرة انقاذ حياته ، وما كان ابلهني يومذاك وأحمقني ، أما الان فاني لابد قاتله ذبحا . نعم ولاقطعن بطعن خنجرى نياط قلبه . »

وجن الرجل اذ ذاك، وان يكن لم يفارقه حذره ، لانه اندفع حول الكوخ يمشى ساكن الخطى كأنما هو من متلصصة الهنود السفلة . وجعل ينظر الى الشيخ النائم بجوار الحائط وقد لف عباءته حول رأسه . ثم أصغى فاذا الزنجى يغط فى نومه . وهز رأسه اذ ذاك مطمئنا وعاد أدراجه حول الكوخ ، واقترب من الباب الخارجى حيث اضطجع المملوك بجواره .

ووقف بعيدا وجعل يصغى واعصابه كلها ثائرة وأطل ينظر . هل المملوك نائم ؟ ان الأمر يستلزم الحرص والحذر ، وهو يعرف مقدرة المملوك فى الرماية . وسكن لا يتنفس ، واذ ذاك وصل الى اذنيه صوت تنفس الرجل المتعب المكدود .

وعندئذ رفع ردن جلابيته المسترخى ، وشمر عن ساعده القذر العضل ، وأمسك بخنجره وزحف الى الامام وأطل ينظر .

وللحال فغرفاه ووقف باهتا كالمصعوق ، واذا بجسمه الممتلىء قوة قد انكمش ولان وظهر العرج في رجله ، وكان من برهة على وشك أن ينقض على فريسته .

ودخل نور القمر من النافذة الواسعة المفتوحة . فألقى حزمة عريضة من الضوء الفضى داخل ذلك الفناء المظلم على وجه المملوك النائم . ولكن الرجل لم يكن يحدق النظر الى المملوك ، لا ولا الى ذراعيه الممدودتين بجواره .

لم يندهش لذلك وانما دهش اذ رأي امرأه مهزولة وخط الشيب شعرها قد ركعت بجواره تنظر اليه وقد ارتسم علي وجهها بريق لا يظهره على وجه المرأة الا حنان الأمومة وعطف الوالدة .

وكان الفتى المملوك قد أدرك سن الرجولة وأحرقت الشمس بشرة وجهه وبدت على طلعته اللينة الأديم آثار الحياة المجهدة التى تشعر بالمسئولية ، ونبتت على ذقنه شعرات تنبيء عن لحية رفيعة شاردة الشعر . ولكن المرأة كانت راكعة بجواره تحدق النظر الى وجهه وتستمع الى أنفاسه كما تفعل الأم مع طفلها الرضيع .

ووقف الرجل خارج الكوخ وهو كالمأخوذ . تبين انها لابد قد تسللت وراءه حينما خرج هو ليتأكد ان الزنجى قد أخذ النوم عينه ووقف الرجل بسرعة خاطرة على الحقيقة ، فلم يكن فى ذلك ما غمض عليه فهمه ، ولكنه ظل دهشا حائرا فقد مضت عليه ستة عشر عاما لم يشهد المرأة فى خلالها على هذا السكون والهدوء ولم ير فى عينيها الحب الشديد والسرور الهادىء مثل ما رآه اذ ذاك . أجل لقد عادت السكينة لحظة فاستقرت فى ذلك الذهن المريض الشارد المذهول .

ولدى ذلك المنظر الرهيب سقط الخنجر من يد القاتل وكان صوت سقوطه على الأرض الجامدة الصلبة ضئيلا فاترا .

والتفتت المرأة الى الرجل وابتسمت ثم وضعت أصبعها على شفتها وأومأت اليه .

فأقبل عليها وهو مذهول لا يعي ما يفعل ، وظلت هى واضعة

أصبعها على فمها تأمره بالسكون واشارت بأصبع أخري الى الفتى النائم ثم ابتسمت ثانية .

ونهضت من مكانها وخرجت والرجل فى اثرها وهى تقول « انه نائم يا مصطفى ، فهو متعب لقد لعب ولدنا النهار طوله . »

فانطلق من بين شفتى الرجل الصريع تحت نشوة الحشيش انتحابة مؤلمة واحاطها بذراعه ، وسار بها وهى لا تقاوم ، وانما هى لا تزال تبتسم مسرورة . وقادها الى باب الكوخ ودخل واياها ثم أقفل الباب .

وفى العشة الخارجية تحرك عثمان المملوك فى مضجعه ، وفتح عينيه حالما ثم استدار وولى ظهره صوب القمر وهوى فى سباته كما كان.

وهب نسيم الليل هبوبه الهادىء ، وجعل ماء النهر يصطدم بضفتيه فيسمع للماء خرير موسيقي ، وجعلت الهوام تطن طنينا موزونا يرتفع من الحقول ومن النخيل ، وسارت تباعا ساعات الليل الهادىء اللطيف الهاجع لا يقطع سكونها عنصر من عناصر التنافر وعدم التناسق.

الفصل السادس والعشرون

الرسائل السرية .

مضى عامان على استيفن ومكسيم ليجراند منذ فرا من القاهرة الى الصعيد وهما يعيشان في معسكر مراد عيشة مضطربة ثائرة . فبعد ان طارد ديزيه بجيوشه مرادا وجنده ، وشق على هذا ايجاد الميرة لهم بسبب كراهية الفلاحين له ، انطلق مراد مشردا جنوب اسوان كالطيور الجارحة .

وما كانت تفوت مرادا انباء ما كان يحدث فى القاهرة فقد كان

الخصى يوافيه بها من آن لآن .

وان مرادا ، وان كان قد علم بانكسار الاسطول الفرنسي وهزيمته بواسطة الاسطول الانجليزى وباندحار الجيوش الفرنسية عند أسوار عكا ، كان قد يئس من مهاجمتهم رأسا ، ولذلك لم يجد بدا من عقد الصلح معهم ، وأقطعوه فى مقابل ذلك مديرية جرجا .

ولما أن وصلته الانباء بتحالف الاتراك والانجليز وانهم على وشك الاغارة علي مصر وغزوها ، أدرك ما هنالك. وأعد العدة للدخول في مفاوضات مع هذه القوة الجديدة الناهضة .

وكان الفرنسيون والانجليز فى نظره سيان . هما من النصارى . ولم يكن يحفل بشيء من وراء ذلك غير أن يستعيد مركزه الضائع وهو مركز « شيخ البلد » فلطالما حارب من قبل في سبيل ذلك ، أما الآن فليس من سبيل أمامه سوى دس الدسائس وايقاظ الفتن. فدار بعينيه حوله لعله يجد من يستعين به على أمره ، فلم يجد سوى استيفن ، فانفذه الي القاهرة لهذه الغاية ومعه مكسيم ليجراند ، وحملهما أوراقا مختومة الي رضوان اغا .

وبعد مغادرتهما جرجا بخمسة أيام وصلا الى البدرشين ، وما كان أعظم دهشتهما هناك اذ رأيا هناك عثمان قادما الى سفينتهما يتأهب للرحيل الى القاهرة بعد أن قضي ليلته فى كوخ المتسول .

وانطلقت بهما السفينة الشراعية تسبح الهوينا فى النهر ، وقد نشر شراعها الضخم المثلث الشكل يقتنص من النسيم كل ما ثار وهب مهما ضؤل .

وكان هواء الصبح باردا ، وظهر ضباب كثيف فوق سطح ماء النهر . وجلس مكسيم واستيفن في كنف حافة السفينة يصغيان بشغف الي الاخبار التى قصها عثمان عليهما .

وفى مقدم السفينة جلست امرأة ترقب اصحابنا الثلاثة ولم يظهر من فوق نقابها (يشمك) الا احدى عينيها ٠

قال استيفن « تلك انباء مدهشة يا عثمان ٠ لقد انتهى دور الفرنسيين وجاء دور الانجليز ٠ »

قال المملوك « انهم بنوا جلدتك يا افندى . »

هز استيفن كتفيه وقال « اننى الآن مصرى ياعثمان ولم يعد لى بهؤلاء صلة ٠ ولئن كان فرج أفندى لم يصل بنى قومه وقد احتلوا الديار فليس هناك مايبرر اتصالي بقومى ، أضف لذلك انى اقسمت لمراد يمين الطاعة والولاء . »

وعندئذ راح مكسيم كعادته يسب مواطنيه ويلعنهم ، ولم يكن فى ذلك الامنقادا لعادته لالشىء آخر .

قال « خبرنا ياعثمان بكل ما حدث فى القاهرة منذ عودتك من الصعيد . »

قال « انك تعلم معظم ماحدث ، وانك لتعرف كيف أن بونابرت قد عجز عن أخذ عكا . »

قال استيفن « لقد قهرناه هناك . »

قال « اننا لم نعمل شيئا من هذا ؟ بل الاتراك هم الذين قهروه لا المماليك . » ثم نظر مكسيم الى زميله مستفهما

قال استيفن « انما كنت أفكر في ذلك الانجليزى سيدنى سميث . »

قال المملوك جادا « حقا لقد كان لذلك الرجل شأن يذكر فى ذلك. وبعدئذ غادر بونابرت البلاد على الفور وحل محله كليبر ، ذلك الرجل الطويل القامة ذو الشعر الكث ، وانك لتذكره بلا شك. يمينا لقد كان رجلا شهما وان يكن يختلف عن بونابرت. لست أدرى من أمر الرجل لاول شيئا ،وانما أعرف عنه أنه قصير القامة،وانى لا أستطيع أن أنازل

ثلاثة مثله ، وان كنت أستطيع أن أواجه اثنى عشر مثل كليبر . وددت وربى أن لو كنت أعمل تحت امرته .

« ثم جاء الاتراك فهزمهم كليبر فى هليوبوليس شر هزيمة ، الا ان الله لم يمد فى أجله ليستمتع بلذة نصره ، لان ذلك الوغد سليمان الحلبي قتله فى الازبكيه . ولقد كنت حاضرا ساعة أن اعدموا سليمان هذا ، فقد قطعوا يديه ثم أركبوه الخازوق ، وظل كذلك ساعات قبل أن تفيض روحه .

« وكان برفقتي عبد الله ، وقد عرف سليمان هذا اذ كان يجلس في الازهر بجواره . وولى الفرنسيون بعد كليبر ذلك الاحمق مينو الذي ادعى الاسلام وأسمى نفسه عبد الله مينو ، وجعل يذهب الى الجامع يصلى ، وتزوج من مصرية رزق منها غلاما سماه سليمان .

« والآن أصل بكما الى الحديث الذى أنبأتكم به من قبل وهو ان الاتراك يزحفون على مصر قادمين من طريق الشام ، وبلغنا أمس أن الجيش الانجليزي قد نزل الي البر فى أبى قير . وكنت سائرا مع احمد الصعيدى الى مراد لابلغه الأمر ، واذا بجوادي يسقط منى فى البدرشين ولما وجدت الليل أدركنى لم استطع العودة الى القاهرة وقضيت ليلتي فى كوخ أحد الفلاحين ، وقيض الله لى أن أراكما اليوم فشكرا له وحمدا . »

ومرت بعد ذلك لحظة سكت الكل فيها ، وجعل كل يفكر في تلك الانباء الغريبة .

ثم قطع المملوك ذلك السكون بقوله « انى ليدهشني ما سيكون من أمر أبي مع كل هذا . لقد تحالف مع الفرنسيين ، ولئن طردهم الانجليز فان هؤلاء بلا شك يسلمون البلاد للاتراك ، وذلك مالا يسر أبى كثيرا . »

قال الفرنسى « ولكن الفرنساويين لم يخرجوا بعد . »

وقال استيفن « وهل من أبناء عن أصحابنا فى القاهرة ؟ »

قال « انهم جميعا بخير ، وصار عبد الله الآن من المعدودين فى الازهر ، ويقال ان ليس بين جدران الازهر شاب مثله فى الذكاء وانه سيكون له شأن يذكر ، وانه عن قريب سيكون شيخا من شيوخ الازهر وعالما من علمائه .وكم هو يكره الفرنجة والنصاري : هذا وقد أتم الشيخ فضل الجزء الرابع من كتابه : أما صاحبنا الفرنسى تاجر الحرير فقد صار من كبار التجار وأصبح المتعهد بالتوريد للجيش الفرنسى . »

قال استيفن بشغف ولهفة « وماذا جري للست الانجليزية التى أقمت فى دارها بعد واقعة انبابة ؟ »

قال « الحمد لله انها بخير : ومعها تقيم للآن نفيسة اخت الشيخ الصغير عبد الله . »

قال « ورضوان أغا ؟ »

عندئذ ضحك عثمان وقال « لست أدري ماذا جري له ، ويخيل لى انه عفريت من الجن ، وقد مضى عليه عامان وهو يبحث عن رجل أتدرى من هو ذلك الرجل ؟ انه المتسول دون غيره والظاهر أنه اختفى في الليلة التى تلت عودة الفرنسيين من عكا ، ولم تقع عليه عين أحد منذ ذلك التاريخ ولقد قلت لرضوان غير مرة ، وقد أعياه البحث عنه أن الرجل لابد أن يكون وافاه اجله . ولكنه لم يكن يقابل كلامى هذا بغير أطراق رأسه ثم قوله (لم يأن له بعد أن يتوفاه الله ، لم يأن له بعد) والان جاء دورك في الحديث فما انباء الصعيد !؟ لقد حدثتك بكل انباء القاهرة . »

قال « الانباء قليلة والحياة هناك غير عادية ، ومراد دائم الغضب

بعد زوال سلطانه . بل أن معسكر المماليك ايضا طرأ عليه التبديل والتغيير ، وان كثيرين من صحبه القدماء قد انفضوا من حوله . »

قال المملوك مشيرا الى انبابه «انهم يقيمون هناك .»

قال استيفن «اما فرج فلا يزال هناك هو وحسن الكبير ويدهشني ان الاخير يصير اكثر رزانة يوما عن يوم . ويخيل الى انه متعب غير مرتاح الي الصعيد . »

عندئذ ضحك المملوك الصغير وقال « هذا ضروري لانه يهوى اخت صاحبنا الشيخ الصغير . يعلم الله انه غلب على امره تحت سهام عينيها بأسرع مما يغلب المملوك بضربة من سيف . لقد استصحبته مرة الي حارة النصارى، وكان قد جاء الى القاهرة في مهمة لمراد . واقسم لك بالنبي انه لم يكن له من حاجة تدعوه الى زيارة تلك الدار . ومع ذلك فقد كان يذهب من تلقاء نفسه . اسال الله ان ينيله كل ما يتمناه قلبه » ثم قال « وهل تلك كل انبائك ؟ »

قال استيفن «اجل ولم يبق الآن اخبرك بوفاة زوجتي .»

قال عثمان دهشا مذهولا «تقول ان زوجتك توفيت؟ اقد رأيتها من نحو ايام ثلاثة . »

قال « ما اردت زوجتي هذه وانما قصدت فاطمة قريبة مراد بك . »

قال عثمان « عفوا . ما ابلهني اذ لم الاحظ انك تسافر منفردا ، ولكن مخاوفي على تلك جعلتني اضل لحظة . »

قال «لقد ماتت في جرجا بالطاعون من نحو بضعة اسابيع . »

قال « رحمة الله عليها . »

واذ ذاك انبرى الفرنسي يقول بصوت أجش «وماذا يضير الزوج ان هو فقد زوجته ؟ ان فقد الزوجة لا يضاهي بفقد الابن . »

قال أستيفن «انى سمعت ما قلته، وانى أسأل الله أن يلهمك العزاء

الحسن والصبر الجميل ، واصبر فسينتقم الله لك من أعدائك على أيدي الانجليز والاتراك . »

قال « ولكني أراهم لم يقهروا بعد ولم يضربوا الضربة القاضية . »

قال « لم يبق على ذلك الا القليل . »

قال « سنرى »

ورست السفينة بعد الظهر عند بولاق ، ولما ربطوها في البر بالحبال تركوا سلعهم عند المراكبي وساروا الي القرية .

وبالقرب من جامع على وجدوا جماعة من الوطنيين متجمهرين حول منشور ، لصق هناك حديثا ، وجعلوا ينظرون اليه دهشين .

قال استيفن « ما هؤلاء مجتمعون هنا يامكسيم ؟ ولاى أمر ياتري ؟ » وكان استيفن وعثمان رغم معرفتهما التكلم بالعربية يجهلان القراءة والكتابة .

نظر الفرنسى الى المنشور وأحدق به لحظة ، ثم بدأ يقرأ ماحواه بلهجة الاحتقار والازدراء ، وكان يظهر التحمس فى صوته كلما تابع القراءة . واليك نصه (١) . —

---

(١) هذه صوره ذلك المنشور كما كتبه الفرنسيون بالنص نقلا عن تاريخ الجبرتي وجه ١٤٨ من الجزء الثالث الطبعة الاميرية :

« من عبد الله جاك مينو سر عسكر أمير عام جيوش دولة جمهور الفرنساوية بالشرق ومظاهر حكومتها ببر مصر حالا . الى جميع الكبير والصغير الاغنياء والفقراء المشايخ والعلماء وجميعهم الذين يتبعون الدين الحق والحاصل لجميع أهالى بر مصر سلمهم الله بمقام السرعسكر الكبير بمصر فى أربعة عشر شهر ونتوز سنة تسع من قيام الجمهور الفرنساوية واحد ولا ينقسم .

« من عبد الله جاك مينو قائد جيش الجمهورية الفرنسية فى الشرق الى جميع المصريين كبارا وصغارا ، أغنياء وفقراء ، ومشايخ وعلماء ، الى جميع الذين يتبعون الدين الحق سلام وبعد

« بسم الله الرحمن الرحيم . ان الله هو هادي الجنود يمنح النصر من يشاء من عباده ، ويضع السيف الصقيل فى يد أحد ملائكته ويوحي اليه ان يسير فى مقدمة الجيوش الفرنساوية فيهلك أعداءهم .

« أيها المصريون ان الانجليز قد ظهروا عند السواحل ، وهم ظلمة باغون ماخلقوا الا لعمل الشر ، ولئن دفعهم نزقهم الى النزول الى البر فسنردهم على أعقابهم الى البحر سراعا . وأنى أدعوكم يا أهل مصر أن تسلكوا سبيل المتقين الذين يخشون الله . فابقوا فى دوركم آمنين مطمئنين

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الله هو هادى الجنود ويعطى النصرة لمن يشاء والسيف الصقيل فى يد ملاكه يسابق دائما الفرنساوية ويضمحل اعداؤهم . ان الانجليزية الذين يظلمون كل جنس للشر فى كل المواضع . فهم ظهروا فى السواحل وان كانوا يتجرؤا يضعوا أرجلهم فى البر فيرتدوا فى الحال على أعقابهم فى البحر . والعثمانيين متحركين كهؤلاء الانكليزيه يعملون أيضا بعض حركات فان كان يقدموا ففي الحال يرتدوا وينقلعوا فى غبار وعفار البادية . فأنتم يا أهالى مملكة ومحروسة مصر انى أنا أخبركم ان كان تسلكوا فى طريق الخائفين الله وتبقوا مستريحين فى بيوتكم ومقيمين كما كنتم فى أشغالكم وأغراضكم فحينئذ لاخوف عليكم ولكن ان كان واحد منكم يسلك للفساد واضلالا لكم بالعداوة ضد دولة الجمهور الفرنساوى فاقسمت بالله العظيم وبرسوله الكريم أن رأس ذلك المفسد ترمى فى تلك الساعة فتذكروا فى كل المواقع حين محاصرة مصر الاخيرة

وواصلوا أعمالكم فليس ثمت ماتخشون . واعلموا أنه اذا اجترأ أحدكم على اتيان عمل عدائى ضد الجمهورية الفرنسية فان رأسه تطيح فى الحال وانى أقسم لكم على ذلك بالله العظيم ونبيه الكريم والسلام على من اتبع الهدى وعمل بالنصيحة . والويل كل الويل لمن نسى وعصى .

« الصادق عبد الله جاك مينو »

قال استيفن ضاحكا « تلك هى الحقيقة »

أما الفرنسى فلم يجب لانه كان يحدق النظر الى المنشور وقد تصاعد الدم فى وجهه .

قال استيفن مازحا « اخالك معجبا بتلك اللهجة . »

فزع الاخر لذلك وتسخط ثم قفز غير عابىء بالمجتمعين وبصق عامدا معتمدا .

واكترى عثمان جوادا وأسرع الى داره ليحدث الخصى بما تم له ، وأما استيفن فلم يكن له دار فرأى أن يعود أدراجه الي المركب ولكن الفرنسى عارضه فى ذلك معارضة شديدة والح عليه ان يستصحبه الى داره .

وكأنما خشى مكسيم ان يكون وحيدا فعلق باستيفن كما يعلق الطفل الصغير بزميل له .

وجرى دماء آبائكم ونسائكم وأولادكم فى كل مملكة مصر وخصوصا محروسة مصر وخواصكم انتبهوا تحت الغارات وطرحوا عليكم فردة قوية غير المعتاد فادخلوا فى عقولكم واذهانكم كل ماقلته لكم الآن والسلام علي كل من هو فى طريق الخير فالويل ثم الويل على كل من يبعد من طريق الخير

« ممضى خالص الفؤاد عبد الله جاك مينو »

ولم يفارقه لحظة في الايام التي تلت ذلك ، فكانا يجوبان الشوارع معا ويشاهدان صنيع الفرنسيين فيما كانوا يضعونه من المتاريس بهمة ونشاط .

والصقت في الشوارع منشورات مطمئنة للناس فخمة التعبير ، فآنا يقولون فيها ان الانجليز قد اعتراهم ذهول من هول الحرب وهاهم يعرضون شروطهم ، وآنا يقولون ان الفرنسيين قد طردوهم الي البحر ، ومع هذا فأعمال التحصين والدفاع كانت قائمة على قدم وساق . وقرأ مكسيم أحد هذه المنشورات الجوفاء لاستيفن فما كان من هذا الا ان ضحك وقال « هل من المعقول ان الجنود يبنون المتاريس ويحفرون الخنادق حيث لاحاجة تدعوهم الي الدفاع ؟ صدقني يامكسيم ان الامور تجري على غير مايرومه مواطنوك . »

قال مكسيم « أهلكهم الله وأبادهم ، غير ان الغزاة سيجدون الامر عسيرا لان الفرنسيين لم يقهروا بعد »

قال « اذكر انكم حتى اليوم لم تحاربوا الا المماليك والاتراك . »

وكاد الفرنسي يجيب على ذلك القول ، الا انه احجم ، وخفت حدة ثائرته أيا كان نوعها واستحالت الي تسخط يتقرقر في حلقه .

وكان من الصعب معرفة ما أصاب مكسيم ليجراند هذه الأيام . أصبح غريب الطباع فمن هذر شديد وكلام كثير الى رزانة وصمت عميق وظل مستمسكا بأمر واحد هو كراهيته لمواطنيه . وكان دائما يقول « جعل الله جهنم مأوى هؤلاء لقد كنت آمنا مطمئنا حتى جاءوا . انهم عاملونى فى فرنسا كما يعامل الكلب ، ولذا هربت منهم الى هذه الديار حيث عشت عيشة البذخ والسرف . ولقد كنت قانعا بما آتانى الله من الراحة وبسطة الرزق ، ولكنهم لم يدعونى وشأنى . لقدوفدوا على هذه البلاد وانك لتعلم مانزل بى من المصائب منذ ذلك القدوم

المشئوم . أنني لم أشعر بالراحة منذ أن وطئت قدما بونابرت اللعين أرض هـذه البلاد ، وها هو قد رحل عنها ولـكن لاسلم بعد ولا أمان . »

قال استيفن ضاحكا « انهم لن يبقوا هنا طويلا لازعاجك ، فان البريطانيين سيجلونهم عن بكرة أبيهم . وانى وحق النبي ليخطر ببالى أن الحق بهؤلاء وأعمل معهم لان مايعملون يوافق هواى . »

قال جادا « انت تلحق بمواطنيك ؟ »

ضحك استيفن وقال « انما كنت أمزح يامكسيم . ألم أتقيد مـع مراد بكلمة ؟ انني الان مصرى . »

قال « خلت لحظة انك تعنى ذلك . »

ولما جاءت الانباء بوقوع النازلة بالفرنساويين عنـد السواحل لم يظهر مكسيم فرحه كما كان يتوقع استيفن . لقد تسخط في الحقيقه وصخب ولعن الا أن لعنانه فقدت شيئا من حدتها السابقة .

عجب استيفن لهذا الامر غير أن الفرصة لم تمكنه من تتبع الحقيقة ومعرفتها ، وذلك لانه تسلم فى ذات ليـلة رسالة تدعوه لزيارة بيت مراد فى بركة الفيل .

وهناك قابله الخصي وحياه تحية المشتاق ثم قال « ان الحـوادث تجري بسرعه ياأفندى ، وعندما يقف الدائنون بالباب فان المرابى حينئذ يستطيع الحصول على خير الشروط التى يضعها للقرض . لقد وصلنى مظروف من مراد بك وهاهو ، وقد ترك لى التصرف به عند سنوح الفرصة ، وها ان الفرصة سانحة اليوم . لقد أمرنى مـراد فى الرسالة التى جئتنى بها أن أبعث بك ومعك هذا المظروف الى القائد الانجليزي لتبدأ معه المفاوضة . هذا المظروف يجب أن يسلم الى القائد الانجليزى يدا بيد ، ويريد منك مراد بك ان تكون حذرا محترسا وأن تعرف

قوة الجيش البريطانى وكذلك الوسائل التى تظن أنهم يتبعونها للغلبـة على عدوهم . »

قال « اذن هو يريد منى أن اكون جاسوسا ؟ »

فهز الخصى كتفيه وقال « لقد امرنى كذلك أن اذكرك بالقسم الذى أقسمته . ان هذه المهمة ولا شك تروق فى عينيك ، لانك تحمل رسالة سلام لا انذارا بحرب . »

قال « انك لا تدرك ما فى نفسى ، غير أن هناك أسبابا أخرى ، وعلى كل حال فانى ذاهب . » ثم تناول اضمامـة الورق والقاها طى قفطانه .

وقدم الخصى بعض المال وقال « هاك المال لتستعين به فى أمرك فدبر نفسك واحذر من التأخير فالمسألة تتطلب السرعة . »

وأرخى الليل سدوله على المدينة قبل ان يتم استيفن اعداد أمره وكان عليه أن يبدأ رحلته الطويلة عند الفجر ، غير انه بدلا من ان يذهب الى بولاق انطلق شمالا الى الشرق حيث حارة النصارى .

وكان يعرف كل ركن من ذلك الحى ، ولكنه كان يفرك عينيه غير مرة كلما أبصر ما حدث به من التغيير فى خلال العامين الماضيين . لقد انتزعت الابواب الخارجيـة الكبيرة ، واصبح المدخل طليقا . وكاد ينسى البقعة التى انقذ فيها من نحو ثمانى اعوام حياة مراد ، ولـكنه تنفس الصـعداء اذ رأى أن الدار التي كان يسكنها باقيـة كما كانت لم تمسسها يد التغيير بشىء .

تطلع ببصره الى اعلى فرأى بصيصا من النور يلوح من خلال خشب المشربيه ، فدق الباب برفق ثم دقه مرة اخرى . ولم يلبث أن سمع وقع خطى على السلم ، وطرق اذنيه صوت جول ليفبر يسأل عن اسمه ومأربه .

قال « انا استيفن هيلز ياجول فافتح الباب . »

فنزع جول المزلاج وفتح الباب ، واذا به ينكشف عن صاحبنا العم ليفيبر فى قفطانه المسترخي وطاقيته يحمل بيده مصباحا وهو ينظر حذرا في وجه القادم الجديد .

وتقـدم استيفن صامتا ودخل البيت ، واغلق جول الباب وراءه باحكام وتقدمه على السلم ينير له الطريق : وبعد أن وضع امام صاحبه لفائف التبغ والقهوة قال له « ها قد جئت أخيرا ياصاحى : »

فهز استيفن رأسه

فقال جول « الست عائدا الآن ، وددت لوانك عدت نهائيا لاجل السيدة ، معذرة انها قد انتظرت طويلا . »

قال « اعلم ذلك ياجول . نعم أعلمه . فلقد كنت أحمق فى سلوكى معها مسلك الكلب العقور . ولكنى ، علم الله ، ما كنت بالذي يعود اليها الان وقد خابت منى الامال وطاشت السهام . »

قال « ذلك مالا تحفل به السيدة . »

قال « اعرف ذلك . اعرف ذلك . ولكن ذلك لا يجعل أمر عودتى سهلا ميسورا . »

قال « انما انت مدين لها باصلاح مافرط منك ، وحسبك انك عدت من اجل ذلك ، ودعنا من أمر ما يثور بصدرك من العواطف فانه قليل لا يؤبه له . »

قال « لعلى عائد بعد الان ياصاحى ان شاء الله . لست استطيع أن أذهب اليها خالى الوفاض صفر اليـدين ، ولكن اذا قيض الله لى الثروة والجاه مـرة أخـرى فثق انى سأنبذهما وأعود اليها مستغفرا تائبا . »

قال جول بفضول « وهل انت واثق من بلوغك ذلك ؟ »

عندئذ اجفل استيفن وقال « ومن يدرى ، من يدرى ؟ »

وظل الرجلان يتحدثان طويلا الليل كله حتى بدت طوالع الفجر وسقط نوره الضئيل فى الحجرة وعندئذ نهض استيفن وقال « لا بد أن أذهب ياجول وانى اعتذر اليك لازعاجك واقلاق راحتك في استماع آثامى واعترافاتي . »

فقال جول « سيجىء يوم تحدث فيه السيدة بكل ماحدثتنى ، وثق انها ستسر كثيرا بسماعه، ولئن فعلت ذلك فلأغبطنك يومذاك . »

فهز الاخر رأسه وقال « آمل ان يجىء ذلك اليوم ياجول واذا لم يمهلنى القدر فحدثها أنت به عنى . »

قال « ثق انى فاعل ذلك والآن وداعا والى اللقاء . »

قال « وداعا » وهز يد صاحبه هزة حارة ومضى .

وبعد انصرافه قال ليفبر « يمينا لقد كنت الليلة أقرب الى فهم الرجل مني قبل اليوم . ولكن كلمة الوداع التى قالها ترن فى اذنى كانها نذير مشئوم منحوس . »



الفصل السابع والعشرون

ردة مكسيم ليجراند

أصبح مركز الفرنساويين في مصر بعد مجيء البريطانيين غير مأمون ففى القاهرة على الاخص صار مركز الحامية خطرا بالنسبة لسفر جزء كبير من الجند الى السواحل .

وفى جرجا أقام حليفهم المحايد مراد بك وكان الفرنسيون يرتابون فيه ويظنون أنه يدبر الدسائس ضدهم ويمالىء عليهم عدوهم ؛ وفى نقاهرة كانت جواسيس الترك ورسلهم يثيرون عليهم سكانها المتشبعة النفوسهم بالتعصب الدينى .

وحفرت فى الجيزة الخنادق وأقيمت المتاريس في حين ضوعف الحرس فى الازبكية وكان جنود الفرنساويين ينامون بلباسهم العسكري وبجوارهم بنادقهم محشوة بالرصاص معدة للاطلاق .

ففي ذات مساء في الغسق كان ضابطان يسيران فى ظاهر المدينة يتفقدان الحراس وكانا اثناء سيرهما منهمكين فى الكلام .

وكان أطولهما الماجور لافون فى فرقة المهندسين . أما الآخر ، وكان قصيرا ربع القوام ، فكان صاحبنا الكابتن ديوبونت رئيس قسم المخابرات .

قال ديوبونت « ان الامور ليست على ما يرام معنا ولست أخشي الانجليز كثيرا فان معركة واحدة تعيد الامور الى نصابها . ولكن البلد تغلى بالاشاعات . وما هي الا شرارة بسيطة فتشتعل فيها النيران . ولئن كنا عانينا المصاعب فى اخماد لهب الثورة وبونابرت معنا فماذا نحن صانعون الان وليس لدينا الا القليل من الجند وعلى رأسهم صاحبنا مينو ؟ »

قال لافون « ليت كليبر كان باقيا بدل هذا الابله الاضحوكة . اني والله ليجرى دمي فى عروقى باردا عندما يخطر ببالى ما سيحدث ان كانت الغلبة لاهل القاهرة على الجنود . لست أشك فى أننا نستطيع أن نتخذ لانفسنا الحيطة لو كنا نحن الفرنسيين وحدنا ولكن هناك آلافا من المصريين انضموا الينا ومالأونا على مواطنيهم ، فقل لي بربك ما سيكون مصير هؤلاء ؟ » ثم أدار عينيه ناحية المنزل الذى فى ركن الحديقة .

فهز الاخر رأسه متأثرا ثم تابع لافون الحديث قال :—

« انى أذكر لومك لى ذات يوم ولا أكتمك انى استأت منك يومذاك . أما الان فالله يعلم أني أود لو أنك استطعت تنبيهي وانقاذي . لقد كنت مجنونا مغلوبا على أمرى مسحورا . نعم كنت مسحورا وسأظل كذلك الى الابد . يا آلهى كم يكون جزعي شديدا اذا اصابها شيء بسببي . انى بالنهار كثير التفكير بسببها أحمل نفسى الكثير ، فاذا ماجن الليل خفت أن أنام حتى لا تنتابنى الاحلام المزعجة التى هى لنفسى كعذاب الجحيم . لطالما أراها فى نومى تحيط بها أخطار فظيعه يصعب على وصفها . فأستيقظ من نومى فزعا وقد بللني العرق . فاغادر السرير وأسير فى الدار جيئة وذهابا ، مخافة أن أنام فتعاودني هذه الاحلام . أما هى فشجاعة جسور لا تقول شيئا ؛ غير أنى أرى أنها هي أيضا تنتابها المخاوف وكثيرا ما أسمعها ليلا تبكي وهى نائمة . »

ظهر أمامهما على مسافة منهما رجل فى لباس تاجر راكبا حمارا فلما أن اقتربا منه قال حذرا « هل تسمح لى بكلمة يا بك ؟ »

تلفت الكابتن ديوبونت حوله بسرعة ثم قال « بكل سرور اتبعنا . » ثم سار الضابطان حتى وصلا الى نتوء فى بناء يصلح أن

يتحدثوا فيه فى خلوة .

قال لافون « هذا واحد من رجالك يا عزيزي ديوبونت يحمل اليك أخبارا . »

قال « انما هو صديق قديم لم أره زمنا طويلا . »

قال « انى تاركك اليه اذن فلا بد أن أتم دورتي على الحرس . »

ثم سار الماجور في طريقه بعد أن رمي ذلك القادم الجديد بنظرة .

وتمهل ديوبونت حتي لحق به ذلك الرجل المصرى الذى خاطبه ثم قال : —

« كبر ظنى انى لم أخطئك . وانى لمسرور أن اراك مرة أخرى فقد مضي عاما أو يزيد منذ رأيتك لاخر مرة . وخفت أن يكون وافاك أجلك ولكنى أراك الان منتعشا متقمشا كأنك أحد المشايخ أو أحد اولئك التجار الكبار . لقد يسر الله لك الأمر أليس كذلك ؟ »

قال الرجل مبتسما « انما هو الذئب يتردى لباس الحمل . أماتتلون الحرباء ساعة الخطر ؟ »

قال هامسا « وما هو ذلك الخطر ؟ أتريد حمايتى ؟ أقسم لك بالله انى أسخر كل قوانا فى سبيل ذلك . »

هز صاحبنا رأسه وقال « لكل اجل كتاب . وانى وان كنت أقول ذلك الا أنى أسألك الطبيب لارى فانى فى شديد الحاجة اليه . »

قال « ألم تعرف بعد أن لارى سافر من زمن الى فرنسا فهل لك فى طبيب غيره ؟ »

قال « ما أردت الطبيب لارى لنفسى وانما أريده لشخص آخر غيرى يقيم على بعد اثنتى عشر ميلا . وهو شخص عزيز لدى ولست

أدرى هل يظل على قيد الحياة حتى أعود اليه . »

قال الفرنسى متأسفا « اثنى عشر ميلا ! اظن ان ذلك مستحيل فى مثل هذه الاوقات . »

قال « لتكن مشيئة الله . » ثم صمت لحظة وقال « وهل من جديد عندكم يا سيدى ؟ »

فهز الفرنسى رأسه وقال « انك بلا شك تعرف ما اعرفه انا ، غير أنى أسألك سؤالا واحدا : ألم تسمع أن مرادا يسعى مع الانجليز فى دس الدسائس وايقاد نار الفتن ؟ »

قال « ان مرادا يحالف الشيطان مادام ذلك يوصله الى غرضه ولكني أظن أن ذلك ليس بعيد الاحتمال فقد رأيت من زمن غير بعيد المفتش الانجليزى الذى كان يعمل فى بولاق . »

قال ضاحكا « ذلك الذى كان يرقبني بشدة حينما كنت أدعي الاتجار بالآثار والعاديات . »

قال « نعم هو فقد جاء الى القاهرة لاجل مراد وقد يكون انفذه لغرض وهو الان يريد قضاءه . انى سأراقبه وسأوافيك بأنبائه ان جد شىء . »

قال « حسن . ولكن أليس لك ما تطلبه غير الطبيب ؟ لو ان مريضك يستطيع المجىء الى القاهرة فانى اعدك بان اعنى به وبتطبيبه عنايتى بالقائد العام نفسه . »

فهز هذا رأسه وشكره على جميل عطفه ثم قال « والان يا سيدى لابد أن أذهب حالا . سأخبرك الليلة ان جد شيء لان علي أن أعود سريعا حتى لا أصل بعد فوات الاوان . »

نظر اليه ديوبونت وهو دهش من أمره وقال يحدث نفسه « ان الامر حكاية تستحق أن يسمعها الانسان والا فانى ابله . لئن قدر لى

أن أعود الى فرنسا فانى لن أذكر غير ذلك المتسول من بين كثيرين ممن هم أعظم منه شأنا . انى لاعجب من أمره ، ولست أدرى الذى فيه مما يخلب العقل ويحير الافهام . »

* * *

بعد ساعة اقترب المتسول من منزل فخم فى بركة الفيل ، وهناك خاطب البواب طالبا أن يرى « كبير المستحفظين . »

قاده البواب الى سلاملك وهناك التقى بصديق قديم له .

لم تغير السنون وجه صاحبنا ميخائيل القبطي الاملس المنتفخ ولا عينيه الناعستان اليقظتان ولم يجد عليه شىء سوى أختفاء ملابسه القذرة وخنوعه المعروف .

لقد كان الانتقال عظيما وكان التغيير خطيرا غير أنهما لم يكونا تامين وذلك لانه لدى رؤية المتسول استعاد بعض طباعه الماضية فظهرت على وجهه دلائل الخضوع والذلة .

قال اذ رآه « انى مسرور لرؤيتك ياسيدى فهل من خدمة أوديها لك ؟ »

ما كان أعظم تغيرا الظروف وتبدل الاحوال !!

قال المتسول جادا « شكرا لك فلقد سمعت انه لم يبق الا القليل الذى لا تستطيعه الآن : لقد صرت من أصحاب السلطان والنفوذ وصار اسمك يخيف أهل الشرور ويفزعهم ، وانك لتعرف ان تصل اليهم كأن لهم رائحة تميزها خياشيمك ، وان ناظريك ، لتخترقان الحجب وترَيان ما خبأ المشايخ والمماليك من الكنوز . »

فابتسم القبطي معجبا بنفسه وقال « الحق ان الدهر قد بسم لى وأصبح القبطي المحتقر يضع قدمه على رأس سيده . حتى نحن ياسيدى قد تغير الحال منا غير الحال واصبح التابع منا متبوعا والمتبوع تابعا . »

قال المتسول متواضعا « لقد صدقت ولـكن العاصفة اذا عصفت فانها تقتلع طوال الاشجار . السلامة يا صاحبى فى التواضع . »

قال « وماذا تعنى بذلك ؟ »

قال « الم تسمع بأخبار ما يحدث فى السواحل ؟ »

قال « اتريد الانجليز ؟ اطمئن فسيبيدهم الفرنسيون : »

قال « أتظن ذلك ؟ حسن ففيه لك عزاء كبير . »

قال « واذا لم يكن ذلك فماذا يهمنى ؟ ان الانجليز مسيحيون . »

قال « صدقت وحلفاؤهم الاتراك ما هم ؟ أتحب ان تراهم اصحاب السلطة فى مصر مرة أخرى ؟ »

فانكمش وجه القبطي وتصبب العرق عليه وقال « لا والله ما أحببت ذلك . ولكن ما الذى جاء بك لتـذكرنى به يا نذير الشؤم ورسول النحس ؟ »

قال « انما اردت لك أن تأخذ الحيطة وتكون على حذر وان اريك طريقة للخلاص . اعلم أن عمر بك الان فى الدلتا ينتظر الاتراك فقد انضم اليهم وذلك لأنه عقد النية على أن يكون شيخ البـلد . فاذا اتفق مراد أولا مع الانجليز فقد يسعون لدى الترك لرد مشيخة البلد اليه . وانى لذلك اقترح عليك أن ترسل لعمر بك انباء ما هو حادث الان ، وأن تحصل على أدلة تثبت انضمام مراد الى الانجليز ،وأن تخبر الفرنسين بذلك فاذا ما وصل مراد آمنا مطمئنا الى القاهرة وهو فى طريقه الى الانجليز استطاعوا أن يقبضوا عليه . »

فهز الاخر رأسه وقال « اذن انت تريد أن أسالم الانجليز والترك وانضم اليهم ؟ »

قال « انت حر يا سيدي فأنت المكلف بالمحافظة على حياتك . »

جعل القبطي يفكر ثم قال « وأنى لى بالادلة التى تريدها ؟ ان

مرادا بلا شك باعث رسوله خلال الصحراء فلن يمر بالقاهرة . »

قال المتسول « أتعرف ذلك الانجليزى الذى كان يوما ما المفتش فى بولاق ؟ »

قال « نعم أعرفه . »

قال « انه بالقاهرة الان . »

قال « لا بل أنت مخطيء فقد سافر فجر أمس . »

قال « ماذا ! سافر أمس ؟ اذن لقد ضاعت الفرصة وجئنا بمدفوات الأوان . »

قال القبطى ضجرا « وكيف ، وكيف ؟ »

قال « هل خرج من باب الحديد وسار شمالا ؟ »

قال « نعم وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال « هذا واضح وثق أنه يقصد الاسكندرية ومعه أوراق من مراد . ليتك حلت بينه وبين السفر . »

قال « لو اننى كنت اعلم ما تركته يغادر القاهرة حيا . لقد أساءنى مرة فرددت الاساءة بمائة مثلها . فما أغرب أن يكون هو نفسه الآن سبب ضياعي . ولكن قد تكون يد الاقدار هي التي تعبث بي هذا العبث . »

عندئذ استعاد القبطى نفسه وظهر الغيظ على وجهه المضطرب وقال « انت تعلم أنى لم أكن كذلك دائما » واشار الى اردانه الموشاة بالذهب ثم قال « كنت أشتغل عند ذلك الفرنجي الملعون فى محل تجارته الذى كان يشاركه فيه فرنسى سمين . فامسك بي ذات يوم باحدى يديه ورفعني كأنى طفل ثم جعل يضربنى بقبضة يده . وكانت لطماته شديدة كأنها لطمات بغل ، فخيل الى انه لابد قاتلى ، ولكنه تركنى ثم رفسني بقدمه كما يرفس الكلب .

« ولكني تريثت وانتظرت الفرص . لقد كان له ولد ففى يوم قطع الخليج أعطاء لزنجى واراد هذا الزنجى ان يشهد حفلة قطع الخليج فأخذه معه وتصادف أن قابل بعض أصحابه العبيد فانشغل عن الولد بالحديث مع صحبه وذهب هذا مع الجمع فأخذته وأخفيته فى مكان أعرفه .

« ولما عدت وجدت الزنجى كالمجنون يجرى هنا وهناك يسأل كل من قابلوه هل رأوا غلاما . فاقتربت منه وسألته هل الولد يبلغ من العمر أربع سنين فقال نعم وأمسك بردن قفطاني فقلت له وللولد رأس حمراء مما يدل علي أنه ليس مصريا فقال نعم وشكر الله علي ذلك وسألنى أين هو فقلت يؤسفنى يا صاحبى بل ويمض قلبي أن أخبرك أن ولدا هذه أوصافه قد سقط في النهر وانهم للان يبحثون عن جثته . »

وعندئذ تنهد القبطى تنهد الفرح المسرور بهذه الذكرى .

قال المتسول « ثم ماذا ؟ وما الذي فعلت بالولد ؟ »

قال « سرت به بعيدا يا سيدي فانى خفت ان اتركه فى القاهرة وبعته بعشر قطع ذهبية لامرأة فى طنطا لم يرزقها الله بنين ذكورا ما عدا ابنة واحدة ، وكانت هذه المرأة فى دار عمر بك . »

قال « وهى التى تزوجت علي فرج تاجر النحاس ؟ »

قال القبطى « لك الله يا أخى ما انت الا ولى . » ثم سكت سكوت الحائر المفكر ، وكأنما المتسول فى نظره عفريت من الجن .

قال المتسول « حقا أن الله يصرف الامور تصاريف عجيبة . الحمد له أن أطلع عبده على ما خفى من الامور . لم يبق للسيدة الفرنجية المتعبة الا أن تهدأ بالا وتنعم حالا . سبحانك اللهم تبارك اسمك وجلت قدرتك . »

وعقب ذلك صمت استمر زمنا كانما المتسول نسي فى خلاله نفسه

ومهمته فى حين أن القبطى قد شرد عقله وطار لبه :

وقال القبطي أخيرا « هل أنت متأكد من أن ذلك الفرنجى ذهب الي الاسكندرية وانه يحمل مكاتيب من مراد ؟ »

قال « لست أشك في ذلك البتة ، على أنى سأتحقق من ذلك الليلة أعرف فرنسيا ثرثارا يقيم ذلك الفرنجي فى داره فسأذهب اليه وانى لابد سامع عنه بعض الشيء هناك . وبكلمة واحدة للفرنسيين يتم القبض عليه وهو في طريقه شمالا ليصل الى الانجليز . لن يفلت ابن الكلب من يدى هذه المرة بعد طول هذه السنين . السلام عليكم ولا تنس أن تخبر عمر بك ليكون علي حذر . »

قال « انى فاعل ذلك ان شاء الله وانى لافضل أن أقع فى يد الاتراك عن أن أقع فى يد مراد . ألم يملأ فم الرجل بالذهب دكه فيه دكا وبعدئذ أعدمه ؟ يالله كم أزعجتنى هذه الحكاية . »

...

بينما كانت هذه الحوادث جارية كانت تجرى فى دار مكسيم ليجراند ببولاق حادثة أخرى تختلف عن تلك كل الاختلاف .

منذ عاد مكسيم الى القاهرة وهو يظهر فرحه وسروره لشقاوة قومه ومواطنيه . يرحب بكل نازلة تنزل بهم ويبالغ فى ذلك ويستقبل كل اشاعة تشيع عن هزيمتهم بالبشر والايناس . وكان يذهب الى المعسكر فى الازبكية فيطرب لقلة عددهم ، ويزور الجيزة ليرى ما يقيمونه فيها من متاريس وما يحفرونه من خنادق باذلين فى ذلك همة اليائس ، فيتخذ من ذلك علامة على ضعفهم يستبشر بها ويبتهج .

وكثيرا ما كانت تثور ثائرته فيجلس الساعات الطوال مطرقا لا يتكلم ، فاذا ماصحا من أطراقه واستيقظ تسخط على الجميع وانهال

السباب من فمه عليهم .

وفي الليلة التي فارقه استيفن هيلز جعل يطوف بداره ويحوم حولها كما تحوم الروح القلقة ، فلما أن جاء الصبح ولم يحضر ضيفه خرج يبحث عنه .

فذهب الي كل مكان اعتادا أن يطرقاه فلم يظفر بطائل ، وما كان أشد اندهاشه أخيرا حين أخبره بعض السابلة أن الفرنجي قد غادر القاهرة في الصباح ممتطيا جوادا .

فصرف يومه في قراءة المنشورات يسير حول الازبكية متسقطا أخبار هزيمة جديدة للفرنسيين ، ومستمعا الي كيف أن الذين على قيد الحياة منهم في مركز حرج لا رجاء منه بين الجيش الانجليزي وجيش الترك القادم بسرعة من ناحية العريش .

وعاد أخيرا الى بيته مهموما مكدودا لا يعير اسئلة زوجته الا أذنا صماء ، وكأنما زاد في شرابه عن المعتاد فجلس متربعا على المقعد (الكنبه) ضجرا عبوسا .

انتبه الى زوجته حينما سألته عن ضيفه فصاح بها «يالك من امرأة بلهاء ألا تستطيعين أن تحسي بالامر وتحدسيه ؟ انه ذهب الى قومه لينضم اليهم . أليس الانجليز كلهم خنازير وخونه حانثين . لقد اقسم يمين الاخلاص لمراد فلما رأى اليوم أن مواطنيه يكتسحون أمامهم كل شيء نسى اليمين الذى أقسم وانضم اليهم . أليس هؤلاء الانجليز جميعهم سواء ؟ ولكن ليحذروا نعم ليحذروا . »

فسكتت المرأة في خضوع وراحت تشغل نفسها في بعض أعمال منزلية .

وبعد فترة أمرها بشدة أن تنام .

ومرت بضع ساعات وهو جالس وحده صامتا يقرض أظافره . وعم

السكون منزله ولم يبق فى بولاق شخص غير نائم ، فنهض بخفة يمشى على أطراف أصابعه معتزما أمرا حتى وصل الى حيث سيفه المعلق على الحائط فأنزله برفق وتؤدة .

واذا به يسمع فجأة صوتا جعله يدير ناحيته وجهه فزعا مذعورا فاستل سيفه علي غير ارادة منه حتى نصف غمده .

وقفت هناك زوجته تنظر اليه وقد انطبع على وجهها الهادىء المصفر علامات الدهشة والخوف .

قالت « ماذا بك يا عزيزى وأى شيء يؤلمك اننا الان فى ساعة متأخرة من الليل وها أنت لم تنم بعد . »

قال معنفا « لم أنم بعد ! ليس هذا وقت النوم . لقد نمت طويلا جدا ،نمت عشرين سنة ولكنى قد استيقظت . اليك عنى أنت وكل مصرى ومصرية ،لست الان فرج افندى وانما أنا مكسيم ليجراند مرة أخرى أنا ذلك الفرنسى مكسيم ليجراند . »

فبدأت المرأة تبكى وتنتحب فان الرجل فى الحقيقة قد فقد عقله .

قالت « اعطنى سلاحك يا عزيزى فانت مريض وامكث حتى الصباح . »

قال « ولا لحظة واحدة فلقد مكثت طويلا . »

قالت بليونه « والى أين أنت ذاهب الان ؟ »

قال « انما أنا ذاهب الان لاحارب فى سبيل فرنسا . » ووقف أمامها وهو ذلك القزم القصير السمين الذى ليست له مسحة أهل الحرب وقد انتفخ شدقه وأبرقت عيناه الصغيرتان بريق الحمية والغيرة .

قالت «في سبيل فرنسا ؟ ألم يطردوك من هذه البلاد شر طرد، وألم

تحدثنى بذلك غير مرة ؟ »

قال « أعرف ذلك أعرفه ولـكنه كان من زمن طويل مضى . »

قالت « ألم تكن فى بذخ ونعيم هنـا حتي جاءوا فنغصوا عليـك عيشك وشردوك مرة أخرى ؟ »

قال « هذا صحيـح ولكن أليسوا هم الان فى ضيق وأليسوا هم بنى وطنى ؟ »

قالت « ألم يقتلوا ولدك ؟ »

عندئذ انكمش ذلك الوجه المنتفخ وقال « هذا صحيـح أيضا ولكنه عمل عن غير قصد سىء . »

فرجته كثيرا وضرعت اليه وأمسكت به من ردائه ولـكنه دفعها جانبا .

قال « صه . اسمعى ان الدار بكل ما فيها ملك لك . سأترك مصر كما جئتها وانك لتجدين الكثير هنا مما يكفى حاجتك ويجعلك تحصلين على خير زوج لك فى القاهرة كلها . »

قالت « ولـكنى زوجتك واني لى ان اتزوج مرة اخرى . »

قال « هذا ميسور متدارك . استمعى الى . انى طلقتك مرة وثانية وثالثة أنت طالقة ثلاثا اتسمعين . فاذا لم يكفك ذلك فأنت طالقة مائة مرة . »

فسقطت على ركبتيها لدى سماعها هـذه الـكلمات المخيفة وحثت التراب علي راسها ، ولـكنه لم يلتفت اليها بل حمل سيفه تحت ابطه وذهب لا يلوى على شيء ولم يعمل اكثر من ان نظر اليها نظرة وهو سائر .

ومكثت المراة لا حراك بها ، فلما لم تسمع صوت اقدامه عائدا اليها نهضت واقفة وشعرها منسدل منفوش ورفعت يديها نحو السماء وقالت « لعنة الله على هؤلاء الفرنجة . لقد ولدت لهذا ولدا ذكرا وكان نصيبي

منه هذا الطلاق . » ثم سكتت وراحت ببطء الى ما بدارها من سلع تعدها وتقدر لها ثمنا .

وظلت كذلك مشغولة حتى جاء المتسول وسمع منها وهو دهش مبهوت كيف أن فرج أفندي قد عاد فرنجيا نصرانيا كما كان .

الفصل الثامن والعشرون

عثمان يعرف أبويه

بعد بضعة أيام من سفر استيفن هيلز الي الاسكندرية حاملا مكاتيب مراد السرية الى الانجليز كان الخصى وعثمان جالسين يتحدثان فى حديقة قصر مراد ببركة الفيل .

وكان ذلك في مستهل الصيف والنيل منخفض وكان يسمع خرير الماء يتدفق فى الجداول الصغيرة من ساقية هناك يديرها بلا انقطاع ثور معصوب العينين

وكان يلوح على وجه الفتى القلق وانشغال البال . قال يحدث صاحبه « لست أرى بصيصا من النور في هذا الظلام يا رضوان افندى فالفرنسيون الذين تهادن معهم أبى فى بائجة محرجة ولا ريب فى أنهم سيطردون من ديارنا كما أنبأتنا من زمن طويل ، وعندئذ يصير أبى فى موقف صعب دقيق فقد هزمه الفرنساويون وأقطعوه جرجا ، ولكن اذا استتب الامر للترك فانهم لن يمنحوه شيئا حتى حياته . »

قال « لابد له أن يهادن الاتراك قبل هزيمة الفرنسيين فى حين لا تنس أن الخمسمائة مقاتل الذين يستطيع أن يجمعهم ذوو قيمة في الميدان . »

قال « ماذا ! أيهجر أصدقاءه ساعة الشدة والفجيعة ؟ »
قال « أو يهزم معهم ؟ »
قال « لخير والله أن يهزم معهم ألف مرة ويسقط بجانب أصدقائه من أن يحرز النصر وانما فوق جثثهم وأشلائهم . »
قال « لست بالمملوك الصميم يا عثمان . »

قال بحمية وشدة « لئن كان هذا الذى يعمل ذلك هو فى نظرك المملوك الصميم فلا والله ما رغبت أن أكونه على أن ابى لم يفتح بعد باب المفاوضة مع الانجليز . »

قال « ان بصرك يا عثمان لا يتعدى الذى أمامك . والا فما الذى تراه في مجىء الانجليزى الى القاهرة ؟ »

فهز عثمان رأسه وقال « والله ما اتجه فكري الى ذلك قط . »

قال مسترسلا فى حديثه « لقد كنت أرسلت الى مراد من زمن بعيد أقول له أن احوال الفرنسيين تسير من سىء الى أسوأ وانى سمعت أن الانجليز قد يغيرون على مصر وطلبت اليه أن يرسل الرجل الانجليزى بمكاتيب الى القائد الانجليزى ، وما كاد ذلك الفرنجي يصل الي القاهرة حتى غادرها الى الاسكندرية في ظرف أربع وعشرين ساعة .

« ولم تطب نفس الرجل الى هذه المهمة ولست أدرى لماذا ، الا أن يكون قد أراد أن لا يراه قومه . ولكنني ذكرته بقسمه الذي أقسم لمراد فانطلق لاداء المهمة شهما أبيا . »

قال « وددت لو أن أبى احتفظ كذلك بعهده الى الفرنساويين . »

قال مبتسما « ومن ذا الذي علمك هذه المشاعر ياعثمان ؟ »

قال على الفور « أنت نفسك يا رضوان افندى . »

قال وهو يضحك ضحكة الامتعاض « وهل لخصي أن تجيش بصدره هذه المشاعر ؟ هذا غريب . »

قال عثمان « ألم يصلك شيء من الفرنجي بعد ؟ »

قال « لا ولست أفهم السبب ولكنني أريد أن أعرف شيئا قبل هذا فقل ماذا فعلت يا عثمان ليلة سقط جوادك هل نمت في الغيطان ؟ »

قال انما نمت فى بيت صغير لاحد الفلاحين وهو الذى بظهوره الفجائي جعل الجواد يجفل من منظره فقد كان كالخيال الذي يعمل لتخويف الطيور فوقعت على ضفة النهر . وقد كان المكان قذرا ، ولكن ما كان أعجب ما تراءى لى في المنام تلك الليلة . لقد رأيت كأنى عدت طفلا كما كنت ، وان أمي تحملنى بذراعيها لارضاعى . ووالله لقد كانت رؤيا جميلة كأنها حقيقة لا أضغاث احلام ذلك انى حين استيقظت جلست استمع ، وانى أقسم لك بالنبى انى سمعت صوت امرأة . »

قال « ان الاحلام أمور عجيبة حتى لكثيرا ما رأيت نفسى في المنام رجلا وحولى صبية هم ابنائى : »

قال « واعجب من ذلك أنى حينما صحوت من نومى عند طلوع النهار لشدة رغبتى فى العودة الى القاهرة وجدت خنجرا ملقى على الارض بجوارى ، وكان خنجرا عجيب الصنع ، وأقسم أننى لم أره قبل نومي . »

قال « ألم يقل الفلاح شيئا عنه ؟ »

قال « لم يكن من خناجر الفلاحين ، بل قد جاءنى الرجل بعدئذ وأخبرنى أن فى النهر قاربا سيقلع الى القاهره . فذهبت اليه فوجدت فيه المفتش الانجليزى وفرج أفندي الفرنسى وجئت معهما الي القاهرة . »

قال « أمر عجيب وهل لا يزال الخنجر معك ؟ »

فما كان من عثمان الا أن انتزع الخنجر من حزامه وسلمه الى الخصى.

فاستله هذا من غمده وجعل يتفحصه تفحص الرجل الخبير بالاسلحة واختبره بدقة.

قال عثمان وقد رأى اهتمام الخصى به « خنجر ماضى الحد لم أر فى حياتى مثيلا له ، وقد جربته منذ أيام فى كتلة من الخشب فمضى فيها وكأنما الخشب لباب هين. اختبر زنته تجد أنه فى يدك كانه كائن حى ، فاذا ما لامست أصابعك مقبضه اشتاقت نفسك الي الضرب والطعن. »

ولكن عثمان لم يسعه الا السكوت لان الخصى لم يكن مستمعا اليه حيث كان في شاغل عن الحديث بفحص الخنجر.

على أنه قال « ترى من صاحب هذا الخنجر؟ »

فقال الخصي وهو يحاول الكلام بهدوء وان يكن غير مستطيع اخفاء دهشته « اننى أستطيع أن اقول لك من هو صاحبه. »

قال عثمان ضاحكا « ربما كان خنجر المتسول. » وقد كان تعقب الخصى للمتسول داعية اندهاش عثمان وحيرته.

فقال الخصى « نعم انه خنجره. »

عندئذ ضحك عثمان ضحكة يمازجها القلق وخشى أن يكون بصاحبه دخل وجنة ثم قال « ولكن أية حاجة لمتسول أن يكون له خنجر كهذا الخنجر؟ ان مرادا نفسه لا يحمل خيرا منه. »

قال « ان المتسول لم يكن طول حياته متسولا يا عثمان وستعلم نبأ ذلك بعد حين. والآن نبئنى كيف كانت هيئة ذلك الفلاح؟ »

قال « كشكل فلاح آخر . طويل القامة عريض الصدر ذا لحيـة قصيرة وخطها الشيب ، وكان ولا ريب يشكو من مرض فى عينيه لانه كان يضع عمامته فوق جبينه ليظلهما بها . »

قال « وكان يظلم فى مشيته يا عثمان يا أعمي ؟ »

قال « نعم نعم لقـد كان يظلع فى مشيته . لله ماكان أحمقنى ! لا ريب فى انه كان بعينه ذلك المتسول ، ولكن كيف جاءنى هذا الخنجر ومن الذى وضعه بجوار مرقدي خارج الدار ؟ »

قال « لا يعلم ذلك الا الله وحده ، وهو الذى انقذك برحمتـه . ولـكن هيا فليس لديا متسع من الوقت نضيعه ، لقد أفلت من يدي المرة ولـكن ورأس النبي ما هو بمستطيع الافلات مرة أخـرى . » ثم صفق بيده يدعو أحد الخدم واذ جاءه قال « اسرج جوادين حالا ولاحظ أن يكونا أكرم مافى المرابط من الخيل . »

فبهت عثمان دهشا وقال « ماذا حدث وأى شىء جد ، ولم هذه العجلة وما معناها ؟ هل وترك المتسول ترة لا تستطيع احتمالها ؟ »

قال « لو أنك عرفت خبىء الامر لـكنت أشد منى عجلة يا عثمان ولـكن صبرا صبرا فستقف علي كل شيء هذه الليلة قبل أن تسمع أذان العشاء منبعثا من المآذن . »

وفي مسيرهما الى البدرشين لم يستطع عثمان وهو المملوك المدرب على ركوب الخيل ، أن يلاحق الخصى فان هـذا ركض مطيته وقد احدودبت ركبتاه وانحنت قامته الطويلة وامتدت رقبته ، فكأنما هو يركض لينجو بحياته .

وكان الخصى أكثر الناس تأدبا مع القرويين وأشدهم رعاية لهم . أما فى ذلك اليوم فلم يكن يحفل بهم فى طريقه ، يثير عليهم الغبار فيحجبهم عن الانظار ، ويدهمهم هم وحميرهم المحملة كأن لم يكن في طريقه أحد قط .

فلما أن اقتربا من القرية تمهل الخصي وسأل صاحبه «أين المنزل يا عثمان؟»
فأشار هذا الى بيت كان يلوح على الطريق قد علا سطحه والحمام يرف حول ذلك السطح وقال « ذاك الذى يبدو هناك . »
فاقتربا من الباب وتلفتا حولهما وراعهما ما رأيا من الباب من قفر المكان وعزلته . فلا البقرة ترعى البرسيم ولا الباب الخارجى في مكانه بل الفيناه منزوعا . وليس ثمت غير السكون يرفرف على تلك الدار الموحشة.
قال متبرما « كأن هذه الدار دار الموتى . »
وللحال صاح به صوت يقول « لقد قلت حقا ونطقت صدقا فهذه الدار دار الموتى فلا تعكرا صفو سكونها . »
فتلفتا واذا بهما يريان سودانيا قد طلع عليهما من خلف الدار .
فقال عثمان وجلا خائفا «ماذا تقول ؟ هل الفلاح الذى كان يسكن هذه الدار قد توفاه الله ؟ »
قال « كلا ولكن زوجته هي التى قضت نحبها منذ يومين ودفنت البارحة ، فاركا دار الاحزان لاحزانها تنعى من بناها . »
فصاح الخصى ملهوفا محزونا « اتقول ان السيدة قد ماتت ! »
فلما سمع الزنجي صوته الرفيع ، ولم يكن قد أمعن النظر الى الخصى أجفل وتراجع ثم جعل الخصى يقول « ماتت منذ يومين فقط بعد كل تلك السنين الطوال ، وهم يقولون ان الله رحمن رحيم ؟ »
وكأنما الخصى بتلك الكلمات قد نفث روح الشك والريبة .
فحملق عثمان بصره فى الخصى دهشا ولم يكن قط قد رآه قبل تلك اللحظة على مثل تلك الحال من التأثر .
وكاد الزنجي يتوارى خلف البيت مرتاعا مسرعا لولا ان الخصى ناداه قائلا « تعال هنا يا اسماعيل يا مروى ، أظننت الناس كلهم عميانا لا يبصرون ؟ »

فوقف السوداني لحظة وكأنما جمد من الرعب لدى هـذا النداء الفجائي ، ولكنه استجمع قواه كأنما يريد الفرار ، غير انه لم يلبث أن طرد عن نفسه هذا الخاطر وأقبـل عائدا منتصب القامة فى غير خضوع ، واضعا يده فوق صدره ، عليه مسحة الرجل الطليق لا خنوع العبد الرقيق ثم قال « ها قد عرفتني يا رضوان أغا ، نعم أنا اسماعيل المروى فما الذي تريده مني ؟ » ووقف ينظر صـوب الفارسين فى غير وجل ولا خوف :

فلم يكن من عثمان الا أن دهش لدى هذا الانقلاب الفجائي فى ذلك الخادم الفلاح .

قال الخصى « لدى الكثير من الاسئلة أوجهها اليك ؛ غير أن كل ما أريده منك الآن أن أعرف أين سيدك . »

وهنا ارتعشت شفتيه لا يستطيع كلاما .

قال « لقد ذهب . »

قال « نعم ولكن الى أين ؟ »

قال « وهل لى أن أحدثك بانباء سيدى ؟ ألا بربك دعه في سلام لقد كنت أنت ومولاك لعنة الله عليه سبب شقائه وبلواه فجعلتما حياته نارا وسعيرا . ثم ألم يكن تجسسك عليه في القاهرة هو الذى دفعه الى تركها ومن يدرى ربما لم تكن قضت نحبها ؟ من يعرف عن حـياة سيدي أكثر مما أعرف ، وأنا الذى عشت معه سنـين طوالا ؟ من ذا الذى يعرف أكثر مني ما احتمل من شقوة وألم بسبب ذلك اللعين مراد بك الذى لم يكن يدانيه فضلا واقداما؟ »

فتلمس عثمان بيده مقبض مشمله ، ولكن الزنجي لم يتراجع ولم يرفع يده عن صدره وانما قاس بعينه المسافة التى بينهما .

عندئذ رفع الخصي يده ، وقال « مكانك يا عثمان لا تحاول امرا . »

ثم التفت صوب السوداني وقال « استمع الي يا اسماعيل يا مروى انى أقسم لك برأس نبينا الكريم أنك أنت ومولاك قد جرتما علينا فى الحكم ، ولو أن لدى من الوقت متسعا لبرهنت ذلك لك ، أما الان فاين مولاك ؟ ان فى الامر من الاشياء ماهو أهم من ذلك ولست به عليما . »

فابتسم السودانى ابتسامة رهيبة وقال « وهناك أيضا أمور كثيرة يا رضوان أفالم تحلم أنت بها ، لا بل لم تخطر ببال مراد إنقسه عليه اللعنة ثلاثا . »

فسطع فى عين الخصى بريق من الذكاء لا يشوبه الخوف وقال « الا زلت مصرا على رفض ان تخبرنى اين ذهب مولاك ؟ »

وهنا انبرى عثمان يقول « ولكنا نستطيع ان نلجئة الى الكلام ان احتجنا الى ذلك . »

فضحك السودانى ضحكة خشنة وقال « تلجئنى الى الكلام ؟ لقد قاتلت بيدى العاريتان من الرجال من هم أفضل منك وأشجع . أتقول انك تلجئنى ؟ »

فترجل الخصى وقال « حسبك حسبك ، انى متحدث معك على انفراد »

فخنق عثمان وقال « ما هذه المهزلة ألا ترى ان الرجل متسلح ؟ »

قال « نعم أراه ولكن ابق هنا يا عثمان . » ثم أشار الى السودانى فتبعه هذا صامتا وابتعدا عن مسمع عثمان .

قال السودانى ببرود « ماذا تريد منى الا فاعلم انك لن تقف على شيء منى . »

قال « حتى وان كان ذلك فى خير سيدك وصالحه ؟ »

قال « حسن ولكن اى خير يمكن ان يجىء من قبلك أنت أو

اى واحد من رجال مراد ؛ لقد عرفت سيـدى فى أيام عزه واقباله ثم رأيت أنت ما صنع به ذلك الكلب العقور . لطالما رأيته فى الطليعة والحرب مستعرة وهو اليوم يتكفف فى شوارع هذه المدنية وأزقتها . لقد كان يطعم المئات من موائده وهو اليوم يسأل السابلة قطعة من الخبز يسد بها رمقه . واما تلك التى كنت تعرفها ترفل فى الدمقس وفى الحرير يحف بها الترف ، تلك السيدة التى لا تدانيها امرأة في ذكائها وحدة ذهنها ، فقد كانت تعيش فى ذهول كأن لها عقل الطفل وبهاه ووالله لو أنك سمعتها وهى تنادى ولديها لرق لها حتى قلبك المتحجر ولكنها مع هذا قد شهدت ولديها قبل ان تموت : »

فحملق الخصى ببصره وقال « وماذا تعنى بقولك هـذا ؟ أهى رأت ولديها ؟ »

قال « نعم رأتهما بوحي الخيال وقد وضعت رأسها فى حجر مولاى وجعلت تبكى وتقول انها رأت ولديها ، وانها رأت ابنها نائما كعهدها به وهو مرتد ملابس المملوك الصغير التي تحيكها له . » ثم علا صوته غاضبا حانقا وتابع حديثه قال « انى لاعجب اذ تمر بى هذه الذكرى كيف انى لا تسول لي نفسى قتلك الآن هنا . لقد قتل مولاى البك سيدك فلماذا انا مملوكه لا اقتلك انت خادمه ؟ »

قال الخصى « لم أكن مخطئا اذن . لقد ذهب مولاك الى جرجا . »

عندئذ تسخط السودانى مقسما وراح يقول « لى الله ما أبلهنى ! لقد نسيت ذكاءك وسرعة خاطرك . ولكن ماذا يهم الآن ؛ انك لن تستطيع الوصول اليه . انه لينتقمن للعشرين سنة التى احتمل شدتها قبل أن ترسل كلمة التحذير لمولاك اللعين . »

فتصبب العرق على جبين الخصى وقال « تداركنى اللهم برحمتك لقد ماتت الست علية هانم قبل الاوان وها هو يمضى حاملا نفسه على

المهالك والمعاطب ولا يزال له فى الدنيا مايغريه على البقاء فيها . »

فضحك السودانى وقال « انما أنت تهرف كالمجنون أي شيء بقي لمصطفى بك فى هذه الحياة غير الثأر والانتقام ؟ »

لم ينطق الخصى بشىء بل أشار اليه أن ينظر صوب عثمان وكان هذا جالسا يتبرم من الانتظار وقال « انظر ، هل لم تعرفه ؟ »

فحدق السودانى البصر ثم التفت الى الخصى مرتابا وطلب اليه أن يشرح مقصده .

قال « ألا تذكر الجيزة والطفل الذى كنت تدربه على ركوب الخيل وتعلمه التكلم بلهجة المماليك . »

قال « أنظن أنى أنسى ! لتكن جهنم مأواى ان أنا نسيت ذكراه يوما . »

قال « اذن فانظر مرة أخرى . »

قال « تري ما الذى تقصده بهذا ؟ » ثم أمسك الخصى بوحشية من طوق قفطانه ثم قال « لست احتمل اليوم مزاحا . »

فلم يجب الخصي بل نظر الى الرجل ثم الى اليد القابضة على قفطانه فلم يلبث الزنجى ان استرخت يده رغم غيظه وغضبه . ذلك أنه رهب الخصى وخافه على الرغم منه . فلكم كان الموت نصيب الكثيرين من الرجال سقطوا صرعى لما هو أقل من ذلك شأنا .

وأخيرا قال الخصى بصوت هادىء « مضى على عامان وأنا أبحث خلالهما عن مولاك فهل تدرى لماذا ؟ انما أردت أن أدله على هذا . »

ثم أشار الي المملوك الفتى واستطرد حديثه قال « انظر الآن تذكر مصطفى بك وهو في العشرين من عمره ؟ لئن كنت نسيت فانظر . »

فشهق الرجل شهقة خشنة ثم قال « رحمتك اللهم ان فى هذا القول أثرا من الصحة . ولكن . ولكن ـ ذلك لايمكن أن يكون . لقد مات الطفل منذ عشرين عاما . نعم لقد التهمته النيران بين ما التهمت فى

منزل الجيزة يوم شبها ذلك الكلب الدنىء فى جدرانه . » وراح يلتهم بعينيه الفتى رغم الشك الذي تنم عليه كلماته . وكان الفتى المملوك وقتئذ جالسا على جواده قلقا على أحر من الجمر .

ثم قال السودانى « ولكن اين الفتاه ؟ »

فهز الخصى رأسه وقال « لست ادرى وقد وجدت الصبى صدفة وأخفيته بضع سنين على أمل أن أعثر على مصطفي بك مرة اخرى ثم احتلت على بيعه لمراد ولم يكن يعلم من أمر ابويه شيئا، فشب وكبر فى دار مراد . »

قال « ألست فيما تحدثنى به كاذبا ؟ »

قال الخصى بصوت رهيب « انى فى هـذا المكان الرهيب الذى قضت فيه تلك السيدة نحبها أقسم انى لم أنطق بغير الحق . »

وعندئذ مشى السودانى متمهلا نحو عثمان غير شاعر بالخصى وهو يتبعه ، فلما ان صار على بعد خطوة واحدة منه وقف يطيل اليه النظر فى حين جعل عثمان ينظر اليه مستريبا ويده على مقبض مشمله .

وللحال شهق السوداني شهقة شديدة وصاح « نعم أنه هو بعينه والله العظيم . » ثم وثب الى الامام وامسك باللجام وجعل يقبله بحرارة وقد تملك الحنو جسمه العضل المتين وطفق يتمتم بكلمات غير مسموعة ولا مفهومة ، فالتفت عثمان الى الخصى دهشا ثم قال « ماهـذا أتراه ذى جنة ؟ »

قال الزنجى « الا تعرفنى يابنى العزيز ؟ الا تعرف اسماعيل المروى الذى كان يحملك على ذراعيه وأنت طفل صغير ، والذى كان يعلمك ركوب الخيل وامتشاق المشمل ؟ الحمد لله الذى حبانى أن اراك مرة اخرى يابن مصطفى بك . لقد كنت اعمى حيث لم أتبينك فى التو واللحظة . لقد كان على الهواء ان يحـدثني بوجودك ولكني كنت فى

ضلة عنك فلم أدرك شيئا . »

قال عثمان متحيرا « ما هذا اللغز وما سره ؟ اليس هـذا الرجـل يارضوان هو خادم المتسول ، فما الذى أنطق لسانه بذلك ؟ »

قال السوداني « ليس مولاى بالمتسول وانما هـو مصطفى بك الفرنجى . »

قال عثمان فى حيرة « ماذا تقول ؟ أيكون المتسول حقا مصطفى بك ، ذلك الذى كان يوما صديقا حميا لابى مراد ؟ آه لقدعرفت الان سبب بحثك عنه ، ولكن ما شأنى به وما شأنه بى ؟ »

قال الخصى بسكون « انه ابوك ياعثمان . »

فانطلق الكلام من فم المملوك كما ينطلق الرصاص من الغدارة قال :.

« ماذا أسمع ! مصطفى بك أبى أنا ! » ثم جعل من حيرته يقلب ناظريه بين هذا وذاك وعاد يقول مخاطبا الخصى « ومنذ كم من الزمن عرفت ذلك الأمر ؟ »

قال « منذ عشر سنين . ولكن هلم فليس لدينا من الزمن ما يصح أن نضيعه ، وانى محدثك بالامر كله مرة أخرى . »

قال « واذن من تكون السيدة التى قضت نحبها منذ يومين ؟ »

قال « انها أمك يا عثمان . ولكن هلم فستضع على قبرها الزهر والريحان وانما فيما بعد . »

قال السودانى « نعم فيما بعد فلا انتظار الآن ولا مكث . فامضيا ممتطيين جواديكما واركضا كأنما عذاب الجحيم خلفكما . سيرا الى جرجا قبل أن يفوت الاوان . وأتوسل اليكما ان لا تنتظرانى فسأبحث عن جواد فى القرية وألحق بكما مسرعا . »

قال عثمان رباه لست أعرف لهـذا معنى ترى ما معناه ؟ أن مخى قد داخله الخبل . »

قال الخصى « انك تعرف قصة مصطفى بك ومن ثم يمكنك ان تعلم مبلغ كراهيته لمراد . لقد أمضه الحزن فذهب بلبه فقصد أمس جرجا ليلقى هناك مرادا .»

عندئذ تولى عثمان الذعر وقال كعادته « انه ذهب ليقتل أبى . »

قال « بل ان أباك ذهب ليقتل شيخ البلد لجرم لم يرتكبه . »

فلم ينطق عثمان بكلمة بل وثب على جواده وانطلق الرجلان فى صمت لا يلويان على شىء .

وصاح بهما السودانى قائلا « هيا سيرا ولا تتمهلا لاجلى . »

ولم يجر بينهما حديث البتة ، وأقبل الليل عليهما وهما يعدوان مسرعين فى طريقهما الضيق على ضفتي النيل ، وغشي الظلام حقول الصعيد الغنية بحاصلاتها ، ولم يسمع صوت فى البادية بين هذه القرى المحتشده لزازا على جانبى النيل الا وقع أقدام الجوادين ، فكان ذلك يوقظ النيام من السكان ويدعو الكلاب الى النباح نباحا شديدا حتى جعلت النسوة يتهامسن فى أكواخهن قائلات « نعوذ بالله من الشياطين حقا لقد انطلقت الجن من المخابىء تعدو هذه الليلة مسرعة فاللهم غثنا برحمتك يا أرحم الراحمين . »



الفصل التاسع والعشرون

الاخوان فى الرضاع

فى كوخ كبير من الصلصال بضواحى مدينة جرجا فى صعيد مصر كان يضطجع رجل على عنجريب منخفض يتململ فى بحران من الحمى.

وكانت الحجرة عارية من كل أثاث . وعلى الارض بجانب العنجريب جرة ماء (قلة) ورغيف كبير مفرطح ينقر فيه الدجاج دون أن يصده أحد .

وانزاح الغطاء عن المريض فنم عن أطراف مهزولة وصدر أشعث الشعر ظاهر الضلوع . ولكن دلائل القوة التى كانت يوما ما فخر صاحبها كانت لاتزال تبدو فى تلك المناكب العريضة الرائعة والهيكل الهزيل المستدق ، حيث لم يكن في طاقة المرض ان ينقص من قدرها .

ولم يكن ذلك من آثار الشيخوخة فلا زال السواد فى شعر لحيته يتغلب على البياض . ولم يكن وجهه على شحوبه قد تغضن ولم يكن فيه الا ندبة طويلة تمتد ما بين العين والذقن .

ولئن يكن المرض قد حرمه من تلك القوة الرائعة وسلبه بهاء الصحة وظرف الشباب ، فان سوء الحال كان فى مقتنياته أكثر منه فى بدنه . لقد اعتاض جلبابا (جلابيه) قذرا مذرا لايرضيه أحقر فلاح مكان قفطانه الذى كان من خلع الملوك . وحسبه ألما أنه بعد الاختيال في أبهج الحلل وأزهاها صار يلتحف غطاء كان يتعفف أن يجعله مداسا لفرسه .

لقد أصبح مراد آخر المماليك المباهلة العظام يتأهب للقاء سلطان أعظم ممن يتبوأ الملك فى الاستانه ، سلطان أجل ، هو رب السلاطين يحاسبه على ماكان منه وهو فى مشيخة البلد .

وكان فى ضواحى المدينة شراذم من المماليك . بعضهم يركضون خيولهم ويدربونها تحدوهم روح عدم الشعور بالمسئولية . والبعض يتهامسون ويتلفتون مابين آن وآن نحو الكوخ تلفت المشفق الحذر .

لقد كان شيخ البلد يعالج سكرات الموت فوق سريره وما كان أعجب أن يموت شيخ البلد هذه الميتة . لقد امتدت يدالله اليه فأخذته الصيحة وأقبل الطاعون يدفعه الى القبر دفعا . وما هى الا برهة يسيرة حتى يحدث الكفاح للحصول على الجائزة التى مابرحت منذ عدة قرون طلبة كل مملوك ومطمح بصره .

لم تكن قلوب مماليك مراد خالية من المشاعر . فقد كان فريق منهم يحبونه وكانوا كلهم يعظمونه ويجلونه . ذلك لأن مرادا كان المثل الاعلى في رآسته على المماليك . وكانوا يتناوبون فيما بينهم رقابته قبل أن ينقطع كلامه . ولكنه كان يموت موتا عسرا جعل منظر الكوخ محزنا هائلا يملأ قلب الناظر اليه هولا وفزعا .

فلأن يموت المملوك من طعنة خنجر أو من رصاصه غدارة شيء ، أما ان يموت على فراشه فذلك والله كان شيئا اخر أشد وأصعب . وكانت الشمس مشرقة أثناء ذلك خارج الكوخ تغمر الفضاء بضوئها . وكانت الخيل تصهل وريح الشمال تهب تبعث فى النفوس الحياة وكل مالذ وطاب . وأخذ المماليك ينصرفون واحدا بعد واحد الى مكان اخر أقل حزنا واكتئابا .

أما النادبات وهن أولئك النسوة اللاتى يندبن ويحثين التراب على رؤوسهن فقد كن منتظرات يتحدثن فى اكواخ المدينة . لقد جئن مرة مسرعات قبل الاوان ولكنهن لم يردن ان يسمعن لعنه اياهن مرة أخرى . فكنّ صابرات اذ سيجيء وقت الحاجة اليهن .

وأقبل رجل من أقصى المدينة يتوارى فى مشيته كأنه لم يتبين من

نفسه قصده.. واقترب من الكوخ متمهلا ثم انعطف حوله منزويا عن الابصار .

وما كان أشبهه في تسلله بالكلب المتلصص المترصد يستروح رائحة الطعام خائفا وجلا . ثم أطل برأسه داخل الكوخ فكان فى ذلك أكثر حذرا منه وهو سائر خارج الكوخ .

القى الرجل خلال الباب نظرة سريعه متفحصة وكان الكوخ خاليا الا من ذلك المريض الراقد على العنجريب وما هي الا وثبة مفاجئة حتي كان فى داخل الكوخ .

ورفع سلاحه ليضرب به . ولم يكن ثمت هدف أشد تعرضا لطعن الطاعن من ذلك الصدر الاشعر العارى . ولكن الرجل أحجم لا يريد الطعن .

ان من أنواع الانتقام ماهو أكثر ارواء لغليل المنتقم الموتور من طعنة سريعة يطعنها . وكذلك وقف القادم الجديد عند مؤخر العنجريب ينظر الى ماأمامه وتنفس تنفس المستريح كمن سريت عنه همومه . لقد سقط الجبار فى الواقع وهوي .

قال في تمهل وشك واغتباط « هذا هو شيخ البلد ، هذا هو مراد العظيم الذي كان يطعم كل يوم على موائده خمسة آلاف رجل . لقد أصبح وليس له الا جرة من الماء القذر الكدر . وكان بثمن زينته وكسائه يستطيع ان يبتاع مائة مملوك فاذا هو اليوم يلبس قميصا يأنف الفلاح الحقير أن يلتقطه من حفرة الماء ان هو وجده فيها . لقد كان سيد رجال مصر ، وكان السلطان نفسه يخافه ويخشاه ، وها هو اليوم يموت ميتة الفأر فى حجره منفردا . »

وهنا بدرت من فم الرجل ضحكة خشنة وقال « أى والله لنعم عاقبة ذلك الصبر الطويل . ما كنت أرجو أن أشهد فى أيام حياتى

منظرا أمتع من هذا المنظر ، ولا ذهبت بأحلامى الى أبعد من هذا المذهب .»

عندئذ تحركت شفتا المحتضر قال « ماء . ماء ! » وكانت شفتاه على القاء الاوامر والنواهي أكثر تعودا منها على الرجاء والاستعطاف وضحك صاحبنا الواقف عند مؤخر العنجريب .

ولدي تلك الضحكة فتح المريض عينيه وجمجم يقول « ماء . ماء . »

فتمتم الآخر يقول « اراه لا يعرفنى ولو أنه عرفنى لكان ذلك خيرا وأولى . فالسقوط فى الحماه ردىء واردأ منه أن يراك عدوك وانت فى الحماة . » ثم سار يخمم في مشيتة نحو جرة الماء (القلة) وتناولها وادناها من الشفتين الجافتين .

فانحدرت فى حلق المريض بعض قطرات فى حين سال أكثر الماء على لحيته الكثة الى الفراش . ثم وضع الرجل يده متكرها على قفا المريض ورفعه ووضع الجرة مرة أخري على شفتيه فشرب المريض ماءها بشراهة .

ثم حول المريض عينيه نحو ذلك الشخص الرث الواقف بجانبه وتمتم مستفسرا « من انت ، من أنت ؟ »

قال « انظر الىّ مرة أخرى يا مراد بك . انك لن تجهلنى الا أن تكون نائما أو محتضرا . »

قال « لا اعرفك . »

قال « ظننت انك تعرفنى وانا على بعد مائة ميل منك . تأمل اذن فى ذلك الرجل الذى كنت حينا تدعوه اخاك مصطفى بك الفرنجى .»

عندئذ تشنج وجه مراد وتمتم يقول « لا . لا . لقد مات مصطفى بك ، نعم لقد مات أخى من أمد بعيد . »

قال « لقد ود لو مات بل لو قتل نفسه بيديه ، ولكنه أبقي على نفسه انتظارا لمثل هذا الذي يراه الآن . انه والله لم يكن يتوقع ان يرى منظرا ألذ وابهج من هذا ولا في أكذب أحلامه . » ثم جعل يضحك كالمجنون .

تغلغل بعض هذا الحديث الى ذلك المخ البليد مخ شيخ البلد فأنهض نفسه بمشقة مستندا على مرفقه وظلل عينيه بيده كمن يريد استجلاء ما يرى ثم قال « مصطفى هنا ! ! لا . لا . انما انا أحتضر وهذه أوهام المحتضرين . »

قال ممسكا به من كتفه وهازا له بعنف « لا حاجة الى التشكك وهل في ذلك شك يا مراد بك ؟ »

مضى زمن طويل على شيخ البلد لم ير فيه من اجترأ عليه هذه الجرأة . وأيقظته الهزة من سكرة الموت . وأثارت فيه تلك الحمية الشديدة التى كانت جزءا من جبلته . وصاح صيحة تجلت فيها عظمته القديمة وقال « من الذى اجترأ على العبث بي هذا العبث ؟ »

قال « لم يخب ظني فهذا الذى يوقظك . اعلم انني مصطفى بك الفرنجي ويمينا لو كنت مت حقا لاستطاع هذا الاسم ان يبعث فيك الحياة فتستيقظ . »

فرفع المحتضر بدنه مرة أخرى على مرفقه بقوة تفوق قوة الانسان واستضاءت أسارير ذلك الوجه العبوس الشاحب بوميض غريب وقال « لم يمت مصطفى اذن . وأين كنت هذه المدة الطويلة يا أخى ؟ » ومد احدى ذراعيه كمن يحاول ان يعانق صاحبه .

فتراجع الاخر متأففا وقال « لا يزال ابن الكلب غارقا في أحلامه ... تسألني أين كنت وتدعوني أخاك ! يا عجبا ! ألست انت السارق لزوجتي والقاتل لولدى فدفعتني الى العيش فى هذه الحياة اسلك سبيلها خامما بعرجاوين ؟ »

فقال وقد غشيته حشرجة المحتضر « كذب والله مابلغك . كذب ماتقول ولم يفعل ذلك غير عمر بك سامه الله الموت والعذاب . »

حالت فجأة الجواب لحظة دون ماكان سينساب من فم الاخر ولكن هذا قال « كذب ؟ اذن انت ملقيه على غيرك ، على من لايستطيع تبرئة نفسه ، على من هجرك وواصل اعداءك . »

قال « وهل تعرف لماذا غادرني الي اعدائي ؟ لقد جاءني عمر يسترضيني بلذيذ الكلام وحلوه يريد ان ينضم الى . غير أن رضوان الخصى أخبرني بالقصة كلها ، وكان يعرفها منذ سنين ، ولكنى وربك ارسلت امهر لئن وقع فى يدي لاقتلنه قتلة لم أقتلها احدا في مصر . ووالله انى حتي الساعة لافعلن به ذلك لو وصلت اليه يدي جراء فعلته النكراء تلك . »

قال « انما انت تهذى وتهرف . »

قال اذن « سل الخصى يحدثك بكل ذلك فهو به عليم وهو الذى أعلمنى أيضا بنبأ عثمان ابنك . »

قال المتسول وهو يتلفت حوله كالحائر « ابنى ؟ يالله ان الرجل . يهذى مرة أخري . »

قال « كلا . كلا . ان عثمان السليكتار ابنك . وكنت اجهل ذلك الى ان اخبرنيه رضوان . لقد أحببته كأنه ابنى من صلبي ، ولا عجب فى ذلك ألم يكن كأخى مصطفى ؟ »

فقبض المتسول على ذراع شيخ البلد قبضة شديدة المته ألما ظهر أثره على وجهه وقال « والآن ماهذا الهذيان ؟ »

فصاح المحتضر « رفقا يا أخي رفقا فانى ضعيف واهن . انى عندما استعيد قواى وصحتى انازلك كما كنا نعمل فيما مضى . »

فقال المتسول مستريبا « وابنتي ما أمرها ؟ »

قال « لاأدرى ولا رضوان يدرى من أمرها شيئا . انه لم يحدثنى

الا عن ابنك وكان ذلك منذ بضع ايام فقط . فلقد أخفي عني الامر مخافة ان يكون فيه مايسوؤني . لشد ماجهلني رضوان ! لقد لطمني مصطفي على وجهي فلم احاول قتله . ولكنهم جلدوه حسداوغيرةوظنا منهم بأن ذلك يرضيني . أتراهم بعد ذلك جلدوا شخصا اخر ؟ لا والله لم يجرؤ كلب منهم على ان يمسك بيده سوطا اللهم الا بين أسنانه . »

دهش المتسول لذلك واتسعت حد قتاه : ترى هل المريض يكذب أم قد مسه خبال ؟ ان العقيدة التى رسخت في الصدور سنين لا يمكن أن تتزعزع فى لحظة . أكان كل هذا الكلام مصوغا ملفقا ؟

ونظر الي الرجل المريض المحتضر فتأكد أنه لن يقوى ذهنه على صوغ مثل هذا الكلام ، وأيقن أن الذاكرة وحدها هي التي أنطقت لسانه بذلك .

وهنا أخذ الشك يتسرب الى ذهنه • أتراه كان فى ضلال طول هذه السنين ، وهل كان طول هذه المدة يتعقب البرىء ؟ ثم أخذت الحقائق تبدو له رويدا رويدا ، وتجسمت أمور كانت لا تزال تافهة فى نظره فاكتسبت أهمية وخطورة لم تكتسبها قط قبل ذاك .

قال يخاطب المريض « أقسم بالله ورسوله . »

قال « أقسم لك ، على أنك أن كنت فى شك من أمرى فاقرأ هذا . » وأشار بيديه المرتعشتين الى كيس حريرى صغير معلق فى عنقه وعاد يقول « لقد أرسله الخصى الي وما زلت أحفظه معلقا فى عنقى منذ ذلك الوقت . »

فتناوله المتسول وفضه وبسط الرقعة فإذا بها خطاب أرسله الخصى الي شيخ البلد في الوقت الذى تقدم فيه عمر بك الى مراد . خشي الخصى من مكيدة يقع فيها شيخ البلد ولم يكن هذا يصدق شيئا من ذلك . ومن ثم ذكر الخصى لمراد كل ما يعرفه عن عمر بك وعن

الدور الذي لعبه فى المأساة التى جرت قبل ذلك بعشرين سنة . وأدلى اليه كيف أن عمر بك هاجم دار الجيزة اثناء تغيب مراد فى الصيد والقنص ، مثبتا ذلك ببراهين تلقاها بعد ذلك العهد بمدة طويلة من فم أحد مماليك عمر بك وهو يحتضر .

وأبان أيضا كيف انه عرف عثمان وكيف احتال على ان يقوم مراد على أمره ويشب في داره كأنه أحد مماليكه .

قرأ المتسول ما اشتملت عليه هذه الرقعة ثم جعل ينتحب وهو ممسك بها جالس على جانب العنجريب .

فمد المحتضر ذراعه وقال « لقد قضى الامر يا مصطفى وانتهى الصيد والحرب ، وها اني الآن أجود بنفسي لا ابالى بشيء ، ألست حيا ترزق وألست واياى على وفاق وتراض ؟ لقد تصافينا أفليس فى ذلك مسرة لايوب ؟ »

الفصل الثلاثون

واقعة أبى قير

على يفاع ضيق من الارض الرملية بين المهد القديم لبحيرة مريوط وبين البحر الابيض المتوسط وقف الجيش البريطانى بقيادة أبير كرومبى أمام الفرنسيين بقيادة قائدهم مينو .

ولم يكن يفصل المتقاتلين الا ميل أو بعض ميل من التلال والارض الرملية العراء .

وقد أوشك فتية البريطانيين ان يلتحموا وجند فرنسا المدربين فى المعركة الاولى من سلسلة تلك المعارك الطويلة التى بدأت بواقعة أبى قير وانتهت بموقعة واترلو ، أجل كان مقدمة ذلك الكفاح الطويل

من جانب البريطانيين فى سبيل مصر قد ظهرت يومذاك على ظهور السفن الماخرة وانتهت بعد ذلك العهد بمائة عام فى قرية فاشودة الحقيرة المجهولة الواقعة على حدود السودان الجنوبية .

وكانت ميمنة البريطانيين محصنة ببضع بواخر حربية مستقرة في البحر ، فى حين كانت ميسرتهم بقيادة كرادوك قد أقامت على شاطىء بحيرة مريوط ، ويفصل بين الميمنة والميسرة أخدود رملى مترام .

وفوق هـذا الاخدود من جهة اليمين طلل قديم كان يسمع من حوله بلا انقطاع أصوات المطارق ولغط الاستعداد للحرب ، وكانت تلك الاصوات تصل ضعيفة الى أذنى رجل جلس فى داخل ذلك الطلل القديم متربعا على مقعد خشبي وهو فى أشد حالات الحزن والاكتئاب .

وكان ذلك الرجل مرتديا سراويل فضفاضة متسعة وسترة قصيرة مجدولة ، وبجانبه عمامة ظلت مكانها حيث سقطت ، وقد دفن رأسه الحمراء الشعر بين يديه يائسا حزينا .

وبدأ الضوء النافذ من كوة عالية فى الجدار يضعف رويدا رويدا ، وبدأ ظلام الليل يعم داخل ذلك الطلل والرجل فى جلسته غير حافل ولا مكترث ، واذنت صلاة المغرب وهو عن ذلك فى شاغل ، فلم يتحرك من مكانه بل ولم يمد يده الى الطعام الملقى بجانبه ليتذوقه .

لقد عانى استيفن هيلز فى حياته الكثير من تقلبات الزمان ولكنه فى محنته الاخيرة تلك كان قد تجرع الكأس حتى الثمالة .

كان منذ بضع ساعات رسول مراد بك المحتفى به حرا طليقا يسير فى المعسكر حيث يشاء ، أما الان فقد صار معتقلا في سجنه .

لقد تبدلت حاله فجأة حتى لم يكن يدرى كيف حدث هذا التبدل .

مضت عليه عدة أيام منذ دخل المعسكر البريطانى متعبا خائر القوى يحمل كتاب مراد ، فلما قدمه الى القائد أمره ان ينتظر الجواب .

وفي ذلك اليوم نفسه أمـر ان يستعد لتلقي ذلك الجواب ، فلما كان الظهر طلب اليه ان يذهب الى خيمة القائد.

وهناك حياه القائد أحسن تحية وشرع يختم الرد الذي أوشك ان يعهد به اليه لايصاله .

واذ وقف استيفن منتظرا جعل يجيل بصره من الخوان الخشبي وما تكدس فوقه من الاستمارات والاوراق ، الي الخزانة الموضوعة في أحـد الاركان ، الى السيف وحمائله المعلقة فوق الجدار . فعاودته الذكريات القديمة ، وتذكر صحبه القدماء وعاداته القديمة ، ولم يلبث ان وقف على غرة منه وقفة الجندي المستوي القامة المستعد لطاعة قائده .

ولم يلحظ ان أحد ضباط فرقة المهندسين وكان قد دخل الحجرة فى تلك اللحظة وقف يرمقه بشدة ويرقبه مستريبا .

وهم القائد يدفع له الرساله واذا بذلك الضابط يتقدم خطوة الى الامام ويهمس الى القائد فى أذنه .

فمشى القائد معه الي جانب بعيد فى الخيمة وكأنما طلب الضابط اليه ذلك .

أما استيفن فقد وقف دهشا لايفقه لما يجرى أمامه معنى ، ولكن سرعان ماتكشف له الامر ، ذلك ان القائد عاد الى كرسيه وأطال النظر الى استيفن ثم سأله على غرة منه قال « هل أنت انجليزى ؟ »

لم يكن ثمت وقت للمراوغة فقال « نعم ياسيدى. »

قال « أكنت يوما فيما مضى جنديا ؟ »

فتردد لحظة ثم قال « نعم ياسيدى »

قال « وما اسمك ؟ »

وهنا لم يجد وسيلة للكذب فقال « هيلز ياسيدى » .

وعندئذ قال الضابط المهندس « وكنت جنديا فى فرقة الاستحكامات؟ »

قال « نعم . »

فبدت على وجه الضابط ابتسامة ثم التفت الى القائد ومضى يحادثه بصوت منخفض لم يسمع استيفن من حديثهما شيئا سوى قول الضابط « انني من أمره على يقين ياسيدي. »

فأطرق القائد ثم التفت الى استيفن وخاطبه بلهجة لاتدل على الشدة قال « اني علمت انك هربت من فرقة كانت مسافرة الى الهند فاذا لم تنكشف لي الحقيقة جلية فاني آسف ان اقول لك انه ينبغي عليك ان تعلم انك الآن مقبوض عليك. »

كانت الضربة على استيفن شديدة كالصاعقة ، أهو من الهاربين؟ لقد نسي ذلك أيام الرخاء التي قضاها في مصر ، فلم يكن منه الا ان جد في مكانه حائرا دهشا ثم قال متلعثما « ان ماقلته ياسيدى لصحيح فاني من الوجهة العسكرية هارب من الجندية فلا استطيع نكرانا . ولكني تركت في السويس بين حي وميت لم يحفل بأمرى أحد حيا كنت أم ميتا . وهل من عجب بعد ذلك ان انا بقيت في مصر ؟ »

فأجابه القائد باختصار « لسنا نستطيع الآن المضي في تحقيق امرك وسأسمع فيما بعد كل ماتريد قوله اما الآن فأنت سجين . »

فاحتج استيفن وطالب بحقه على اعتبار انه رسول ، ولكن ذلك لم يجده شيئا ، وجاء نفر من الجند فاقتادوه الى سجنه ، وكذلك لبث فيه بضع ساعات .

ولقد مضت عليه تلك الساعات وهو يستنزل اللعنات على رأس ذلك الضابط المهندس وذاكرته القوية ، وجعل يتسخط على نفسه لانه لم يتبين في الحال ذلك الضابط ذا الانف الاحدب أيام كان هو حامل العلم في فرقته القديمة.

وسمع خطى الحارس لدى الباب فابتسم مكتئبا لتلك الذكريات

القديمة ، ولم يكن ذلك أول عهده بمحبس الجند وسجن الثكنة .

ولكن الموقف لم يكن موقف الضحك والابتسام فنظام الجندية البريطانية شديد وقوانينها صارمة ، والهارب في نظر القانون العسكرى لايجد لدى رؤسائه شفقة ولا رحمة .

نعم لابد أنه واجد الكثير من المعاذير ولكن الظروف المخففة ليس لها اعتبار كبير في القانون العسكرى الانجليزى ، وان في الهروب ولو الي خطوط الاعداء أملا في النجاة اكبر من التملل بالبراءه امام مجلس عسكرى . واذ خطر له ذلك تلفت حوله غير مرة ، رافعا بصره الى النافذة ذات القضبان والى جدران ذلك الكوخ مستطلعا منقبا عن منفذ يفلت منه .

غير أن كل شيء أمامه كان صعب المقاومة ، ولكنه عاش في الدور المصرية طويلا وعرف أن لكل حجرة من حجرات هذه الدور غير منفذ واحد ، فراح يتفقد كل ركن فيها شبرا شبرا متلمسا لنفسه منفذا للنجاة .

وطفق ينبش الرمل هنا ويتحسس الجدران هناك حتى تبين له أنه قد وجد طلبته ، فتريث حتي خيم الظلام ودخل الحارس عليه فألقى اليه طعام الليل وكان تافها يسيرا ، ثم غادر مقعده وتلمس قطعة الحجر التى وضعها ليهتدي بها الي الموضع المطلوب .

وكان الرمل يعلو أديم الحجرة بنحو قدم ، وراح ينبش فيه لا يلوى على شيء متمهلا بين فترة وأخري يتسمع مخافة أن يتنبه اليه الحارس حتى اذا استوثق عاد مكبا على الحفر ، الى ان عثرت يده أخيرا على حلقة من الحديد .

فواصل الحفر بهمة مضاعفة حتى استطاع أن يزيح التراب عن حواف صخرة كبيرة هي باب الثغرة في بطن الارض .

أغرته نفسه بأن يحاول ازاحة هذه الصخرة ليعرف الى اين يؤدى به هذا المنفذ ، ولكنه قاوم ذلك الفضول وبسط عباءته على الصخرة وأهال الرمل عليها كأن لم يكن شيء :

ذلك انه ادرك انه لايمضى وقت طويل حتي يحين وقت ابدال الحارس بآخر ، وأن الحارس الجديد لابدأن يدخل عليه سجنه ليستوثق من كل شيء .

وماكاد يعود الى مقعده حتي سمع وقع أقدام وخشخشة بنادق وهي تصطدم بالحجارة فى الخارج تبعها صوت تغيرالحراس . ثم انزاح المزلاج وفتح الباب وظهر الحارس فى مدخله وخلفه جندى آخر يحمل مصباحا .

أخذ الحارس المصباح ورفعه نحو رأسه ، فوقع ضوؤه على استيفن وهو في ركن الكوخ فأوجس قلبه فى ذلك خيفة .

وقال الحارس مستفهما « كل شيء حسن ؟ »

فاجابه الآخر « نعم كل شيء حسن . »

قال « امتعك الله فى ليلتك بالنوم الهنيء ياصاح . » ثم أدار ظهره نحو الباب وخرج منه وأغلقه فكان لاغلاقه صوت عال .

وكان فى صوت الحارس رنة غريبة عجب لها استيفن . لايمكن أن يرمى بالرصاص عند الصبح اذ لابد أن يعقد مجلس عسكرى لمحاكمته اولا ولكن من يدرى ؟ ان الجيش فى ساحة القتال وقد لايريدون أن يضايقهم الجند المذنبون باقامة الحراس عليهم . ليس الوقت وقت الحدس والتخمين ؟ والخير كل الخير فى الاسراع واذ ذاك نهض واقفا ونزع عباءته ومضى يجاهد في عمله من جديد .

قبض على الحلقة وجعل يشدها ولكنها لم تلن اليه ، فأسند ظهره الى الجدار وشد بما خصه الله من قوة وبأس . ولكن الصخرة لم تلن

اليه رغم ما تصبب على جبينه من العرق وما ظهر على عضلاته من شدة التوتر .

فمسح عرقه بعمامته وسب وتسخط حيث لاح له أن الصخرة قد مضى عليها سنون لم ترفع فتسلل الرمل اليها وسد الشقوق التي حولها

فما كان منه الا أن نبش الرمل بأظافره مستميتا ثم نفخه بفمه ليتطاير واندفع يشد الصخرة اليه ، ولكنها لم تتزحزح. ليته يجد سكينا الآن . اذن لنزل عن كل مايملك من اجلها .

ادركه التعب واستولى عليه اليأس فعاد الى مقعده وهناك جعل يفكر ويستريح ليستعيد قواه . واذ ذاك اصطدمت رجله في الظلام بالوعاء الصفيح الذي فيه ماء شربه .

فتمتم يقول مضطربا « لا البث أن يبلغ مني الظمأ قبل أن يتنفس الصبح » ولكن خاطرا خطر له فقام من فوره يتلمس في الظلام ذلك الوعاء الصفيح ، ثم امسك به فغالبه من اوجهه باذلا في ذلك كل قوته حتي نزعها وفككها .

لان لحام هذه الاوجه وجرحت حوافيها الماضية يديه لكنه لم يشعر بالجرح ولم يكترث ، وذلك لانه اسرع الي موضع الصخرة يخرج الرمل بحد الوعاء .

وكانت الصخرة سميكة ضخمة . الا انه جعل يعمل في نواحيها بسرعة كسرعة من اصابته حمي واجمة ، وسرعان ما استخلص الصخرة من الرمل الجاف اللاصق بها .

وأمسك ثانية بالحلقة وجعل يجذبها باذلا في ذلك كل ما آتاه الله من قوة حتي كاد ظهره ينخلع ، فبدأت ترتفع الصخرة ببطء شيئا فشيئا مثبتا قدميه تحتها حتى لاتفلت منه ساقطة مكانها ، ثم امسك بحافتها وجلس القرفصاء وجعل يدفعها بيديه حتي اسندها الي الجدار .

وانزلق فى الحفرة ولم تكن بعيدة الغور فأحس بقدميه تلمسان قاعها، ثم تلمس الحفرة فاذا بها تنتهى من احد جوانبها الى ممر طويل. فزحف فى ذلك الممر الى نهايته واذ ذاك رفع ناظريه الى اعلى فرأى النجوم تلمع فوقه فى السماء .

وكان ذلك الممر محصورا بين جدارين ، واخيرا تسلق بصعوبة حتى بلغ القمة واذا به يرى نفسه عند سور مهدم من ذلك الطلل ، وهناك جلس يلهث والعرق يتصبب منه ونسيم البحر البارد يلعب فوق صفحة وجهه .

ومكث فى ذلك المكان زمنا استعاد فيه قواه واعتادت عيناه ظلمة الليل.

وكانت بحيرة مريوط الساكنة الصفحة الي الجنوب منه ، ورأى ناحية الشمال لمعان امواج البحر تتكسر فوق صخور الشاطىء ، وبين البحيرة والبحر ظلام دامس ، ولكنه ادرك أن حوله فى الخيام وفى الخنادق عشرة الاف من المقاتلة .

ثم مضى يزحف وأبصر من عل فرأى الحارس لايزال يسير جيئة وذهابا امام الباب .

وجعل يتحسس كل حجر برفق وحذر مخافة ان ينفصل حجر منها ينبه الانظار اليه ، ثم جعل يحدق النظر في الظلام . لن تكون الارض بعيدة عنه ولكن ترى أي شيء فى قاع ذلك الغور ؟ قد يكون ركاما من الحجارة المتساقطة من ذلك البناء الخرب . فتمنى أن يكون ذلك الركام رمالا ، وعندئذ خلع شال عمامته ومزقه نصفين وصلهما ببعض وربط فى أحد الطرفين حجرا وأدلاه على مهل ثم وكزه الى أعلى ثم الي أسفل حتي اذا ما شعر ان اصطدامه بالقاع غير عنيف تنفس الصعداء وشكر الله ان ذلك الركام رمال متكومة .

ثم تدلى وذراعاه مبسوطتان الى النهاية وممسكتان بأعلى الجدار. ترى هل يسمعه الحارس ؟ لو انه تنبه اليه لأفسد عليه كل شيء، ولكن لابد له من الهبوط . واخيرا أفلت يديه مبتعدا عن الجدار خلال هبوطه .

انثنت ساقاه من أثر الصدمة وكان لسقوطه على الرمل وغوره فيه هديد شديد . فتأثر بعض الشيء ولكنه لم يصب بأذى ثم نهض على قدميه . فوقف الحارس لحظة ولكنه عاد ، لحسن حظه، فسمعه يستأنف سيره مرة أخرى .

ومكث على حاله تلك لا يدرى ما هو صانع فمن خلفه الجنود البريطانية وقاعدة معسكرهم ، ولا سبيل الى الخلاص الا ان هو تتبع ضفة القناة الضيقة التى لابد ان يكونوا قد احكموا الحراسة عليها .

وأمامه مجموع الجيش البريطانى ومن خلف هؤلاء كان الفرنسيون رابضين . ولذلك أدرك أن بينه وبين النجاة سدا مزدوجا . على أن أمامه فرصة حسنة ان هو استطاع أن يوافى جيش الفرنسيس ، فهو يعرف الكثيرين من ضباطه ، ولم يكن لهؤلاء ان يحددوا المهمة التى جاء من أجلها الى ابى قير ، وهو مستطيع بسهولة ان يختلق لهم حكاية يبرر بها وجوده هناك ؟ فان ذلك خير له وأبقى من الوقوف أمام مجلس عسكرى لعين .

واخيرا مشى حول الطلل ببطء متقدما خطوة فخطوة محاذرا منبطحا فوق العشب آونة يتسمع الاصوات ، واخرى متعثرا فى طريقه وكان يصغى خلال انبطاحه الى اصوات الجند الانجليز ولما كان اكثر منهم اعتيادا على الصحراء وارتيادها فقد ترك وراءه الخنادق والمدافع والحراس وسار لا يلوي على شيء الى ان انتهى الى أرض محايدة ليس بها سوى الرمل والتلال والسهل المنبسط وهناك رقد لحظة يتنفس

الصعداء ، بركبتيه المجروحتين ويديه المتعبتين ، وجعل يسترجع انفاسه اللاهثة ويحمد الله لهذا الظلام الذى نجا تحت ستاره وفسطاطه .

وفى تلك اللحظة فقط بدأ يفكر فيما لم يكن فكر فيه من قبل ساعة كان الخطر محدقا به . أدهشه أن يري الحراس قد ضوعف عددهم ، وان الجند رقود وهم مسلحون رابضون يرقبون وهم على تمام الاهبة والاستعداد . لابد ان يكون ثمت شيء غير عادى أقام القوم وأقعدهم . وخيل اليه انه لو مر كلب مجتازا الطريق التي سار فيها لما أفلت دون معارضة ، لا بل انه ليقسم على صحة ذلك . واذ ذاك أخذته العزة بقومه وتملكه الزهو بهم ، حيث ذكر انه يشارك اولئك الجند المقاتلة في الدم والجنسية ان لم يكن فى الدين .

تمشى صوت حديثهم فى أذنه وسرى ، وأعادت نكاتهم اليه ذكريات الماضى وأيامه الخالية .

فانطلق نحو خطوط الفرنسيين زحفا على قدميه ببطء وألم ، وكان لابد له من الحذر فالفرنسيون لم يكونوا الامن هواة الحرب المفتنين فيها . وقد كان يستطيع الذهاب اليهم لو أن الوقت كان نهارا ، ولكنه كان اذ ذاك فى الليل فمن يدرى ما هو صائبه ؟ فقد يبتدره الحارس بالنداء المعروف « من انت ؟ » ثم يردفه بطلقة نارية .

وعندئذ تردد اذ تبين أن النجاة فى الارض العراء ، وهناك فى غور تل من الرمل انزوى يتمهل وينتظر .

وانتصف الليل ولم يبق على الفجر الا بضع ساعات ، واذ ذاك طرق أذنه صوت حركة أمامه فرفع رأسه وأصغى ، فتبين أن جموعا من الفرسان تتأهب للاصطفاف . ترى ماذا يراد بذلك ؟

فابتعد زاحفا ناحية الجنوب ، وهناك رأى كتائب تصطف كذلك فتملكه الفضول وجعل يقترب منهم رويدا رويدا حتى استطاع ان

يسمع الضباط وهم يصدرون الاوامر للجند باصوات مخفضة .

ومر بجانبه اثنان منهم وكان احدهما يقول لصاحبه « افهمت اذن ماذا انت صانع ؟ عليك ان تشغل العدو وتلفت انظاره الي الميسرة وان تصدهم عن التقدم . صدهم فقط فهذا كل ما ينبغى لك ان تقوم به . وحذار ان تضغط عليهم قصد قهرهم لان الجيش سيتغلب على ميمنتهم ويلتف على قلب جيشهم ويدفع بهم الى ابى قير » وتجاوزاه وهما ماضيان فى حديثهما .

فخطر لاستيفن لأول وهلة ان يناديهما حتى يحملاه الى الخطوط . ولكنهما كانا قد تجاوزاه مبتعدين فولى وجهه على غير هدى صوب خطوط الانجليز .

ولقد كانت النجاة من امامه، ومن ورائه المجلس العسكرى وخشية الموت اعداما بالرصاص على اعتبار انه هارب من الجيش . ومع ذلك تضاربت الخواطر في ذهنه وازدحمت المشاعر والانفعالات ، فمضى بين جيوش الفريقين المتحاربين ينتقل كالكلب الذى لا مأوى له . الى ان اقترب من مركز الجيش البريطانى . وهناك اضطجع ثانية يتسمع ويصغي معجبا دهشا يناقش نفسه ويجادلها . واخيرا عادت اليه غريزته المتأصلة فى نفسه فاسلم نفسه للمقادير وترك التصرف فى الامر الي ان يحين .

وسمع حوله وقع أقدام الجند وكلمات النداء والتعليمات . فادرك ان الانجليز فى يقظة ينتظرون الهجوم المتوقع ، وان يكونوا لا يعلمون من اي الجهات سيكون ذلك الهجوم .

وللحال بدأت ميمنة الفرنسيين بالقرب من بحيرة مريوط تطلق النيران . وكانت الطلقات في مبدأ الامر قليلة ضئيلة ولكن سرعان ماتتابعت الطلقات . لقد هجم الفرنسيون بالفعل على فيلق القائد كرادوك .

اما فى ميمنة الانجليز فقد كان السكون سائدا ولكن الضغط كان شديدا على الميسرة حيث تعالت اصوات الطلقات الشديدة . وتفجرت قنابل المدافع الثقيلة من عيار اربعة وعشرين باوند .

جلس استيفن على الرمل وجعل يرقب تلك الشهب الصفراء . ثم استوى قائما على قدميه وكأنما اغرته نفسه وهو فى ثورانه بأن ينطلق قاصدا تلك الانوار . ولكنه كبح ثورة نفسه وراح يتمتم قائلا « انما هذا لعب الطفل ومجونه . ان القتال الحقيقي سينشب فى الميمنه . » ثم ولى تلك الضوضاء ظهره . وكان العجب يشتد لحظة بعد اخرى . واجمع نيته على ان يسير الى الجهة الاخرى .

وبلغ اذنيه اذ ذاك وقع خطي قادمة نحوه . وبدا لعينيه فى الظلام فرقتان مسرعتان لامداد الميسرة . قال يحدث نفسه « ياللحمقى ! لقد والله خدعهم الفرنسيون . » وللحال جرى غير مكترث بهذه المجازفة الخطره قاصدا الى حيث يسير القائد فى طليعة الفرقتين المسرعتين الخطى ثم صاح به « عودوا من حيث اتيتم . انما الهجوم على الميسرة خدعة لان الفرنسيين يتجمعون الان فى الميمنة . بربكم عودوا من حيث جئتم »

واذ رأى احد الجند شبحا غريبا مخيفا فى الظلام قد هجم على القائد ، ولم يكن قد ادرك ذلك الجندى ماقاله استيفن ، دفعه فأوقعه ولكن القائد كان قد سمع فقال فى صوت خشن « ماهذا الذى تقول ؟ »

قال « عودوا من حيث جئتم فان هذا الهجوم خدعة . »

قال « ومن انت ؟ »

قال « انجليزى فى خدمة مراد وقد سمعت خلسة بخطة الفرنسيين » ولم يكن ثمت وقت للاسئلة . وكأنما ارادت الاقدار ان تؤكد هذا الحديث بالفعل لانه سمع اذ ذاك صوت اطلاق النار من اليمين .

فأصدرت الاوامر وللحال ارتدت كتيبة لامداد الميسرة . ودار الباقون وقفلوا راجعين مراعا الى الميمنة والقلب حيث كان اللجب قد اشتد آنئذ .

وجاءت عودتهم فى الوقت المناسب ، فقد كان ضغط الفرنسيين شديدا علي القلب والميمنه . واشتبك الفرنسيون تحت امرة القائد رامبونت بالانجليز في معمعة شديدة وتلاحموا يدا بيد .

وعندئذ زالت من استيفن شكوكه وتردده . ولم يصبح رجل مراد ونسي اسلامه وكل شيء الا شيئا واحدا هو انه الانصار مرة أخري بين أهله وبني وطنه . فالتقط حربة كانت قدسقطت من جندي خر صريعا ، ومضى يقاتل جنبا لجنب اخوانه رجال الفرقة الثانية والاربعين وهو في سرواله الفضفاض والعمامة على رأسه .

وصد البريطانيون بحرابهم فرقة رامبونت وان تكن ميمنتهم قد تقهقرت ازاء هجوم الفرنسيين الفجائى ، ولكن نيرانهم المنطلقة باستمرار وما اظهروا من العناد فى المقاومة ـ كل ذلك دفع بالفرنسيين الى الوراء منسحبين قصدان يقوم فرسانهم تحت امرة بواسارت بحركة التفاف. غيران الخطوط المتعرجة وحبال الخيام والفجوات المحفورة في الارض لايواء الجند حالت بينهم وبين هجوم أولئك الفرسان . وكانت النيران تحصد جناحهم ، فلم يبق منهم الا كتائب صغيرة منعزلة تبحث عن منفذ للنجاة ، وجماعات صغيرة منهم ترجلوا عن خيولهم يحاولون الافلات من بين الخطوط .

ولم يكن حظ القائد رواز ورجاله بأحسن من حظ رامبونت فقد سقط صريعا فى مقدمة رجاله . ودارت الدائرة علي الفرنسيين حيث فشل هجومهم ولكنهم مع ذلك ظلوا يقاتلون .

لقد كانوا سادة مصر عدة سنين . وما كان لهم ان يتركوها لقمة

سائغة للغزاة الجدد. ولكن هؤلاء لم يكونوا بالمماليك ولا هم بالاتراك.
لقد قابلت جموعهم جموعا اكثر عددا هي جموع البريطان • ووقف في
الميدان أمامهم جماعة لا يقلون عنهم في صنعة الحرب مهارة واقداما.
هذا الى أن مينو لم يكن كبونابرت ولم يكن أبيركرومبي ايضا وزيرا تركيا.

ولما انشق عمود الفجر من خلف خطوط البريطان كان الفرنسيون
على الرغم من صدمة هؤلاء لهم لا يزالون ثابتين في الميدان. فراح
البريطانيون يصبون عليهم نيرانهم المميتة ففعلت مدافعهم في صفوف
الفرنسيين مافعلت اذ كان اطلاق النار من مدافع البواخر شديدا.
فعادوا الي الاسكندريه من واقعة أبي قير بعد ان تركوا من رجالهم
في الميدان أربعه آلاف وأربعة قواد قتلى.

ورقد الموتى والمحتضرون في ذلك السهل الرملي في فجوات بين
التلال. ولم يظهر في ذلك البصيص من النور الا اكوام صغيرة منتثرة
فهناك كانت اشياخ الحرب الفرنسيين مع صبية البريطانيين وشبابهم
رقودا في صعيد واحد. الموتى منهم تصلبت جسومهم وتقلصت
مفاصلهم. والجرحى منهم رفعوا عقيرتهم بالتوسل والسخط والانين
يعانون مايعانيه أبناء ادم أجمعين من الالم وسكرات الموت.

ومن بين جند الفرقة الثانية والاربعين كان رجل في لباس غريب
يباين لباس رفاقه راقدا مع الراقدين في ذلك السهل • حافي القدم
في سراويل فضفاضة ومئزر قصير. وكان مرقده في الطليعة بين الرقود
من جنود الفرنسيين وقد أصابته رصاصة في صدره••

وكانت رأسه العارية الشقراء الشعر مسندة على الرمل الذي تدفق
الدم عليه منبثقا من فمه. والى جانبه حربته حمراء قانية لاتزال أصابعه
قابضة عليها•

رفع رأسه متعبا متحاملا وخرج صوت ضئيل من شفتيه يقول

« قدح ماء ، قدح ماء » ولم تكن فى مصر كلمة قد بلغت مبلغ هذه الكلمة . واذ نطق بها تلفت جندي فرنسي حوله متفحصا .

وكان ذلك الجندى قصير القامة بدنيا جلس على الرمل يعالج ساقه وقد أصابتها حربة بطعنة .

قال ذلك الفرنسى « ياهؤلاء الانجليز ماأسرعهم في التقاط اللغات الاجنبية ! ! قدح ماء ، قدح ماء . »

واذ ذاك أن ذلك الجريح قائلا « الماء · الماء . »

فقال الفرنسى وقد رآه « أهذا أنت ياصديقي ؟ لك الله ولكن لباسك غريب على الانجليز أن يلبسوه » ثم تلمس وعاء مائه (زمزمية) وأسرع نحوه وهو يقول « اليك شربة ماء ولكن عليك ان تقترب منى لتحصل عليها . وذلك لان واحدا من مواطنيك الملاعين ، ولعله أنت ، قد طعننى فى ساقى · »

فرفع استيفن رأسه من الالم لا لأنه فهم ماكان يقال ، والتفت نحو زميله راجيا مستعطفا .

فقال الفرنسي وقد فغرفاه وجحظت عيناه « يا الهي ماذا أرى . هذا زحق النبي صاحبي اسماعيل افندي . هذا أنت ياصديقى . انتظر انتظر . » ثم زحف على الارض تاركا وراءه خطا من دمه ارتسم على الرمل وقاصدا استيفن معانيا فى ذلك من الآلام شديدها ، حتى اقبل عليه فوضع ذراعا حول عنقه ورفع آنية الماء وقربها الى الشفتين المتقلصتين الملطختين بالدم وقال « اشرب بالله اشرب وجىء على اخر نقطة فيها · انى أنا مكسيم ليجراند . »

فبدا على وجه استيفن أنه تبين صاحبه وقال « انت هنا يامكسيم ؟ »

قال « نعم أيها الرفيق . اخالك جئت هنا لتحارب فى صفوف

مواطنيك ، وماكان لي الا أن احتذي مثالك فأقف فى صفوف مواطنى وأحارب فى سبيل بلادى . »

لم يستطع استيفن لصاحبه شرحا ولكنه قال في ضعف « لقد أصبت بجرح بليغ يامكسيم . »

فقال ليجراند « واني لكذلك ودمى يتصبب كما يتصبب دم الثور المذبوح . » وماكاديرى الموضع الذى نفذت منه الرصاصة الى صدر صاحبه حتى أظلم وجهه وظهرت عليه الكآبة .

وظل كذلك واضعا رأس استيفن على ساقه السليمة ، وجعل يصب الماء فى حلقه بين آونة وأخرى .

ولم يكن الجراحون قد وصلوا بعد الى المقدمة ، ولكنه تلفت حوله متلهفا باحثا عن جراح واضعا قبعته فوق حربته وملوحا بها على الجانبين ولكن لم يأت أحد .

فتمتم مكسيم وقد رأى وجه رفيقه تعلوه صفرة الموت « رباه ان جرحه مميت . »

وعندئذ فتح استيفن عينيه ونظر الي صاحبه وعلت وجهه ابتسامة ذابلة تكاد تكون تقلصا لا ابتساما وتمتم بدوره يقول « ماظننا أن خاتمتنا تكون كذلك يامكسيم . »

قال « نعم ياصديقى ولقد كنت أنا وأنت من المجانين البله الطائشين . »

وجعل يتلفت يمنة ويسرة وهو يقول « يا الهى ألا يجيئون؟ يالهؤلاء الانجليز من وحوش قساة ! لوان الجراح لارى كان هنا لكنا من زمن فى المستشفى . » ثم أدار وجهه وصرخ صراخا عاليا يطلب النجدة ، ولكن لم ينجده أحد .

واذ رأى وجه استيفن تزداد صفرته قال « والله انه ذاهب

ليلقى وجه ربه . استيفن ياصديقى . » ومن شدة لهفته وحزنه جعل يهزه وهو لايشعر بما يعمل .

ففتح استيفن عينيه ونظر الى صاحبه مليا وقال « زوجتي يامكسيم زوجتى . »

قال « نعم ياصديقى فلن أنسى ماحييت . »

ولم يزد استيفن على ماقاله ، ولا يدرى أحدما الذى كان يريده بل جعل مكسيم يكلمه ويهزه ويصيح فى أذنه . ولكنه كان قد نزل به حمامه وقدره فسكنت أنفاسه وسقط رأسه وفغرفمه .

وأخيرا أدركهما الجند فما كان أعجبهما من رجلين . أحدهما فى سراويل فضفاضة ، له شعر أحمر ووجه يدل على جنسيته الانكليزية يرقد ميتا ورأسه على ركبة فرنسى بدين قصير مصاب بجرح بالغ يبكى بكاء مرا : لايجيب على اسئلة السائلين بغير « هذا صديقى اسماعيل افندى . أما أنا فمكسيم ليجراند . وكلانا ياسادة من أئمة المجانين المبرزين . »

الفصل الحادي والثلاثون

قصة الشيخ فضل

قصد الدار التى فى حارة النصارى زائر أدلى الى أهليها بأخبار غريبة . ذلك الزائر هو حسن الكبير وصل حديثا قادما من الصعيد فزار الدار فى المساء وقص عليهم بلهجته الجدية كل ما حدث فى جرجا خاصا بمراد وبالمتسول وعثمان ، وما كان أشد عجب مرغريت ونفيسة لدى سماعهما تلك الانباء .

قالت نفيسة « والله انها لقصة مدهشة » ولم تكن ترد بصرها عن وجه ذلك الزائر .

وقالت مرغريت « ثم مات هو أيضا ولم يقض في فرحه اسبوعا بعد انتظاره عشرين عاما . »

فاجاب حسن بلهجة رهيبة « لعل ذلك خير له فقد أصابه بعد كل ذلك مس من الجنون . لقد ذهبت آلامه بعقله ، ومات كما قلت لكم بعد أسبوع بالطاعون ودفن بجوار مراد بك رحمة الله عليهما . »

فجري الدمع من عيني مرغريت وقالت « ترى ماذا كان عيشه ، وعلى أى نمط كانت حياته ؟ وكل ذلك بسبب خطأ وقع فيه . »

قال المملوك البدين « لقد قدر الله ذلك فكان ، ولعل الله يرضي عنى فيقدر لى أن القي يوما عمر بك . »

قالت مرغريت « ومتى يعود عثمان فلقد طال اشتياقي اليه ؟ »

قال « سيكون هنا غدا وبرفقته الخصى وهو يحمل اليك أنباء تخصك . ولا يعلم أحد غير الله ما هي تلك الانباء فان عثمان لم يحدثنى بها ولكنى اخاله أكثر انشغالا بها من أنبائه الخاصة . ولقد قال لى انه لا يسمح لاحد غيره أن يكون أول مدل بها اليك ولو أعطى لذلك ألفا من الذهب الوهاج ، واني أظن ان الخصى عليم بها أيضا فهو يعرف كل شيء ، ولكنك اذا طلبت اليه أن يكشف لك ما اعتزم اخفاءه من الانباء فكأنك تحاولين أن تستخرجى من الحنظل عسلا شهيا . »

ثم استأذن في الانصراف بأدب من مرغريت وحيا نفيسة تحية الخجل الخائف . فأدركت هذه منه ذلك ثم ابتسمت كما يبتسم غيرها من الحسناوات .

قالت نفيسة بعد انصرافه « لا بد أن احدث التاجر الفرنجى بكل

هذا الحديث.» وكأن لسانها لم يطاوعها على السكوت لأنها رغبت في أن تقص تلك الحكاية الغريبة، هذا الى أنها كانت تريد أن ترى مبلغ تأثيرها في وجه الشيخ ليفيبر وهى تقص عليه القصة.

قالت مرغريت «لقد تأخر الليلة على غير عادته. أرجو أن لا يكون مريضا فانى لم أره اليوم.»

ولكن صاحبنا جول كان اذ ذاك سائرا فى الحارة وكان قد مر بالباب ثلاث مرات ولم يجد من نفسه الشجاعة الكافية حتى لقرع الباب.

فكان اذا وصل الى الباب يتمتم يقول «يالى من نذير يحمل أنباء السوء. يخيل الى أنه قد قدر على أن أحمل سيء الانباء، والله يعلم أنى أود لو أنزل عن كل ما أملك فى سبيل أن أكون بشيرا أحمل سار الانباء.»

وما هى الا ساعة حتى كان جول جالسا فى حجرة مرغريت يصغي، وهو فاغر فاه من الدهشة، الى كل ما كانت نفيسة تقصه عليه من الانباء. لم يكف نفيسة منه ترديده للايمان والحلف وكلمات الاستغراب والاندهاش فقد كانت تتوقع منه أكثر من ذلك، لان الامر فى نظرها كان يتطلب أكثر مما بدا منه. ولكن فاتها أن جول ليفيبر كان له هو أيضا حديث يقصه، ومن ذا الذي يكون فى موقفه ويجد من نفسه قدرة على الاصغاء دون أن تثور ثائرته؟

لقد كانت قصة نفيسة غريبة عجيبة، وسيدرك فيما بعد أهميتها وهو لا بد بعد النظر اليها من جميع وجوهها معجب بها الاعجاب الذي ترضاه نفيسة.

ولكنه لم يكن ليستطيع أن يحول عقله الا لامر واحد فقط، هذا الى أن ما حدث فى جرجا لم يستثره كالذي حدث فى أبي قير.

قال أخيرا «حقا انها القصة عجيبة لم تدهشني غرابتها لكثرة ما رأيت في مصر مثلها من الغرائب . ولقد مر زمن كنت أظن فيه أن حكايات الف ليلة وليلة مجرد حديث وقصص . أما الان فاني والله بدأت أعتقد أنها لم تكن حديث خرافة بل كانت حقائق ثابتة . »

قالت مرغريت « وددت لو أنك بكرت في حضورك لترى حسن وتطالع في وجهه سروره من قصصه فقد كان هو وعثمان كالاخوين الشقيقين . »

قال « ما أسعد البشير بما يحمل من أخبار سارة . »

قالت ضاحكة لتجهم وجهه « كأني بك تحمل أخبارا سيئة . »

وكأنما الرجل قد زال عنه حرصه تحت تأثير العاطفة فلم يستطع المضي في تنميق كلامه الذي أعده فقال « نعم انني لكذلك فقد قدر على أن احمل اليك أسوأ الانباء . ما حيلتي وذاك حظي ؟ »

قالت « وماذا جد من الحادثات ؟ هل احترق الحانوت أم خسرنا العقد الذي عهد الينا فيه بتوريد البضائع ؟ »

فهز رأسه وعلى ثغره ابتسامة الحزن لمزاحها ، ثم التفت صوب نفيسة .

وفي تلك اللحظة خطر في بال كل منهما ذكرى تلك الليلة التي جاء فيها منذ أعوام ثلاثة ينبئها بأن استيفن هيلز قد تزوج من أخرى .

قالت مرغريت مخاطبة الفتاة « أريد أن تتركينا لحظة يا عزيزتي نفيسة . »

فقامت نفيسة مسرعة وتناولت يد مرغريت وقالت « ما الخطب يا أمي ؟ انى أرى القلق يبدو على وجهك فدعيني بربك باقية بجوارك اقاسمك آلامك . »

قالت مرغريت « لا بل اذهبي يا ابنتي فان هناك من الامور مالا

يمكن تقاسمه وان يكن حبك لى وعطفك على عزيزان على امرأة مثلى فقدت كل حب . »

فخرجت نفيسة وهي قلقة متضجرة

والتفتت مرغريت بعدئذ الى جول وعلى وجهها سيما التيقظ والجد وقالت « هات ما عندك . »

قال جول مكتئبا « تعلمين يا سيدتى أني لست من أهل السياسة والدهاء ، وتعرفين أيضا أن سوءا يصيبك يحزنني ويمض قلبي . لقد أنبأتك ببعض ما حدثنى به استيفن ليلة زارنى ، واذكر أنى قلت لك انه ذاهب الى الاسكندرية . وما كان أبلهنى اذ ذاك حين ظننت أنه لن يصيبه من ذلك الا الخير كله . وذلك لانه قد ينسى ، وهو بين قومه وبنى وطنه ، مصر والمصريين وفتنته بهذه الديار وما فيها ، ووهمت أن مجرد رؤيته لبني وطنه قد تستهويه وتدفع به مرة أخري الى الطريق السوى طريق الشرف والعدالة . »

لم ترد مرغريت عليه بل كانت مرتقبة تتمة الحديث فتابع جول حديثه متباطئا متلوما وأخبرها كيف أن استيفن قد استكشف أمر فراره من الجندية فقبض عليه .

ثارت فى مرغريت مشاعر المرأة وقالت ضاحكة مستهترة « قبض عليه ، ما هذا الهراء ؟ يتهمونه بالفرار من الجندية ؟ ما أشد حمقهم ألم يتركوه بين حي وميت في السويس وعدا هذا ألم يكن فى خدمة شركة الهند الشرقية ؟ »

قال « لست أدرى ياسيدتى من آمر ذلك شيئا ولكن يخيل الي أن لهم بعض الحق . »

عندئذ خفت حدة غضبها وتملكها الخوف والفزع وتمتمت تقول « ان القوانين العسكرية الانجليزية صارمة شديدة ولن يجد الهارب

شفقة ولا رحمة .سأذهب بنفسي غدا الى الاسكندرية لأقابل القائد العام ،لن يموت زوجي فسأطلب اليهم حياته ، لا بل سأقف بينه وبين فوهات البنادق المصوبة اليه ، لن يقتلوه باذن الله . »

أصغى جول الى هذه الحمية وهو ذاهل ودهش .

قالت متابعة حديثها « الا تصحبني فى سفرى يا سيدي ؟»

فلصق لسان الرجل بقبوة فمه ولم يحر جوابا .

فنظرت اليه حائرة وقالت « انك بلا شك لست هاجرى في هذا الوقت العصيب ؟»

فالتوت شفتا الرجل وكأن بهما تشنجا وأطرق برأسه الى الامام وقال« يعلم الله يا سيدتى أننى لن أتأخر عن مصاحبتك ولكن لقد فات الاوان وا أسفاه . »

قالت « فات الاوان ! » ثم اتسعت حدقتاها من الرعب وقالت « هل قتلوه ؟قل لى بربك هل أعدموه ؟ »

قال « كلا يا سيدى ما قتلوه وما صلبوه . حقا انه قد مات ولكن حمدا لله وشكرا فلم يمت ميتة دنيئة وانما سقط قتيلا فى ميدان الشرف والفخار . »

فقالت صعقة « لقد مات » وكأنها لم تدرك شيئا أكثر من ذلك ثم عادت تقول « ألا حدثنى بكل شيء ولا تخف عنى أمرا . »

فلم يكن منه الا أن أخرج من طى قفطانه خطابا أرسله اليه مكسيم ليجراند من المستشفي الانجليزى فى الميدان يخبره فيه بما حدث لاستيفن هيلز وغالي فى شرح القصة وبالغ فيها بالشكل الذى ترتضيه بلاغته وزهوه ، الا أنه فى الجملة كان صادقا فيما روى غير أنه أسهب في وصف دوره فى المعركة معجبا بأنه وقع أسيرا مفتخرا بالطعنة التى أصابته فى ساقه . ثم أمضى الخطاب بالعبارة المزوقة الاتية: «مكسيم

ليجراند جندي في جيش الجمهورية . »

واذ أتم ليفيبر قراءة الخطاب وما احتواه من رسالة استيفن اليها وحديثه الذى لم يفت مكسيم أن يضمنه الخطاب تفتحت موارد دمعها وألقت رأسها على الخوان وراحت تنتحب انتحابا مرا

فدمعها سح وسكب وديمة ورش وتوكاف وتنهملان

وجلس جول ينظر اليها ولم يكن يعرف الا اليسير من أمور النساء ، ولكنه آثر الدموع على الحزن الصامت الرهيب . قال أخيرا « ياسيدتى ستجدين فيما بعد أن موته لم يكن شرا ، صدقيني انه لم يكن يطلب لنفسه خاتمة اشرف من هذه . فعلام الحزن والبكاء ؟ »

فرفعت وجهها الندى بالعبرات وقالت « لأن موته قضى على كل شيء ، قضى على كل آمالى فسيحها وضيقها . ليس بعد وفاته أمل لي في مطاب ، فلقد انتظرت ، وكنت أريد أن انتظر أكثر مما فعلت لأظفر بعاطفة أعيش فى كنفها . انما افتقدت حبا ولكنني ما وجدته . »

قال « انك تعرفين ياسيدتى انه لو كانت لى ابنة لما أحببتها أكثر منك . »

قالت « وانى لأعرف منك ذلك . نعم أعرفه وهل ظننتنى جاحدة جميلك ؟ ولكن قد كان لى زوج ولى ولد فهل تدري ما قيمة ذلك لدى امرأة ؟ وها انى رأيتهما يرتحلان بعيدا ، اخذن معهما كل حياتى تاركين خلفهما لوعة اكتوى بها وفراغا لن يمتلىء الدهر كله . ولم يكن لدى غير آمال أمنى النفس بها فى وحدتى والله وحده يعرف كيف كانت هذه الوحدة . »

وفى تلك اللحظة دق الباب دقا متواصلا دخلت نفيسة على أثره وقالت « بالباب زائر يريد الدخول يا أمى . »

قالت وقد اشاحت بوجهها « لا استطيع مقابلة أحد الان . »

خرجت نفيسة ثم عادت بعد فترة سمع خلالها صوتها من أسفل درج السلم وهي تقول بصوت عال « يا أمي انه الشيخ فضل يرغب في مقابلتك ، وقد اخبرته انك مريضة ولكنه على غير عادته التي تعهدينها فيه من حيث سهولة الانقياد وسذاجة الطفل أبى أن يرحل وهو يتكلم كمن بعقله مس وجنة . وطلبت اليه أن يعود الينا غدا فقال انما يحضر نذير السوء في الغد . انه بلا ريب مجنون ، واسمعي يا أمي لقد رأيت عبد الله يتسكع خلفه في الحارة ، وكأنما قد أتى جرما ويخشي أن يقبض عليه . فهل أطلب اليه مرة أخرى يا أمي ان ينصرف فاني أراك متعبة ؟ »

جففت مرغريت دموعها وقالت « لا لا بل دعيه يحضر واني انمى دهشة لا أدرى ماحاجته . أخشى ان يكون عبد الله في خطر وجاء الشيخ يطلب المساعدة . »

صعد الشيخ السلم متباطئا متثاقلا وقامت مرغريت للقائه والترحيب به عند دخوله .

وكان الشيخ أبيض اللحية رفيعا عليه مسحة الزاهد المتعبد ، تعلو رأسه عمامة الاشراف الخضراء ، واثوابه البيضاء النقية تبلغ قدميه . ويسطع في عينيه الواسعتين السوداوين بريق نفسه الهادئة المطمئنة . ووقف لدى الباب كأنه ينفث أنفاس الطمأنينة والخير في ذلك البيت المليء بالالام .

وكان كل شيء فيه وحوله ينم عن طيبة وحنان يفيضان من قلب واسع الرحمة والشفقة ، وكان يظهر على الرجل مهابة وجلال يليقان بشيخ من شيوخ الاسلام ولا يكاد أحد من كرادلة روما يملك أنبل ولا أجل منهما .

ورد على تحية مرغريت واضعا يده على صدره ثم على جبينه قائلا

« وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . »

لم يستأجول لهذه الزيارة وقام ليقدم واجب الاحترام للشيخ وقد أدهشته هذه الزيارة غير العادية ولم يدر لها سببا وقال هامسا للشيخ « معذرة ياسيدنا الشيخ فى تأخرنا عليك ، فان السيدة الليلة فى ألم وحزن اذ سمعت اخبارا سيئة . لقد قضى زوجها نحبه في الاسكندرية . »

فقال الشيخ « سبحان ربى العظيم تعالت قدرته له حكمة لا تدركها الاذهان . » ثم تربع فى مجلسه فوق المتكأ وجلس لحظة صامتا مشغول الفكر .

ونظرت اليه مرغريت فخيل اليها ان الرجل متعب كالوسنان كأنه آت من سفر طويل .

ولم يلبث أن أفاق من غشيته وتلفت حوله تلفت الأخفش ذي البصر القصير وقال « الولد اين الولد ؟ »

قالت نفيسة « أتقصد عبد الله ؟ لقد كان خارج البيت ولكنه جرى عند دخولك . » .

فتنهد الشيخ وقال « أخرجنى اللهم من الظلمات الى النور واهدنى من أمرى رشدا . لطالما فكرت ورجوت وتمنيت ، ولكن فى الصدق وحده طريق الهداية فليؤد بنا الى حيث يريد . اسمعى ياسيدتى فلدى قصة أريد أن أقصها عليك . يحكي أن شيخا كان يحب العلم حب الظمآن للماء . لم يعن بغير كتبه ومحفوظاته يحفل بها كما يحفل الاباء بالابناء وفيها كل طلبته من هذه الحياة الدنيا . وحدث يوما أن أخذ هذا الشيخ الى داره صبيا من صبيان القاهرة ، وعلمه العلم وكان بتعليمه له مزهوا فخورا ذلك لان الصبى كان حاد الذهن وقاد القريحة ، فورد مناهل العلم وصبا اليها كما يصبو الأليف الى الفه . وسرعان ما أدرك

الشيخ أن حبه للصبي قد فاق حبه لكتبه فوضع خطة تصل بالفتى الى المجد والعظمة وكد في ذلك كدا لم يبذله حتى لنفسه ، لأن حبه تغلغل في روحه ودمه ، ولقد توسم الشيخ فيه ان يصبح للاسلام نورا وهدى ويصير شيخا من أعلام الازهر الذين لايكاد يجود الزمان بواحد منهم الا مرة في كل قرن . وأصبح الشيخ بذلك تياها معجبا ، ألم يصر الفتى كأنه ابن له من صلبه ومن بين ترائبه ، ألم يكن اعز لديه من كل شيء نظرا لتقدمه هو في الشيخوخة ؟

« ولكن اسمعي ياسيدتي لقد جاء الي الشيخ يوما كتاب يقول كاتبه ان الصبي لم يولد من أصلاب مسلم مؤمن ، بل كان أبوه نصرانيا فيا عجبا ايكون ذلك الشيخ الفتي الذى نشأ مسلما وتفقه في الاسلام وشرائعه والذي سيكون في يوم قريب شيخ الازهر كله ابن نصراني ونصرانية؟

« لم يعلم بذلك أحد حتي الصبى نفسه ، وقد رأي الشيخ غفر الله له ذنبه أن يكتم الامر . ثم خطر ببال الشيخ يوما أن قد يكون غير صادق وأمل أن يكون الحديث خرافة وهراء ولذلك اعتزم على البحث والتحقيق بجمع الادلة من هنا ومن هناك ، وسافر سفرا طويلا وانتهى به الامر الى أن الخبر غير مكذوب ، والى أن الفتي ابن نصراني ونصرانية .

« ولما عاد الشيخ من سفره متعبا مكتئبا حدث الفتى بكل ماوقف عليه ظانا أنه قد يجد منه الهادى المرشد ، ولكن الفتى ثارت ثائرته قائلا انه مؤمن صادق الايمان ثابت العقيدة ، وانه لن يهجر دينه في سبيل مائة من الامهات . فلم يكن من الشيخ وقد هداه الله الى الحقيقة الناصعة الا أن اشتمل بقفطانه واتكأ على عصاه وأقبل الى الام يقص عليها القصة لانه رأى يد الله تسير هذه الحوادث كلها . ولهذا أنا ياسيدتي

قد جئت . »

فحملقت مرغريت البصر اليه فى ذهول وقالت « لم أفهم بعد يا سيدى الشيخ الغرض من هذه الحكاية . »

قال « لا عجب فى ذلك فهى والله قصة مدهشة . ولكن نبئينى ألم يكن لك ولد ؟ »

قالت « نعم ولكنه غرق فى الخليج من نحو اثنتي عشر سنة . ولكن لماذا ؟ »

« قال ان الله الذى منح الحياة قادر بلا شك على أن ينقذها من أمواج اليم : أليس هو خالق الخلق كله ؟ »

فتمتم جول لنفسه يقول « ان الشيخ بلا ريب مجنون . »

واسترسل الشيخ فى حديثه قال « استمعي فلقد أخذت البينة على ذلك من صديقى المتسول الذي يجوب أزقة المدينة . ألم تعرفي يوما قبطياً يسمي ميخائيل ؟ »

قالت مضطربة « بلى فلقد كان قبطى بهذا الاسم فى خدمة زوجى . »

قال « وقد ضربه يوما زوجك ؟ »

قالت « نعم ولكن لماذا هذه الاسئلة ؟ »

قال « وكان لك خادم بربرى اسمه حسن أحمد ؟ »

قالت « نعم هذا حقيقى وهل أستطيع ان أنسى اسمه فهو الذى عاد ليقول لى ان ابنى غرق فى الخليج . »

قال « انه لم يغرق يا سيدتى فان الله انقذه من بين براثن الماء . الحقيقة ان القبطى أمسك به وباعه لامرأة فى طنطا . »

عندئذ اتسعت حدقتا مرغريت ونهضت وهى ترجف وقالت « ما هذا ؟ يالله مما اسمعه منك . »

فتمتم جول هازا رأسه هزة الحزن « انه مجنون . ان الشيخ

مجنون . »

قال الشيخ « انني أقول لك ياسيدتي ان ابنك لا يزال حيا يرزق .»

قالت « ابني حي يرزق ! رباه هل مسني الخبل مما انا فيه من ألم

بربك قل لي اني لست في حلم . »

ثم التفتت الى جول وقد جلس بجوارها وقد ظهرت على وجهه

غضون الهم والكدر .

قال جول « لست أعرف شيئا غير الذى قاله الشيخ . » ثم التفت

الى الشيخ مستريبا وقال « ولكن أى برهان لديك على صدق ما

تقول ؟ »

قال الشيخ متعبا « لقد عدت الليلة فقط من طنطا ، وما كان

أطول سفرى ، ووجدت القصة صحيحة . أتظن أني أجيء الى هذه

الدار أحمل الكذب على شفتي ، وناهيك بكذب يحرمني ممن هو أعز

لدى من كل ما عداه ، ويبعدنى عن اسلام فتي قد يصبح للاسلام

هدى ونورا ؟ »

فصاحت اذ ذاك نفيسة بصوتها الناعم « كأنى بك تقصد عبد

الله . » اذ من هو ذلك الذى سيكون في اعتقادها هدى ونورا

للاسلام سواه !

قال « نعم هو عبد الله الذى أعده ولدى . »

عندئذ جثمت مرغريت على ركبتيها أمامه وأمسكت بقفطانه

ورفعت اليه وجهها وقد ارتسمت عليه أدلة الحزن ثم قالت « رحماك

اللهم رحماك . بربك قل لي مرة أخرى أن هذا صحيح ، وانك لم تخدعنى

فيه فانني رباه قد احتملت أكثر مما أطيق . ولكن هل تأكدت

واستوثقت من صحة ما تقول ؟ قل انك لم تفسح فى وجهي باب الامل

دون اقامة البينة . »

فوضع الشيخ يده برفق ورعاية على رأسها وقال «اتظنين ياسيدتى أنى أجىء اليك لاخبرك بذلك دون أن استوثق منه ؟ ان ما قلته لك حق وصدق كالايمان في حقه وصدقه . لقد جئتكم الليلة وأنا محزون القلب لانى فى مجيئي انما أهىء لنفسى الحزن والالم . ولكن حمدا لله فما هو قدر حزني بالقياس الى سرورك ؟ما أشبه ذلك بمصباح انطفأ واستعضنا عن ضوئه بضوء الشمس عند الظهيرة . »

فقامت من جثمتها ترجف وقالت « ولكن أين عبد الله أين ولدى ؟ »

قال الشيخ وقد اضطرب للمرة الاولي « صبرا يا سيدتى صبرا . تعلمين أنه شب فى حجر الاسلام وليس فى خاطره شيء سواه . والشباب لا يعرف الهوادة واللين ، وليس فى الازهر كله فتى أشد عصبية لدينه من عبد الله ، ولا تنسى أنه نشأ فى أيام عصبية . »

قالت « ولكن ألم تخبره يا سيدى الشيخ أننى أمه ؟ » وخيل لمرغريت أن ذلك وحده يمحو من ذهن الغلام كل شيء ويكتسحه كما يكتسح النيل عند فيضانه كل ما يعترضه من سدود ونتوءات ويقذف به على ضفتيه .

قال «نعم يا سيدتي لقد أخبرته ولكن صبرا فلعله راجع اليك على مر الزمن . »

قالت ضاحكة ضحكة تشنجية « تقول لعله فما هذه الكلمة ؟ ألم يجىء معك ؟ » ثم مشت تريد الباب .

قال « لقد جاء يا سيدتى ولكن كمن يجيء أمام القاضي للحكم عليه فانه لم ينقطع توسله الى خلال مجيئه أن أرجع به قائلا أننى أبوه وأمه ، وانه ليس بحاجة الى أحد سواى وانه مسلم ورجانى أن لا أخبر أحدا من الناس بانه ابن نصرانى . »

فلم تكترث مرغريت بما سمعت فان ذلك تافه ضئيل . ونسيت أنها هجرت زوجها لانه اعتنق الاسلام فلم تدرك لماذا ينكرها ابنها لانها مسيحية .

وأسرعت الي السلم فهبطته في عجل وفتحت الباب فرأت شبحا في عمامة وقفطان مستخفيا فى ظلام الحارة يرقب الدار ومن فيها .

وسرعان ما تبينته عيناها وصرخت صرخة عالية تفتت الا كباد وهى تقول « عبد الله ، ولدي ، ولدى . »

وجرى الشيخ ليفيبر أمامها وسمع صراخها فارتجف من عمق الصرخة وما اشتملت عليه نبرات صوتها من العواطف الثائرة . يالله لقد كانت صرخة تبعث به حيا من بين الموتى ، ولكنه عندما أفاق لنفسه سمع فى الحارة وقع خطى مسرعة .

لقد مضى عبد الله فى جريه لم يعرج على شيء .

الفصل الثانى و الثلاثون

الليلة الاخيرة فى القاهرة

ليس من غرضنا هنا أن نحدث القاريء بما حدث بين الجيشين المتحاربين من كروفر ، ومن مناوشات ومعارك فاصلة ، ومن تهادن ثم تسليم ، ومن دفاع جنونى وجهود شديدة قامت بها حامية محصورة كبيرة العدد ، نعم لانريد أن نذكر من ذلك الاماله علاقة بحياة اولئك القوم الذين نسرد تاريخهم فى هذا الحديث الطويل .

غالت أغوال القدر بقايا الجيش الفرنسى فى القاهرة ونابتهم الخطوب وان تكن على مهل . فقد أقبل الاتراك من الضفة الشرقيـة للنهر ،

وتقدم البريطانيون على الضفة الغربية صوب الجيزة،ومن القصير جاء القائد بيرد على رأس جيش من الهنود ،في حين أن البغضاء والعصبية والاحقاد كانت على وشك أن تنفجر فيبدو عدوان المصريين للجيش الفرنسي فى أظهر مظاهره.

وتكشفت القرون الاربعون التي كان يذكرها نابليون فى خطبه للجنود عن منظر يباين منظر أنبابه ويغايره. لقد أصبح سادة مصر لا يملكون من أمرها الا بقدر ما تستطيع بنادقهم ومدافعهم أن تحكم.

وما أكثر ما جرى من الحديث بين الفرنسيين ، وما أكثر ما ارتأوا من الخطط غير العملية يريدون بها أن يختبروا حصار الجند المضروب عليهم ويسيروا شمالا لكى يتصلوا بجيش مينوفى الاسكندرية أو يدكوا ما أقاموا من حصون واستحكامات ويسيروا نحو الجنوب حاملين أسلحتهم لكي يجدوا لهم طريقا الى بلاد الحبشة والبحر الاحمر . لقد ذهب اليأس بحجاهم فلم يتبينوا حقيقة ما هم فيه من حرج الموقف.

لم يبق لديهم ماليس منه بد .لم يكن لهم غير التسليم ،وسرعان ما قبلوا الهدنة وأمضوا شروط التسليم.

لقد أصبح غزاة الامس أسرى اليوم.

ففى خيام المعسكر علت راية الخذلان والذل على أمهر جيش عرفته مصر ،واما في داخل مدينة القاهرة نفسها فقد كاد الناس يجنون من الفرح .لم يكن للكفرة الا أن يخلوا الطريق للمؤمنين ، ورفع الهلال علمه على القلعة بدل تلك الراية المثلثة الالوان.

وسار الى خطوط الفرنسيين فى الروضة والجيزة طوفان المهاجرين فقد جاء يوم الحساب وهرع الى الفرنسيين أولئك الذين مالأوهم على

مواطنيهم ،أما الاقباط واليونانيون والقاهريون رجالا ونساء فقد ضرعوا اليهم أن لا يتركوهم تحت رحمة الذين خانوهم وسخروا من دينهم وانتهكوا من حرماتهم ونظمهم.

لقد كان فى الواقع ضمن شروط التسليم شرط يضمن العفو العام عن كل ما اجترح من جرائم ، ولكن أولاء ما كانوا يثقون بالاتفاقات المكتوبة فلقد كانوا من خوفهم أكثر تقديرا لقيمة مثل تلك الدعاوى وعهود الامان ،لذلك باع الكثيرون متاعهم وفضلوا الاقامة في فرنسا، بما فى الاقامة هناك من غرابة وغموض، على العيش في مصر مسقط رؤوسهم حيث اليقين والحقيقة المرة الهائلة .

وكان تاريخ مصر يتغير سريعا ، ففيها مثل الدور الاول من الرواية التمثيلية التي دفعت بالناس من الهند لامريكا الي حرب ضروس غيرت خريطة اوروبا . ولكن ذلك لم يكن في نظر مرغريت الا من تافهات الامور اذا قيس بان هناك فتى احمر شعر الرأس يلبس العمامة والقفطان لا يناديها « ياأمي »

وأصر عبد الله علي تجنبها وأبى حتى أن يراها . لقد كان مسلما وهي نصرانية وليس بعد ذلك زيادة لمستزيد ، ولجأ الى الازهر يأوى فيه فرارا مما عده ظلما واضطهادا ، وهل يستطيع بعدئذ أحد أن يغريه على مبارحة ذلك الملجأ المقدس؟

ولطالما طلب الى مرغريت صحبها أن تتواصى بالصبر ، غير أنها لم تطق ألم بعد ابنها عنها يوما واحدا وهى التي صبرت على فراق زوجها سنين عشرا.

وكأنما قدر عليها ان تصبر طويلا مرة اخري ، ومن يدرى فقد تكون عاقبة ذلك الصبر الطويل المؤلم نفس تلك العاقبة المحزنة . وعاد على وجهها ذلك القنوط الذى طالما لمحه جول عليها فيما مضى.

وفي الليلة الاخيرة التي كان الفرنسيون سيرحلون فى صبحها الى رشيد جلس رجلان في حديقة قصر مراد ببركة الفيل وانشغلا في حديث طويل . وكان أحدهما الخصى والاخر الضابط ديوبونت .

وكان الجو شديد الحر نهارا وان يكن تلطف قليلا بالليل فان مياه النافورة التى كانت تتناثر بالقرب منهما أكسبت الجو شيئا من البرودة.

وكان الخصى يلبس قفطانا من الحرير الرقيق النسيج ، وقد جلس متربعا على درج من الرخام وفى يده الشبق يدخن فيه . وبالقرب منه على مقعد خشبي جلس الضابط الفرنسى فى ثياب السفر وبجانبه قبعته ومعطفه مفكوك الأزرار حتى الرقبة ، واذ مسح وجهه وشعره بمنديله جعل يتسخط من ضيق سرواله (بنطلونه) وحرارة زناره المثلث الالوان.

وكان قد جاء مع عثمان فى معسكر الفرنسيين بالروضة ليودع جميع أصدقائه ، وبقى هو مع الخصى يتحدثان بينما ذهب عثمان لزيارة جول ليفيبر.

وكانت أواصر الصداقة قد اشتدت عراها بين الرجلين أحب الخصى من الفرنسى حذقه ومرحه ،وأحب الفرنسى من الخصي رزانته ودهاءه وما تبينه فيه من النبل والشجاعة والقوة الجسمانية .

قال الفرنسى « أظنك لا تغضب من أنى شجعت عثمان على الذهاب معنا الى فرنسا . »

فألقى الخصى الشبق جانبا وقال « كلا فانى لن أرضى له بعد اليوم فى مصر مقاما وان كنت قد أحببته كما لو كان ولدى لو لم يحرمنى الله قوة انتاج البنين . لم تعد ترضيه الاقامة فى مصر بعد الآن . لقد أقام هنا منذ ولد ولكن ماقيمة ذلك ازاء النعرة القومية وازاء تلك القرون الخالية من تاريخ أسلافه ذلك التاريخ الماثل أمامه والذي

يدفعه أبدا ويثيره . لقد كانت هذه النتيجة محتومة منتظرة لمن هو كعثمان منذ ان وقف على سر مولده.

قال « انه سيذهب معنا فى رعاية فقد أحبه القائد ووعده ان يوليه حبه . وان للفتي جميع غرائز الجندى وصفاته وتلك ألزم لوازم الرق فى جيش الجمهورية . ثق أنه سيكون قائد فرقته والا فانى أحمق مجنون .»

قال الخصى مبتسما « واظن أن المال ينفع فى فرنسا كما ينفع فى مصر ؟»

قال « لقد فكرت فى ان أتحدث معك بشأن هذا الصدد. فلو دبرت له أمر المال أعانه ذلك كثيرا وعلى الاخص فى مبدأ اقامته بفرنسا . على أننى سأعمل بنفسى على ان اكفل له مايكفيه.»

قال « ماأكرمك من رجل ولكنى مهدت لذلك مع التاجر الفرنسى وحولنا له مبلغا طائلا علي بنك فرنسا .»

قال الفرنسى معجبا « ياعجبا لك انك تفكر فى كل شيء.»

قال « وما الذى بقي لى غير التفكير ولقد كان من حسن حظ أصدقائي أنى جعلت جزءا من تفكيرى وقفا عليهم . ان المال الذى حولته لعثمان يبلغ مائة كيس ذهبا فهل تظن أن هذا القدر يكفي ؟ »

قال « يالله انك مرسله الى فرنسا أشبه بقائد القواد . »

قال « وهل يليق أن يذهب ابن مصطفى بك الى بلاده كالصعاليك ؟ »

قال « اذن لم يستنفد مواطنى كل ثروة البلاد ؟ »

فابتسم الخصى وقال « بل لايزال فيها بقية من الذهب والنضار. والان لقد ذكرتنى شيئا صغيرا كنت أعددته لك هدية لما بيننا من الصداقة وذكرى لعهود صديقي مصطفى بك .» واذ ذاك نهض الي السلاملك القريب وعاد يحمل مشملا فى غمد معدنى ودفع به الى الفرنسى

وقال « ان هذا السيف أيها الفرنجي لم يكن سلاح امرأة فلطالما لمع فى مقدمة المعارك تحركه أيد تشرف ما تحمل . »

وبرق الغمد فى ذلك الضوء الضئيل فصاح الضابط من عجب « الله اكبر انه من الذهب الخالص . »

فقال الخصى « انما قيمته فى النصل لافي الغمد . »

وعندئذ استل الضابط ديبونت المشمل وأجرى أصبعه على شفره الحاد كالموسى ، ثم ضغط الارض بسنه فانثنى النصل اثنين .

وقال الضابط بعدئذ « لعمرى انها لهدية خليقة بملك من الملوك : »

قال الخصى « بل خير من الملك وهو الصديق . »

ثم بعدئذ قال ديبونت « كنت أود ان أري حسن الكبير يهز فى يده مثل هذا المشمل فما أحرى حسن بانتضاء مثله ؟ ولقد والله تمنيت ان يصحبنا هو ايضا الى فرنسا ، فانه يكون هناك في الجيش خير من امتطي جوادا . »

فهز الخصى رأسه وقال « ان حسن له نزعة المملوك فى كل شىء فهو لايحتمل الهجرة أضف لذلك انه يهيم بحب الفتاة التى كنا نحسبها اخت الشيخ الصغير عبد الله فهو لايبرح مصر ولو أعطى الجبال ذهبا وهاجا . انه بطيء الفهم ولكنه ان احب بقي على الحب الدهر كله . »

قال « وهل رأيت عبد الله اخيرا ؟ اننى أود ان أرى الفتي قبل مبارحتى لهذه البلاد . له الله من فتي عنيد يعلق بدينه شديدا . لقد كنت اريد ان اراه تصالح مع امه قبل ذهابي ، فلست احب لها غير ذلك ما أتعسها !! انها تجرى وراء فتاها وتظهر من الجزع عليه مايفتت الاكباد . »

قال « صبرا صبرا فان الامر جديد لديه ، ولا تنس ان كل أطماعه واماله بل وتربيته تحول دون ذلك . ومالى اذهب بعيدا ان صاحبنا

عثمان لو كان اخبر انه ذاهب يوما الى فرنسا ليحارب فى صفوف الفرنجة ولنصرتهم لما وسعه الا الضحك من ذلك والسخرية . لقد كان مملوكا وكان سيعيش كذلك الى الابد ومع ذلك فلا الصداقة ولا الروابط القديمة بل ولا الدين نفسه يحول بينه وبين ما يريد ، وأما الشيخ الصغير فله طبيعة أعمق من طبيعة عثمان . هذا اذا لم أكن مخطئا فى نظرى ولكن صدقنى أن الفتى بسبب أمه محزون ملتاع . »

فهز الفرنسى رأسه وقال « انه مخلص لدينه من كل قلبه . »

ثم غير الخصى مجرى الحديث وقال « وما نتيجة كل ماترى من الحوادث الجارية هنا ؟ هل تظن أن الانجليز سيظلون هنا ؟ »

فقال الفرنسى « قد يكون ذلك وانما أنا أرجح أنهم يسلمون البلاد للاتراك . »

قال « واذن يغشى البلاد مرة أخرى روح الاستبداد والفوضى والشقاق والظلم . ورحم الله المماليك فان يومهم قد ولى . »

قال « الا اذا نهض منهم رجل كبونابرت يجمع شمل المصريين ويجعلهم أمة واحدة متماسكة . »

قال « لقد مر ببالى أنا أيضا مثل هذا الخاطر . قد كان يمكن ذلك على يد رجل مثل على بك وقد يكون ذلك أقرب على يد مصطفى بك وهو ذلك المتسول الذى تعرفه ، ولكنى اتلفت الان يمنة ويسرة فلا أجد رجلا يصلح لذلك . »

قال الفرنسي « ولم لاتكون انت ذلك الرجل ياأفندى ؟ »

وعندئذ أضاءت عينا الخصى السوداوان الواسعتان ، وبدا لحظة على ذلك الوجه المنتفخ الرخو من السورات ماأزعج الفرنسي . ولكن ذلك كان شعلة سرعان ماانطفأت ، وما كاد الفرنسى يعيد النظر الى وجه الخصى حتي كان هذا قد استعاد رزانته وهدوءه ومنظره الحزين

العادي وقال « ولكن الله يريد غير ذلك . انما أنا منحوس سيء الحظ . »
قال « ولم ؟ ألم يكن بيبرس خصيا أيضا ؟ »
قال « هذا صحيح ولكن ماتفع ذلك ؟ الله يعلم ان لى قوة وانى أشعر بها هنا » ثم أشار بأصبعه الي جبهته العريضة الكبيرة وقال مسترسلا « ولكنى مع ذلك وحيد يموت مجدى بموتي . ألم تحرمني قسوة الانسان من قوة ان يكون لى خلف صالح من صلبي ، وان أنا جئت بالعظيم من الامور فهل أكون في ذلك الا مساعدا على استدامة ذلك العار الذي لحق بي ، سيذكرنى الناس ابدا بهذا الاسم اسم رضوان الخصى . لا . لا . خير لى ياصاح ان اموت نسيا منسيا من اموت مذكورا هذا الذكر من العالمين . »
ومكث الفرنسي صامتا فقد كان سببا فى الوصول الى التلميح الى هذه المأساة تلميحا لم يكن يقصده .
لذلك غير الموضوع بلباقة وقال « انني اعرف شيئا عن تاريخ أبى عثمان الذى عرفته متسولا فى الطرقات ، فهل لك ان تخبرنى كيف اتهم مرادا بما اتهم ؟ انني لم اسمع الحكاية كلها . »
قال « لقد حدثت هذه المأساة كلها بسبب ذلك اللعين عمر بك وما كان بصدره من سيء المشاعر . لقد أحب مراد علية هانم وأراد ان يتخذها زوجة له ولكنها فضلت مصطفى ، وكان مصطفى ومراد مملوكين من مماليك على بك شبا وترعرعا فى داره . ولما ذهب مصطفى ليقمع الثورة التى قام بها اسماعيل ذهب مراد كعادته الى الصيد والقنص غير عابيء بشيء . وكنت أنا نفسى فى الاسكندرية . ففى ذات ليلة هاجم عمر دار مصطفى ، وكان عمر بك هذا قد رأى علية هانم مرة فهام بها ولم يكن فى مصر وقتئذ من يدانيها جمالا ، وكان أثناء هجومه على الدار وبصحبته شرذمة من المماليك يصيح صيحة مراد فى الحرب

وينادي نداءه ، وحـدثت معركة واشعلت النار فى المنزل ، وأعمل المهاجـون سيوفهم فى رقاب مماليك مصطفى وكانوا أقل من أولئك عددا فاجهزوا عليهم أجمعين الا واحـدا منهم هو اسماعيل المروى ، حيث دبر لزوج مصطفي أن تهرب على الرغم مما أصابه من الجراح ، ولكن لما ضايقها المهاجون طعنت نفسها بخنجر مفضلة الموت عن ان تقع فى أيديهم .

« فلما أخفق عمر فى محاولته وخشي ان يثأر منه مراد ومصطفي أرسل أحد مماليكه الى مصطفي يقول له ان مرادا هاجم داره . »

قال الفرنسي « يالله هل كان في مصر مثل هذا الشيطان ؟ »

قال الخصى مسترسلا « وعاد مصطفى توا الى القاهرة وقد ذهب الحزن بلبه فاتهم مرادا بالجريـة . فأنكر مراد التهمة فـلم يكن من مصطفى الا ان لطمه كما سمعت أنت وكان ذلك فى الديوان المنعقد بكامل هيئته .

« وكان مراد رجلا سريع الغضب ولـكنه تلقى اهانة مصطفى بالهوادة والصبر فقال الناس انما ذلك لانه هو صاحب الجريمة ، وهكذا قد يأتينا الضر أحيانا من الخير الذي نفعله ، وأمر مراد بنفى مصطفى الى سوريا . ولكن بعض رجال السوء الذين أكل الحقد قلوبهم غيرة من المملوك حتي فى سقطته امعنوا فى اهانته فجلدوه قبل رحيله .

« واستطاع بعد، كما تعلم، ان يعود الى مصر كأحد المتسولة السابلة وقابل اسماعيل المروي وكان هذا قد أخفى علية هانم على الرغم من جنوبها . وحدثه اسماعيل بالدور الذى لعبه مراد لأن اسماعيل نفسه سمع صياح المهاجين فظنهم من رجال مراد.

« وظن الناس ان ولدى مصطفي قد التهمتهما النيران ولكن بلغنى فيما بعد من أحد مماليك مراد أنه وجد الولد يوم الحادثة وأخفاه عنده

ظانا ان شيخ البلد قد ينقم منه ذلك . فأخذت منه الولد وربيته ثم أغريت مرادا بأن يجعله من مماليكه وهو جاهل حقيقة أمره .»

قال الفرنسى « والبنت ماأمرها ؟ »

قال « لابد ان تكون ماتت حرقا لأنى لم أسمع عنها شيئا . على انى لم أعرف حقيقة ماتم فى هذه الحادثة الا بعد سنين عديدة حيث أخبرنى بها أحد مماليك عمر بك عند احتضاره . غير ان مصر قد اجتاحتها أوقات عصيبة وقام النزاع بين ابراهيم ومراد كل يطلب الاستئثار بالامر ، ولم أشأ ان أقول لمراد كلمة مما سمعت مخافة ان ينضم عمر لخصم مراد ، وما كان مراد ليتأخر عن قتل عمر حتى ولو كلفه ذلك ان يخسر البكوية والامارة.»

وفى تلك اللحظة سمعت أصوات عند مدخل الحديقة وظهر على أثرها عثمان وجول ليفيبر ومعهما عبد الله .

قال عثمان « السلام عليكما ، لقد جئت بالتاجر الفرنجى معى فقد خشى ان لايراك غدا من الزحام ، وجئت بعبد الله أيضا فقد وجدناه يحوم حول حارة النصارى على غير هدى وان كان قد أصبح من مشايخ الازهر .»

فأجاب عبد الله « لقد كنت مزودا من الشيخ برسالة ، ولكن لقد سرنى والله ان أراك ياعثمان لأنى سمعت اليوم فقط أنك راحل مع الكفار .»

قال عثمان « استمعوا اليه أرأيتم مسلما أشد غيرة وعصبية من هذا على الرغم من أنه هو أيضا من نسل كافر .»

فصرخ الفتى مغضبا حانقا وقال « كلا كلا انما تلك أكذوبة لأنى مسلم لانصرانى .»

فقال عثمان معتذرا « أسألك الصفح ياعبد الله عما فرط منى من

الـكلام .»

هدأت ثائرة عبد الله وان يكن لا يزال منزعجا وجلس بجـوار الخصى فقد كان هو الشخص الوحيد الذى يفهمه كل الفهم ويؤيده في كل ما اعتزم . وكان عبد الله شارد الفكر مضطربه . ولـكن القوم لم يدركوا منه ذلك.

لقد كان ثمت شيء يقوض أركان عاداته وآرائه من أساسها ، لقـد أوشك ان تخونه عزيمته ولذا فهو فى حاجة لأخـذ العدة حتى يكون على أهبة ، وخاف على نفسه وآماله وأطماعه بل وعلى الدين والملة.

قال ليفيبر يخاطب الضابط ديوبونت « وغدا تكون فى طريقك الى فرنسا ، وغدا ينتهي أمد الاحتلال الفرنسي للقاهرة .»

قال مطرقا « نعم فلقد جئنا ولنا آمال عظيمة ، قد تكون امالا جنونية ، وها نحن نعود مقهورين خائبين . ولكننا والله نستحق ذلك. انني ان قضى على ان لا أشترك في حرب بعد الآن فسيكون لدى ما أفكر فيه فى شيخوختى وأنا جالس فى أحد المشارب العامة احتسى شراب الفرموت .»

قال عثمان « ولكنك ستصلى حرها مرة أخـرى فالحرب لم تنته . انى والنبي لأغادر مصر لو تملكنى مثل هذا الظن .»

قال « طب نفسا ياعثمان فستشبع نهمتك من الحروب ، وكذاك كل من يسير وراء بونابرت ، ولكنى شبعت من الحروب البرية . أقسم لـكم بالله سأعود ثانيـة الى ظهر سفينتى في البحر وما كنت لأتركها لولا أنى انتخبت من بين اخوانى لأجيء وأجوس خلال هذه الديار أرقب وأتجسس لأني مكثت زمنا فى الاقطار الشرقية ولاني أعرف كثيرا من اللغات.»

قال جول « ربمـا كان فى مجيئك هنا خير لك ، والا فانك كنت

الان من الهالكين غرقا فى مياه أبى قير.»

قال « صدقت ياصاحبي فقد كانت الضربة شديدة علينا . هذا عثمان يريد ان يحارب برا تحت امرة بونابارت ، وها أنى علم الله أود لو أستطيع ان أخدم لحظة تحت أمرة ذلك القائد الانجليزى نلسون فكلا الرجلين من مغاوير الحرب ورجالاتها » ثم انبرى يخاطب جول قائلا « والان ألم تعتزم بعد العودة الي فرنسا معنا غدا ؟ »

فهز الشيخ جول رأسه وقال « كلا ياسيدى كلافاني بقدر مااشتاق الى فرنسا أشتاق الى المكث فى مصر . لقد استطاعت ثلاثون عاما ان تنتزع منى أمانى الشباب ورغباته ، هذا الي انى اليوم أكاد أكون مصريا صميما. »

فابتسم الضابط وأدرك ان لجول مآرب أخري . ولكنه قال « ولكن ألا ترى أنك قد تعود يوما ياسيدى ؟ »

قال بصوت رهيب وقد التفت الى عبد الله من غير قصد « ربما أعود يوما ان شاء لى الله ذلك . »

فقال الخصى « ان كثيرين لم يقيموا فى مصر مقامك ياافندى وهم أكثر منك اجتواء للرحيل عنها.»

قال الفرنسي فى سكون « كأنى بك تشير الى صديقي الماجور لافون فهل رآه أحد منكم اليوم ؟ »

فتمتم جول يقول « لقد رأيته أنا اليوم ووالله لقد ألمت لمرآه فانى ماشهدت فى حياتى رجلا مهموما مكتئبا مثله. »

قال الضابط « نعم انه لايدرى ماذا يصنع بنظلى فهى تريد البقاء فى القاهرة . وانى لم أر رجلا فتنه الهوى مثل صاحبنا هذا . تلك والله ملمة خطرة » ثم التفت الى الخصى وقال « وأنت مارأيك فى ذلك ؟ »

فقال الخصي « والله خيرله ولها ان يأخذهامعه فالقاهرة لن تكون مكان أمن لها.»

قال « ولكن هل نسيت الاتفاق ؟ ألم ينص فى الشروط على تأمين أمثالها ؟ هذا لعمري نص صريح واضح ضمن الشروط. »

فابتسم الخصى ونفخ ذؤابة من الدخان من بين شفتيه الغليظتين وقال « انها لاتساوى نفخة كتلك يوم يرحل الفرنسيون والانجليز عن هذه الديار. »

قال « رباه ، أترى اذن انه سينالها أذى ؟ »

قال « أري ! ؟ بل اننى به علیم . انكم أيها الفرنجة لاتعرفون عن مصر الا القليل رغم اقامتكم بها ثلاث سنين . أنت تعرف كيف اننا نحن المصريين نغار على نسائنا وتعلم أن مجرد السفور خطيئة ومخزية ثم هانحن نشهد ابنة أعز أشياخ مصر وأشرفهم تصبح خليلة رجل نصرانى من الفرنجة . ألا تدرك معنى ذلك ؟ هذا فضلا عن ان الفتاة ليست من عامة الشعب الخاملات حتى يحميها ذلك الخمول . »

فهز الاخر رأسه متألما متأسفا « انها ملمة خطرة حقا فما الذي تراه فيها ؟ »

قال « دعه يبقى فى مصر ويعتنق الاسلام ويتزوج منها فتلك هي الوسيلة الوحيدة . »

قال « وى ! أيفر من الجيش ويرتد عن ملته ؟ »

عندئذ ابتسم الخصي وأجاب بجفاء « ليس من ذلك بد فهو اما ان يتخلى عن جنسيته أو عن المرأة التي أسلمت نفسها اليه ووثقت منه . »

قال ديو بونت « ولكن له زوجا أخرى فى فرنسا. »

وتبع ذلك صمت وبدا على وجه الخصي الجد والتفكير ، وجعل عثمان يفكر فى رحيله القريب وفى الحياة التى تنتظره فى فرنسا ، في حين جعل جول يسير جيئة وذهابا وهو مهتاج متأثر تبدو على وجهه أشد آثار القلق .

ثم قطع ديبونت هذا السكوت وقال يسأل عثمان « أين صديقك البدين ياعثمان ؟ انه دون شك لن يتركك ترحل دون ان يودعك . »

قال « الله وحده يعلم أين هو فقد ذهب هو واسماعيل المروى منذ اسبوع لقضاء أمر ، ولكنه سيحضر فلا تخف وربما نراه ونحن سائرون. »

وللحال سمعوا من الحارة مواقع حوافر عقبه كلام عند الباب وتبع ذلك ظهور فارسين في الفناء.

وتبين القوم من طول قامة أولهما انه حسن الكبير وفى أثره اسماعيل المروى وعلى وجهه ابتسامة الفرح المسرور.

قال عثمان اذ دنوا منه « انما كنا نتحدث عنك ياحسن وكنا نخشى ان نسير قبل ان نراك . »

قال « وهل ظننت ياأخى انى أتركك ترحل دون كلمة التوديع ؟ لئن كان الامر كذلك فهلم امتشق مشملك ان كنت لاتزال تحمل مشملا وتعال نتجالد ونتصاول . »

قال عثمان ضاحكا « كلا ياأخي فانى الآن ملك لفرنسا تابع لها . ولكن قل لى أين كنت ؟ »

وعندئذ ضحك الزنجى ضحكة خشنة وقال « لقد ذهبنا الى حيث نأتى لك بهدية » ثم ترجل بخفة عن جواده وقال « لقد مات عمر بك. »

قال الخصى « اذن لقد نجحتما وكنت أخشى ان تعودا بالخيبة والفشل. »

فضحك الزنجى وقال « انظر اليك البرهان ولن يكون ذلك البرهان كاذبا. » ثم بسط كيسا صغيرا وجعل يهزه من أحد طرفيه فسقط على الحشائش رأس محلوق الشعر بلحية طويلة شقراء عرفها أصحابنا ثم استرسل يقول « اليكم رأس هذا الخائن. » ثم ركلها بقدمه.

وعاد الى حديثه لخور معجبا « لقد وقع كالطفل فى الفخ الذى نصبته له على فرط دهائه وحرصه وقاك الله من شرور أمثاله . لقد كنا اثنين وكانوا ثلاثة ولكن الله نصرنا عليهم . فمشيت الى عمر بك كما اتفقت مع حسن الكبير وسار هو الى الآخرين . فرمى أحدهما برصاصة فتساوينا عددا وما كان أحوجنا الى هذا التساوي فقد كانا يدافعان عن نفسيهما دفاع الابطال . وقد ترك عمر بسيفه أثرا في جسمى . » وهنا أشار الى ذراعه اليسرى المعلقة الي منكبه ثم قال « ولكن مشملى أصابه في صدره وعنقه فانى لم أكن من مماليك مصطفى بك عبثا . ولقد عرفنى الرجل والله وتبينني وكان ذلك سببا في زيادة ألمه وهو يموت وكم كنت أود ، علم الله ، أن أظفر برأس ذلك اللعين فرج بك الصعيدي فقد كان له يد فى ذلك الجرم الاثيم ولكن حسن أبقي عليه ودفعنى عنه . لعمرى ان هذا الفتي امرأة على فرط ضخامة جسمه »

فنظر الخصى الى حسن الكبير مستفهما ، ولكن المملوك البدين لم يجب بشيء وهو جالس فوق ظهر جواده بل ابتسم كأنما ذلك قد كان بغيته وما يتمناه . »

وقال الزنجى مستريبا « انى لم أفهم سر ذلك فقد صرعه على الارض ونزعه عن جواده كما ينزع كلب الصيد رئما من الغزلان ، ولكنه تركه والخنجر فوق عنقه . ولم اعرف هذا النوع من القتال ، فقد كان القتال فى أيام مراد على غير مارأيت فى ذلك اليوم . »

فتقدم الخصى الى حسن وسأله « ماذا حدث وأى أخبار أدلى بها الرجل اليك ؟ »

قال « لقد اخبرنى عن ابنة مصطفي بك شقيقة عثمان . »

قال . وماذا قال عنها ؟ « لقد قضت فى لهب النار التى اشعلت في المنزل ؟ »

فابتسم المملوك وقال « انك مخطيء في ظنك أنت الآخر يارضوان

افندى . انها ليست غير نفيسة اخت الشيخ الصغير عبد الله وهى تلك التى سأتخذها باذن الله زوجة لى . »

فتمتم الخصي يقول « ياعجبا ان يد الله هى التى سيرت كل هذا . »

واذ سمع الآخرون ذلك الحديث تجمعوا حول حسن وقال ديبونت « والان ياعثمان ماذا تري فى ذلك النبأ الجديد ؟ »

قال الفتى المملوك بصوت رهيب « وددت لو ان أبى علم بذلك قبل موته . اعرني ياحسن جوادك فقد ودعت نفيسة والسيدة الفرنجية ولكني وحق النبي لاأستطيع السير دون ان اعانق اختى . »

فتمتم الزنجى يقول « وى ، وي ! اسوق اليه رأس عدوه ويخبره حسن بنبأ اخته فينسى احقاد عشرين عاما فى سبيل اخت لما يمض على معرفتها دقيقتان . لم نكن هكذا فى ايامنا الاولى . »

فقال الخصي بصوته الرفيع « لو اننا كنا آثرنا الحب والوئام ياسماعيل يامروي على العداوة والشحناء لما كان المصريون اليوم لعبة فى ايدى الامم وغنيمة تتطلع اليها الشعوب . »



الفصل الثالث والثلاثون

ام وابنها

عند مطلع الفجر غادر الجيش الفرنساوى الجيزة ومعه طائفة كبيرة ممن تبعوه من اهالى البلاد .

وفى النهر كان يجري اسطول كبير من السفن الشراعية يحمل امتعة الجيش ويسير معه جنبا لجنب وكان فى مقدمة هذا الاسطول سفينة كبيرة ، وعلى ساريتها علم مجلل بالسواد ، تحمل جثة القائد كليبر لان الفرنسيين رأوا ان يحملوها معهم الى فرنسا ورأوا أيضا ان تحمل الجثة فى السفينة الاولى وكأنما أرادوا بذلك ان تقودهم روحه العالية.

وعلى الرغم من تبكير المسافرين خرجت مرغريت ورفقتها نفيسة وجول ليفيبر لتوديع عثمان ، وعلقت الفتاة على الرغم من دمها الفرنسى برقبة اخيها تبكى بكاء مرا شأن كل مصرية ، ولم يمنعها من شق ملابسها وحثو التراب على رأسها الا وجود مرغريت بصحبتها.

ولكنها حين اشار عثمان عليها مازحا بالذهاب معه الى فرنسا هزت رأسها وبدا على وجهها عزمها القديم وقالت « لا لا ياأخى فانى وان كنت فرنجيه الدم الا انى مصرية القلب . مصر بلدى وفيها تكون اقامتي.»

قال « انما انت وعبد الله فى الشقاوة سيان.»

قالت « آه صدقت ان عبد الله مجنون رغم علمه . انك لن تسمع منه الا عبارة انى مسلم اني مسلم ، ووالله انى لأذوب في بعض الاحيان أسى ووجدا عندما اتطلع الى وجه السيدة مرغريت. »

قال « وانت أيضا ياأخية تلومين عبد الله ؟ فمن انت حتى توجهى اليه سهام لومك ؟ »

قالت « انه من غير طينتنا . »

قال « نعم يا أخية لأن حب الدين لا يعد شيئا بجانب الهوى والغرام . »

وعندئذ احمر وجه نفيسة خجلا فقال « لا لا يا أخية فليس من المستطاب ان اقضي الساعة الاخيرة لوجودى معك في اغاظتك . ان حسن قد سألني يدك ولذا فاني راض بتركى الك ، واني اسأل الله الرحمن الرحيم ان يمتعك واياه بالسعادة . »

وكان عبد الله ينتظر بقلق مرور هذه القافلة به ليودع عثمان والضابط ديبونت فلما ان تكشف الغبار بالقرب من شبراعن صفوف القادمين لمحتهم عينه السريعة الحادة وصاح قائلا « لم استطع ان ادعك تذهب قبل توديعك ياعثمان . »

قال عثمان « ليس هذا بتوديع ياأخى فسنلتقي ثانية فى اوروبا . »

فضحك عبد الله جزعا وقال « كلا لن يكون ذلك ماحييت . حسبك ياأخي لا تذكرنى الآن بأهلى ونسبي ، ونصيحتى اليك ان تستمسك بالدين ياعثمان . انك ذاهب الى بلاد الكفرة فاذكر دائما انه لا إله الا الله وان محمدا نبيه ورسوله . »

فتمتم ديبونت يقول « هل لهذا الفتى من مثيل ؟ »

ثم التفت صوب عبد الله بوجهه البشوش وقال بصوت رهيب على غير عادته « نعم ياعبد الله ليس يوجد الا اله واحد ، وهو كما يقول شيخك رب المسلمين والمسيحيين على السواء ، وانما لا تنس يابنى ان الانسان قد يكون له على مر الزمن عدة اديان ولكن ليس له فى العمر كله ، علم الله ، الا ام واحدة . »

فهز عبد الله رأسه وأجاب « انني مسلم وكفى ، وداعا ثم وداعا . »

فقال عثمان وهو يعانقه شغفا « بل قل الى الملتقى او كما يقول

الفرنجة اوريفوار » ولم يكن عثمان يدرى مبلغ صدق كلماته هذه ، فقد خرجت من فمه يريد بها وداعا ابديا غير ظان ان بها نبوءة حقيقية. ذلك انه قدر الله لهم ان يجتمعوا ثلاثتهم مرة أخرى وانما فى احوال وظروف تختلف عن ظروفهم الحالية كل الاختلاف .

واقبل الصيف ومرغريت لاتزال بعيدة عن الحصول على طلبتها. لقد تأثرت لموت زوجها تأثرا شديدا لانها كانت تهواه من كل قلبها رغم تباعدهما ، ولكن هذا الحب كله قد تحول الى ابنها وحده .

اما عبد الله فقد كان كأنه لا يشعر بوجودها ، فنفد صبرها الطويل وجعلت تغشى الاماكن التى اعتاد ان يختلف اليها ، فكانت تقف وهي مرتدية « الحبرة واليشمك » في ركن الطريق المؤدية الى الجامع الازهر ترتقب بصبر ظهوره لتجلو عينها بنظرة منه .

وكانت اذا رأته لاتأتى بأية حركة أو اشارة ، وان كان قلبها يخفق بشدة لدى رؤيته ، وتكتفى بأن تضغط بيدها على قلبها آلمة من الشوق ولواعجه .

ولطالما خطر لها أن تجرى راكضة نحوه مدفوعة بعاطفتها لتعانقه ولكن ساقاها كانتا تخونانها فلا تستطيع حراكا . أضف لذلك أنها كانت تسائل نفسها وأى نفع يرتجي من ذلك ؟ انه يفر منها ركضا ولهذا خشيت ان اقترابها منه قد يكون مدعاة لزيادة نفوره منها وابتعاده عنها .

لا . لا : ليس لها اذن الا ان تصبر عسى الله يتولاها يوما برحمته فهو الذى منحها عاطفة الامومة ومحال ان يحرمها الاستمتاع بثمار هذه العاطفة .

ولم يستطع جول ان يشير عليها بشىء ولم يكن له هو أيضا الا ان يصبر ، فاذا ما رآها يوما مكفهرة الوجه تتولاه الحسرة عليها فيزداد

حزنا على حزن .

وساءت صحتها أيضا ، ومضى عليها من الاقامة في مصر مالم يمض على امرأة أوروبية سواها ، وقطعت من حياتها على هذا النمط شوطا كبيرا لايصح بعده ان تفقد معظم حظها في هذه الحياة .

وأثر في ذهنها ماكان من علاقة الماجور لافون بنظلي ، فقد كانت تشعر أنها هي نفسها مسئولة من بعض الوجوه عن تلك العلاقة ، وان يكن الشيخ البكري لم يوجه اليها كلمة لوم أو اشارة تأنيب .

وقابلت رحيل الفرنسيين بشيء من القلق الذى لم تعن باظهاره الى جول ليفيبر ، ففى اللحظة التى رحلوا فيها ذهبت لزيارتها فوجدت أن أهلها قد أخذوها الى دارهم نخشيت ان يثأر القوم منها خصوصا وقد حلت ساعة القصاص في القاهرة .

وأخيرا جاءها جول بنبأ ماحدث لها فاستطير لبها روعا لهول ماسمعت ، وصاحت لأول مرة صاخبة من مصر وأهل مصر قالت « يالمصر هذه ، يالمصر هذه ! وددت لو أنى مارأيتها فى حياتى ، أسالك اللهم ان تخرجنى منها وتباعد ماببنى وبينها . » على ان جول حينما ذكرها بعد بقولها هذا ، على أمل ان يجدها جادة فيه ، وجد ان قولها كان هراء .

فهز رأسه مكتئبا . لقد كان هو أيضا متعبا من هذه البلاد ينزع الى رؤية فرنسا وطنه ويتوق توقا لايستطيع ابداءه ولسان حاله يقول ظللت كأنى واقف عند رسمها لحاجة مقصور له القيد نازع

ولقد أثرى في مصر ثراء لايدرى ماهو صانع به ، ومر بذهنه صحبه الاقدمين وآراءه الأولى وعادت اليه ذكريات ماضيه في فرنسا بكل مافيها من خلابة ، وشعر من نفسه بتقدمه فى السن وهو لايود ان يموت فى مصر ولكنه مع ذلك استمسك بوعده واعتزم انفاذه . ان

بقيت مرغريت فى مصر فهو أيضا باق ، فهذا قضاء الله وقدره :

ولم تمكث نفيسة مع مرغريت لأنها صحبت حسن الكبير الى القاضى فعقد لهما عقد الزواج ، وسافرا الي بنى سويف فى صعيد مصر.

ولم يعد ليفيبر يكثر من الكلام والمزاح كعادته بل تغير ووجم وصار عصبي المزاج . لقد تأثر الرجل شديد التأثر من كثرة ما رآه من نشوب الثورات واراقة الدماء ، فكان يجفل من أى صوت وينزعج من أقل ضوضاء ويتلفت أحيانا تلفت الفزع المستريب ·

وأحست مرغريت ذلك منه فتوجعت له . لقد صادفت هي وجول الكثير فى مصر ، ولكن قد كان هناك سبب آخر لم يخطر لها فى بال .

لم يخبرها جول كيف انه وهو عائد بعد الغسق من خان الخليلى ذات يوم اذ هجم عليه شبح كان مختفيا خلف جدار المسجد وأمسك بذراعه وهمس له فى أذنه بخشونة قائلا « ألم تعلم بعد ماذا فعل الكلاب بها ؟ ألا تدرى ماذا صنع بها زبانية الجحيم ؟ لقد قتلوها ، لقد خنقوها هكذا » ثم طوق عنقه بيديه على سبيل التشبيه واسترسل يقول « لقد كانت تعاشر فرنجيا ولهذا قتلوها . »

فوقف جول فى مكانه كالمسحور ، فلما ان تركت قبضة الشبح ذراعه واختفى فى الظلام فجأة كما ظهر فجأة ، تبعه جول بنظره فاغرا فاه وقال دهشا ذاهلا « رباه رباه هذا هو الماجور لافون · »

وأسرع الخطى الى البيت وهو يرتجف من الخوف ويخاطب نفسه من الحيرة ويقول « ياآلهى لقد فر من الجيش وعاد الى القاهرة ليرى نهايتها المحزنة . لقد جن الرجل من هول ما رأي . ما كان أصدق الخصى فى كلامه ! حقا أننا لانعرف القاهرة وأهليها . » ثم أوقفته عن المسير فكرة أخرى ارتعدت لها فرائصه . ماذا يصنع ان هو التقي بالشيخ البكرى ؟ ليس يعلم ما يحدث غير الله وحده .

وازدادت منذ ذلك مخاوف جول فلم يفارق الدار بعد الغروب ، وادعى المرض لكي يجيء بأحد خدم المتجر لينام معه فى حجرته .

وفى ذات ليلة كان عائدا من منزل مرغريت ، وكان قد فارقه ذلك الفزع الذي عم المدينة ، واذا به يوقف مرة أخرى ويمسك من ذراعه . وكاد يصيح من الفزع لولا ان تبين مخاطبه الذى قال بصوت أجش « اسمع ياعزيزى ألم تسمع الاخبار ؟ يقولون ان أباها دفع بها الى القتلة سفاكى الدماء ، ولكن ذلك كذب فظيع . لقد دفع بأخرى بدلا عنها ان حبيبتى لم تمت وانما أخفوها عنى وها أنا جاد فى البحث عنها . وسأجدها لامحالة فلا تخش شيئا اذ ليس فى الجنة ولا فى النار من يستطيع ان يباعد بين متحابين مثلنا . ولقد أقسمت لا أتذوق طعاما حتى أعثر عليها . » ثم رفع ردن قفطانه فانكشف عن ذراع طويلة نحيلة لالحم فيها وقال « انظر اننى لا أكذب . انك ستساعدنى بلا شك لانك رجل طيب خير وان كنت لست جنديا . يجب علينا أن نجدها . أقول يجب علينا ان نجدها وهل استطيع سماع صوتها ينادينى بالليل دون ان أجيب نداءها ؛ الا تسمعها ؟ »

بكى جول رغم مخاوفه وانتحب . لقد جن الرجل . ذكره أيام بأسه وذكائه فذكر ذلك الرجل الفرنسى الظريف ، ثم نظر اليه فاذا به يرى رجلا قذرا غير حليق الذقن له عينا الذئب الجائع فتشجع وأمسك به من ذراعه وقال له « تعال معي ياسيدى ولا تخف فسنجدها ، هيا بنا الآن الى المنزل . » ثم قاده الى داره .

ولم يتحدث جول بما جرى له بعد ، فان انزعاجه بسبب ذلك أثر فى مخه وأعصابه وجرح قلبه جرحا بليغا لطالما تأثر منه . غير انه مما لاشك فيه أنه لم يكن من بين المقاتلة من رجال نابليون من أظهر من الجلد والشجاعة ماأظهره ذلك الفرنسى الشيخ التاجر خلال الاسابيع

التي آواه فيها الى داره ، اذ كان يشرف على غذائه و نظافته بنفسه وكان ينام معه في حجرة واحدة .

فتنبهت فى المجنون مشاعره ببطء ولكن جول ليفيبر لم يرقه ذلك لأن الحق شديد كالغي والضلال . ولقد صدق حدسه ففى ذات يوم عاد الى داره فوجد ضيفه ملقى على الارض ، وبجانبه طبنجة مطلقة ، وعلى الخوان خطاب احتفظ به جول لآخر حياته .

فقام فى هدوء ووقار بدفنه ، ووضع على قبره حجرا كتب عليه هذه العبارة :

« الماجور فرنسوا لاوون من فرقة المهندسين. طيب الله ثراه وأدخله فسيح جناته فهو أرحم الراحمين . »

ولم يخبر مرغريت بكل ذلك الا بعد زمن طويل .

لقد كانت هي أيضا تعانى آلام كفاح خفى عنه ، ولاحظ مع الرضا والسرور أنها قد هدأت عن ذي قبل وجعلت تقلل من الكلام عن عبد الله على نقيض عادتها ، وظهر عليها انها أذعنت لتصاريف الزمن ولكنها أخفت فى قرارة نفسها عزما كانت أمضت زمنا طويلا في تكوينه واعتزامه .

ولئن كانت مرغريت قد أقلت من الكلام عن عبد الله ابنها الا ان ذلك الفتى كان يملأ جميع خواطرها. ففكرت في حيلة بعد حيلة ، بين معقولة وغير معقولة ،ولم يبق فى ذهنها الا واحدة منها فكشفت عنها أخيرا الى جول ، لا بقصد المشورة وانما لمجرد اخباره بأمر مقرر اعتزمت انفاذه اعتزاما .

واستمع لها ليفيبر فاذا به يسمع مرة أخرى خواطر زوجها استيفن هيلز ومشروعاته . قال يخاطبها « ماذا أسمع ، أتريدين ان تعتنقي الاسلام أنت الأخرى ، وترتدين عن دينك ؟ »

فأجابت ضاحكة، وقديما ضحك زوجها من مثل هذا السؤال «نعم ذاك ما انتويته فلست أجد وسيلة غير ذلك. انى أريد ولدى، أريد ولدى هل تسمعنى؟»

قالت ذلك بصوت مرتعش متشنج.

قال ليفيبر «الهوادة ياسيدتي وصبرا صبرا.»

قالت هازئة «صبرا! ألم أصبر طويلا؟ حسبي بعد الآن صبرا. انه يفر منى لأني نصرانيـة. فليعنى الله على ازالة ذلك الحائل الذى بينى وبينه.»

قال «وروحك ياسيدتى، روحك الخالدة؟»

قالت «انما أريد ولدى.»

وجعل يجادل ويتوسل ويبكى ولـكن ذلك لم يجد نفعا ازاء تشوق أم لابنها.

وفي اليوم التالى ذهبت دون تأخير الى بيت الشيخ فضل لتخبره بنيتها وتسأله عن خير الطرق التى تتبعها ليقبل المشايخ اسلامها.

وكان الشيخ فضل فى داره، وقـد أدهشته تلك الزيارة ولـكنه تقبلها بلطفه وأدبه المعروفين.

قال يخاطبها «أراك مضطربة تعبة يا ابنتى؟»

قالت «نعم ياسيدي الشيخ ولذا جئت التمس معونتك.»

فتمتم يقول «سبحانه جلت قدرته هو المعين وحده. ولـكن حدثينى ياسيدتى بأمرك فقد استطيع مساعدتك.»

ثم بدا على وجهه الألم وقال «انك تريدين ان تكلمينى عن عبد الله. فالصبر ياسيدتى الصبر الجميل. فقـد رأيت أدلة على قرب تحقيق ماتريدين.»

قالت «كفى كفى وفر على تعاليمك هذه.»

قال « نبئيني اذن بالذي تريدين . »

وجلس الشيخ متربعا يصغي وجلست مرغريت عند قدميه وأفرغت اليه كل ما في صدرها ، واعترفت بما في قراره نفسها . ولم يجد تائب يريد الاعتراف من كرادلة رومة من يرتاح اليه في اعترافه مثل ما وجدت مرغريت هيلز في ذلك الشيخ المسلم .

وأدركت اذناه كل ما تمتمت به مرغريت من الحديث المصحوب بالزفرات والانات ، فشجعها الشيخ فضل بصوته العذب الرقيق وهو يقول دهشا « الله أكبر أتريدين حقا ان تعتنقي الاسلام ؟ »

قالت « نعم نعم مادمت استطيع بذلك ان أحصل على ولدي . »

قال « أليس من نواهي دينك ان لا تجحدي ربك وأليس عيسى الها ؟ »

قالت « ليكن ولكني أريد ابني . »

قال وقد تملكه العجب « الله أكبر ان حبك لابنك لعظيم . ولكني رأيت من الامور ياسيدتي ما يجعلني أتوقع انك لست بحاجة الى هذه التضحية . الا فابقي هنا ياسيدتي حتى اذهب الى الصلاة أضرع فيها الى الله العليم بكل الامور ان يهديني في هذه الظلمات . » ثم نهض والسبحة في يده ومضى الى مخدعه .

فسقطت مرغريت منهوكة القوى على ركبتيها أمام مقعد الشيخ وجعلت تبكي بكاء مرا ، فقد خيل لها انها فقدت كل أمل ورجاء .

وعندئذ تقدم من الباب ببطء شبح صغير أحمر شعر الرأس وعيناه الواسعتان تبرقان بنور غيرة غريبة ، وركع بجانبها ومد ذراعه السمراء من أثر الشمس ووضعها فوق كتفها ، ثم همس في اذنها بصوت الولد الصغير كلمات حلوه متقطعة من فرط التأثر لم تكن تتوقع سماعها أبدا هي هذه « أماه ، أماه ، ياأمي العزيزة . »

فلما عاد الشيخ من مخدعه رأى شبحين يبكيان جاثمين بجوار بعضهما وذراعا كل منهما ملتفتان حول عنق الآخر ، فاسدل الشيخ عليهما الستر فى لين ورفق ، وجعل يسبح ويقول « حمداً لك اللهم ياأرحم الراحمين تعالت قدرتك وجلت حكمتك . »



كلمة المعرب

وكل الىّ حضرة صاحب العزة احمد بك حافظ عوض صاحب جريدة الكوكب الغراء ، ايام كان متوليا رياسة تحرير جريدة المحروسة ترجمة هذه الرواية ، رواية المملوك المفقود ، من الانجليزية الى العربية لكى تنشر تباعا في رفرف من المحروسة . ثم رأى ان يجمعها في كتاب يخرجه للناس لانها تضمنت فى سياقها القصصى جزءا من تاريخ مصر لم يبعد فيه خيال المؤلف عن الحقيقة الواقعة ، الا ما اضطر لسبكه مراعاة لنسق القصة . وان من يقرأ كتاب « فتح مصر الحديث أو نابليون بونابارت فى مصر » لمؤلفه صاحب العزة احمد حافظ عوض بك يدرك على الفور أن رواية المملوك المفقود قد مزج فيها مؤلفها فكاهة القصص بجد التاريخ ، بعبارة شيقه سلسلة شرح فيها دخائل هذا العصر شرحا مستفيضا ، وذكر الكثير من عادات أهل ذلك الزمن وطرائقهم المعيشية .

ولقد نقد المؤلف مصريي ذلك الزمن من حيث انقسامهم وتنافرهم وما كان بينهم من شحناء داخلية فككت عراهم ومكنت الاجنبى الفاتح منهم ، ولا يخفي ما كان بين مراد بك وابراهيم بك من نفور ومن تطلع الى الاستئثار بالحكم ، وكذلك لا يعزب عن البال ما كان من تخاذل علماء ذلك الزمن وخنوعهم ونسيانهم مصلحة الدين بل والوطن ازاء مصلحتهم الشخصية . وما كان أحكم المؤلف فى كلمته التي نطق بها على لسان أحد أشخاص الرواية وهو من الخصيان (الأغوات) حيث قال :

« لو اننا كنا آثرنا الحب والوئام على العداوة والشحناء لما كان المصريون لعبة في أيدى الامم وغنيمة تتطلع اليها الشعوب . »

وها نحن فى نهضتنا الحاضرة قد ذقنا مرارة الانقسام والتخاذل

واستسغنا بعد حلاوة الاتحاد والتآزر فهل نحن مرتدعون ؟

وبعد فخير القصص ماكشف عن سوءة وداوى علة ، ورواية المملوك المفقود من هذا النوع وتزيد عليه أنها قطعة تاريخية من تاريخ بلادنا فيها تفكة للصغير وعظة للكبير . وقد اتبعت في تعريبها الطريق الاقرب الى الحرفية منه الي التلخيص ، ولم أترك منها شيئا البتة . أقول ذلك لمناسبة أن بعض المعربين قد يدفعهم السأم الى التهجم على المؤلفين فيوجزون ماتبسط فيه هؤلاء ، بل ويحذفون من أصلاب الكتب أبوابا برمتها ، فيشوهون محاسن التأليف . ولقد كان من سوء حظ رواية المملوك المفقود ان تناولها قبلنا أحد المعربين فحذف منها ستة فصول كاملة ، وأخرجها للقراء مقتضبة مبتورة .

فالى قراء العربية أقدم رواية المملوك المفقود على حقيقتها معتذرا عما قد يجدونه فيها من أغلاط لغوية فالعصمة لله وحده ، والله أسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه السداد ؟

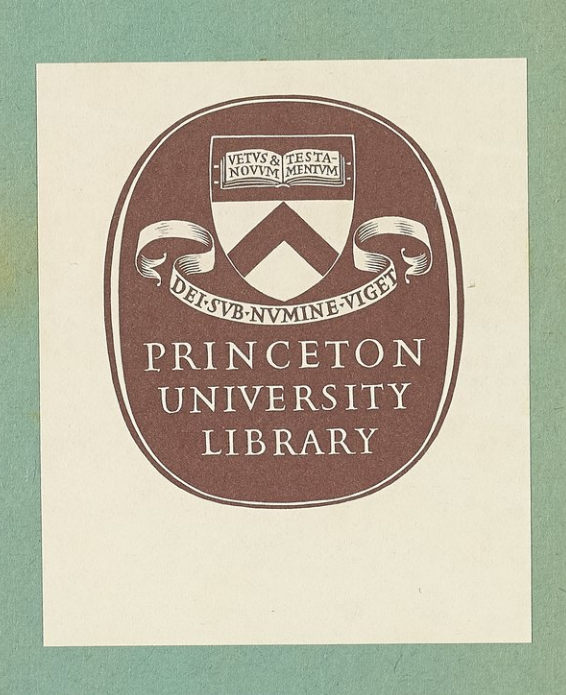
احمد فهمى أبو الخير

القاهرة فى أول مارس سنة ١٩٢٦



فهرس




VETUS & TESTA-
NOVUM MENTUM
DEI·SUB·NUMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

